

تحتوى على ثلاث عشرة صورة مرتبة تضم أقوال المؤرخين التى ذكرت حول تفاصيل بناء مكة المعظمة وعمارته، وعن الذين قاموا ببناء هذه البقعة المقدسة المباركة، وأسباب تجديدها وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها.

الصورة الأولى

تعرض الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء الكعبة

ذكر مؤرخو السلف أقوالا متباينة كثيرة حول عدد مرات تجديد بناء كعبة الله العليا، واختلفوا فى أقوالهم وأطالوا فيها وقرروا أخيرا أنها جددت سبع مرات على قول بعضهم، وعشر مرات بناء على أقوال الآخرين.

واعتمادا على الرواية المنقولة عن زين العابدين والد الإمام الباقر - رضى الله عنه - قال المؤرخون: «إن الملائكة هم البناة الأوائل لهذه البقعة المقدسة».

والذين يقولون إنه تم تجديدها سبع مرات يذكرون أن تجديدها تم على النحو التالى: المرة الأولى بناها الملائكة الكرام، وفى الثانية جدها سيدنا إبراهيم، وفى الثالثة جدها العماليق، وفى الرابعة طائفة الجراهمة، وفى الخامسة قبيلة قريش، وفى السادسة عبد الله بن الزبير، وفى السابعة جدها الحجاج الظالم.

أما الذين يقولون إنها أعيد بناؤها عشر مرات فيذكرون أن الملائكة العظام بنوها فى المرة الأولى وفى الثانية بناها أبو البشر آدم - عليه السلام - وفى الثالثة سيدنا شيث وأولاده وأحفاده. وفى المرة الرابعة إبراهيم الخليل، وفى الخامسة أفراد قبيلة العماليق وفى السادسة عشائر جرهم، وفى السابعة قصى بن كلاب بن مرة وفى الثامنة قريش قبل البعثة النبوية وفى التاسعة عبد الله بن الزبير، وفى العاشرة جدها الحجاج بن يوسف الثقفى الظالم، كما قام السلطان مراد خان الرابع من سلاطين العثمانيين العدول بتجديد البناء الرصين الأركان لكعبة الله فى المرة الحادية عشرة، ومازالت على تلك الصورة التى جدها عليها إلى الآن.

شعر

بنيت الكعبة أحد عشر مرة فاعلم
الملائكة وآدم وأولاده والرابع إبراهيم
والعمالقة وجرهم وقصى وقريش أقاموها
وتاسعهم الزبير الذى أقامها وكرمها
كذلك الحجاج شىء أتمه
لقد فرق الخطيم وكأنا رمه
وأرادها السلطان مراد التجديد
وكان الحادى عشر بتاريخه المجيد
سنة ١٠٤٠

فى تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الأولى

خاطب خالق الأرضين والأفلاك تعالى شأنه عن الفهم والإدراك الملائكة العظام بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)، وذلك ليبدى لهم بأنه - سبحانه وتعالى - سيخلق أبا البشر آدم ليكون خليفة فى الأرض وأدركت الملائكة بشفافية وجدانهم الملائكة أو بإلهام رب العزة أو بالنظر فى اللوح المحفوظ، أن بنى البشر سيسفكون الدماء ويفسدون على وجه البسيطة، وأرادت أن تعرف الحكمة من إعطاء خلافة الأرض إلى بنى آدم الميالين إلى الظلم وسفك الدماء، ولم تعط إلى طائفة معصومة وتساءلت: لماذا تخلق من يفسد فى الأرض؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدسك بذكرك فأجابهم الله - سبحانه وتعالى - حاسما الأمر بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولم يكن الغرض من تساؤل الملائكة الاعتراض على أفعال الله حسب تقديرهم، ولكن فى هذا السؤال نوعا من الاحتجاج كما يفهم من قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ولذا ندم الملائكة ولاذوا بالعرش الأعظم ليكون ويتضرعون طلبا للعفو والصفح عما اقترفوه ليتجنبوا الغضب الإلهى، واستمروا لمدة ثلاث ساعات يطوفون بالعرش الإلهى ويستعطفون فى تذلل وخضوع وهم فى قلق وخشوع زائدين، وفى النهاية بلغ منهم الرجاء والتضرع العفو والمغفرة واستجلبت توسلاتهم شفقة ورحمة صاحب الكبرياء، وأمرهم أن يطوفوا بالبيت المعمور الواقع تحت العرش الأعظم، ثم أمرهم بأن يبنوا على وجه الأرض بقعة مقدسة فصدعوا بالأمر الإلهى، وقاموا ببناء ورفع بنيان الكعبة المعظمة التى أصبحت مطافا إلى الآن.

تفصيل:

شاء خالق العالم أن يقام بيت مقدس على وجه الأرض، وأرسل كثيرا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر، وخاطب الملائكة آنذاك بقوله: «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما وعندما يطاف بالبيت المعمور في السماء الدنيا، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض، بناء على ذلك قام الملائكة الكرام الذين هبطوا إلى الأرض ببناء بقعة مفخمة مباركة فى الموقع المقدس للكعبة المعظمة.

وعندما صدر الأمر الإلهى للملائكة الذين سكنوا على وجه الأرض ببناء البيت الشريف تحت مستوى البيت المعمور ومحاذاته، وأن يقوموا بالزيارة والطواف حول هذا البيت لم يكن آدم - عليه السلام - قد هبط على وجه الأرض.

وإذا كانت هذه الروايات تشير إلى أن بناء البيت المعظم كان بعد خلق الأرضين فإن على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - قال: إن البيت الشريف خلق قبل خلق الأرض والسماء بأربعين سنة، وكان فوق الماء مثل فقاعة بيضاء أو رغوة وبسطت الأرض من تحته وحفظ، وقال الإمام مجاهد مصدقا ما قاله الإمام على «إن خلق موقع بيت الله كان قبل خلق الأرض بألفى سنة، ثم بسطت الأرض تحت الكعبة» بناء على هذا فلاشك فى أن الموضع الطيب لبيت العزة خلق قبل الأرض وأن كعبة الله المقدسة قد شيدت بعد خلق السموات والأرض. وحسبما جاء فى الكتب الموثوق بها أن حضرة الخالق المطلق عندما أراد خلق وجه الأرض وإيجادها بسط بيد الجلال وقبضة القدرة التى لا نظير لها تراب الموقع المبارك لكعبة الله بعد خلق وجه الأرض، وهكذا ظلت الكعبة المعظمة فى وسط الأرض تحيط بها القشرة الأرضية من جميع الجهات.

وفى الواقع أن الساحة المفخمة للكعبة المعظمة كانت موجودة قبل خلق وجه

الأرض وقبل خلق طبقات الأرضين، وقام ملكان بأمر الله بالتسبيح والتقديس لله تعالى وتهليله لمدة ألفى عام فوق المساحة المباركة.

ونقلت هذه الرواية من قبل الإمام الفاكهي عن طريق عبد الله بن أبي سلمة عن أبي هريرة - رضى الله عنه - لذا لاشك في صحتها.

قد نقل حضرة أبو هريرة الكيفية بهذه الصورة: خلقت الكعبة المعظمة قبل الأرضين وكان تراب موقع الكعبة المعظمة من نفس تراب الأرض، وكان عليها ملكان عظيمان وكانا يسبحان الله - سبحانه وتعالى - لفترة ألفى سنة وعندما تعلق إرادة الله بخلق الأرض بسطها تحت الكعبة وجعل مكة في وسط الأرض.

وقال ابن خلدون مستشهدا بالحديث الصحيح لما سئل النبي - ﷺ - الواقف على أسرار الكتاب عن خلق مكة المكرمة والمدة بين خلقها وخلق بيت المقدس، أجب بما يفيد بأن الله - سبحانه وتعالى - خلق البيت قبل السموات والأرض بأربعين سنة وهذا يدل على أن بين خلق البيت المعظم وخلق الأرض فترة أربعين عاما.

ملاحظة: وبمقتضى هذه الإجابة السامية، لا بد وأن يكون بيت المقدس قد خلق بعد الكعبة المعظمة بأربعين سنة. والواقع أن حوالى ألف سنة تفصل بين سيدنا إبراهيم وسليمان بن داود عليهما صلوات الله الودود.

وإذا جال بالخاطر نوع من الالتباس بين ظاهر إحالة الرسول الجليل وبين هذا السؤال، فإن عقدة هذا الالتباس ليست صعبة الحل لأن ما يعنيه صاحب الرسالة - ﷺ - أنه لم يكن البناء الظاهر للكعبة المعظمة، إنما المكان المخصص للعبادة على وجه الأرض، فقد تم تعيين بيت المقدس ليكون مكانا للعبادة قبل حوالى ١٠٠٠ سنة من سليمان وبعد البيت الأكرم بأربعين سنة.

وفى تلك الأثناء وضعت القبائل الصابئة هيكل الزهرة على الصخرة وعبدوها.

وصادف هذا الأمر عصر الخليل الشريف ، لذا يكون الفارق بين اتخاذ البيت المعظم قبله واتخاذ البيت المقدس قبله هو أربعين سنة. وكانت أرض الصخرة آنذاك خالية لا يبعد أن تبقى على هذه لصورة مدة من الزمن إلى أن قام سليمان ببناء المسجد الأقصى.

* * *

توضيح صورة بناء الكعبة المعظمة فى المرة الثانية

قام أبو البشر سيدنا آدم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - بتجديد البيت المعظم فى المرة الثانية .

إجمال- بناء على رواية الإمام أبو الوليد أحمد الأزرقى عن المرحوم ابن عباس ، أن سيدنا آدم - عليه السلام - أنزل به على وجه الأرض قبل الهجرة النبوية بـ ٦٢١٦ عام .

ولأنه لم يستطع سماع صوت تسييح وتهليل ملائكة السماء بعد هبوطه بمدة اغتم لذلك فعرض ما فى ضميره على حضرة عالم السر والخفايا ، وجأ بالشكوى قائلا: «يا إلهى ، فضلا عن بقائى وحيدا فريدا على وجه الأرض ، أصبحت لا أسمع صوت تسييح وتهليل الملائكة الكرام» .

وبناء على هذه الشكوى ، صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع من سماع صوت الملائكة المسبحين» .

لكن لى بيت على وجه الأرض ، عليك أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا وبعد ذلك قدسنى وطف حوله دائما فقام سيدنا آدم على الفور سائحا على وجه الأرض باحثا عن البيت إلى أن وصل إلى مكة المكرمة وعثر على أساس البيت الحرام فابتدر مع جبريل الأمين الذى نزل إلى الأرض لمعاونته - بتجهيز أساس كعبة الله وتعميقه .

وفى قول آخر ، إن جبريل - عليه السلام - حفر حفرة بضربة من جناحه فشوهدت أحجار الأساس التى وضعها الملائكة الكرام فى الحفرة .

وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق وجه الأرض . واستخدم فى هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال لبنان

وطور سيناء وطور زيتا وجودي، وحرء^(١) ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة. وقد ضبط^(١) وهب بن منبه^(١) «الجال الخمسة المذكورة بحيث تكون جبال: لبنان، وطور سيناء، طور زيتا، أحد، وثبير» ووضع بعض الرواة فيما نقلوا جبل جودي مكان جبل «أحد» وجبل حرء مكان جبل ثبير.

ويروى المؤرخون أن الحجر الأسود نزل أيضا مع البيت المعمور ليكون كرسى أبى البشر عليه السلام.

تفصيل: كتب المؤرخون كلمات كثيرة فى كيفية تكليف سيدنا آدم ببناء البيت وتحديد الصورة التى سيكون عليها بناء بيت العزة وبمعاونة من سيكون تأسيس تلك البقعة السعيدة؟ وكيف حج سيدنا آدم عليه السلام؟

ولما كان هذا الموجز لا يكفى لاستيعاب كل الروايات المنقولة فقد رثى أنه من الصواب نقل وبيان الروايات باختصار، مازجا بين مختلف الروايات.

عندما أمر موجد الكائنات - تزهدت ذاته عن الإدراك والإثبات - ببناء الكعبة المكرمة بواسطة أبى البشر - عليه السلام - خاطبه قائلاً: يا آدم ابن لى بيتا تحت العرش، وعليك بالطواف حول البيت الذى أمرتك ببنائه، مثل طواف ملائكة السماء بالعرش الأعظم، وإننى أستجيب لدعاء أولادك وأحفادك المطيعين والمنقادين الذين يتوجهون بالدعاء إلى بجوار هذا البيت الذى لا مثيل له».

وعندما تأوه سيدنا آدم مظهرها عجزه قائلاً: «يا إلهى كيف يمكننى - بمفردى أن أبنى وأؤسس البيت الشريف الذى أمرت ببنائه وأنى لى أن أجد محاذاة العرش الأعلى؟! إن عجزى وعدم قدرتى واضح فى تنفيذ هذا الأمر».

فأوحى الله - سبحانه وتعالى - له وأمره بالنهوض فوراً والذهاب إلى وادى غير ذى زرع. فى مكة المكرمة برفقة ملاك وألهمه بالشكل الذى سيبنى عليه البيت الحرام.

وبناء على ذلك تحرك آدم - عليه السلام - من المكان الذى كان به، وكلما مر بمكان يرى فيه بدائع خلق الله وحسن تنسيقه والأشكال العجيبة كان يبدى رغبته

(١) كنى وهب بأبى عبد الله الزمارى وتوفى سنة ١١٤ هـ أو ١١٦ منها.

للملك الذى يصاحبه بالبقاء فى هذا المكان ويفصح عما فى نفسه قائلا: «أيها الملك اتركنى هنا» فيتلقى الجواب منه: «المكان الذى أمرنا بالتزول فيه مازال بعيدا أمامنا». وفى النهاية، وصلا إلى مكة المكرمة وسارعا بنقل الأحجار من الجبال الخمسة على الوجه المذكور آنفا وقاما ببناء وتأسيس بيت الله قوى الأركان.

وبعد الانتهاء ذهبا إلى عرفات، وأديا مناسك الحج وفقا لشروطه ورجعا. وفى أثناء عودة آدم - عليه السلام - من عذفات. خرج الملائكة الأرض لاستقباله فى وادى «أبطح»^(١) وقالوا: «يا آدم: كنا فى انتظار قدومك الموسم باليمن. وقد كان لنا فخر الزيارة والحج والطواف بالبيت الشريف قبلك بألقى سنة.

وبعد أن التقى حضرة أبو البشر بالملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح، ذهب إلى مكة المكرمة، وأدى طواف الوداع بصحبة الملك الذى رافقه، ثم ذهب إلى بلاد الهند، وبعد ذلك اعتاد أن يأتى كل سنة للحج وزيارة كعبة الله.

وقد كتب فى ترجمة الشفاء الشريف أن آدم - عليه السلام - قد حج أربعين مرة سيرا على الأقدام، وكان طول قامته ستين شبرا، وعرض جسمه ستة أذرع أى تسعة أقدام وإحدى عشرة بوصة. ومع ذلك قال مؤلف «زين المجالس» لقد حج سيدنا آدم ثلاثمائة مرة واعتمر ألفى مرة إلى أن قبلت توبته.

هل كان يحج سيدنا آدم راكبا أم ماشيا؟ وجه هذا السؤال إلى ابن عباس رضى الله عنهما فأجاب بقوله «كيف يمكن لحيوان أن يتحمل حضرة أبى البشر عند ركوبه؟! فقد كان يحج ماشيا وكان يقطع فى كل خطوة مسافة مسيرة ثلاثة أيام.

وعندما صدر الأمر إلى آدم - عليه السلام - بتأسيس بناء الكعبة كان فى بلاد الهند التى تشرفت بموطئ قدميه مناطق عامرة والمكان الذى كان يطأه بقدميه أصبح بعد ذلك قرية، والأماكن التى أقام بها قليلا أقيمت بها مدن صغيرة

(١) وادى أبطح: اسم مجرى عظيم من مجارى سيول مكة المكرمة، وهذا المجرى واسع جدا، ويقع بين منى ومكة المكرمة ويتصل بجبل حجون، وحبات رماله كبيرة بعض الشيء. ومثل الحصى.

وكبيرة. والأماكن التي صلى بها أقيمت فيها الجوامع والمدارس والمساجد وكان في كل خطوة يقطع فرسخا، إذ كانت الأرض تطوى تحت قدميه طيا، والأراضي التي لم يطأها بقدميه تحولت إلى الصحارى.

قال كعب الأحبار عن البيت المعمور الذي أرسل من الجنة وهو يخبر سيدنا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بهذا الأمر:

وعندما هبط آدم - عليه السلام - إلى وجه الأرض، أنزل الحق - سبحانه وتعالى - قطعة ياقوت حمراء، ذات بايين من الزمرد الأخضر، تفتح إلى الشرق والغرب وكانت الياقوتة على شكل خيمة. وبعث معها رسالة تقول: «يا آدم هذه الياقوتة هي بيتي، وكلما طيف بالعرش الأعلى وصلى حوله فليطاف ويصلى كذلك حول بيتي».

وبعد إكمال آدم - عليه السلام - قواعد بيت الله بمعاونة الملائكة وضع عليها الياقوتة المجوفة الحمراء المذكورة وأخذ يعبد الله حولها في ذلّة وخضوع. وكان في أركان الياقوتة الحمراء، أربعة أعمدة مستوية موزونة وكان داخلها مجوفا كقبة جامع. وقد استخدم في إنزال هذه الياقوتة المجوفة على وجه الأرض سبعين ألفا من الملائكة العظام.

أقوال الجمهور في تعريف البيت المعمور:

أقدم المفسرون الكرام على وصف البيت المعمور بنقل روايات مختلفة متباينة. وقد رثى أنه من المناسب تثبيت بعض هذه الروايات في هذا الموضع على أمل نفع أهل الإطلاع.

وهكذا بنى حضرة خالق الكاف والنون - تعالى شأنه عما يقولون - مقاما عاليا فوق أربعة أعمدة مستوية موزونة تحت العرش من أجل الملائكة الذين يطوفون بالعرش الأعظم، أعمدته من الزبرجد وغطاؤه من الياقوت الأحمر وسماه باسم «البيت المعمور» وبعده - كما ذكر من قبل - أوجد بواسطة الملائكة الكرام على وجه الأرض، وبمحاذاة البيت المعمور بيتا مكرما، وأمر أهل الأرض وسكانها

بزيارته والطواف حوله. وأصل اسم البيت المعمور «صراح» واسم خادمه الخاص «رزين» وأطلق عليه البيت المعمور لكونه مقر الملائكة، وبناء على ما كتب في تفسير «السمرقندي» أن الملائكة الكرام بنوا البيت المعمور على وجه الأرض قبل خلق آدم عليه السلام، أو أن سيدنا آدم قد بناه بنفسه. وفي قول آخر أن البيت المعمور أرسل من الجنة لرفع وحشة فراق سيدنا آدم لياتنس به وكان قطعة واحدة من الياقوت الأحمر، وقد أنزل فوق ساحة الكعبة المشرفة، ورفع إلى السماء في طوفان نوح وكان ارتفاعه مثل ما بين الأرض والسماء^(١).

وحسب ما يفيد حديث المعراج الذي ورد في صحيحى مسلم والبخارى، أنه الآن في السماء السابعة، وتبعاً لتفسير البيضاوى والكشاف، في السماء الرابعة. وبالنظر إلى تحقيق تفسير «الكواشى» أنه في السماء الثالثة أو في السماء السادسة أو في السماء السابعة.

ويقول مؤلف تفسير (الواحدى) مؤيدا قوله بحديث خاص: - «إن البيت المعمور في السماء الدنيا، وأن سيدنا جبريل يغوص كل يوم في نهر الحياة الكائن في السماء الرابعة ثم يخرج ويتنفض فتنقطر من أجنحته حين يهزها سبعون ألف قطرة ماء، ويخلق من كل قطرة منها ملك ويقوم هؤلاء الملائكة المأمورين بزيارة البيت المعمور وأداء الصلاة ثم يعودون.

والملائكة المشار إليهم لا يعدون ولا يحصون لدرجة أن من أدى الصلاة مرة واحدة هناك لا يأتى عليه الدور مرة أخرى إلى الأبد.

وبناء على قول آخر أن اسم البيت الذى كان في السماء الدنيا هو «صراح» وهو فوق الكعبة المشرفة وبمحاذاتها بحيث لو فرض سقوطه يسقط فوق السطح الشريف لبيت الله.

وقد سطر في تفسير «اللباب»: كان البيت المعمور بقعة مثيرة لامعة مصنوعة

(١) هو القول المرجح على الأقوال الأخرى.

من الياقوت الأحمر، ولها بابان من الزمرد يفتحان: أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب.

وكان الحجر الأسود - أيضا - من ياقوتة بيضاء، وسبب تحوله إلى السواد هو لمس النساء الحائضات فأطلق عليه الحجر الأسود. وقد أنزل حضرة الحق البيت المعمور والحجر الأسود إلى وجه الأرض قبل هبوط أبى البشر بألفى سنة، وبعد هبوطه كان آدم يجئ من الهند ويحج ويطوف بالبيت المعمور ثم يعود، وقد تكرر منه ذلك أربعين مرة.

وعند البعض أن البيت المعمور بنى فى السماء، وفى النهاية صدر الأمر ببناء البيت الحرام على سطح الأرض بمحاذاة موضعه فى السماء وبنفس الحجم. وحسب قول صاحب «المواهب» إن الملائكة المسبحين بجوار البيت المعمور لا يحصى عددهم ويعدد تسيحات كل واحد منهم يخلق ملك.

ويقول مؤلف «تفسير بحر العلوم»، «أنزل الحق - سبحانه وتعالى - على وجه الأرض، خيمة من خيام الجنة المتألثة بالأشعة وأمر بوضعها فوق ساحة البيت المعظم فى مكة المكرمة، ولم يكن البيت الحرام قد بنى - بعد - آنذاك، وكانت الخيمة المذكورة قناديل واحدة حمراء مجوفة من يواقيت الجنان، وكان بالقرب منها ثلاثة قناديل من الذهب يعادل نورها مجموعة الثريا من النجوم، وبابا هذه الخيمة كإنا مرصعين بلألئى الجنة وكان أحدهما يفتح إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وكان نور الجنان يلمع ويتلألأ فى داخلها. وقد أرسل مع الخيمة المذكورة الحجر الأسود لكى يكون كرسيًا لسيدنا آدم يجلس عليه وهو من ياقوتة وضياء ناصعة البياض شديدة اللمعان.

وجاء فى الحديث الصحيح «أن البيت المعمور ياقوتة حمراء من قطعة واحدة لها بابان فى الجهتين مصنوعان من الزمرد، وداخلها مزين بالياقوت والجواهر بما يعادل عشرة آلاف قنديل مثل الثريا. وأمام بابها منبر ومثدنة من الفضة الخام الخالصة، وفى كل يوم يغوص سبعون ألفا من الملائكة فى بحر النور ويرتدون

ملابس الإحرام المنسوجة من خيوط النور فيزورون البيت ويطوفون به . مرددين «لييك ، لبيك» ثم يذهبون والملك الذى يطوف مرة لا يرجع مرة أخرى .

ويحكى مؤلف «معارج النبوة» ، ناقلا من بعض الكتب المعتمدة فيقول : اعتاد الملائكة العظام على الاجتماع داخل البيت المعمور فى أيام الجمعة . وفى أيام الاجتماع يصعد سيدنا جبريل فوق المثانة ، ويؤذن ، ويخطب سيدنا إسرافيل ، ويؤمهم سيدنا ميكائيل - عليهم السلام .

ويتفاخر كل واحد منهم ملقيا خطبة مؤثرة تتضمن ما يهبونه إلى الأمة الإسلامية وبعد أداء الصلاة يقف جبريل الأمين ويهب ثواب آذانه إلى مؤذنى الأمة المحمدية ، ويهب سيدنا إسرافيل ثواب خطبته إلى خطباء الأمة الإسلامية ، ويقف سيدنا ميكائيل ويهب الأجر الجزيل الناتج عن إمامته إلى أئمة الأمة الإسلامية ، يعلنون ذلك مفتخرين مباهين فى خطب بليغة مؤثرة ، كما أن الملائكة الكرام يهبون ثواب صلواتهم التى أدوها إلى الأمة المحمدية ويشهدون على ذلك المقربين الكرام من الملائكة .

وعندئذ يصدر الخطاب الإلهى إلى الملائكة - يا أصناف الملائكة!! هل أنتم تنفقون جواهر السماء التى أنعمت بها عليكم بالمباهاة والفخر بكرمكم وجودكم؟ ألا فاشهدوا أننى حفظت الأمة المحمدية من عذاب الآخرة ، وهذا مقرونا برحمتى وعفوى الإلهى .

وهكذا يعود الملائكة إلى أماكنهم محاطين بالألطف الإلهية ، وتنتهى إلى هنا أقوال المفسرين .

وعلى حد قول الإمام الأزرقى أنه عندما وطأت قدم آدم سطح الأرض صدر إليه الأمر الجليل من رب العزة قائلا : يا آدم إن لى بيتا فى الأرض فى حذاء بيتى الذى فى السماء . وإذا كانت الملائكة الكرام يطوفون حول عرشى فطف أنت و أولادك وأحفادك كذلك حول بيتى فى الأرض ، وصل وتعبد حوله .

يا آدم إبنى أقمتم أول بيت وضع للناس فى بطن مكة ، يأتى الناس من كل فج

عميق لزيارته، وكل من جاءه معتمرا لا يتغنى إلا وجهى فقد زارنى وأكرمنى .

يا آدم اعتمر ما دمت حيا، وسوف يعتمر أنبياء وأمم القرون القادمة من بعدك، وقد اخترت موضع ذلك البيت قبل خلق السموات والأرض، ونفخت فيه من جلالى وكرامتى .

ولأن الله أرسل طائفة من الملائكة لمعاونة أبى البشر فى بناء البيت الشريف، ملأ آدم حفرة الأساس التى ذكرناها آنفا، ثم أقام على هذا الأساس الياقوتى هذا الجدار المتين الذى ارتفع عن الأرض قليلا .

ويروى أئمة الحديث أن فى كل سماء بيتا يعلو البيت المعظم حتى السماء السابعة، وبيتا فى كل أرض تحته حتى الأرض السابعة .

طبق هذا الحساب فإن «كعبة الله العليا» هى دار العبادة الخامسة عشرة .

وإذا افترضنا أن سقط أحد هذه البيوت حل محله غيره على سطحها .

لكل كعبة منها مخلوقات تطوف حولها من أهل السماء والأرض، ولا يمكن أن تخلو ممن يطوفون حولها .

البيت المعمور الذى اشتهر بـ «رضاض» أو «صراخ» حسب القول المشهور يعلو الكعبة المعظمة ويأتيه كل يوم سبعون ألف ملك لزيارته والطواف حوله بنية عدم العودة حتى تقوم الساعة، ثم يعودون بعد الطواف .

وعلى الرغم من أن الروايات التى جاءت بشأن تأسيس الكعبة المعظمة للمرة الثانية مخالفة للإفادة إلى الآن، فإنه سواء ما قاله الأزرقى أو كعب الأحبار صفوة الرواة فهم يؤيدون قول عبد الله بن عباس سالف الذكر .

وبعد أن أسس آدم - عليه السلام - البقعة المقدسة للكعبة الشريفة على نحو ما سلف ذكره، التمس رحمة الله داعيا: يارب إن كل من حج بيتك المعظم الذى بنيته امتثالاً لأمرك وطاف حوله هل هو مثاب مأجور؟

فقال الله تعالى:

يا آدم لقد تجاوزت عن ذنبك كما تجاوزت كذلك عن ذنوب أولادك الذين سوف يحجون بيتي.

عاد آدم إلى بلاد الهند بعد أن تلقى جواب الرحمة هذا من الله.

وجاء في رواية أخرى أنه بعد أن أتم آدم - عليه السلام - بناء الكعبة طلب مشوية معطى العطايا مانح النعم، ولما كان آدم قد تلقى من رب العزة قوله: «سل منى أجرك حتى أعطيك».

فإذا بآدم - عليه السلام - يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلاً: «يا آدم سوف أدخلك الجنة وكل من زار الكعبة من ذريتك وسأدخل الجنة كل من يزورون بيتي هذا» فظهرت علامات السرور عليه.

فائدة: بعد الطواف صلى آدم - عليه السلام - ركعتي الطواف ثم دعا في مواجهة الملتزم^(١) الشريف وقال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم ما فى نفسى، وما عندى، فاغفر لى ذنبى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى. اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيت على.

فتلقى خطاب ربه ذى العزة «يا آدم لقد قبلت دعاءك وكل من يعرض على من أولادك وأحفادك حاجة له، وهو يقرأ هذا الدعاء فإننى أستجيب لدعائه وأقضى حاجاته، كما أزيل همه وغمه وألبى له حاجات الدنيا والآخرة، وإذا لم يقبل هذا الدعاء فى الدنيا سيجده فى الدنيا والآخرة.

ولأن هذا الطواف هو أول طواف لجنس بنى البشر فقد اتخذ آدم - عليه السلام - الملائكة قدوة فى طواف بيت الله.

(١) الملتزم: يطلق على ما بين باب بيت الله والحجر الأسود.

وعندما أنهى أبو البشر - على نبينا وعليه صلاة الله - البناء الأول للبيت الشريف وبدأ الطواف. هناك^(١) الملائكة الذين استقبلوه في وادي أبطح قائلين: حجك مبرور يا آدم وسعيك مشكور لقد طفنا بالبيت الحرام قبلك بألفى سنة.

فإذا بآدم - عليه السلام - يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: فلما سألتهم سيدنا آدم قائلا: «وماذا كنتم ترددون في أثناء الطواف؟»

أجابوا: «كنا نردد في أثناء الطواف التسبيح الجليل: «سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، وبناء على هذا ردد آدم - عليه السلام - التسبيح المذكور وبدأ الطواف لمدة أسبوع وكان يطوف ليلا سبع مرات، وفي النهار خمس مرات، وبهذا الحساب يكون قد طاف ببيت الله تسعا وأربعين مرة ليلا وخمس وثلاثين مرة بالنهار لأن كل سبعة أشواط حول الكعبة المعظمة تعد طوافا واحدا.

ويروى أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت في أثناء الحج لمدة أسبوع، سبع مرات ليلا وخمس مرات نهارا وذلك عملا بسنة أبي البشر.

بشرى:

إذا طاف أى إنسان سبع مرات بكعبة الله، مرددا التسبيح سابق الذكر غير متفوه بكلام متعلق بالدنيا إلى أن يكمل الطواف يعطى عشر حسنة ويرفع عشر درجات وتحط عشر من سيئاته. أما إذا تكلم فإنه فى تلك الحالة أيضا يدخل حوض الرحمة كأنه يغوص بالماء، وهذه البشرى هى مضمون الحديث الشريف الذى نقله ورواه الصحابى الجليل أبو هريرة: كما أنه منقول بالآثار الصحيحة، ويروى بسند موثوق به «إن ثواب الذين يصلون بعد الطواف ركعتى الطواف مثل ثواب تحرير رقبة»، .

إخطار:

لما كان طواف بيت الله عبادة خاصة مثل إقامة الصلاة، لذا يجب الامتناع عن الكلام فى أثناء الطواف وإذا اقتضى الأمر التكلم فيجب أن يقول خيرا انتهى .

(١) الملائكة إذن هم الذين علموا سيدنا آدم دعاء الطواف كما علمه جبريل الأمين أصول المناسك .

وفيما يتعلق باستقبال الملائكة الكرام لمن يدخلون المدينة المباركة مكة المكرمة قاصدين أداء حج البيت الحرام، فإن الملائكة الكرام يقومون فقط بإلقاء السلام عليهم وتكريم الذين يدخلونها وهم يركبون الإبل ويحيون من يدخلونها وهم يركبون الحمير بمصافحتهم، أما الذين يدخلونها سائرين على أقدامهم يظهرون لهم الترحيب الحار ويعلنون قدرهم بمعانقتهم.

وبناء على هذا الأساس فإن السلف الصالح كانوا عند استقبال الحجاج ذوى الابتهاج يسارعون بتقبيل عيونهم حتى ينالوا دعواتهم الصالحة قبل أن يتدنوا بارتكاب المعاصى والآثام.

* * *

توضح كيفية تجديد الكعبة المحرمة فى المرة الثالثة

بنى سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم - عليهما السلام - بيت الله العالى المقام فى المرة الثالثة، وقام أولاد وأحفاد المشار إليه بتعميره إلى طوفان نوح.

لأنه عندما وضع آدم - عليه السلام - قدميه على وجه الأرض، كانت ياقوته منيرة على شكل الخيمة موضوعة فوق الموضع المبارك المقدس للبيت الأكرم على نحو ما أوضحت سالفا. وعندما رفعت هذه الخيمة إلى السماء عقب وفاة أبى البشر - عليه السلام - بنى سيدنا شيث بن آدم - عليهما السلام - بيتا من الحجر ليحل مكان الخيمة المذكورة.

وإذا كانت واقعة الطوفان الهائلة التى أغرقت أقطار العالم قد دمرت أيضا البيت الحجرى الذى بناه سيدنا شيث وأزال آثاره فإنه بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف المذكور. وكان أولاد وأحفاد المشار إليه يقومون بتعميره وترميمه من حين لآخر.

حكمة:

لدى وصول نوح - عليه السلام - إلى أرض مكة، كان الموضع المبارك الذى كان فيه الأساس المنهار لبيت العزة معلوما وأكثر من هذا أن سفينة نوح - عليه السلام - عندما وصلت إلى حدود حرم الله، أخذت تطوف بالموضع السعيد لكعبة الله. وقد طاف سبع مرات كاملة، وفى أثناء هذا شرح سيدنا نوح طريقة الطواف للموجودين داخل السفينة وأمر ألا يقترب أى إنسان من زوجته تعظيما لبيت الله. وعندما خالف حام بن نوح أمر والده، دعا نوح على ابنه حام بالسوء فتغيرت نطفة حام على أثر هذا الدعاء وبدأ فى إنجاب أبناء ذوى بشرة سوداء.

ونسى العباد طوفان نوح مع مرور الوقت، واتخذوا الأصنام آلهة وأهملوا العناية ببيت الله فقد غطت الرمال الأساس القديم لبيت الله الذي ظهر بعد الطوفان واختفى تماما عن الأنظار.

والموقع اللطيف لبيت الله أصبح ربوة من الرمال الحمراء ومع هذا ظل الناس يعتقدون أن هذه الربوة الحمراء مكان مقدس، لذا كانوا يسعدون بالطواف حوله وزيارته وبهذا التقدير يحتمل أن الخيمة المذكورة الموضوعة فوق الأساس الذي بناه أبو البشر كانت البيت المعمور، أو أن فوق البيت المعمور خيمة مثل الخيمة المذكورة ويفهم من هذا أن الخيمة قد رفعت عقب وفاة آدم - عليه السلام - وأن البيت المعمور ظل على الأرض حتى قبيل الطوفان، ورفع في أثناء الطوفان حتى لا يتلوث بمياه الأرض القذرة.

* * *

فى بيان ترجمة حال سيدنا إبراهيم عليه التحية والتكريم الذى وفق فى تجديد الكعبة المعظمة فى المرة الرابعة، وسبب ذهابه إلى مكة المكرمة، والقصة الهامة لذبح إسماعيل، والمهمة التى كلف بها لتأسيس البيت الحرام، وإقامة أولاد إسماعيل فى تلك البلدة المقدسة، وبيان أحوال تلك الأيام وكيفية معيشة الناس

قال سيدنا على بن أبى طالب - رضى الله عنه - دون أن يخوض فى أوليات بناء البيت قبل إبراهيم - عليه السلام - «أول من بنى البيت الشريف سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه التعظيم».

وقد كذب ابن كثير وخرج الروايات التى تقول «إن الكعبة المفخمة قد جددت ثلاث مرات قبل بناء إبراهيم، كما جاء فى تفسيره الشريف^(١) وبهذا صدق قول على بن أبى طالب، إلا أن الروايات المشهورة تؤكد أن سيدنا الخليل - عليه السلام - قد بنى البيت المعظم للمرة الرابعة. وسواء صح القول الأول أو القول الأشهر فلاشك فى أن النبى المشار إليه قد جدد مقر العزة الإلهية.

وهناك أسئلة كثيرة ترد فى خاطر ومنها: كيف ترك إبراهيم - عليه السلام - مسقط رأسه بابل؟ وكيف اتجه نحو واد غير ذى زرع؟ وأين قضى أوقاته قبل تشريفه إلى مكة المكرمة؟ وأين أقام بعد تأسيس البيت الشريف واستراح؟ وبما أن هذه الأسئلة فى حاجة إلى الحل والإجابة، وذلك يحتاج إلى تلخيص الأخبار الطويلة المبسوطة فى الكتب لذا رأينا أننا مضطرون لكتابة تاريخ حياة إبراهيم - عليه السلام - وترجمة حاله ملخصين تلك الأخبار الطويلة.

(١) هناك إيضاحات مقنعة فى هذا الخصوص فى بحث مقام إبراهيم.

ترجمة حال سيدنا الخليل عليه سلام الله الجليل:

سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه التفتيح - من الأنبياء أولى العزم من الرسل، يصل نسبه العالى إلى البطن الخامس من هود - عليه السلام.

ولد إبراهيم عليه السلام فى قرية كوثى على وزن طوبا - مهد زينة الوجود - وكانت تابعة لمدينة «بابل» أو «برسد» الملحقة بالكوفة، وولد بعد هبوط الذات النبوية المتصفة بالهداية أبى البشر آدم عليه السلام - على وجه الأرض بـ ٣٣٢٣ سنة وعلى قول بـ ٣٣٦٣ سنة، وبعد واقعة طوفان نوح المفجعة بـ ١٧١١ سنة، وقبل الهجرة النبوية بـ ٢٨٩٣ سنة.

وهناك من يقول إنه ولد قبل الهجرة النبوية بـ ٢٥٩٦ سنة. ويخمن جماعة من المؤرخين الأجانب أن مولده كان قبل ميلاد عيسى بـ ٢٣٦٦، أو بـ ٢١٢٢ عند جماعة أخرى. ويروى أنه ولد فى مدينة حران وبعد ذلك هاجر إلى «بابل» وفى رواية أخرى أنه ولد فى مدينة «أورفة» فى تركيا ثم هاجر إلى حران ومنها إلى بابل. وقال بعض المؤرخين أيضا إنه ولد فى قرية برزة «من قرى دمشق بالشام، وأصبحت المغارة التى ولد فيها مزارا للعارفين، بل هناك من يقول إن الدعاء فى هذه المغارة يستجاب من الله سبحانه وتعالى.

(بدايع الزهور)^(١).

كان وجهه الشريف أحمر مائلاً للبياض، قامته متوسطة موزونة معتدلة أشهل العينين ضخمة السرة، عظيم الصدر مستوى المنكبين.

ولد فى زمن هاصر بن كوفى بن حام بن نوح - عليه السلام - أو فى عهد نمروذ بن كنعان الذى كان من جبابرة الملوك وتصادف ليلة ميلاده ليلة الجمعة فى يوم عاشوراء.

وفى ذلك التاريخ خرج النمروذ التعس عن الطريق المستقيم وجادة الصواب

(١) هذه الرواية من الروايات المرجحة لدى صاحب بدايع الزهور.

بمساعدة الظروف، وأقام مجموعة من الأصنام على أشكال مختلفة وادعى الألوهية ودعا الناس إلى عبادته، وهكذا أضل الناس عن عبادة الملك المتعال جل جلاله. وكان يقول: «إن الذين يعبدون صورتى، سواء خفية أو علانية ويتقربون إلي ينالون درجة الكمال وأعلى المناصب». وذات ليلة رأى فى منامه أن كوكبا لامعا براقا يضىء حتى أن نوره حجب ضياء القمر المنير فاختمنى، فقلق قلقاً شديداً وأحضر كبار الكهنة والمنجمين وأمرهم بتفسير ما تدل عليه الرؤيا وبناء عليه قال المنجمون: سيولد مولود ذو طالع ميمون مرتفع محمود العاقبة، وسيكون سببا فى تحطيم بنيان سلطنتك حتى تصير خراباً وأن هذا الطفل مازال فى صلب أبيه.

وتبعاً لقول آخر أن (جليد بن عاص) وهو من أشهر الحكماء ومجموعة البؤساء الأشقياء التابعين له والذين اختصوا بتفسير رؤيا النمرود قالوا: «بالنظر فى أحكام كتبنا المتداولة، فإنه سيولد هذه السنة غلام محظوظ سعيد فى عاصمة بلدكم، وبعد أن يكبر هذا الغلام سيأتى بدين جديد وسيدعى أنه رسول لهذا الدين، وسيدعوننا لاتباعه وإذا عجزنا عن إيجاد حل لهذا الأمر من الآن، فإن دولة النمرودة ستزول وتمحى بلا ريب.

وتحير النمرود التعس من هذه المعلومات الفلكية التى تلقاها من كهنته، وبدافع من حماقته وبلاهته هب ليغير حكم القضاء وأصدر أوامره بالتفريق بين الرجال والنساء لكى يحول دون اجتماع الأزواج فى الفترة التى جردها الكهنة، وعين لكل عشرة رجال رقيباً عليهم، وعلاوة على هذا التضييق على الناس أمر بقتل كل الأطفال الذين سيولدون فى تلك السنة.

وفى الواقع أنه لم يستطع تغيير القدر الإلهى، إذ التقى آزر^(١) فى تلك الليلة بزوجته^(٢) (أدنى بنت ثمر) وانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

(١) آزر هو لقب لتارخ أبو سيدنا إبراهيم لقب بهذا الاسم للإله الذى يعبد على قول، وفى قول آخر هو عمه أخو أبيه. وهذا ما رجحه الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - من العلماء المعاصرين.

(٢) هناك اختلاف فى اسم «أدنى» فبعض الرواة يصرّون على أن اسم والدته إبراهيم عليه السلام «أدنى» بينما يقول الثانى أن اسمها «ملكا» ويدعى الثالث أنه «نونا» بينما يقول الرابع أنه «ليوننا».

إذا المولى أمرا من الأمور شاء
فلا قدرة لأحد علي رده ولا القضاء
ويثبت ذلك لمن أنكسر
حكاية البيت والولد وهمة العنقاء

عرف المنجمون تلك الساعة التي انتقل فيها إبراهيم - عليه السلام - إلى رحم أمه ليلا، وأبلغوا توا النمرود بالخبر، فقام الشقى متهوراً وقد تحول إلى قطعة نار تحرق - فأمر بقتل آلاف من الأبرياء إذ أدرك أن المولود ذا العاقبة المحمودة سوف يولد ولم يقنع بهذا، بل عين موظفاً لفحص السيدات الحوامل، وذلك بغية قتل كل طفل ذكر سيولد مستقبلاً إلا أن حادثة حمل (ادنى ابنه نمر) ساعدها على إخفاء علامات الحمل وبذلك نجت من تلك المعاناة الجبرية من أتباع نمرود، ورغم أن والده سيدنا إبراهيم استطاعت إخفاء حملها^(١) بسبب شبابها ونجت من الذين فحصوها، فإنها عندما أتمت مدة حملها وبدأت مظاهر الحمل في الظهور عليها وكانت تعرف مصير فلذات الأكباد الذكور من القتل، حدثت نفسها قائلة: «إنني إذا وضعت غلاماً فسوف يقتلونه، لذا يجب على أن أضعه في مكان خال بعيداً عن العيون» وبناء عليه ذهبت إلى حافة واد بين جبلين خارج المدينة وبعد أن وضعت حملها، لفت ذلك المولود السعيد في قطعة قماش وتركته في كهف داخل هذا الوادي، حتى لا يقتل، ثم رجعت وأقنعت زوجها آزر بأن قالت له «في أثناء وجودي في وادي يبابان وضعت غلاماً، لكنه توفي فقمتم بدفنه هناك ورجعت.

أما آزر فقد أظهر السرور وقد اقتنع بما قالته الزوجة وشكر الأصنام التي كان يعبدها، وتمتم ببعض الكلمات مسرياً عن نفسه.

(١) لم يستطع أحد كائناً من كان أن يلحظ أمارات الحمل على أم نبينا إبراهيم عليه السلام، لأنه لم يظهر عليها شيء من علامات الحمل.

فى الليلة تركت (أدنى ابنة نمره) إبراهيم عليه السلام - فى الغار، ذهبت إليه وهى تردد سرّاً يا ترى كيف حال فلذة كبدى ألا أذهب إليه ثانية لأرى ما إذا كان حيا فأرضعه، وقد وجدته على قيد الحياة، فأرضعته ورجعت .

وكان جبريل الأمين قد قطع جبل سره سيدنا إبراهيم، وألبس على ظهره حلة بيضاء وأذن فى أذنه وأجرى الأصول الإسلامية المعتادة .

ولدى مجئ أم سيدنا إبراهيم كان - عليه السلام - يضع أصابعه فى فمه ويرضع منها وكان يقطر من أحد أصابعه عسل ومن الآخر ماء ومن الثالث سمن، ومن الرابع لبن، ومن الخامس لبن التمر . وتعجبت الأم من هذا الحال وسعدت به .

وكانت تذهب دائما إلى الغار المذكور لإرضاع ابنها، لكنها اجتهدت فى كتم ما يحدث وإخفائه حتى عن زوجها أزر .

أما سبب هذا التكتم والإخفاء، فقد كان لسلوك أزر غير المناسب، فعندما علم بحمل زوجته - بدافع من إخلاصه للنمرود - فقرر تسليم المولود إذا كان غلاما للنمرود، وأخذ من زوجته عهداً وميثاقاً فى هذا الشأن .

أما زوجته وبدافع من طبيعتها كامرأة، فقد اتبعت أزر وعقدت معه هذا العهد، ولكنها ندمت بعد ذلك وأخذت تفكر تفكيراً عميقاً وتحدث نفسها قائلة: يا ترى كيف يمكننى أن أجد حلاً لهذا الأمر؟ وكيف يمكننى أن أخلص فلذة كبدى - إذا جاء غلاماً - من يد أزر .

ولعلمها بمدى محبة أزر لها وميله نحوها، ولتأمين أيضاً من قتل وليدها إذا جاء غلاماً من قبل أبيه، أخذت تحدث نفسها عندما اقترب أوان وضع حملها قائلة وإننى إذا وضعت غلاماً فإنه سيقتل ساعة ولادته وهذا سيؤدى لفرط عطفى عليه وشدة حبى له لقتل نفسى ولاشك فى ذلك . وبدلاً من التعرض لمخاطرة كهذه أقول فبحق الحب السائد بيننا أن تتجه إلى آلهتك وترجوهم ساجداً ألا أضع غلاماً بل أنثى «وهكذا أرسلت أزر^(١) إلى دار الأصنام معبد آلهتهم، بينما ذهبت

(١) كان هدف أدنى بنت نمره من هذه الحيلة أن تحفظ مولد سيدنا إبراهيم بعيداً عن أبيه أزر وإنها كانت حيلة فى محلها .

هى إلى حافة الروادى حيث وضعت حملها - كما سبق الذكر - وكانت قد أقنعت زوجها بما حدثت به نفسها.

وبناء على ذلك كلما ذهب آزر إلى ديوان النمرود كانت (أدنى)، تذهب إلى الغار الذى به فلذة كبدها وترضعه لفترة ثم تعود. وقد امتد هذا الحال لمدة ستين وحسب قول مؤلف «بدايع الزهور» استمر سنة واحدة.

تفصيل

فى هذا الموجز الذى كتبناه إلى هنا فإن أكثر الرواة يتفقون عليه فى لسان واحد، لكن صاحب الكتاب القيم المسمى «الأنس الجليل» الذى قام بالبحث والتدقيق أضاف إلى الموضوع رواية موثوقة إذ يقول: إن رئيس كهنة الشقى (حليد بن عاص) ذهب من رفقاته الضالين إلى ديوان النمرود فى تلك الليلة العجيبة التى انتقل فيها سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه وقالوا له: «إن كل جهودنا إلى الآن لم تثمر، حيث إن ذلك الكيان الذى يجب أن نتخلص منه سيتقل هذه الليلة إلى رحم أمه، فإذا اتخذت جميع الاحتياطات الشديدة هذه الليلة وبذلنا كل جهدنا محاولين تغيير خط سير القدر ربما حققنا آمالنا».

بناء على تحريض «حليد بن العاص» وأتباعه من الكهنة الضالين وحثهم المستمر للنمرود» أمرا قاطعا بأن يخرج من عاصمة ملكه كل الذكور ويبعدوا عنها، وأن يعين على كل بوابة من مداخل المدينة مراقبون من أهل الثقة، وأمرهم ألا يسمحوا بدخول أى رجل إلى داخل المدينة فى ذلك اليوم ليلا ونهارا، حتى لا يجتمع زوج بزوجه. وفى أثناء تلك الفترة المذكورة أبعث كل الذكور عن مساكنهم وبيوتهم، وكلف المنجمون بتحري دقائق أحكام النجوم. واختبأت (أدنى بنت عمرة) لفترة بجوار باب المدينة الواقع بمحاذاة البيت الذى تسكن فيه وركزت تفكيرها لفهم نتائج ما يجرى وراها زوجها آزر بطريقة ما وضاجعها فانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

وعرف (حليد) الشقى من رؤية إشارات النجوم وعلامات الكواكب أن سيدنا

إبراهيم قد انتقل إلى رحم أمه فذهب إلى قصر «النمرود» عقب افتراق (أدنى) عن آزر صائحا صارخا يخبر جماعة النماردة الضالين وقال: «مولانا يائسا» لقد قضى الأمر - الآن وذهبت جميع الجهود والمساعي هباء، فذلك الكيان محمود العاقبة قد انتقل في هذه الساعة - إلى رحم أمه، وأشار إلى نجم لامع ليريه للنمرود^(١). وكانت أضواء شعاع هذا النجم قد غطت الشرق والغرب ما بين السماء والأرض، ولم يكن قد رأى أو سمع - حتى ذلك اليوم المنير - عن بزوغ كوكب سعيد كهذا.

وأفاق نمرود بعد فترة من دهشته وسارع بإجراء التحقيقات والبحث اللازم وسعى للقبض على الرجل الذي ضاجع امرأته في اللحظة التي أنبا عنها حليد بن عاص الشقى.

ولما لم يستطع أن يتبين ما جرى رأى أن يترك هذا الأمر لحين ولادة الغلام، مع اتخاذ جميع الاحتياطات. وقال: «إذا كنا لم ننجح في منع انتقال هذا الكيان السعيد إلى رحم أمه فعلى الأقل علينا أن نبذل كل الجهود لنهتدى إليه في وقت ولادته».

وعندما آن أوان ولادة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - علم المنجمون الأمر، وأبلغوا النمرود اللعين قائلين: «سيولد ذلك الكيان السليم الجسم في أسبوع كذا وفي يوم كذا وساعة كذا».

ورغم الاستمرار في اتخاذ لوازم الحيلة؛ إلا أن أدنى عندما أحست بآلام الوضع وأوجاعه ومقدمات الولادة أرسلت زوجها آزر إلى بيت الأصنام لكي

(١) وقد ظهر نجم يشبه لهذا النجم عندما ألقى إبراهيم عليه السلام في النار إلا أنه لم يكن مثل الكوكب الذي طلع عندما استقر إبراهيم في رحم أمه؛ ولكنه كان مثل الكوكب الذي ظهر في زمن نوح عليه السلام. يقول الإمام رباني في رسالته الثامنة والستين من رسائله «هناك مذنب سيره نحو الشرق وظهره نحو الغرب لامع، ويشرق عموديا ثم يميل إن هذا المذنب قد ظهر عندما هلك قوم نوح وألقى إبراهيم إلى النار، وعندما قوم فرعون وعندما استشهد سيدنا يحيى، ويحتمل أن يطلع عندما يظهر الإمام المهدي».

يتضرع للآلهة على الوجه الذى أوضحناه آنفا، وخرجت من بيتها عازمة على وضع حملها فى حافة واد جاف يقع خارج المدينة.

وفى طريقها قابلت ملكا منير الوجه، جميل المنظر، قادها إلى الغار وقال لها: «كونى يقظة ولا تقلقى من أن ينال الطفل الذى ستضعينه أى أذى أو ضرر، فهذا الطفل خليل صاحب الكبرياء، والجد الجليل لخير الأنبياء، لذا فهو مصون فى كل الأحوال من ضرر ومن كيد الأعداء، ثم انسحب من الغار بعد أن أعد لها كل لوازم الوضع».

واستقر حضرة خليل الله على مهده المزين الذى نزل به جبريل - عليه السلام - وقرأ الأذان فى أذنه بعد أن قطع جبل سرته وألبسه الحلة. وبعد أن ألبسه الرداء الذى أتى به من الجنة، دخل الملك سالف الذكر إلى الغار وظل لفترة بجوار (أدنى ابنة نمر). وفى الساعة التى ولد فيها إبراهيم - عليه السلام - تزلزل القصر الذى أقامه النمرود العنيد، وسمع هاتف بصورة تشير الفزع والدهشة قال: «لقد اقترب أوان هلاك ذلك الخبيث الذى أنكر إبراهيم» وجن جنون جماعة الشرك النماردة.

وتبعاً للبحوث التى قام بها مؤلف «بدايع الزهور» فقد نتج عن اهتزاز قصر «النمرود» سقوط بعض شرفاته فجأة كما انقلبت الأصنام الموجودة به رأساً على عقب. وقد سمع صوت ذلك الهاتف عدة مرات فى ذلك اليوم المذكور وبعد هذا اليوم كان نمرود يسمع مقولة الهاتف فى كل مكان يذهب إليه.

وذات ليلة رأى فى رؤياه أن ضوء قمر يسطح من ضلع «آزر» ويغمر الأرض والسماء، نور بهى وأقلق سكان الأرض، وترددت فى أنحاء العالم وسمعت (جاء الحق وزهق الباطل) فأسقطت معابد الأصنام على الأرض.

وأوقعت النماردة - ذوى العاقبة السيئة - فى يأس وحرمان، وطاش صواب النمرود من هذه الرؤيا المخيفة وعندما أفاق واسترد وعيه استدعى «آزر» وبادره بقص تفاصيل حلمه المخيف الذى رآه. إلا أن «آزر» دفع الهواجس عنه إذ قال: إن رؤياك تشير وتلمح إلى شدة عبوديتى لكوكب القمر.

بقي إبراهيم - عليه السلام - فى المغارة المذكورة مدة خمسة عشر شهرا - على اختلاف الروايات. وعندما بلغ سن التمييز وجمال بخاطره فكرة الخروج من المغارة قال لوالدته جاء الأوان للخروج من هذه المغارة.

يقول مؤلف «بدايع الزهور» بقى سيدنا إبراهيم فى الغار اثنى عشر شهرا، ولما كان يكبر فى كل شهر مقدار سنة، كان مظهره فى مظهر الأطفال البالغين عشرة أعوام من عمرهم عندما أراد الخروج من الغار. وبهذا أيد الرواية السابقة. ولما رجا إبراهيم - عليه السلام - من أمه أن تخرجه من الغار، رجعت (أدنى) إلى بيتها وبعد تأمل عميق قالت لزوجها: قد ذكرت لك فيما مضى أن ابنك مات، ولم أكن صادقة فابنك لم يميت، وقد أصبح الآن شابا ملائكيا جميل الطلعة وهو الآن فى الغار وشرحت له الأمر كله.

وذهب آزر إلى الغار المذكور ولما رأى إبراهيم أعجب به وأحبه لجماله وكمالته وقال لأمه: أخرجي الآن هذا الطفل لنقدمه للنمرود. وأخرجت الأم ذلك الغلام الموسوم بهداية البشر إلى خارج الغار. ولما خرج إبراهيم من الغار تأمل فى الكون، ورأى عجائب الأرض والسموات وأدرك بعلم اليقين وأذعن أن هناك مبدع وموجد حقيقى للأجرام العلوية والسفلية، فسارع بالاعتراف والإقرار بوجود الحق الذى ليس له مثل من خلال هذا القول: «إن الذى خلقتى ورزقتى وأطعمنى وسقانى لربى الذى ليس لى إله غيره. ولم يكن فى ذلك الوقت فرد واحد على وجه الأرض يعترف بوجود إله واحد قهار».

وكان آزر كغيره من بنى البشر فى تلك الأوقات يعبدون النمرود ويشربون من كأس الندامة المتصف بالكفر. وكانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والأصنام المنحوتة ويقدمون نجوم السماء ويهتمون بعبادة الكواكب لتوهمهم أن لها تأثيراً فى سير الكون وإحداث الأشياء.

وكان أهل بابل - آنذاك على دين الصابئة يعبدون الشمس وضوء النجوم ويسجدون لنهرى دجلة والفرات.

كما أنهم عبدوا حكامهم وأقاموا لهم التماثيل، واتخذوا هذه التماثيل آلهة وشغلوا بعبادتهم كانوا يعتقدون أن الروح شمعة فريدة منبثقة من النور الأصلي.

والطائفة الخبيثة التي كانت تعيش في بابل في زمن النمرود هم جماعة معلومة متفرعة من أولاد سام وكانت لغتهم السريانية ودينهم الصابئة.

وكان الصابئة قديما تابعين لشريعة شيث وإدريس - عليهما السلام - وكانت كتبهم في الصحف الشريفة التي نزلت على سيدنا شيث، وكان كتاب شيث - عليه السلام - يتضمن محاسن الأخلاق، ويدعو إلى الصدق والشجاعة ونجدة الغريب، وينهى أهل الإيمان عن الميل إلى الباطل والانغماس في الرذائل.

ويصلى الصابئة علاوة على الأوقات الخمسة في وقت الضحى الأولى، وفي الساعة السادسة من الليل ويصلون على الجنائز بدون ركوع أو سجود ويصومون في السنة ثلاثين يوما وأحيانا تسعة وعشرين يوما. وبالنسبة لوقت الصوم يحرصون على أن يبدأ من الثلث الأخير من الليل حتى غروب الشمس.

والعيد عندهم في ختام الصوم، ويهتمون بمكة المعظمة وتفخيمها. ويحرصون على أداء الحج، بزيارة مكان في مدينة حران ويقدرون قبرين في مصر، إذ يظنون أن أحد هذين القبرين لسيدنا «شيث» والآخر قبل الصابئي «ابن شيث».

ولما كان الدين الذي ينتسبون إليه غاية في القدم وكان دينا حقا لم يستطيعوا أن يستمروا على مبادئه، بل ضلوا في النهاية وأخذوا يعبدون الأصنام والشمس والنجوم وتماثيل الحكام. ولما لم يستطع إبراهيم - عليه السلام - أن يجد بين الصابئة مرشدا يدل على الطريق المستقيم راح يبحث بنفسه عن حقيقة وحدانية الله.

وقد رأى أولا «الزهرة» أو الكوكب المضيء و «المشترى» ومن بعده «القمر» ثم رأى بعد ذلك «الشمس المشرقة»، وقال بأسلوب الاستفهام الإنكارى: هذا ربي؟!!

وعندما رأى أن هذه الكواكب قد توارت خلف حجاب الأفول وغابت، اتجه

إلى حضرة الواحد واجب الوجود - تعالى شأنه عن الولد والمولود - وهو حزين على الذى صدر منه بغير اعتقاد، وهو لا معنى له، وعبر بقول جليل وجميل المبني: «لا أحب الآفلين».

وتبعاً لبعض الروايات، أن سيدنا الخليل بعد بقاءه فى الغار مدة اثنتى عشرة سنة، قال لأمه - ذات يوم من يكون ربي؟! وعندما أجابته أمه: ربك ربي.. بادرها بالسؤال التالى، ومن يكون ربك.

قالت (أدنى) ربي هو أبوك «آزر» فلما سألتها ومن يكون ربه؟ قالت: رب «آزر» هو «النمرود» وبالتالي سألتها: ومن يكون رب النمرود؟!

وهنا نهرتة بقوله: «يا ولدى هذه الأسئلة لا ضرورة لها، واحذر أن تقول كلمة واحدة أخرى حول هذا الأمر ورغم أنها بهذا أرادت تهديد سيدنا إبراهيم، إلا أنه قال: «يا أمى، هل وجهى أجمل أم وجهك؟ وهل وجهك أجمل أم وجه أبى «آزر»؟».

وهل وجه والدى أجمل أم وجه النمرود؟

وعندما أجابته بقولها: يا بنى وجهك أجمل وأحسن من وجهى ووجهى أجمل وأحسن من وجه آزر ووجه آزر أجمل وأحسن من وجه النمرود.

وقال: «مادمت أنت خالقتى، وأبى خالقك والنمرود خالق أبى فلماذا لم تخلقى نفسك أجمل منى؟ ولم يخلق آزر نفسه أجمل منك؟ ولم يخلق النمرود نفسه أجمل من آزر؟»

ورغم أنه قد وضع بيان بطلان اعتقاد أمه بهذه الملاحظة الدقيقة، فإن أمه كررت نفس الإجابة السابقة وصحبتة إلى المدينة، نقلت الحادثة التى وقعت بالتفصيل إلى زوجها آزر، وقالت له: أظن أن ابنك هذا سيكون ذلك الكيان الهادى الذى أخبر عنه بأن ظهوره سيكون سببا فى خراب وانهار بناء سلطنة النمرود من أساسه، وأنه سيقضى على أديان أهل الأرض الباطلة.

ويظن البعض أن الذى أخرج سيدنا إبراهيم من الغار هو والده آزر، إذ ذهب إلى الغار عندما علم من زوجته بوجود ابنه هناك وفى نيته قتله، وذلك لكى يثبت إخلاصه للنمرود. ولكن الله - سبحانه وتعالى - مقلب القلوب جعل آزر يخاطب ابنه - وقد رأى جماله الأسر فعامله برفق ورقة وأظهر له المودة والعطف، وذلك من حكم الله - سبحانه وتعالى - الخفية.

قطعة

سلبتى قلبى يا إبراهيم وهو نار
بالحسن وليس لى فى ذلك اختيار
وفى نار تركتني
وليس لنار النمرود من شرار

وبينما يبدى آزر محبته على ذلك النحو، أبصر سيدنا إبراهيم من خلال باب الغار مجموعة من الإبل وقطعان خيل وغنم وقال ما هذا؟.

فأشار «آزر» إلى كل واحد منها على حدة، وأجابه هذا يسمى غنم، وذلك يسمى جمل، وذلك يسمى خيل وعندئذ سأله: لا مخلوق بغير خالق، ترى من يكون خالقي؟ فلما أجابه آزر خالقك هو أمك. وإذا سألت عن خالقها فإنا خالقها وخالقي هو نمرود. وعندئذ قال إبراهيم إذن فمن يكون خالق النمرود؟ وهنا غضب ولطمه بكفه على وجهه المبارك وأخرجه من الغار.

وعندما خرج إبراهيم - عليه السلام - من الغار، رأى كوكب الزهرة، أو «المشترى» ثم «القمر» ومن بعده «الشمس» وقال وهو يشير إلى كل واحد منها «هذا ربي» أبى أليس هذا ربي؟ وعندما غابت كل الكواكب المذكورة واحد تلو الآخر، وأفلت كلها، أفهم والده أنه على الدين الباطل وقال مقولته البليغة التالية «ياقومي أنا لست على دينكم، إنكم تشركون بالله وأنا أتوجه إلى خالق السموات والأرض - سبحانه وتعالى - وأنا لست من المشركين». ولم يستطع «آزر» أن

يحس وأن يفهم صحة ما ذهب إليه ابنه فيما يعتقده، وأخذه إلى قصر النمrod وقلده للنمrod وهو شخص كره المنظر قائلا: ها هو ذا النمrod ربنا كلنا.

وقال بعض المؤرخين إن آزر تأثر من تمسك ابنه إبراهيم برأيه وإصراره عليه وهو ضد دينه فبكى. ولما أدركت (أدنى بنت ثمره) أن النمrod الشقى عندما يرى إصرار ابنه على رأيه سيقتله بدون شك. راحت تبكى هي الأخرى. فقال سيدنا إبراهيم وهو يسرى عنهما لا تحزنا من أجلى ولا تقلقا فالحافظ الحق الذى تكفل بحفظى وحمائى فى صغرى، يحمينى ويحفظنى أيضا فى كبرى.

ورغم أنه أراد أن يطمئن أباه وأمه بأنه لا يوجد احتمال تمكن النمrod من إصابته بضرر ما فى أى وقت من الأوقات، إلا أن آزر فكر فى أن أعداءه سيزيدون من كراهية النمrod للطفل، وعدائه عن طريق الوشاية، ولذا عزم أن يبلغ النمrod الخبر بنفسه وأمر ابنه إبراهيم. فذهب إليه وقال: أيها الملك إن الطفل الذى كنت تخشى من ولادته هو ابنى إبراهيم، لقد ولد فيما مضى خارج بيتى ولم أعلم بالأمر إلا اليوم. والآن وقد علمت أقدمه لك وافعل به ما تود أن تفعله، حتى لا تلومنى أو ترجمنى بعد ذلك.

وأخذ ابنه - بناء على الأمر الصادر من النمrod - إلى قصره ولما كان النمrod قبيح الوجه أشد القبح، ويستخدم فى حاشيته كثيرا من الشباب ذوى الشكل الملائكى فى الجمال فتعجب سيدنا إبراهيم من هذا الوضع الغريب وبدأ فى السخرية والاستهزاء بالنمrod تحقيرا له وقال: «ياله من خالق عجيب! فقد خلق نفسه غاية فى القبح وسوء المنظر وخلق هؤلاء الفتيان غاية فى الجمال».

وتبعاً لبحث وتحقيق مؤلف «بدايع الزهور» فبرغم غضب النمrod على سيدنا إبراهيم بسبب كلماته تلك فإنه صمت فترة لحكمة يجهلها بنو البشر، وأمر بحبسه إلى الصباح وأن يمثل أمامه فى المجلس الذى سيعقد بعد يوم وفى اليوم التالى أتو بإبراهيم إلى المجلس المنعقد فى حضور النمrod وعندما رآه فى هذه المرة غضب لأنه لم يستطع أن يقنعه بترك دينه.

ورغم أنه أظهر علامات الحدة والغضب وبالغ فيهما إلا أن حسن جمال إبراهيم ولطف مقاله أوجد في القلوب - سواء قلب النمرود أو غيره من الموجودين في المجلس - محبة عميقة خالصة فأظهر لسيدنا إبراهيم الود وقال لأبيه يا أزر ابنك هذا صغير السن ولا يعرف ما يقول ومن العيب أن يظهر حاكم عظيم القدر مثلى، معاملة غير لائقة لصبي صغير السن كهذا.

خذ ابنك إلى بيتك وأحسن معاملته وبين له قدرى وعظمتى، وحذره من مغبة شدة غضبى وعظمة عقابى فأخذ أزر ابنه إلى بيته.

وكان أزر يسترزق من نحت الأصنام زاعما بالباطل كسب المال الحلال ولم ينس وصية النمرود فى تحذير ابنه وتهديده من غضبه. وأشرك إبراهيم ابنه فى عمله وكان يأخذ الأصنام التى يصنعها الأب ليلا إلى السوق نهارا ويبيعها وفق أوامر أبيه، وتحمل حضرة الخليل لفترة مهمة القيام بهذه الخدمة الكريهة وهى بيع الأصنام رعاية لحقوق الأبوة، وكان إذا خرج إلى الطريق لبيع الأصنام التى سلمت له يظهر أنواع التحقير والاستهانة والكراهية لهذه الأصنام وكان ينادى «من يشتري هذه الأصنام التى لا تضر ولا تفيد؟ وكان يربطها أحيانا - ويجرها فى الأسواق ممرغا وجوهها بالتراب كالجيفة القذرة. ويأخذها إلى حافة الماء ويقول اشربى الماء ويقلب رؤوسها إلى الأسفل.

وكان لا بد أن تثير هذه الأعمال النماردة المتعصبين، إلا أنهم لم يقدرُوا أن يتعرضوا له بسوء، احتراماً لأزر وخوفاً منه لأنه كان يشغل منصب «حارس الأصنام» وهو بحكم منصبه هذا يتمتع بمكانة لدى موظفى حكومة النمرود وكان له رأى مسموع وحكم نافذ.

وكانوا يشترونها منه حيشما يرونه. ورغم أن هذا الأمر وصل إلى سمع «النمرود» إلا أنه كان قد نسى الرؤيا وتحذيرات الكهنة، لذا لم يهتم بما ظنه شائعات مغرضة إلى أن حل عيد النماردة المشهور.

وكلما كان يحل هذا العيد يقوم كل إنسان بإعداد كل ما يستطيع إعداده فى

بيته من أنواع الأطعمة اللذيذة، ويضعونها حول الأصنام التي في المعابد ويذهبون إلى الصحراء، ولدى العودة مساء يسعون لعبادة أصنام المعبد ويأخذون بقايا الطعام المتروك في المعبد.

ويقسمونه فيما بينهم. وكانوا يعتقدون أن أكل الأطعمة التي أخذوها من هناك ستجلب الخير والبركة لمنازلهم. وكان الفئران وسائر الحيوانات تلتف حول الأطعمة وتأكل أكثرها. وكان أفراد النماردة الذين يرون نقص الطعام يقولون إن آلهتنا قد رضيت عنا إذ أكلت من طعامنا ويظهرون السعادة والسرور والفخر لهذا.

وكان هذا المعبد في ذلك العصر من أمتن المعابد وأجملها حيث توضع الأصنام فيها وقد غطيت جدرانه بالرخام الأبيض والأخضر. وكان في داخل هذا المعبد ثلاثة وسبعون صنما مصنوعا من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والحجر والأشجار وقد وضع كل واحد منها في مكانه اللائق.

وكان كل صنم من الأصنام المذكورة موضوعا فوق كرسى من الذهب، كما وضع على رأس أكبرها - ويسمى «بهو» تاج مرصع بالجواهر الفاخرة، وكانت عيناه مصنوعة من الياقوت الأحمر^(١). ورصت بقية الأصنام عن يمينه وشماله. «بدابع الزهور».

وعند حلول العيد المذكور، شغل صغار النماردة وكبارهم بإعداد وترتيب لوازم العيد، وذهب جمع غفير من الناس إلى حضرة الخليل وطلبوا منه مرافقتهم قائلين: «يا إبراهيم سنذهب غدا إلى ساحة العيد الواقعة في صحراء كذا فإذا ذهبت معنا ورأيت ما أقيم من الزينات وآلهتنا بعد العودة ستؤمن بأننا على دين أفضل، ومنهج مرغوب ومستحسن ولكن الخليل تتم قائلًا سأحطمها وعزم فيما بينه وبين نفسه على عدم الذهاب إلى الصحراء مع هؤلاء الكفرة ونظر إلى السماء - مثل العارفين بعلم الفلك مسائرا لما يعتقد النماردة وقال: يبدو في اتصال

(١) إن صنع عينيه من الياقوت كان يغرى الحمقى المشركين بتصديق الكهنة بسرعة.

الكواكب أن مرض الطاعون قد يلم بى واستأذن من والده آزر أن يسمح له بالبقاء فى المدينة وادعى المرض .

وتركه النماردة خوفا من أن يعديهم بالطاعون وذهبوا إلى الصحراء . وخلت المدينة من الناس .

وذهب إبراهيم وحيدا فريدا إلى معبد الآلهة التى كانوا يقدسونها ويعتزون بها ودخل فيه ، وأخذ يسخر من الأصنام قائلا : ألا تأكلون هذا الطعام؟ ماذا أصابكم حتى لا تجيئوا؟ ثم أسقط الأصنام الاثني والسبعين المرصعة والأوثان المزينة بطلاء الذهب من فوق كراسيها فصارت جزازا وعلق الفأس فى رقبة أكبر صنم منها وهو «بهو» وبعد أن فعل هذا رجع إلى بيته^(١) .

وكانت حكمة سيدنا إبراهيم من تعليق الفأس فى رقبة «بهو» أن يقول للنماردة «سلوا الأصنام التى تعبدونها وقد صارت ألف قطعة ليقولوا من الذى فعلها ، وجعلهم على هذه الحال» فهو يريد أن يعرفهم بأن الأصنام لا يمكنها أن تتكلم حتى يشعر النماردة المتعصبون بالحقارة ويستحيوا من أنفسهم .

ورجع النماردة الضالون من ساحة العيد وذهبوا إلى معبد آلهتهم كعادتهم . وعندما رأوا الأصنام المطلية بالذهب التى يعبدونها ويقدسونها منذ سنوات طوال - وقد تحطمت جزازا بكوا بحزن وحرقة وتألما ، وارتموا على الأرض من شدة الخوف وتأوهوا ، وأخذ كل واحد منهم يبدى رأيه فيما حدث . وقال أحدهم : «لقد سمعت ابن آزر يهدد بتحطيمها فمن المحتمل أن ينفذ ما عقد عليه العزم ليحقر ديننا ، وانفقوا كلهم على هذا الرأى وقالوا «إن إبراهيم بن آزر حطم آلهتنا وسحبوا المشار إليه إلى النمروود لاستجوابه وبدءوا فى تحقيق الأمر بسؤاله أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ وبعبارة بليغة أجاب سيدنا إبراهيم «بالنظر إلى الفأس المعلق فى رقبة «بهو» لا بد وأن يكون هذا التصرف الحقير قد بدر منه ، فاسألوه

(١) عندما دخل حضرة الخليل إلى ذلك المعبد وحطم الأصنام إلى ألف قطعة كان فى السابعة عشرة من عمره - بدائع الزهور .

عما حدث إذا كان في استطاعته أن ينطق، وهو بهذا قد ألمح وصرح بأنه لا يليق بهم أن يعبدوا هذه الحجارة العاجزة عن إخبارهم بالضرر الذي أصابهم ولجأ النمروذ وآزر إلى التهديد الذي لا يليق بالإنسانية لكي يسكتوا ذلك الرسول سعيد الطالع وتجرؤوا على تعذيبه، لإجباره على الكلام واشتدوا عليه في القول وأغلظوا عليه حتى يعترف بما فعل. وأصروا في حوار غير لائق لاستنطاقه.

ولما رأى النماردة إصرار النبي الجليل على ترديد الفقرات التي تشمل على حقائق ثابتة «أتعبدون ما صنعت أيديكم، في حين أنها وأنتم من خلق الحق سبحانه وتعالى».

عندئذ أدركوا أنهم لن يستطيعوا إجبار سيدنا إبراهيم على السكوت، وبعد مناقشات مطولة ظهر عجزهم في اتخاذ القرار اللازم، واضطروا لحبسه وسجنه مدة ثلاث عشرة سنة وفي النهاية قرر النمروذ - وفي قول آخر عمل برأى رجل قبيح المظهر من أكبر بلاد فارس اسمه «هيوم» - وعزم على إحراقه في النار. وبنى مبنى ذا جدران عالية أمام الجبل الواقع مقابل قرية «كوثي»^(١) من ملحقات الكوفة أو البصرة ونقل إليه حطبا يكفى حرقه لأربعين يوما وعلى رواية لثلاثمائة وست وستين يوماً^(٢).

وكذلك أشياء أخرى قابلة للحرق وملثوا بها المبنى المذكور وسكبوا عليها الزيت وأضرموا النار فيها من الجهات الأربعة.

استطراد

نظرا لوجود حى في مدينة «أورفة» معروف باسم «كوثي» وبه مزار على اعتبار أنه المكان الذي ولد به سيدنا إبراهيم وبناء على هذا يتحتم أن يكون موقد النار المعد لحرق سيدنا إبراهيم فى «أورفة» وقد عرف أن هناك صندوقاً أخضر على أنه مهد حضرة الخليل وهو داخل الغار الواقع أسفل قلعة «أورفة» وهم

(١) اسم هذه القرية حسب بحوث المؤرخ «سُدَى» هو غوطة - بدائع الزهور.

(٢) هذه المدة حسب رواية سُدَى هى ثلاثة أشهر كاملة. بدائع الزهور.

يطلقون اسم «كوثى» على الحى الواقع بمحاذاة هذا الغار وهو متصل به كما يوجد فى هذه المدينة خرابة يطلق عليها قصر النمرود.

ويوجد غير هذا فى أحد الأبراج أطلال قلعة «أورفة» أطلال عمودين من الحجر يبعد أحدهما عن الآخر مسافة خمسين ذراعاً.

وهذان العمودان معروفان بين الأهالى على أنهما المنجنيق الذى أعد لسيدنا إبراهيم.

وحسبما سمع من أهل أورفة، فقد مد إلى هذه الأعمدة حبلان سميكان، مثل الحبال التى تمتد بين المآذن ثم علقت هذه الحبال بشجرة وتركت فجأة وهكذا ألقى سيدنا إبراهيم فى خرائب المنجنيق الذى سنبين شكله فيما بعد. انتهى.

كان طول المبنى الذى أعد موقدا لسيدنا إبراهيم ستين ذراعا (٨٥ قدما) وعرضه أربعين ذراعا (٥٦ قدما و ٨ بوصات) وكان ارتفاع الجدران ٨٥ أو ٤٢ قدما وعلى قول ٢٨ قدما وأربع بوصات .

بيت

أيها الواعظ ما فى جهنم من نار بها تفرعنا

إنهم يأتون منها بالنار ليحرقوا كلامنا

وحسب مضمون هذا البيت ، فإن كل الدواب التى نقلت المحروقات إلى المحرقة كانت تتحرك ببطء ما عدا فصيلة البغال ، فقد كانت تسير بسرعة ، ومنذ ذلك الوقت حرم عليه التوالد والتناسل .

وكذلك الحيوان المسمى بالضب فقد أصبح قتله واجبا شرعا ، لأنه ساعد النماردة الضالين فى إشعال حطب المحرقة المذكورة .

أضرمت النيران فى الحطب - الذى يملأ المحرقة - مدة أربعين يوما متتالية ، واشتدت حرارتها لدرجة أنها لفحت وجه السماء وكانت الطيور التى تحلق مرتفعة تساقط إلى الأرض مثل قطرات المطر ، حتى إن سكان المدن والقرى المجاورة أشرفوا على الهلاك من شدة دخان النيران المشتعلة .

وأعد بعض الأفراد سرايب تحت الأرض لحماية أنفسهم من شدة الحرارة ، فقد كان لهيب النيران يمتد إلى الأماكن المتناهية فى البعد . «بدايع الزهور» عندما بلغت حرارة المحرقة منتهاها ، جردوا سيدنا إبراهيم من ملابسه ، وربطوا يديه وقدميه بسلسلة من الحديد بشكل محكم - ثم أجلسوه فى كفة المنجنيق الذى

صنعه النماردة بوحى شيطاني، وكان عمر سيدنا الخليل - آنذاك - قد تجاوز السابعة عشرة. وفي قول آخر التاسعة والعشرين.

وعندما أراد النماردة - المشركين - أن يجردوه من لباسه الذي يستخدمه كسروال داخلي لجسمه الشريف، ليكشفوا عورته للنيران شلت الأيدي التي امتدت للباسه الشريف. ولم تتحرك، وجاء النمروود وهو في غمار هذه الحال التي تبعث الدهشة واستدعى حضرة الخليل - على نبينا وعليه التبجيل - وقال له: يا إبراهيم إننى سألقى بك فى هذه النار فلترى إلى أى إله ستضرع وينجيك؟ فلما أجاب ربي الذى يحيى ويميت. واستدعى اثنين من المحكوم عليهما بالقتل، فعفا عن أحدهما وأطلقه، وقتل الآخر، كأنه يقول أنا أحى وأميت مثل ربك.

وعندما ما تلقى سيدنا إبراهيم هذا الرد الذى يوحى بالبلاهة تعجب من حماقة النمروود وبمقتضى المثل عديم المثل قال: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فسكت النمروود ولم يستطع الرد، وبهت.

ولكن النمروود المغرور العاتى العنيد لم يتعظ من هذا الحوار وأمر بإلقاء إبراهيم فى النار المشتعلة الملتهبة.

وفى نفس اللحظة جاء ملكان وأمسكا بحضرة الخليل من جانبيه وأنزلاه وسط النار بمنتهى الهدوء والوقار. وجاء جبريل - عليه السلام - بخلعة من خزانة الجنة وألبسها له. وأعد - بأمر الخالق - بساطا مزركشا لا مثيل له وفرشه فى المكان الذى سيقم فيه ونمت خمائل كثيرة فى الجهات الأربعة، عرضها وطولها عشرون ذراعا (٢٨ قدما و٤ بوصات).

وفى وسط هذه الخميعة التى تفوق الخيال، وعلى حافة المكان الذى جلس فيه سيدنا إبراهيم كان يجرى ماء فرات يبعث الحياة.

آيات

شاء النمروود الدون للخليل إحراقا

إلا أن تلك النار أصبحت نورا براقا

ولما بلغت النار عابد الرحمن

أصبحت روضة تبدو سعيراً للعيان

وفى أثناء وضع سيدنا إبراهيم على كفة المنجنيق لإلقائه فى النار، أجهش ساكنو الملاء الأعلى بالبكاء وكذلك العالم الأسفل، ودعوا الله قائلين:

«يا مالك الملك على الإطلاق، إن أعدائك يلقون بحضرة الخليل فى النار، فبعد هذا لن يبقى على وجه الأرض من يعبدك، لأنه لا يعترف بوحدة وجودك - على الأرض - سوى سيدنا إبراهيم، فإذا أذنت فإننا ننصره» بلغ طنين النداء عنان قبة السماء والأفلاك واسودت طبقات أعتاب السماء وأضحت مثل لون الأرض ولكن الخطاب الإلهى دوى: (إبراهيم خليلى، وليس لى خليل سواه وأنا ربه وليس له رب سواى فإذا طلب منكم النصرة فساعدوه، فقد أذنت لكم. ولكننى متأكد بأنه لن يدعو سواى) وهكذا سعى الكل إلى عرض نصرته وعونه لسيدنا إبراهيم بصورة ما، فأجابهم سيدنا إبراهيم: «حسى الله ونعم الوكيل».

فأصبحوا فى حزن وهم وقد سمعوا هذا الجواب من إبراهيم. وفى أثناء إلقاء الخليل فى النار كان يردد:

«لا إله إلا أنت، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك»

فانصهرت السلاسل الحديدية التى كبلت جسمه النبوى المغمور بالنور وسقطت على الأرض، من شدة حرارة لهيب النار التى لم تستطع أن تؤثر فى جسمه الميمون - عليه التعظيم وفى وقت إلقائه فى النار - ظهر جبريل الأمين وخاطبه قائلاً: يا إبراهيم، إذا كان لديك طلب منى فقله، فالوقت قد ضاق فأجابه قائلاً: لقد وجهت وجهى إلى واهب الآمال الذى هو قبلة المحتاجين فى العالم ولا حاجة لدى أعرضها عليك فقال: إذا كان الأمر كذلك فاعرض ما فى ضميرك لكى تنال مرامك، فأجاب إبراهيم عليه السلام: إننى أعتبر الدعاء فى هذه الحالة سماجة، فعلم الله بحالى يغنى عن سؤالى.

بناء على هذا، فإن النار الموقدة منذ أربعين يوما أصبحت بأمر الله روضة أزهار يانعة، تنعش الروح، وتأسر القلب بمقتضى الخطاب الكريم الجليل.

(يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) (الأنبياء: ٦٩) وبالخطاب الإلهي تحول داخل المحرقة إلى عالم آخر، وانقلبت نار النمرود إلى هواء عليل، وفقدت النار قوة إحراقها وإن بقى لهيبها عاليا. وتفجر داخل هذه المحرقة التى تشبه جهنم ماء عذب بارد، ونبتت فى جهاتها الأربعة فصائل الأزهار المختلفة الألوان وترينت بكل أنواع الرياحين. وخلق ملك، له شكل وصفات سيدنا إبراهيم - عليه التحية والتعظيم وأخذ يؤنسه بالتحدث معه.

(شمس التبريزى).

ذكرها الخليل مجورا

وأصبحت نار الخليل كلها

النسرين حمراء كالسورد

لخليل رب السورد

إذا جال التساؤل الآتى بالخاطر ما الحكمة من امتحان الله تعالى نبيه إبراهيم بإلقائه فى نار النمرود؟! مع أنه خليله؟ بينما لم يمتحن مخلوق قط، حتى زمن إبراهيم بإلقائه فى النار؟! يكون الجواب.

إن إبراهيم - عليه السلام - كان يخاف من نار جهنم خوفا شديدا، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين أن النار لا تستطيع أن تضر أحدا إلا بإذنه، لذا ابتلاه بإلقائه فى النار.

(بدايع الزهور).

بعد هذه الواقعة بأربعين يوما، كانت النار التى انشغل النمرود بإيقادها مدة طويلة يراها من نافذة قصره المنيف وقد أصبحت روضة من بساط أخضر، وصحراء تهج القلب وتسعد الفؤاد، مزينة بزهور النسرين الندية، وكان سيدنا إبراهيم يجلس على حافة المياه التى تجرى داخل روضة الأزهار النادرة، والحديقة

الغناء وهو يرتدى القميص الذى جلب له من خزانة الجنان، وقد غرق فى بحر المحبة والصحبة مع الملاك الذى يشبهه قلبا وقالبا واستولى على النمرود قلق وحيرة مما يرى، وقال مخاطبا إبراهيم لو أن المكان الذى أنت فيه كما يتراءى لعينى يدل على أن ربك إله عظيم ذو مقدرة خارقة وعظمة هائلة فأنا أومن به، وإن أمكنك التحرك من هذا المكان الذى تحيط به النار وتحرق ما حولك. فتعالى، وجاء الجواب نعم إن النار لا تستطيع أن تحرق قدمى، فناداه قائلا إذا كان الأمر كذلك فتعال إلى لأرى فخرج سيدنا إبراهيم من النار التى تشبه الجحيم وهو حافى القدمين وذهب إلى ناحية النمرود.

حكمة

قال مؤلف بدايع الزهور عندما كان نمرود يعمن النظر من قصره إلى حضرة الخليل، تطايرت شرارة من المحرقة، فأحترقت كل الملابس التى كان يرتديها النمرود المشثوم الطالع الملعون، لكنها لم تمس جسده بضرر وهذه إشارة لطيفة توضح أن النار لا يمكن أن تصيب أى إنسان بضرر، طالما لم يأذن الله القادر بالأذى.

وعندما رأى النمرود أن النار لم تصب حضرة الخليل بضرر أو أذى قال: يا إبراهيم كنت تتحدث مع شخص يشبهك، وأنت بداخل هذه الروضة، من كان هذا الشخص؟ ولماذا كان يطوف حولك؟ وتلقى جواب إبراهيم: هو ملك الظل أرسله إلى حضرة القادر لأتحدث معه، عندئذ كف يده عن إيذائه وإرهابه وقال: يا إبراهيم لا يمكننى أن أقبل دينك وأترك كل هذه الرفاهية والأبهة والسلطنة ولكننى سأنحر القرايين تقربا لإلهك لأنال رضاه وأذبح أربعة آلاف ثور ومثلها من الشياه.

إلا أنه زاد طغيانه فيما بعد وهباً لتحدى خالق الإنس والجن ومحاربه، فسلمت عليه بعوضة وهى أضعف مخلوقات الله فكان موته من قرصتها.

وفى تلك الأوقات كانت النار تحرق الحيوانات التى يذبحها الأفراد قربانا لله

دليل قبوله. وعندما رأى النمرود أن القرابين التي ذبحها لم تلق قبولا عند الله، لأن النار لم تمسها خجل من الذين يعبدونه ودخل داره ولم يسمح لأحد بالدخول إليه. أما تصرفه هذا كان سببا في دخول كثيرين من أتباعه في الإسلام وهكذا لاذ هؤلاء السعداء بقلعة الإسلام المتينة.

وكان للنمرود بنت تسمى «رغفت»^(١) وكان نور الهدى والسعادة يتألق في جبين هذه البنت. وقد استأذنت «رغفت» والدها في الذهاب إلى حافة المحرقة لرؤية إلقاء حضرة الخليل في النار. وأراد النمرود أن يمنع «رغفت» من الذهاب فادعى كذبا موت إبراهيم قائلا: «يا ابنتي لم يبق أثر حتى لرماد إبراهيم».

لكن «رغفت» ألحت في الرجاء، وأخذت الإذن من والدها وذهبت إلى حافة المحرقة التي ألقى فيها سيدنا إبراهيم حضرة الخليل وسط روضة عجيبة الأزهار، فقالت:

«يا إبراهيم، ما أحسن حالك النار لم تحرقك» فلما أجابها «إن النار لا يمكن أن تحرق أولئك الذين في قلوبهم معرفة الله الكريم وفي لسانهم الكلمة المنجية» بسم الله الرحمن الرحيم فقالت «إذا أذنت لى أن أذهب إلى جوارك» ودخلت وسط النار وهى تردد الكلمات المنجيات بلسان الصدق والإخلاص على النحو الذى علمها حضرة إبراهيم «لا إله، إلا الله إبراهيم خليل الله».

ولما لم تحترق أقرت واعترفت بلا تردد بوجود الله موجد الوجود وسعدت بنيل الوصول إلى سعادة الإيمان السرية. وعندما ضاق والدها النمرود وتكدر من إيمان «رغفت» بإله إبراهيم، ولم تؤثر فيها النصائح التى ظل ينصحها بها كثيرا لكى ترتد فقيدها من يديها وقدميها، ولكنه لم ينجح فى صرف ابنته عن دين إبراهيم، لأن حضرة الخليل نقل «رغفت» إلى مكان آخر، صور الله سبحانه وتعالى القادر المطلق إحدى بنات النماردة ممن أمعن فى الكفر والشرك على هيئة «رغفت» فقتلها النمرود ظنًا منه بأنها «رغفت».

(١) يروى أيضًا أن اسمها رغهف.

وبعد هذا نقلت «رغفت» إلى المكان الذى هاجر إليه سيدنا إبراهيم، وتزوجت من مدين بن إبراهيم، وأصبح لها من مدين عشرون ابنا وحفيدا واكتسى أكثر هؤلاء خلع النبوة الفاخرة.

وعندما نجا إبراهيم - عليه السلام - من ضغوط النمرود، صدق بنبوته لوط بن هارون والآخرين من الوجهاء وسعدوا بنيل مرامهم، أما سارة بنت هارون فسبقت الجميع فى الاعتراف بنبوته إبراهيم وردت على تساؤل (أدنى) يا سارة ألا تخافين أن يقتلوك؟

أجابت: كيف أخشى وقد آمنت بإله ابنك خليل الله، ولا بد أن يكون هدف (أدنى) من هذا السؤال هو اختبار مدى قوة إيمان سارة، لأن الحافظ السهيلي . نقل رواية تتصل بهذا الموضوع والتي تبين أن (أدنى) كانت من أهل الإيمان لكنها أخفت إيمانها وكتمته عن النماردة .

وقد اختلف المؤرخون السابقون فى تحديد شخصية هارون، فقال بعضهم إن هارون كان ملكا على مدينة حران .

وقد تزوج حضرة الخليل من ابنته سارة لما هاجر إلى حران، وقال بعض المؤرخين إن هارون كان أخا إبراهيم .

وقال الآخرون: إنه كان عمه الأكبر، وكان الزواج من ابنة الأخ جائزا شرعا فى تلك الأوقات .

وهناك من يدعى أن أخا إبراهيم وعمه يحملان اسما واحدا وهو هارون وأن ناحور جد سيدنا لقمان بن باعور أخو هارون ويفهم من هذه الرواية أن السيدة سارة كانت ابنة ناحور، والله أعلم بالصواب .

إخطار:

على رغم عدم وجود المعلومات الصحيحة حول ما إذا كان المنجنيق الذي علمهم صنعه إبليس ذو التلييس لإلقاء سيدنا إبراهيم في النار هو نفس الآلة التي بينا شكلها أم لا . ولكننا نستطيع أن نحكم أنها تشبه المنجنيق الذي اخترع في زمن النمرود الشقى، خاصة أن هذه الآلة من الآلات الحربية القديمة المستعملة في الحروب قبل اختراع الأسلحة النارية.

ونقول في وصف شكل الآلة المذكورة، إنها عبارة عن قطعتين من الخشب قويتين ورصيتين، وربطت كل منهما بالأخرى في شكل أفقى، ومدت بينهما أحبال وغرست فيها - في نهاية الخشبتين والموضوعتين بشكل أفقى، بواسطة وتر طويل بقدر كاف مثل الملعقة، وقد ربطت بوتر أفقى ثالث من أطرافها العلوية.

أما طريقة استعمال هذه الآلة، فإن الوتر «م» ينتقل إلى الوضع الأفقى بواسطة البكرة «دد» مرميها وتوضع الأشياء التي ستلقى في الوتر (م) المذكور ويتم إرخاء ذلك المسمار وتلك البكرة وهكذا تصطدم الخشبة (م) بالوتر ق وتلقى الأشياء إلى النقطة المطلوبة.

صورة هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر:

بعون الحق وعناية فيض الله المطلق نجح إبراهيم من نار النمرود، وتزوج بسارة ابنة أخيه وعلى قول ابنة عمه، وظل لفترة طويلة متتحيا جانبا، يعالج الآلاف من أهل معقل العصيان مرضى القلوب من خلال إرشاداته الشافية.

ولما أخبره ابن أخيه لوط أن النمرود يريد أن يزعجه^(١) بالكيد والإساءة إلى

(١) كان سيدنا إبراهيم آنذاك على اختلاف الروايات في الخامسة والسبعين من عمره.

الآخرين، اصطحب سارة وابن أخيه واتجهوا نحو مصر ليبتعدوا عن شرور النماردة المستحقين اللوم واللعنة. وقبل ذلك أقاموا قليلاً في حران، ثم في بعلبك الشام ولم يمكثوا في مصر ذات الأهرامات طويلاً، وغادروا راكبين إلى الشام ونزلوا في وادى السبع وكان قد اصطحب معه أمه مع والده آزر، غير أن آزر انتقل إلى دار الآخرة في مدينة حران وقد بلغ الخمس بعد المائة.

إضافة:

وادى السبع موضع في «طريق الرقة» وقد قال «وائل بن قاسط» عن سبب تسميته «ما أدري عن هذا شيئاً إلا أنه وادى السباع» ووائل هذا رجل من مشاهير العرب دخل بالصدفة إلى خيمة أسماء ابنة ريم في أثناء عبوره من المكان المذكور. وكانت أسماء فائقة الحسن ونظراً لوجودها بمفردها في خيمتها عند مجئ «وائل بن قاسط» فطمع في أن يقضى وطره منها فامتنت وهى تدافع عن نفسها قائلة: «إذا لم تكف يدك عنى فإننى سأستدعى سباعى، ولم يكن وائل يرى أحداً سواها، وعندما قال لها يا ترى أين سباعك؟!»

نادت أسماء بصوت عال: يا كليب يا ذئب، يادب، يا فهد، يا سرحوف، يا أسد، يا ضبع، يا ثمر.

وهذه الأسماء كانت أسماء أبنائها فظهر كل واحد منهم من ناحية وهو شاهر سيفه فخاف وائل منهم وظل يقول «ما أدري هذا إلا وادى السباع»، لذا أطلق اسم «وادى السباع» على الموضع المذكور.

وقلة من المؤرخين الذين بينوا سبب هجرة سيدنا إبراهيم: «فى اللحظة التى نجا فيها حضرة الخليل من نار النمرود صدق بنوته لوط بن أخيه هارون وسيويل بن ناحور ابن أخيه الآخر وسارة ابنة هارون ابنة عمه وسارعوا بالاعتراف والإقرار بوجود واجد الوجود.

وتكاثر أتباع خليل الرحمن بإقبال الناس على الإيمان بوحداية الله - سبحانه

وتعالى - أما ضناديد النماردة فكانوا قلقين من تزايد عدد المسلمين وأخذوا يبحثون عن وسيلة للقضاء على حضرة إبراهيم - عليه السلام - وإبعاده من كل بابل وما حولها.

وأخذ النماردة يؤسسون الجمعيات فى كل مكان ويوسعون دائرة الشر ويعملون على تقوية أنفسهم حينئذ عثر النمرود على حضرة الخليل، وقال له: «يا إبراهيم! أصبحت إقامتك هنا غير مأمونة الآن، وربما ستكون خطيرة، لذا يستحسن أن تهجر إلى مكان أمين تقيم هناك فترة وتستريح.

ووافقت فكرة الهجرة فكر إبراهيم أيضا فترك مدينة بابل متجها إلى مصر، وعند دخول حضرة إبراهيم إلى الحدود المصرية علم أن شرفه وعرضه لن يسلم من اعتداء فرعون. وبناء عليه وضع السيدة «سارة» فى داخل صندوق فى أثناء دخوله إلى مصر ولكن الموظفين المنتشرين خارج المدينة وداخلها كسروا هذا الصندوق بالقوة، وأخرجوا السيدة سارة رضى الله عنها.

ولما أعجبوا بحسنها الأخاذ وجمالها أبلغوا فرعون بالأمر وتكفل به الجواسيس الذين كانوا معهم إذ أسرعوا إلى فرعون قائلين: قد جاء إلى مقر عرشك رجل وزوجته تمتاز بجمال فريد وحسن لم ير أو يسمع عن مثله حتى هذه اللحظة وسهلوا له استدعاء إبراهيم.

وبناء على هذا أحضروا إبراهيم - عليه السلام - وزوجته إلى فرعون.

إخطار:

كان فراعنة مصر فى ذلك الوقت يقيمون فى بلدة منف. وكانوا يأخذون الرسوم والضرائب من المسافرين الذاهبين والقادمين بواسطة حراس الطرق وفق نظم موضوعة.

رغم وجود أقوال كثيرة ومختلفة حول السن التى كان بلغها حضرة الخليل عند هجرته إلى مصر، فإن صاحب تاريخ العالم قد قبل الرواية التى تخبر أن سيدنا

إبراهيم كان في السبعين من عمره، كما اتفق المؤرخون على أن فرعون مصر في ذلك الوقت كان «سنان بن علوان» من أبناء سام بن نوح عليه السلام.

ومع هذا يدعى صاحب «بدائع الزهور» أن اسم فرعون الملك هو طوطيس «انتهى».

عندما رأى فرعون جمال سارة وحسنها - رضى الله عنها - سحر بهذا الجمال الذى وصف بأنه قطعة من نور السماء. تحركت رغبته الشهوانية، استدعى خليل الرحمن وسأله ما صلة سارة بك؟ وسرعان ما أدرك نيته تجاه أمنا سارة.

ولم يكن في ذلك الوقت فى مصر من يعبد الله الحق، لذا خاف إبراهيم - عليه السلام - من تعرض «سارة» لسوء فأجاب قائلاً: «إن سارة أختى وبهذا كان يريد أن يلمح أن سارة أخته فى الدين ولم يكن هنا أحد يعرف حقيقة الأمور.

وإن كان فرعون اقتنع بأن سارة أخت إبراهيم من بطن واحد إلا أنه قرر فى قرارة نفسه ألا يمنع هذا الأمر من ارتكاب ما صمم عليه، وأمر بأن يخرج إبراهيم من قصره. وتدخل «سارة» إليه فى خلوته، وبدأ رأساً تنفيذ ما فى نفسه قائلاً: «وإن كان إبراهيم أخاك فأنا لست أخاك» ومد يده إليها وتوهم أنه سينال منها. وبما أن زوجات الأنبياء مصونات لا تمسهم أيادى الأجانب والأعداء فلما أراد أن ينفذ ما يريده وإذا بجدران القصر المشيد وأسقفه تهتز وإذا باليد التى مدت إليها تشل^(١) رأى (سنان بن علوان) هذا الحادث الشريف المخيف المرعب فاستولى عليه الخوف والفرع وطلب من السيدة سارة أن تدعو الله لتعود يده إلى حالتها الأولى. وأخذت السيدة «سارة» تدعو إلى الله وتبتهل فترة دون أن تنظر لما ارتكبه فرعون مصر. وإذا باليد التى شلت وجمدت تعود إليها الحياة كما كانت من قبل.

(١) سنان بن علوان هو أخو ضحاك من ملوك القبط واسمه عند البعض «صاروق» وإن الشخص الذى أراد أن يسيئ إلى سارة هو «حلاون» ملك الأردن.

وكان هذا الفرعون الذى إنكب على الظلم والإهانة وأصر عليها، قد تكررت محاولته ثلاث مرات وعلى رأى مؤلف - بدائع الزهور - سبع مرات، فاندھش فرعون وسألها ما هذه الحال؟ وكان جوابها إن الرجل الصالح إبراهيم زوجى . وفهم فرعون حقيقة الأمر .

فأخذ يستعطفها وقال لها معظما موقرا: «يا سارة إننى لن أحاول أن أتعدى عليك مرة أخرى وإننى تخليت عن شهواتى النفسية» لذا أطلب منك أن تدعو ربك مرة أخرى حتى تعود يدي لحالتها الأولى . وقامت سارة تدعو الله سبحانه وتعالى قائلة: «إذا كان فرعون صادقا فى قوله أعد يده إلى حالتها الأولى» وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائها فرجعت يد فرعون لحالتها الأولى .

إتعظ (سنان بن علوان) من هذه الحادثة المليئة بالحكم، وأهداها جارية قبطية لا نظير لها وملكها لسارة ثم تركها تذهب إلى زوجها إبراهيم - عليه السلام - الذى كان خارج القصر يعانى من القلق والاضطراب والحيرة كأنه غارق بين أمواج البحر المتلاطم .

إخطار:

بناء على بعض الروايات أن هاجر لم تكن جارية رقيقة بل كانت من بنات ملوك القبط . وقد أهداها فرعون لسارة قائلا: «ها أجز دعائك» وهذا يفيد سبب تسميتها «بهاجر» .

أما إبراهيم - عليه السلام - فحينما أخذت سارة إلى خلوة فرعون أصيب الزوج حسب بشرته بالهم والغم واضطرب اضطرابا شديدا فلم يكن منه إلا أن يتوجه إلى عتبة قاضى الحاجات داعيا . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يخلص إبراهيم - عليه السلام - من أوهامه ووساوسه، فحول جدران قصر فرعون الكثيفة إلى زجاجة شفافة لطيفة كأنها مرآة تعكس ما فى داخلها وهكذا رفعت من أنظار إبراهيم - عليه السلام - ستائر الظلام والحجاب وهكذا قد اطلع على ما جرى بين (سنان بن علوان) وبين سارة زوجته . ولما جاءت المشار إليها .

أبيات

مرت فى بحر الحسن هاجر
والصدف يجدر بالدر
وصلب الخليل الطاهر
وهبها ذلك الجوهر
فظهر على الفور حملها
كانت درة، لادرة مثلها
كابن من جوهر يتفق فى أيام
أما هى فوديعه على الدوام

رغم أن المشهور هو أن ولادة سيدنا إسماعيل - باهر السعادة - كانت عام ٢٧٨٢ قبل الهجرة النبوية، وعلى قول إنه كان سنة ٢٧٦٣، فإن هناك من يدعى أن ولادته كانت عام ٢٥٢٨ أو ٢٩٠٢ قبل الهجرة النبوية، وكان سيدنا إبراهيم آنذاك فى السادسة والستين من عمره.

سبب سفر خليل الرب الجليل إلى واد غيرذى زرع

ومكة وطريقة سفره

سكن إبراهيم - عليه السلام - فى قرية تسمى «فسط» تقع بين البلدة المسماة «رملة»^(١) و«أيلة»^(٢) فى أرض فلسطين^(٣).

وأصبح واسع الثراء مما ساعده على استضافة المسافرين الغادين منهم والرائحين.

(١) أيلة تضم ولايتى القدس وغزة.

(٢) اسم بلدة فى الشام.

(٣) اسم آخر للقدس الشريف تعنى فى اللغة السريانية بيت الله.

وعندما اقترب وقت هلاك قوم لوط الخبثاء أخرج سيدنا لوط من بين الطائفة الخبيثة. ونزلت الملائكة ضيوفا على بيت خليل الله، وبعثت السعادة فى نفس السيدة سارة - رضى الله عنها - بتبشيرها بولادة سيدنا إسحاق باهر السعادة.

ويروى أن هؤلاء الملائكة كانوا اثنى عشر ملكا، وفى رواية أخرى أن الملائكة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل - عليهم السلام.

لم يعرف سيدنا إبراهيم أن ضيوفه كانوا الملائكة وقام بنفسه بخدمتهم وتوفير ما يلزمهم وذلك تعظيما لشأنهم.

وأعد لطعامهم عجلا صغيرا سمينا، ولما رأى أن الضيوف لا يمدون أيديهم إلى الطعام علاه الخوف والوهم وبدت عليه مظاهر الخشية والرهبه فخاطبه الملائكة قائلين: «لا تخف يا إبراهيم إننا مرسلون لقوم لوط» (إبراهيم: ٧٠)

حيثئذ أدرك أنهم رسل مكلفون من عند الله، وصرح الملائكة بحقيقة الأمر وأفهموه أنهم نزلوا من السماء لكى يقهروا ويدمروا قوم لوط الذين زاد فجورهم وبغيهم، كما بشره بأن السيدة «سارة» ستلد له غلاما سعيد الطالع اسمه إسحاق.

كان هذا الحوار قبل هجرة نبينا عليه أفضل التحية بـ ٢٧٩٢ سنة، وفى قول آخر ٢٧٧٣، وفى قول ثالث بـ ٢٥٣٨ سنة وفى رابع أنه كان قبل الهجرة بـ ٢٩١٢ سنة.

كانت السيدة «سارة» فى ذلك الوقت تقف بجوار زوجها المكرم إبراهيم - عليه السلام - وسمعت ما قاله الملائكة الكرام، ولكنها استبعدت أن يكون لها ولزوجها أولاد، فهى ترى نفسها عجوزا كما أن زوجها شيخ كبير.

فقد كانت فى التسعين من عمرها، وكان سيدنا إبراهيم فى السادسة والتسعين من عمره، ولذلك تبسمت لبشرى الملائكة هذه، ومع ذلك فقد جاءها الحيض، وبعد انقضائه حملت ثم ولدت إسحاق - عليه السلام - بعد عشر سنوات من ولادة إسماعيل.

استطراد

فى الليلة التى سيولد فيها سيدنا إسحاق رأى سيدنا إبراهيم فى الرؤيا، أن ألف كوكب مضىّ يجتمع فى برج واحد، وقص ما رأى على جبريل الأمين ورجاه أن يفسر له دلالة هذه الرؤيا. فقال له جبريل الأمين فى تفسير رؤياه إنها تشير إلى أنه سيخرج من الصلب الطاهر لابنك إسحاق الذى سيولد من زوجتك سارة، ألف رسول سيكونون زينة الدنيا.

سر إبراهيم - عليه السلام - من التأويل وأخذ فى التضرع إلى الله قائلاً: «اللهم اجعل لابنى إسماعيل أيضاً نصيباً من هذه النعم الجليلة» وبمجرد ما انتهى من دعائه استمع إلى صوت هاتف يتردد بصداه يا إبراهيم، سيأتى من نسل إسماعيل الطاهر نبى عظيم القدر، كريم الخلق واجب التعظيم، وسيكون هذا النبى بداية رسالة المرسلات وخاتم باب النبوة، وهو مخلوق محمود، وسبب وجود الرسل والأنبياء واسمه الشريف (محمد المصطفى).

فبدت عليه علامات السعادة، وكان سبباً فى ظهور تلك الساحة المزينة بالأنبياء وشكر الله معرباً عن امتنانه وحمد الله على نهج الآية الكريمة: «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء» (إبراهيم: ٣٨).

(قصص النيسابورى)

إن السيدة سارة - رضى الله عنها - قد أنعم الله عليها بآبن تسعى السعادة فى ركابه، على القدر مثل إسحاق عليه السلام، وقد غلبت عليها فى نهاية عمرها نوازع غيرة النساء بصورة تجاوزت كل الحدود. وكانت تغار من السيدة هاجر أم إسماعيل - عليه السلام - ولما رأت أن سيدنا إبراهيم يحب امرأته هاجر وابنه إسماعيل حبا جما قررت «سارة» ألا تألو جهداً لتكدير زوجها باستخدام جميع الأساليب المؤذية.

لم يستطع إبراهيم - عليه السلام - أن يتحمل أعباء الشيخوخة وظلم «سارة» وسخريتها فأراد أن يجار بالشكوى من تصرفات «سارة» ولكنه قال فى نفسه «سارة ناقصة العقل وأنت من فحول العقلاء فعليك أن تتحمل سلوك غير المترن كالرجال الشهاء» وعزم على السكوت. ومع ذلك حدث ذات يوم أن أعرب عن حبه لإسماعيل ابنه الأكبر فى وجود أخيه الأصغر إسحاق.

غار إسحاق من كلام أبيه بحكم صغر سنه، وغضب من والده وخاصة فأثار هذا غضب أمه سارة، ولهذا أقسمت بالله أن تشوه جاريتها هاجر بقطع جزء من لحمها.

عندما سمعت هاجر قسم السيدة سارة ملأها خوف شديد فأسرت بالخروج إلى الوادى وقررت الهرب إلى مكان تآمن فيه على نفسها ثم ربطت فى خصرها^(١) وتركت ذيل ثيابها يجر على الأرض ليخفى آثار أقدامها.

وعندما هدأت غيرة النساء فى نفس السيدة سارة - رضى الله عنها - بعد فترة ندمت على ما بدر منها من قسم فى حق السيدة هاجر، ووجهت كل أفكارها واجتهادها لتجد سبيلا للوفاء بقسمها دون أن تؤذى هاجر.

فقال لها زوجها المكرم: «يا سارة» اقطعى جزءاً من اللحم الزائد من عضو هاجر المستور ليكون ختاناً، وافتحى ثقباً فى الموضع الرقيق من أذنهما، فإذا علقت به قرطاً تكونى قد وفيت بقسمك. فختنت السيدة سارة السيدة هاجر وثقبت أذنهما وعلقت بهما قرطاً وهكذا برت بقسمها.

إخطار:

كان هدف سارة - رضى الله عنها - من هذا القسم أن تنفر سيدنا إبراهيم من جاريتها هاجر. ولكن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يجعل ختان هاجر سنة يتبعها المسلمون فاختن إبراهيم - عليه السلام - وزوجته «سارة» أما ما يتعلق بثقب أذن

(١) يروى أن ربط النساء وسطهم بزناى هى عادة اكتسبها من هاجر.

هاجر فقد أصبح - بالنسبة لسائر النساء - وسيلة من الوسائل للتزين والتحلى باللائىء والجواهر. وتثقب النساء - الآن - آذانهن، ويلبسن الأقراط، بل إن هذه العادة تعتبر من مكملات الزينة لدى النساء.

وبعد فترة جد نزاع - من نزاعات الصبية - بين الأخوين، جعل السيدة سارة فى ضيق وقلق دفعها لإظهار ما فى قلبها صراحة وقالت لزوجها المكرم «إننى لن أستطيع بعد اليوم أن أعيش مع هاجر فى مكان واحد فخذها إلى مكان بعيد واركها هناك».

وبناء على هذا أخذ حضرة الخليل زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى أرض الحجاز العطرة وتركهما هناك.

وفى اللحظة التى أعربت فيها السيدة سارة عما فى ضميرها، وأقسمت على عدم قدرتها على الحياة مع هاجر فى بيت واحد هبط براق من السماء كريح الصبا، وقال إنه مأمور من الله بحمل حضرة إبراهيم إلى مكة. فما كان من النبى إبراهيم - عليه السلام - إلا أن يركب البراق حاملا ابنه أمامه وزوجته خلفه، وطاروا صوب مكة المكرمة؛ وفق إرادة الله.

وفى أثناء الرحلة كان جبريل الأمين دليلهم، وكلما مروا بمكان فى أثناء الطريق سأله حضرة الخليل هل سنهبط هنا؟ يجيبه جبريل الأمين: «لا سنذهب إلى مكان أبعد» وقابلوا فى مكان قرب حدود مكة المعظمة طائفة من قوم العمالقة أحببت هذه الطائفة سيدنا إسماعيل ولاطفوه وأعطوا له عشرة من الغنم^(١).

والعروف بين المؤرخين أن سلالة الماعز الموجودة الآن فى مكة وما حولها هى بقية نسل الماعز الذى أهدها العمالقة - آنذاك إلى سيدنا إسماعيل.

وعندما وصلوا إلى جبل «كدا» المواجه لجبل «حجون»^(٢) قال جبريل الأمين:

(١) هذه طبقا لتحقيقات بعض المؤرخين أهدها الجراهمة إلى إسماعيل - عليه السلام - بعد السيدة هاجر.

(٢) حجون: على وزن جبور، وهو اسم جبل من الجبال الموجودة فى الناحية المسماة «المعلا من معلاة الكعبة، أى من مدينة مكة.

«ستهبطون هنا فهذا المكان مقام عال. وهنا سيخرج من ذريتك رسول له شأن عظيم وبه تتم كلمة الإسلام».

ثم أنزل سيدنا الخليل فى المكان المقدس للبيت الشريف وكانت أرض مكة فى ذلك الوقت بيئة مليئة بأشجار البلوط وكانت خالية من الناس وتشبه الغابة ومحاطة بأشجار السنط المسماة «أم غيلان» من أشجار البوادي وكانت هادئة ساكنة.

وكان المكان المقدس للبيت الحرام مكانا مباركا مرتفعاً بعض الشيء مغطى بالرمال الحمراء.

نظم

وفى النهاية خليل الله
عمر هذا البناء وأعلاه
وبقدم هاجر المهاجرة
أصبحت بها الصحراء عامرة
وشاهدت عيون تسعة أبناء
أن حمل الفلك كبش الفداء
تبعه عين ماء الحياة التى سالت
وجرى الماء وجرى قدم الحوض ليسلم
فتفجر ماء زمزم

وبعد أن أعطى سيدنا إبراهيم للسيدة هاجر جرة ماء ومقدارا من التمر، وعلى قول، إنه أعطاها ملء كيل من الدقيق وبين لها المكان الذى فيه حجر إسماعيل الجوهرة الخضراء داخل المطاف السعيد الآن. أو مكان بئر زمزم^(١) الشريف وقال «يا هاجر، أقيمي خيمة هناك، واسكني فيها - فهذا ما جرى به أمر قضاء الله».

(١) ذلك المكان الشريف كان مكانا لا نظير له، يحتوى على أشجار غير مثمرة ذات ظلال وافرع تحمى من حرارة الشمس.

فأجابته: «إذا كان هذا هو أمر الحق؟ فإن الله خير الحافظين سيحميننا ويحفظنا، فتلقى إبراهيم هذه الإجابة من زوجته ورجع - وكان سيدنا إسماعيل في ذلك الوقت في الثانية عشرة من عمره.

تنبيه:

لا يجوز لأى إنسان أن يترك أولاده وزوجته في البرية والخلاء تقليداً لسيدنا إبراهيم، فحضرة الخليل عمل بالوحى الإلهى وتوكل على الله وهو يعلن أن الله خير الحافظين سيتولى حفظهم.

وتوكل عامة الناس لا يمكن أن يشبه توكل الرسل الكرام أولى العزم، الذين ذكروا في هذا البيت:

أولو العزم نوح والخليل بن آزر

وموسى وعيسى والحبيب محمد

وتقليد هذا العمل غير مشروع، وجاء في بعض الروايات أن السيدة هاجر عندما رأت نفسها وقد تركت وحيدة في ذلك الوادى الغير ذى زرع تبعت زوجها وقالت له: «هل تركنا وتمضى عاندا؟ ولم تتلق منه إجابة بنعم أو لا فسارت وراءه حتى جبل» «كدا» وعندما وصل سيدنا إبراهيم إلى الجبل المذكور التفت وقال: يا هاجر، إننى أستودعك الله أمانة عنده؛ فقالت له: إذا كان قد أوحى إليك بهذا. فإن الله الواحد الأحد - الذى تركتنا فى كنفه - كافينا وكافلنا. ثم عادت إلى جانب إسماعيل وصعد زوجها المكرم إلى قمة الجبل سالف الذكر.

فلما رأى أنه ترك زوجته وابنه فى مكان موحش خال من آثار العمران والزرع، تأثر من فرط الرحمة والشفقة ودعا الله قائلاً:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ثم رجع إلى الشام.

وفى قول آخر، إن السيدة «سارة» أصابتها الغيرة من إسماعيل - عليه السلام - وقالت: يا إبراهيم، إذا كنت تريد لى راحة البال وهدوء الحال فاحمل هاجر وابنها إلى مكان قفر بلا ماء واطركما هناك. ولما كان الوحي الجليل قد نزل آنذاك بأن يعمل تبعاً لرأى سارة فإن، حضرة الخليل ترك المشار إليهما مع جرة ماء فى واد غير ذى زرع بمكة، ودعا على النحو السابق.

ولما كان دعاؤه مقبولاً مجاباً؟ فقد ظهرت قبائل «جرهم» و «قطورا» وعمرت مكة المكرمة، وأصبحت أهلة.

كيف ظهر بنو زمر الشريف:

عندما نفذ الماء من الجرة التى تركها الزوج المكرم - عليه السلام - فى ثلاثة أيام، ورأت السيدة هاجر أن ابنها إسماعيل أصبح على وشك الموت من العطش ولا حيلة له، وهى أيضاً لا حيلة لها ولا قوة، فلبن ثديها قد انقطع^(١).

وبعد أن تأملت وبكت لفترة، وهى فزعة جزعة من وحدتها فى ذلك الوادى الموحش، تركت ابنها إسماعيل أسفل الخيمة التى أقامتها من قبل وصعدت فوق قمة جبل الصفا للبحث عن الماء. ومن فوق هذا الجبل نظرت تجاه ابنها، حيث لا أثر لماء، أو لإنسان يروح أو يغدو، ونزلت إلى بطن الوادى، وكان المكان المنخفض الذى تركت فيه ابنها يوارى ويحول دون رؤيته فألقت فوق كتفها بالزائد من الملابس الموجودة وراء ظهرها، وصعدت بسرعة فوق ربوة جبل المروة، فرأت ابنها من هناك ثم نزلت إلى الوادى ومع ذلك لم تستطع أن ترى ابنها، فأسرعت بالصعود إلى أعلى قمة جبل الصفا وابتهجت عيناها برؤية ابنها الذى يبعث السعادة فى النفوس. استمرت على هذا المنوال سبع مرات^(٢) تذهب وتغدو من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا، بنحو لم يفعله مخلوق من بنى البشر وهى تقول «ليس من الممكن أن يوجد هنا ماء أو أن أقابل بشرا

(١) هذه الرواية تختلف عما يدعيه المؤرخون بأن سيدنا إسماعيل أثناء الهجرة، كان فى الثانية عشرة من عمره.

(٢) لم يكن هناك من سعى بين الصفا والمروة قبل السيدة هاجر. لذا فإنها أول الساعين.

ورجعت إلى إسماعيل وقد امتلأت يأسا وخيبة أمل . وهناك سمعت صوتا يشبه صدى صوت إنسان فأحست بالفرح ، لكنها لم تستطع أن تحدد ناحية مصدر الصوت وتحيرت ، فماذا تفعل؟! وقد كف الصوت المذكور وبدأت تتلفت حولها وهي حزينة .

بعد ما أفاقت بفترة قالت : «يا صاحب الصوت الندى الذى شغف سمعى . عندما سمعت صوتك الملائكى غرقت فى بحر الأمل ، إذا كنت نصيراً إلى فعجل ، لأننى وابنى قد استولى علينا الألم واليأس . فقد بلغنا درجة الموت عندئذ اضطر صاحب الصوت أن يظهر ، وكان جبريل الأمين وأن يظهر ماء زمزم بضربة من جناحه .

وسرت السيدة هاجر بظهور الماء سروراً عظيماً وبعد أن شربت^(١) وارتوت أخذ ضرعاها اللذان جف لبيهما فى الإدرار ، وأحاطت الماء بالرمال حتى لا يسيل الماء فى الوادى ، وفى قول آخر إنها عندما حفظت بعض الماء للإدخار أظهرت نوعاً من عدم التوكل ، لذلك غاض الماء فى الحال فى باطن الأرض وكان هذا سبباً فى توارى^(٢) الماء عن وجه الأرض بعد ما كان الماء جارياً .

لو لم تحاول هاجر - رضى الله عنها - أن تمنع الماء من الجريان بإحاطته بالرمال ، لظل جارياً إلى يوم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف . ظهر ماء زمزم على النحو المذكور وكانت السيدة هاجر فى أمان وسعادة ولما رأى ذلك جبريل الأمين خاطب هاجر قائلاً : «يا هاجر لا يحزن قلبك من هذا المكان الساكن هما وغما ولا يجول بخاطرك أن هذا الماء ينضب ، فقد انفجر هذا الماء الذى يهب الحياة لحرمة ماء وجه إسماعيل الذى يزين حضنك ، وإن ابنك هذا سيتشرف بشرف النبوة وسوف يبنى مع زوجك إبراهيم هذه الساحة المباركة التى تزيل الهم

(١) يروى أن السيدة هاجر سقت ابنها قبل أن تشرب .

(٢) لم يكن حول بئر زمزم حتى زمن أبى جعفر المنصور خزيمة من الحجارة والرخام ولم يوجد حول فوهته خزيمة يحيط بها وفى زمن خلافة المشرق إليه أقاموا خزيمة كما غطى ما حولها بالرخام .

والغم وهى بقعة مفخمة مشرفة، وبناء على هذا سيزيد عمران هذا الوادى من سنة إلى أخرى.

سيق أفراد من الأقوام والقبائل ليزوروا هذا المكان المقدس الذي سيعمره المشار إليهما.

وبما أن هذا المقال قد أزال الحزن من نفس هاجر وبشرها بأن هذا المكان سيكون فى دائرة المسجد الحرام الذى سيسبب الفرح والإبتهاج فى النفوس. فما كان منها إلا أن قامت وأدت فرائض العبودية والشكر لله - تعالى - وقررت أن تمضى حياتها فى هذا المكان المبارك المقدس.

وقد اختلف العلماء فى بيان كيفية تفجر ماء زمزم الشريف، فقال فريق إنها ظهرت من أثر ضربة جناح جبريل - عليه السلام - وذهبت جماعة إلى أنها ظهرت من أثر ضربة كعب سيدنا إسماعيل، ولكن القول الأرجح حسبما ذكرنا أن جبريل ضرب الأرض بجناحه فتفجرت المياه وأحاطتها هاجر - رضى الله عنها - بما حولها من رمال، ثم قام إبراهيم بعد ذلك بحفرها وتعميقها حتى أصبحت على شكل بئر وهذا ما قرره الجمهور.

كما اختلف المؤرخون فى تعريف سبب تسمية زمزم الشريف أيضا، ففى بعض الأقوال إنها سميت زمزم لكثرة تدفقها، وعند البعض أن تسميتها تعود إلى معنى «اجر بطيئا بطيئا» أى زم زم^(١) وثبت هذا الاسم على البئر وعرف به.

وإننا سنبين فى موضوع كيفية انتقال الحكم من يد حكومة مكة إلى أيادى بنى خزاعة، أن هذا الماء ضاع وغاب فى زمن الجراهمة الذين كانوا عنوانا للضلال والطغيان، وبمرور الأيام نسى اسمه وجسمه ومكان وجوده.

وبالصدفة أقام أهل مكة صنمين لهما عند طرفى بئر زمزم الشريف الذي كان مجهول المكان.

(١) إذا عرفنا أن معنى زمزم باللغة اليونانية «قف» يجب علينا أن نحمل التسمية لهذا السبب.

فأقاموا نائلة فى طرف وإساف فى الجانب الآخر. وكانوا يذبحون القرابين بين هذين الصنمين فوق فوهة بئر زمزم الشريف وعندما آل حكم مكة ورتاسة قريش إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وكان قد اقترب الزمن الذى ستجد فيه قلوب عطاش الجاهلية ماء حياة الهداية وستتحول أرض يثرب البطحاء القاحلة إلى جنات مأوى بفضل الماء الزلال الذى يفيض من نور النبوة.

وفى زمن عمرو بن حارث الجرهمى، كان زمزم قد اختفى عن العيون وظل خفيا مدة خمسمائة عام بعيدا عن العيون. وصدرت الإرادة الإلهية لحكمة ما يظهر زمزم الشريف، وكلف عبد المطلب ذات ليلة من الليالى فى رؤياه بأن يقوم بحفر زمزم مفتخرا.

ورغم أن عبد المطلب قد أمر بهذه المهمة، إلا أن مكان البئر المذكور كان غير معروف فى ذلك الوقت، لذا رأى أنه لن يستطيع بمفرده القيام بهذا العمل واضطر للاستعانة بقريش قديما ورؤساء قبائل قريش ووجه إليهم هذا السؤال «قد كلفت بحفر بئر زمزم وإظهارها فهل تعينونى فى هذا العمل؟».

فسألوه هل تعرف مكان بئر زمزم؟ فقال: لم ألهم بذلك أيضا يعنى لم أعرفه فقال الرؤساء: «يا عبد المطلب يجب أن تستخير هذه الليلة إذا كنت مأمورا بهذا العمل من قبل الرحمن فإنه سيخبرك بمكانه، وإذا كانت الرؤيا شيطانية فلن ترى مثل هذه الرؤيا مرة أخرى.

وقد أعجب عبد المطلب برأى الرؤساء وأسرع بكل إخلاص وتوكل يستخير فى تلك الليلة.

وبناء على هذه الاستخارة ظهر لعبد المطلب فى رؤياه فى تلك الليلة شخص يتحدث بهذه العبارات المسجوعة: «احفر زمزم إن حفرتها لن تندم وهو تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبدا ولا تندم فسقى الحجيج الأعظم ليس كبعض ما تقدم وهى بين الفرث والدم» ولما رجا عبد المطلب من الهاتف أن يبين له المكان القديم للبئر المذكورة، فأشار له قائلا «عند قرية النمل حيث ينقر الغراب» وكأنه أراد من

عبد المطلب أن يحفر فى مكان يعيش فيه النمل حيث يأتى غراب فى الصباح وينقر فوق بيت النمل وينكشه. ورغم هذا لم يستطع عبد المطلب أن يهتدى إلى المقصود من هذا الرمز والإشارة ثم وصاه بأن يبدأ فى الحفر مسترشدا بهذه الأقوال إذ قال له بعد ليلة «زمزم وما زمزم هزمه جبريل برجله وسقياء إسماعيل وأهله زمزم البركات روى الرماق الواردات شفاء سقم وخير طعام»، وفى الليلة التالية قال «احفر تكتم بين الفرث والدم وعند نقر الأعصم وفى قرية النمل مستقبل الأصنام الأحمر» تكتم اسم من أسماء زمزم المكرم بمعنى «مكتوم» كما سيين فيما بعد.

الغراب الأعصم:

يطلق على غراب إحدى رجليه حمراء على قول ابن شيبه. وبناء على رأى حاكم يطلق على غراب أحمر الرجلين والمنقار، وبناء على قول صاحب الإحياء يطلق على غراب بطنه بيضاء، وبناء على تدقيق صاحب حياة الحيوان يطلق على غراب أبيض الجناحين أو أبيض الرجلين أو يطلق على غراب أبرش.

على بن أبى طالب - رضى الله عنه - بناء على القول الموثوق الذى يروى عن على بن أبى طالب بن عبد المطلب عندما رأى الرؤيا السابقة الذكر، غشيته الرهبة والدهشة وتحير فيما يفعله، ولم يستطع أن يبدأ فى حفر البئر، وبعد فترة رأى عبد المطلب فى رؤياه أن شخصا يقول له «احفر بئر طيبة. وبعد ليلة يقول له احفر بئر مضمونة وعمقها وفى ليلة أخرى بعد أن ذكر الفقرات السابقة المسجوعة عرفه بموقع البئر وبين بعض خواصها؟ ولكن عبد المطلب لم يستطع أن يفهم معنى هذه العبارات المبهمة وراح فى تفكير عميق. وفى ليلة من الليالى استغرق فى النوم ورأسه مشغول بهذه الأفكار فى حجر إسماعيل. وإذا به رأى فى منامه أن هذا الرجل المبارك يقول له: «هل تعرف معنى زمزم، زمزم بئر الماء الذى فجره جبريل عليه السلام بضربة من رجله وهو اسم ماء إسماعيل - عليه السلام - وأتباعه. وهو البركة ذاتها وإنه يروى العطاش الذين يردون للشرب ويشفى

المرضى، وهو أنفس أنواع الطعام، وبهذا الإيضاح وضح شأن بثر زمزم وخواص مائها».

عبد المطلب - عرف عبد المطلب بدلالة هذه الرؤيا معنى زمزم لدرجة ما؟ ولكنه لم يستطع أن يعرف موقعه بالضبط.

لذا توجه إلى الله - سبحانه وتعالى - متضرعا مبتهلا قائلا: «يا ربى العليم ومولاي الكريم، دلنى على موقع البثر الذى كلفت بحفره. وقد أصاب سهم دعائه هدفه ونال قبولا إذ رأى فى رؤياه من يقول له: يا عبد المطلب احفر بثر زمزم وإذا أردت أن تعرف مكانها فإنها بين صنمى «إساف» و «نائلة»، حيث يذبح فيه القرشيون قرايبنهم وفوق بيت نمل. وغدا سيأتى غراب أبرش وينبش بمنقاره فضع علامة حيث ينبش ثم عجل بحفر وتعميق المكان الذى فيه بيت النمل فتال مطلبك».

وهكذا وضحت الرؤيا الأمر، ولم يبقَ أدنى شك فى مكان زمزم، واستيقظ عبد المطلب من نومه واتجه صوب المسجد الحرام ورأى الغراب ينبش ما بين إساف ونائلة فى وقت السحر، وذهب هناك حيث وجد بيت النمل وبدأ مع ابنه الحفر فى هذا المكان ومعه أدوات الحفر مثل الفأس والمجرفة.

حينما رأى أفراد قبيلة قريش أن عبد المطلب يحفر المكان المذكور شاع الخبر سريعا فيما بينهم وهجموا على عبد المطلب قائلين:

«إننا لن نتركك تحفر المكان الذى نذبح فيه القرايين وخاصة المكان الذى يوجد فيه إساف ونائلة. وأرادوا أن يمنعوه من الحفر، وقد زادت جلبتهم وصياحهم حتى إنهم قد أطالوا الكلام والجدال وتحول الموقف إلى ما يشبه القتال فمات كثيرون».

لم يكن لعبد المطلب حينذاك أبناء غير الحارث وقد رأى أنه لن يستطيع أن يقاوم القرشيين مع ابنه، لذا ترك مقاومتهم واتجه إلى الله - سبحانه وتعالى - مخلصا يائسا «يا إلهى، إذا ما نصرتنى على قريش وأبلغت عدد أولادى إلى عشرة فإننى أفدى واحدا منهم قربانا لك» وكان هذا نذر منه.

وبظهور بعض العلامات أدرك عبد المطلب أن دعاءه قد حاز القبول فتوكل على الله وقام بأداء ما كلف به، وغلب هو وابنه الوحيد كل قبائل قريش وكفت القبائل المعتدية يدها عنه ووقفوا في موقف المشاهدة والتفرج.

وفي اليوم الثالث عندما ظهرت العلامات التي تشير إلى وجود بثر زمزم مثل^(١) الأسلحة وتمائيل صغار الغزلان^(٢) التي ألقاها الجراهمة في بثر زمزم، عندما أجبروا على ترك مكة المكرمة والجلء عنها، عندئذ قال عبد المطلب: «إن كل هذه الأشياء لدليل كاف للإثبات أن بثر زمزم في هذا المكان» ومن فرط سروره أخذ يكبر بصوت مرتفع.

عندما سمع القرشيون تكبير عبد المطلب اجتمعوا كلهم حوله وأدركوا أنه نال مراده ورأوا الأشياء القيمة التي أخرجها من البثر فطمعوا فيها وظهرت عليهم بوادر النزاع والخصومة وقالوا «يا عبد المطلب إن لنا نصيبا في الأشياء التي أخرجتها من داخل البثر».

لأن البثر بثر جدنا إسماعيل - عليه السلام - وهذا يوجب تقسيم ما وجدته بين أفراد قبائل قريش فقال لهم لاحق لكم في هذه الدفينة لأنكم لم تساعدوني في حفر البثر بل أردتم منعي من الحفر مما أدى إلى إراقة الدماء، ولكنهم اعترضوا عليه مهددين بتجدد النزاع وقالوا: «إذا رفضت إشراكنا في المال كله فعلى الأقل نقسمه مناصفة بينك وبين القبائل، فإذا رفضت هذا الحل أيضا فإننا نقاتلك من جديد».

ولما رأى عبد المطلب أن المعارضة قد استفحلت وأنها قد تؤدي إلى قتل بعض الأشخاص، خاطب الذين استمروا في الضغط عليه «عليكم أن تختاروا حكما نافذ الكلمة ليفصل بيننا في هذا الأمر» وقد ارتضت قريش هذا الرأي الصائب وقرروا اللجوء إلى كاهنة قبيلة «بنى سعد بن هذيم» التي تسكن قريبا من بلاد

(١) عندما ألقى الجراهمة هذه الأشياء الثمينة في بثر زمزم ألقتها ليخفوها عن أعدائهم ثم سدوها بالحجارة والتراب حتى يجبروا أعداءهم على ترك المكان تحت وطأة العطش.

(٢) صغار الغزلان هذه كانت مصنعة من الذهب الخالص ومرصعة بأنواع الجواهر.

الشام العامرة لتحكم بينهم، وخرجوا جميعا للذهاب إلى حيث تقيم الكاهنة المشار إليها، ولما كانت منطقة الحجاز في ذلك الوقت خالية من الطرق المنتظمة وليس بها قرى متقاربة أو عيون ماء أو آبار ممرات ضيقة لدفع الوحشة. ولاشك أن السير في مثل هذه الطرق أمر مخيف، كما أن السير في تلك الصحارى الخالية من المياه من الصعوبة بمكان، لذا حمل عبد المطلب ومن معه من صناديد قبيلة قريش ما يحتاجون إليه من أطعمة ومال يكفيهم إلى أن يصلوا إلى حدود الشام.

وعندما ابتعدوا عن مكة ووصلوا إلى واد موحش عديم الماء نفذ الماد الذي كان مع عبد المطلب وفتته وأوشكوا على الهلاك، وبعد أن احترقت أكبادهم من العطش. وطلبوا بعض الماء من خصومهم حتى ينجو من هذه المصيبة العظيمة، ولكنهم رفضوا قائلين: «نحن الآن في واد تنعدم فيه فرصة العثور على نقطة ماء فإذا ما أعطينا لكم الماء فإننا سنتعرض للعطش الذي تعرضتم له كما أن الماء الذي معنا قليل يكاد أن يكفينا وهذا عذر مقنع في عدم إمدادكم. فزادت حيرة عبد المطلب وجماعته وقلقهم عندما تلقوا هذا الرد.

وعندما رأى عبد المطلب هذا الجحود والإساءة من معارضيه سأل من معه مستطعلا رأيهم «ما رأيكم في هذا الأمر؟! فقالوا نحن طوع أمرك، ننفذ ما تراه. عندئذ قال: «رأيت أن يحفر كل واحد منكم قبراً لنفسه في انتظار الموت، ومن يموت أولاً يدفنه الذي مازال على قيد الحياة، فإذا دفن كل من يموت يبقى في النهاية جثمان شخص واحد بدون دفن والأفضل أن يبقى جثمان واحد فقط بدون دفن من أن تبقى أجسادنا جميعا في العراء مكشوفة فليحفر كل واحد منكم قبراً طالما فيه القدرة على الحفر. وافق رفاقه على رأيه وحفر كل واحد منهم قبراً لنفسه وانتظر حلول أجله.

وبعد مدة قال عبد المطلب: «يا رفاقي - إن حفر قبر انتظاركاً للموت شيء عجيب لم يحدث منذ عهد آدم - عليه السلام - وبدل على عجزنا وضعف هممنا، فإذا قمنا وسرنا ربما يكتب الله لنا النجاة بأن نصل إلى بلدة أو قرية ويبعث لنا ماء

الحياة برحمته، هيا انهضوا لتستمروا فى الطريق سنستعين بالله تعالى»، وبتأثير هذه الكلمات المشجعة التى كانت كالماء الزلال، انبعث فى أبدان أصدقائه الذين كادوا أن يهلكوا قوة كافية، وجهاز كل واحد منهم دابته للسير.

أما رجال القبائل المعارضة كانوا يراقبون حركاتهم متيقظين مبتهجين وهم يرون المصيبة الشديدة التى تعرض لها عبد المطلب وأصحابه بسبب قلة الماء ويتحدثون فى استهزاء.

وعندما امتطى عبد المطلب جواده وأراد أن يستمر فى السير تفجر من تحت قدمى دابته التى تحركت للسير ماء عذب سائغ ولما رأى عبد المطلب وأنصاره هذه النعمة غير المنتظرة فرحوا فرحا شديدا بالماء وكبروا كلهم فى صوت واحد ونزلوا عن جيادهم وشربوا الماء مكبرين حتى ارتووا وملثوا جوارهم، وقربهم ودعوا معارضيههم الذين كانوا قالوا لهم، إننا نرفض أن نعطيكم شربة ماء وقالوا لهم، إن الله - سبحانه وتعالى - قد سقانا وأحيانا بظهور هذا الماء وهو يكفى لنا ولكم اشربوا كما تشاءون واملثوا قربكم، ربما لا تتمكن من العثور على الماء فى المسافة الباقية من الطريق.

وتحير القرشيون مما ناله عبد المطلب من نعمة غير مرتقبة واستغربوا ثم تذكروا موقفهم منه وإساءتهم إليه بمنع الماء عنه فعلاهم الخجل واستحيوا وقالوا لعبد المطلب لقد فصل الله فى قضيتنا بظهور هذا الماء لم يعد لنا حق المعارضة فى ماء زمزم.

وما دام الله الوهاب الذى لا يمن عليه - جل شأنه - قد من عليك بإظهار هذا الماء وأنقذك من العطش فلا شك أنه قد أنعم عليك بزمزم المكرم والأشياء القيمة التى ظهرت فى بئر زمزم.

فكل هذه الأشياء حقك الحلال فتصرف فيها كما تشاء، ولم تعد هناك حاجة إلى حكم الكاهنة. ثم رجعوا جميعا بعد ما أقنعوا عبد المطلب بالعودة.

سعد عبد المطلب مما أظهره أفراد القبائل المختلفة من احترام وندموا على ما بدر منهم، لذا دعاهم كلهم بمجرد عودته إلى مكة المعظمة وخطب فيهم قائلاً:

«إذا كان لاحق لكم فى الأشياء الثمينة التى أخرجت من بئر زمزم بسبب معارضتكم لى فإننى بما أتصف به من مروءة وشهامة أود أن يكون لكم نصيب منها فلتقسم هذه الأشياء إلى قسمين» وتسحب القرعة، وكل من تصيبه القرعة تكون هذه الأشياء من نصيبه.

وعقب قوله هذا، جعل صغار الغزلان حصة، وبقية الأشياء حصة أخرى وأجرى القرعة بين قريش والبيت الأعظم وبينه فخرجت الغزلان من نصيب الكعبة وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب والحكمة ما خرج القرشيون صفر اليدين من هذه القرعة، وقد باع عبد المطلب نصيبه من هذه الأشياء وأنفق ثمنها على أعمال الكعبة، وفى قول آخر أنه صهر الغزلان وزين باب المعلا من الكعبة، وفى قول ثالث إنها ظلت كما هى وعلقها على باب الكعبة الشريفة».

وعندما خرج القرشيون من القرعة بلا نصيب فلم يسعهم إلا أن يفرقوا وأن يقفوا موقف المتفرج، ولما فهموا أنه لم يعد لهم من الأمر شىء تغاضوا تماما عن منازعة عبد المطلب حول بئر زمزم.

ورأى عبد المطلب أن الأمور هدأت واستمر فى تعميق البئر على النحو الذى يريده، ونجح فى إظهار ماء زمزم العذب الذى قد اختفى منذ خمسمائة سنة وبما أن الناس والحجاج والأهالى يلقون مشقة إحضار الماء من الآبار البعيدة ويتكبدون فى سبيل ذلك مشقات بالغة زادت مكانته وقدره بين الناس. مما حمله على أن يرفع يديه بالشكر لله - سبحانه وتعالى - من فرط سعادته وفخره ونذر نذرا بقوله «يارب لو أنعمت على عشرة من الأبناء الذكور وبلغوا جميعا مبلغ الرجال فى حياتى لأذبحن أحدهم قربانا وفداء لك وعندما بلغ عدد أبنائه عشرا، أوفى بنذره على النحو المذكور فى الصورة الثانية من الوجهة الثانية.

ويدعى بعض المؤرخين أن نذر عبد المطلب كان عندما عارضته قريش فى حفر البئر، والبعض الآخر يقول إنه كان فى أثناء ظهور ماء زمزم.

ولكن ليس ببعيد أن يكون عبد المطلب قد نذر مرتين مرة حينما كان يدعو الله لينصره على قريش ومرة ثانية عندما ظهر ماء زمزم شكرا لله .

أسماء زمزم الشريف

ولزمزم ثلاثون اسما مشهورا عند العلماء وهى «زمزم» همزة، هزمة جبريل، طيبة، طيبة، برة، عصمة، مذنونة، شباة العيال، عون، سقيا الله إسماعيل، بركة سيدة نافعة، بشرى، صافية، معذبة، طاهرة، حرمية، مروية، سالمة، ميمونة، مباركة كافية، عافية، طعام طعم، مونسة، شفاء سقم، شراب الأبرار، تكتم» .

سبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، أحصى الشيوخ الكرام فى مكة المشرفة ثلاثين اسما لماء زمزم المكرم وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها على الوجه التالى:

١- **زمزم**: رغم أن المؤرخين من السلف يقولون إن إطلاق اسم زمزم لأنه يفيد معنى «اجر بطيئا» فهذه الرواية ليس لها قيمة كبيرة، وحسب أرجح الأقوال وأقواها للعلماء أن وفرة ماء البئر وتدفقه بقوة سبب تسميته بزمزم وعلى هذا التقدير فزمزم اسم للبئر وليس للماء الشريف .

٢- **همزة**: ومعناها الضرب، إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحيه وعلى قول آخر بجناحه .

٣- **هزمة جبريل**: هزمة بمعنى تعميق، بما أن جبريل - عليه السلام - عمق البئر بجناحه وتسبب فى ظهور الماء وهذا هو وجه التسمية .

٤- **ظبية**: وسبب التسمية أن حفرة البئر تشبه الجراب .

٥- **طيبة**: وسبب التسمية ظاهر من المعنى .

٦- **برة**: سميت بهذا الاسم لأن تفجرها كان من أجل الأبرار .

٧- **عصمة**: وسبب التسمية أنها غابت واختفت عن الكفار الفجرة .

- ٨- **مضنونة**: وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.
- ٩- **شباعة العيال**: لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم بهذا الماء المبارك.
- ١٠- **عونة**: لأن الناس فى الجاهلية اتخذوا هذا الماء الصافى الشفاف وسيلة لإشباع أولادهم وأزواجهم، لأن الجوعى كانوا يشبعون بشرب ماء زمزم.
- ١١- **سقىا الله إسماعيل**: بما أنه لا يوجد ماء غير زمزم فى مكة المكرمة فقد تكرم الله - سبحانه وتعالى - بسقىا إسماعيل بهذا الماء المبارك وهذا هو سبب التسمية.
- ١٢- **بركة**: سبب التسمية ظاهر من اللفظ.
- ١٣- **سيدة**: وسبب التسمية أن ماء زمزم الشريفة، سيدة كل المياه ماعدا ماء الحياة الذى نبع من الأنامل النبوية الشريفة.
- ١٤- **نافعة**: سبب إطلاق هذا الاسم أنه ذو فائدة عظيمة للمؤمنين الموحدين.
- ١٥- **بشرى**: لأن الله - سبحانه وتعالى - بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.
- ١٦- **صافية**: سبب هذه التسمية صفاء مائه وشفافيته.
- ١٧- **معذبة**: ويرجع هذا الاسم لعذوبتها وحلاوتها.
- ١٨- **ظاهرة**: وسبب التسمية هو الإشارة القرآنية إلى هذا الماء الشريف حسبما جاء فى الآية الجليلة: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان: ٢١).
- ١٩- **حرمية**: وذلك لوجوده داخل الحرم الشريف لكعبة الله.
- ٢٠- **مروية**: ووجه التسمية أنها تبعث فى كل أعضاء الجسم الصفاء كما تولد الإحساس بالشبع مثل الطعام.
- ٢١- **سائلة**: ووجه التسمية أنها لا تتعفن ولا تفسد.
- ٢٢- **ميمونة**: وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة كما أنها اتباع للسنة السنية للرسول الكريم صاحب السعادة.

٢٣. مباركة؛ وسبب إطلاق هذه التسمية واضح من اللفظ .

٢٤. كافية؛ لأنه يقوم مقام الطعام .

٢٥. عافية؛ لأنه يكسب شاربه الصحة والعافية .

٢٦. طعام طعم؛ مفهوم من اللفظ .

٢٧. شفاء سقم؛ إنه شفاء من المرض كما سيرد في الحديث الشريف الآتى فيما بعد .

٢٨. مؤنسة؛ أنه يؤنس سكان حرم كعبة الله .

٢٩. شراب الأبرار؛ ذلك لأن جميع الأنبياء وأولياء الله الكرام شربوا مرتين من هذا الماء كما أن ماء زمزم اكتسب شرفا وقيمة حينما امتزج ماءه بريق النبي ﷺ .

٣٠. تكتم؛ سبب تسميته بهذا الاسم اختفاؤه وانقطاعه فى زمن «مضاض بن عمرو» .

نظم

لزمزم ثلاثون اسما فاذكر
منها خلوص إيمانك يظهر
همزة وهزمة شفاء سقم ميمونة
طاهرة مروية سقيا وشراب الأبرار
سيدة بركة ومضنونة مبارك عصمة
عافية معذبة طعام طعم أحرار
مونسة تكتم وبرة، حرمية عونه
ظليه، زمزم وطيبة، وبشرى كبار
صافية، كافية، وأيضا نافعة وسالمة
وأيضا شباة كما قال عنها شيوخنا الأخبار

وقد جاء فى الخبر واتفق عليه جمهور العلماء أن زمزم الشريف أفضل ماء وأعدبه بعد الماء الزلال الذى نبع من أصابع النبى المباركة وهو معجزة من معجزاته عليه السلام.

تفضلت أم أيمن - رضى الله عنها - حاضنة النبى - ﷺ - وقالت طول مدة قيامى بحضانة وخدمة مستوجب المغفرة الدر اليتيم الرسول - ﷺ - لم أجده يشكو من الجوع والعطش فى أى وقت من الأوقات، وكان فى الصباح يأكل قليلا من الطعام ثم يشرب عليه من زمزم المبارك وبعد ذلك كلما أردت أن أطعمه كان يجيئنى قائلا إني شبعان.

ويجب أن يقال فى أثناء شرب ماء زمزم: «اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء وسقم» يروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن نفع ماء زمزم يتوقف على نية شاربه «إذا شرب بنية الشفاء فالله سبحانه وتعالى، ينعم بالشفاء وإذا شرب بنية الاستعاذة فالله - سبحانه وتعالى - يحفظ شاربه من كل سوء. وإذا شرب بنية إزالة الحرارة تنطفئ».

وهى تكون هكذا بالنسبة لمن يشربونها بصدق نية وسلامة طوية بدون أن يكون شربهم لتجربة مدى صحة الحديث الشريف. لأن الخصائص المذكورة لماء زمزم الشريف موجودة الآن وباقية وظاهرة إلى قيام الساعة، ولكن الله - سبحانه وتعالى - يفضح المجرمين الذين يشربونه بقصد التجربة وقد قال النبى - ﷺ - ذات مرة وهو يوضح الخواص الجليلة لذلك الماء المبارك إنها مباركة وذات مرة قال إنها طعام طعم وفى مرة إنها طعام سقم، وذات مرة: «إن ماء زمزم لما شرب له»، وذات مرة قال: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق» وقال مرة: «لا يجتمع ماء زمزم المكرم ونار جهنم فى جوف عبد أبدا»، وفى مرة «خمس من العبادة، النظر فى المصحف، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى الوالدين، والنظر فى زمزم وهى تحط الخطايا، والنظر إلى وجه العالم ومرة: «خير بثر على وجه الأرض ماء زمزم». ومرة أخرى: «من جاء هذا البيت، حاجا

فطاف به ثم أتى مقام إبراهيم عليه السلام فصلى عنده ركعتين ثم أتى إلى زمزم، ثم شرب من مائها أخرجته الله من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ذهب عبد الله بن المبارك ذات يوم إلى بئر زمزم الشريف، وطلب جرعات من ماء زمزم وأخذ كوباً منه وتوجه إلى كعبة الله وقال: «إلهي إن حبيبك محمد المصطفى عليه وعلى آله من التحيات أذكأها، قال إن ماء زمزم لما شرب له، وأنا أشرب هذا الماء بنية إزالة عطش يوم القيامة هذا اليوم المليء بالهول وإطفاء نار حرارة هذا اليوم، وشرب كوب الماء».

بناء على تعريف صاحب كتاب «البحر العميق ومناسك ابن العجمي».

إن الذين يشربون ماء زمزم الشريف طلباً للمغفرة قائلين «اللهم إنه بلغني أن رسولك - ﷺ - قال: «ماء زمزم لما شرب له» (حديث شريف) اللهم إنى أشربه لتغفر لى، اللهم اغفر لى فيغفر له ذنوبه، والذين يشربونه طلباً للشفاء من العلل والأمراض يجب أن يقولوا «اللهم إنى أشربه مستشفياً به اللهم فاشفى».

قال محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق (رضى الله عنهم) بينما كنت يوماً فى مجلس عبد الله بن عباس جاء رجل وقال له ابن عباس من أين أتيت فأجابه من بئر زمزم، فقال ابن عباس هل استطعت أن تشرب من الماء المبارك وفقاً للطريقة المسنونة؟ فقال الرجل: «إنى شربت من ماء زمزم وسوف أشكركم إذا ما بينتم لى الطريقة المسنونة لشرب زمزم» - فقال له: «عندما تشرب ماء زمزم استقبل القبلة وأذكر الله واشرب حتى ترتوى وتنفس ثلاث مرات فى أثناء الشرب وبعد الشرب أحمده الله سبحانه وتعالى»، لأن الرسول ﷺ قد قال: الفرق بين المسلمين والمنافقين أن المنافقين لا يشربون ماء زمزم حتى يبلغ حلوقهم وبذلك بين الطريقة المثلى لشرب ماء زمزم.

وقد صدق الدارقطنى والحاكم قول ابن عباس وبيّن أنه يطابق تماماً الأحاديث النبوية الشريفة وشرحاً أن زمزم يشرب على ثلاث دفعات ويبدأ كل مرة بالبسملة وتنتهى بحمد الله. والمقصود بكلمة حتى تبلغ الحلق أنه لا بد أن يملأ البطن بماء

زمزم حتى تصل إلى ما بين عظام الضلوع ومن الجائز نقل ماء زمزم الزلال إلى خارج الحرم أى يؤخذ إلى بلاد المسلمين للتبرك به. والتوضؤ بماء زمزم غير مكروه ويجوز الاغتسال به، لكن من يستنجون به يصابون بمرض البواسير.

وبما أن الرسول - ﷺ - منبع الحكمة قد نقل ماء زمزم الشريف إلى خارج الحرم، فمن السنة السنية الأحمدية نقل الحجيج ماء زمزم معهم عند العودة.

من عجائب زمزم المكرم من الأمور المجربة إذا شرب إنسان ما من ماء زمزم حتى بلغ حلقه وقد أخلص النية ثم قال «يا زمزم زمى» شفى من مرض الشراهة فى الأكل.

قال أحد الصالحين للإمام اليافعى عليه رحمة الله: كنت أجلس ذات يوم عند كعبة الله، وفجأة جاء رجل غطى وجهه بشال ودخل إلى مبنى بئر زمزم وملاً جرتة ماء وشرب قدراً من الماء ورجع، وعندما جاء إلى جانبى طلبت منه الجرة المذكورة، وعندما شربت الماء المتبقى بداخلها أحسست بلذة عجيبة لم أتذوقها طوال عمري فكان ماء زمزم بداخل الجرة كأنه شراباً حلواً ممزوجاً بالعسل المصفى، وعندما أردت أن أنظر إلى وجه الرجل لأتبين من هو فإذا به يأخذ الجرة من يدي وانصرف.

وفى اليوم الثانى ذهبت إلى المسجد الحرام من الفجر وجلست بجانب بئر زمزم عسى أن أراه مرة أخرى وبعد مرور وقت قصير ظهر الرجل بوجهه المغطى وتقدم إلى داخل مبنى بئر زمزم وملاً دلو ماء من زمزم وشرب منه وشربت ما تبقى فى الدلو وكان ما شربته لم يكن ماء زمزم المكرم إنما كان حلياً ممزوجاً بالسكر.

ويتقل أن رسولنا سيد الكائنات عليه أطف التحيات، شرف بئر زمزم ذات يوم وسحب السقاة دلو ماء، وقدموه له فشرب الرسول - ﷺ - القليل منه ومزج الباقي بريقه المبارك وسكب السقاة ذلك الماء الممزوج داخل بئر زمزم للتبرك، فقال الرسول - ﷺ - إن ماء زمزم يشفى المرض ويدفع الجوع عن الذى يشربه بنية الطعام.

وعن أبى ذر الغفارى - رضى الله عنه البارى - أنه فى الأيام التى لا يجد طعاما صالحا للأكل يشرب ماء زمزم الشريف ويكسب طاقة وهكذا كان يدفع الجوع والحرارة. إن خواص زمزم الموضحة أعلاه يصدقها الأطباء أيضا.

وحسبما قال المجربون. إنه يقوى المعدة ويسهل هضم الطعام وإذا شرب والمعدة خاوية، فإنه يطهر الأمعاء. ويهدئ سخونة الجسم بناء على هذا يجب الارتواء منه والمعدة خاوية والتبرك به.

وقد ثبت بالحديث الصحيح أن ماء زمزم الشريف أفضل من الكوثر ويزيل من شاربهِ الحرص والطمع، ويسهل هضم الطعام، ويبرئ الأمراض المزمنة وغير المزمنة ويحث على الطاعة والعبادات، ويزيد نور البصيرة ويقوى الفهم والطاعة والعلم، ويزيل أمراض الجسم وغضب الله واجد الوجود، ويضفى على القلب رقة، والذين يشربونه اتباعاً للسنة السنية الأحمدية يرضون الله - سبحانه وتعالى - ويغيظون الجن والشيطان الرجيم ويؤلمونهما ويعثون فى إيمانهم القوة والنضارة.

وقد كتب الإمام السمهودى فى كتابه (خلاصة الوفاء)، وهو من مؤرخى المدينة المنورة المشهورين المتأخرين: يوجد مثل هذا الماء فى المدينة المنورة أيضا حتى أنه يطلق على بثره «بثر زمزم»، ويحمل ماؤه إلى البلاد الأخرى بقصد التبرك به.

هجرة قبائل الجراهمة وقطورا إلى مكة المكرمة

بعد مدة من ظهور زمزم الشريف لسقى هاجر - رضى الله عنها - كما سبق توضيحه، حدث أن مرت قبائل جرهم وهى من الأقوام اليمانية المرتحلين إلى الشام بالقرب من مكة المكرمة، وباتوا هناك حتى إن بعضهم صعدوا فوق جبل أبى قبيس ورأوا بعض الطيور.

وفى قول: إن شابين من طائفة العمالقة التى كانت تسكن فى وادى عرفات آنذاك فى خيمها، صعدا فوق الجبل المذكور للبحث عن إبلهم الضائعة، وبينما كانا يجولان رأيا بضعة طيور^(١) بالوادى فتساءلا قائلين: «وجود الطيور تنبئ عن وجود ماء، يا ترى أين ذلك الماء؟ وتنقلا من جبل إلى جبل بحثا عن الماء، وإذا بهما يريان فى وسط الوادى تماما امرأة تحتضن طفلا، فاقتربا منها وأخذا يسألانها عن وقت ظهور ماء زمزم وكيف كان ظهوره بقولهما «يا أنت هل أنت من طائفة الجن»؟ أم من جميلات الجن التى تسكن هذا المكان الخالى؟ ومتى وكيف ظهر هذا الماء الجارى الذى أنت بجواره؟!.

فلما أجابت السيدة هاجر قائلة: هذا الطفل قره عين إبراهيم خليل الله، قد أنعم الحق - سبحانه وتعالى - فأجرى هذا الماء الذى يمنح الحياة إكراما لماء وجهه. وقد أنبأنى بواسطة جبريل الأمين أن هذا الوادى سيصبح بعد فترة عامرا ومأهولا.

لما عرفا القصة رجواها أن تسمح لقبيلتهما بالإقامة فى هذا المكان، قالوا لها إذا أذنت لنا أن نحضر أهل قبيلتنا ليعيشوا بجوارك بعد أن يقيموا خيامهم فى هذا المكان الموحش ويشربوا من ماء الحياة هذا، ويزيلوا آلام هذا المكان وأكداره، لأن

(١) هذا الوادى هو المكان الذى أسست فيه كعبة الله.

هذا الماء ماؤك وملك يمينك فأذنت لهما، وما كان منهما إلا أن ذهبا إلى قومهما وعادوا جميعاً^(١).

وكانت هذه الطائفة من أبناء عمومة سيدنا إبراهيم وكان رئيسهم مضاض بن عمرو، وكان بصحبة القبيلة المذكورة عشيرة قطورا أيضا وكانت برئاسة سميدع بن هوشك أو سميدع بن العاص وكان كل أفراد هذه العشيرة من أقارب أفراد القبيلة التي تحت رئاسة مضاض بن عمرو.

وبعد مدة استدعى مضاض بن عمرو وسميدع بن العاص أقاربهما من اليمن وأقاموا جميعا بجوار زمزم الشريف، وبدأوا جميعا فى تأسيس مكة المكرمة، وزراعة ما حولها رعاية لسيدنا إسماعيل وهكذا تحول الوادى غير ذى الزرع إلى مدينة.

ورغم أن سيدنا الخليل قد ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل وانقطع عنهما فترة، إلا أنه كان يعلم أخبارهما من جبريل - عليه السلام - ويشكر الله لذلك.

وأخذ إبراهيم يتردد على مكة المكرمة بعد الاستئذان من سارة زوجته - كما سيذكر فيما بعد - ثم أمر بزيارتهما بالوحى الإلهى، وكان يزورهما أول كل شهر تنفيذاً للوحى أو بناء على قول آخر كان يزورهما كلما خطرا على باله، ولما رأى تزايد الجماعات المهاجرة إلى تلك البقعة المقدسة من يوم لآخر، ملأته السعادة إذ رأى زوال وحشة العزلة فى هذا الوادى.

وكان يذهب لزيارتهما بعد تناول الإفطار مع السيدة سارة ويرجع قبل أن يحل وقت القيلولة.

زواج سيدنا إسماعيل وذهاب سيدنا إبراهيم إلى مكة تقابلة ابنه

تربى سيدنا إسماعيل وسط أطفال الجراهمة وتعلم لغة العرب العذبة وقبيل انتقال^(٢) أمه الرحيمة السيدة هاجر - رضى الله عنها - إلى جنات النعيم تزوج من

(١) القبيلة المذكورة من الجراهمة أول من سكنت مكة المعظمة.

(٢) عندما توفيت السيدة هاجر كان ابنها إسماعيل فى الخامسة عشرة من عمره وفى قول آخر كان قد بلغ العشرين من عمره وكان عمرها آنذاك قد بلغ ستين سنة.

سيدة^(١) بنت مضاض بن عمرو ولكنه تأثر بوفاة والدته هاجر أشد التأثر ولم يكن هناك شيء يسرى عنه، لذلك انغمس فى الخروج للصيد، وكان يتوهم أن الصيد سيدفع عنه الآلام والأحزان.

وذات يوم ذهب سيدنا إبراهيم إلى مكة المعظمة مستأذنا من زوجته السيدة سارة - رضى الله عنها - بنية العودة سريعا ليطمئن على ابنه دون أن يترجل من على ظهر حصانه.

ولما وصل إلى مكة المكرمة عرف أن السيدة هاجر قد انتقلت إلى دار البقاء، وأن سيدنا إسماعيل ذهب إلى صحراء بعيدة بعض الشيء من أجل الصيد، ولما كان جائعا طلب من زوجة ابنه «سيدة بنت مضاض بن عمرو» قليلا من الطعام فلما أجابته المذكورة قائلة: لا يوجد عندي طعام قال لها: عندما يعود زوجك أقرئيه منى السلام، وقولى له أن يغير عتبة بيته ومضى.

وعندما رجع إسماعيل - عليه السلام - من الصحراء قالت له زوجته «جاءنا اليوم شيخ صالح وقد ألح إلى مسألة غريبة بقوله: إنه يقرئك السلام وعليك أن تغير عتبة بيتك» بناء على هذا طلق سيدنا إسماعيل زوجته سيدة، وتزوج من «رعدة بنت عمرو الجرهمي» وأنجب منها أولاداً كثيرين.

يطلق اسم العرب المستعربة على القبائل العربية المنحدرة من صلب سيدنا إسماعيل، واسم العرب العاربة أو العرب العرباء على القبائل التى ينتهى نسبها إلى قبائل قحطان وجرهم.

واستمر سيدنا الخليل بعد ذلك لفترة يستأذن من السيدة سارة. ويذهب إلى مكة كما كان يذهب من قبل ليطمئن على أحوال ابنه إسماعيل. وفى زيارة من زياراته لم يجد ابنه إسماعيل وسأل عنه زوجته. وكانت^(٢) رعدة بنت عمرو بحق الزوجة الوفية المخلصة اللائقة بإسماعيل، إذ أخبرت عن ذهاب زوجها إلى واد قفر من أجل الصيد.

(١) وفى قول آخر إنه تزوج عمارة بنت سعيد بن أسامة بن اكيلى من رؤساء العمالقة.

(٢) يروى على قول أنها سيدة بنت مضاض بن عمرو.

وبعد ذلك أطعمت والد زوجها بطعام لذيذ مكون من اللحم واللبن السهل الهضم، وبذلك أظهرت له مظاهر التعظيم والإجلال والاحترام، وبعد الطعام قالت له وهى ترجوه «يبدو أنكم أشرفتم من مكان بعيد فإذا تفضلت بالوقوف على هذا الحجر لكى أغسل لك رأسك وأمشط شعرك تكن قد أنعمت على جاريتكم بسرور بالغ، وأشارت إلى الحجر الذى استخدم فيما بعد بمثابة الوصلة عند بناء بيت الله المقدس».

وكان الطعام الذى أتت به رعلة مكون من قطعة من اللحم المطبوخ ومقدارا كافيا من لبن وتمر، ونظرا لصعوبة توفير الخبز قالت وهى تقدم له هذا الطعام، لو كان هناك خبزا لقدمته فأرجوك أن تعذرني، فرد عليها قائلا: فليبارك الله فيكم وفى طعامكم هذا واستجيب لهذا الدعاء من قبل الله فأنره باق إلى الآن فالتمر واللحم متوفران بكثرة فى مكة المعظمة.

نظم

إنها امرأة ذلك الشاب الأغر
أهل البيت بالنعمة غمر
بعينها أنها رجلا تطهر
فبوجهين العورة تستر

وسر سيدنا إبراهيم من المعاملة الطيبة التى أظهرتها رعلة بنت عمرو نحوه. وعندما وقف فوق الحجر الذى أشارت إليه قامت السيدة «رعلة» بغسل جانبه الأيمن، ثم الأيسر وبعد ذلك غسلت كل جسمه المبارك فقال لها حموها: «أقرنى زوجك السلام، وأبلغنيه أنه ليس عليه أن يغير عتبة بيته ثم انصرف».

وبعد فترة قصيرة شرف سيدنا إسماعيل بيته، واشتم رائحة والده العزيز المباركة وسأل عمن جاء، فأجابته قائلة جاء شيخ كريم، ذو جمال باهر وذو رائحة عطرة، وأبديت له ما يستحقه مقامه الرفيع من آيات التكريم وأحضرت له

الموجود من الطعام، وبعد الطعام غسلت له جسمه المغمور بالنور فوق هذا الحجر، فسر وقال: «قولى لإسماعيل ألا يبدل عتبة بيته بعد الآن وأقرأك السلام، ثم قفل راجعا وترك أثرا فوق الحجر الذى وطأت قدماه الشريفتان توأم السعادة. فقال لها شارحا وموضحا ذلك الشيخ ذو السمات الجليلة هو أبى ويقصد بقوله: لا تغير عتبة بيتك. يأمرنى بأن أقضى بقية عمري معك واتجه إلى الحجر الذى ترك فوقه أثر قدميه قبله ووضعه فوق مكان مرتفع قليلا.

وقد أصبح ذلك الحجر المبارك التى غسلت فوقه رعلة والد زوجها فى ذلك اليوم هو الحجر المبارك الذى صعد فوقه إبراهيم عند بناء الكعبة المعظمة، وهو الآن فى مكة ومحفوظ داخل شبكة من حديد. وقد ذكر هذا الحجر فى القرآن الكريم باسم (مقام إبراهيم)، واشتهر بين الناس بهذا الاسم والحجاج الكرام يزورونه بكل لهفة وحماس. وما زالت آثار قدمى إبراهيم - ﷺ - ، فالحجاج يضعون ماء زمزم عليه ويشربونه تبركا والحجر المذكور والحجر الأسود. هما ياقوتتان سعيدتان من يواقيت خزانة الجنان وقد أزال الحق - سبحانه وتعالى - نورهما المشع، لأنهما لو ظلا محتفظين بنورهما الذى تفضل الله بإنزالهما به من الجنة لأضاء نورهما ما بين الشرق والغرب.

مسألة:

اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح الهامة

عندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح فلذة كبده كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال، قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. وقد اختلف العلماء فى الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟ كما أن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع مشتبه فيها وأعلن بعضهم أن الذبيح هو إسحاق، وقال الآخرون إنه إسماعيل.

ورغم أن مؤرخى اليهود والنصارى يسوقون مجموعة من الأدلة، ويؤيدون العلماء الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق، فإن جماعة الصحابة الكرام والتابعين منهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وكعب الأحرار

وسعيد بن جبير ومسروق وأبو الهذيل والزهرى وعبد الله بن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو الطفيل عامر بن واثلة ومقاتل وعبد الله بن مسعود وقتادة وعكرمة وعباس بن عبد المطلب «رضى الله عنهم أجمعين وكذلك كبار التابعين مثل: الإمام جعفر الصادق وسعيد بن المسيب وجاهد والحسن البصرى والشعبى رحمهم الله، يذهبون إلى أن إسماعيل - علي السلام - هو ذبيح الله كما أن ابن كثير قد حكم بصحة الرأى القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

لأن أصحابه يستندون بالاتفاق إلى أقوال صحيحة فيما يعلنون أما بالنسبة لنا نقول: «إن كون إسماعيل - عليه السلام - المقصود بالذبيح قد بلغ إلى درجة اليقين بالأدلة العقلية، لأن سيدنا إبراهيم بلغ السادسة والثمانين من عمره ولم يكن قد أنجب ولدا بعد، لذا كان من الطبيعى حسب النزعة البشرية أن تكون ولادة سيدنا إسماعيل زينة الوجود موضع حب والده لهذا ابتلى إبراهيم فى أعز شىء عنده، ولأن السيدة سارة كانت عاقرا وانكسر فؤادها لمولد إسماعيل فخر العالمين وقد أدى هذا إلى صدور أمر الذبيح الجليل والإشارات الإلهية حول ولادة سيدنا إسحاق ويعقوب زدلة قاطعة لكون الذبيح إسماعيل عليه السلام.

إذ أن سيدنا إسحاق لو كان قد ذبح، لكان يلزم ألا تتشرف الدنيا بسيدنا يعقوب، وبغض النظر عن هذا فإن الأمر المؤكد أن سيدنا إسحاق لم يقطن مكة والكعبة المعظمة وكان مقيما فى الشام. كما أن قرون الكباش السماوى قد ظلت معلقة فى ميزاب كعبة بيت الله حتى حادثة ابن الزبير المؤلمة وقد انتقلت مهمة حراستها إلى أولاد وأحفاد إسماعيل بطناً تلو بطن وكل هذه الأحداث أدلة كافية لإثبات أن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

وقال مولانا الصنهاجى نقلا عن الإمام الثعلبى: «بينما أنا فى مجلس سيدنا معاوية بن أبى سفيان ودار الحديث طويلا فى القيل والقال بين بعض الناس حول الاختلاف فى قصة الذبيح، فخطبهم سيدنا معاوية قائلاً: «كنت ذات يوم فى حضرة المجلس النبوى الرفيع - عليه أفضل التحية - وجاء واحد من الأعراب

وصاح قائلاً: «يا ابن الذبيحين» فتبسم الرسول الكريم - ﷺ - تصديقاً على قول القائل ابن الذبيحين فتفضل ذاته العالية بالتصديق على قول الأعرابي المذكور تلميحاً وتصريحاً بأن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

لأن عبد الله بن عبد المطلب والد سيدنا رسول الله ربيع المقام كان أيضاً ذبيحاً مثل جده إسماعيل عليه السلام. وإذا كان سيدنا إسماعيل قد افتدى بكبش فإن عبد الله قد نجا بمائة ناقة.

وفي الحديث الشريف «أنا ابن الذبيحين» تأكيد على أن إسماعيل - عليه السلام - هو الذبيح حيث أنه مما لا شك فيه عند أحد قط في أن المشار إليه هو جد النبي العظيم ومع أن علماء اليهود يعلمون يقيناً أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل ورغم هذا ادعوا أن سيدنا إسحاق هو ذبيح الله كما أن بعض مؤرخي النصراني أيدوا اليهود في ادعاءاتهم ولكنهم لم يستطيعوا حتى أن يجدوا دليلاً واحداً على صحة أقوالهم.

والرواية التالية تدل دلالة واضحة على بطلان ادعاءات اليهود، الرواية تقول: أسلم واحد من علماء اليهود في عهد عمر بن عبد العزيز. وسأله الخليفة الأموي مستفسراً «هل الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟» وبما أن سيدنا إسماعيل هو جد العرب فإنهم ينكرون أن يكون هو ذبيح الله ويدعون أن جدهم إسحاق - عليه السلام - هو الذبيح.

كيفية حدوث قصة الذبح الجليلية

نقل عن كعب الأحبار أن الله - سبحانه وتعالى - قد أمر حضرة الخليل - على نبينا وعليه التبجيل قبل بناء الكعبة المشرفة^(١) بسبع أو ثلاث عشرة سنة، عن طريق الرؤيا، أن يذبح إسماعيل - عليه السلام - قرباناً. وكان سيدنا إسماعيل في ذلك الوقت في الثالثة عشرة وحسب قول بدائع الزهور أنه كان في العشرين^(٢)

(١) القول الأول مرجح على القول الثاني.

(٢) القول الأول مرجح على الثاني.

من عمره وأن سيدنا إسحاق قد ولد بعد هذه الواقعة بسبع عشرة سنة، وحسب رواية بدائع الزهور، ولد بعد عشر^(١) سنوات وأنه مات سنة سبع وثلاثين بعد المائة.

ولما أدرك سيدنا إبراهيم أن ما رآه ليس وساوس الشيطان صدع بالأمر، وقال لزوجته هاجر وقد عقد على إنفاذ حكم الله وقضائه - هياً إسماعيل بغسل رأسه وتمشيط شعره وإلباسه ملابس جديدة بعد أن عطر كل أعضاء جسمه بعطور ذات رائحة طيبة ثم خاطب فلذة كبده بقوله: «يا بنى هات حبلاً وسكيناً حاداً لنذهب معاً لإحضار الحطب من ذلك الجبل وحسب قول بدائع الزهور «لنذبح شاة» وأحضر سيدنا إسماعيل الحبل والسكين اللذين أمر والده بإحضارهما وصحبه معه إلى المكان المسمى مذبح إسماعيل فى منى.

فى هذا الوقت ظهر إبليس ذو الوسوس متوهماً أنه وقت غواية وإضلال إبراهيم عن طريق زوجته فذهب إلى هاجر وقال لها: «هل تعلمين أين أخذ إبراهيم إسماعيل؟ فلما ردت قائلة: نعم أخذه إلى الجبل لنقل الحطب، قال لها لا أخذه للمذبح».

فردت عليه قائلة: إن إسماعيل محبوب من والده، حتى إن والده ينفر من الذين يعادونه ويبغضهم حاشاً أن يرتكب هذا الفعل غير المشروع.

فقال لها: «ربما يذبحه ظناً أنه أمر الله؟ ردت السيدة هاجر - رضى الله عنها - وقالت: «مادامت هذه هى إرادة الله الحكيمة فهو ملزم بتنفيذها إذن فليعمل على تنفيذ أمر الله «ولم تفتنها غواية الشيطان!».

نظم

ولما تخوف الشيطان فى الحال
التقى بأمره للإضلال

(١) الرواية الثانية أقوى من الرواية الأولى.

فقال لها لا تفعلى وإلا ندمت خذى حذرک
خليل الله يجعل القربان ولـدک
فهجمت فى الحال بما وجدته قريب
أما شمس عقلها فأوشکت على المغيب
اتجهت بحينها والقلب إلى الرب
قائلة الق إلى سمعا هذا أولى وأنسب
الحذر من أن تبعدى تلك الروح من يدک
لانطفئى: سراج الأنبياء
لا ترضى أن يذهب معه حيث شاء

عندما أدرك الشيطان أنه لن يستطيع أن يضل السيدة هاجر ذهب إلى
إسماعيل .

وقال: يا إسماعيل لقد حملك أبوك إلى الجبل لكى يذبحك، فأجاب
إسماعيل: إنى أطيع أمر الله وأوافق على رأى والدى العزيز وأخضع لما يقرره
فانصرف الشيطان عنه .

وغشى اليأس الشيطان بسبب عجزه عن خداع إسماعيل - عليه السلام -
فأسرع إلى حضرة الخليل وقال له متسائلا:

«أيها الشيخ مضئ القلب إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا تتصور أنك فاعل؟ فلما
أجابه حضرة الخليل «لدى أمر هام وأنا ذاهب لإنجاهه» فقال له: أنتظن أن
الشيطان يضلک عن طريق الرؤيا ويفسد عليك عقلك وإحساسك ويدفعك لقتل
ابنک فإذا انخدعت بوساوسه وما يلقيه فى نفسك فإنک ستفقد ثمرة فؤادک الذى
هو برعم بستان مناک !! ولا شك أنك ستتجرع كأس الندم وستضل عن طريق
السلامة» .

لكن الخليل فاجأه قائلا «أيها الملعون انصرف عني إننى أنفذ إرادة الله وأمره»
فظل الشيطان ناشرا من خلفه .

وبعد أن صرف نبينا سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه التعظيم - الشيطان من
عنده ووصل إلى جبل ثبير ووجه حديثه إلى فلذة كبده إسماعيل عليه السلام
قائلا :

نظم

قال اعلم يا ولدى البريا خير ولدى
إن الله يدعوك إلى جنة الخلد
بمال عمرك يا ولدى لا تبخلن
وفى تردد طريق الحق لا تسلكن
اطرح عنك تراب جسمك وعجل بروحك
يخف عنك عليك من ثقلك
اجعل الجسد الترابى فى الأرض طريح
وانعم وانفض التراب عن عين الروح
لا تلق الروح فى فزع وهلع
وحذار من أن يكون ثوبك أبقع
جد فى سبيل الحبيب بروحك
لا لا تكترث بعمرك

«أى» يا قرة عيني وجودى، رأيت فى منامى أننى مأمور بذبحك، لذا فإننى
مضطر لإنقاذ إرادة الله ذى الكبرياء فانظر ماذا ترى؟! وبهذا الأسلوب يهوى ابنه
زهرة عمره فى إنفاذ ما أمر به «فلما أجابه سيدنا إسماعيل بما جاء فى الآية
الجليلة: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وقال: «يا والدى العظيم فاصدع بالأمر الذى كلفت به ستجدنى إن شاء الله صابرا وأحتمل ما جرى به حكم الله». وبعد هذا قال لوالده طائعا مختارا «اعلم أن بذل الروح أمر عسير، لذا شد وثاق يدي وقدمي حتى لا أضطرب فينتقص أجرى أو يحرك اضطرابي رقة قلبك فتتألم وألقنى على وجهي حتى لا تدعوك رؤية وجهي عند الذبح إلى عدم القدرة على تنفيذ أمر الله ذى الجلال فإن توافق خذ قميصي أيضا إلى أمي هاجر كي يكون لها سلوى وأقرئها منى السلام وقل لها أن تتَّسِّم بالصبر فى تحمل أمر الله وقد يساعدها هذا القميص الذى أرسله لها على ذلك» وبهذا القول أظهر طاعته لأمر الله بوضوح».

نظم

وقال إسماعيل للخليـل الآن
يا خير من خلقت الرحمـن
قيد اليـد والقـدم منى
عنلى لا أشعر وأنت تذبحنى
عنلى لا أشعر وأنت تذبحنى
فإذا ما صعدت منى الروح إلى السماء
لا يهبج جسدى بحرا يتلاطم فيه الماء
عـر جسـدى وسـر بالـى
لئلا يكون حائلا عن وصالى
جـرد جسـدى من ثمر وورق
وضمها كلها فى غض متسق
بردائك استر منى الجبين
لا تنظر إلى وجهي أكره لك أن تكون حزين
وإذا ما أطرقتنى كالعنقاء

فاجعل لها عشاء فى الخفاء
عندما تشاهد فى تصعد زفرتك فى ألم
وفى التو تندم كل الندم
احذر يا من أنت ظل الرحمن
أن تنال النبوة بأى سوء كان
أنت بكل رحمة تغمرنى
لكن فى تلك اللحظة لا ترحمنى
أتعلم ما سوف تؤول إليه الحال
وإذا ما لم تطع أمر الله فى الحال

عندما سمع إبراهيم - عليه السلام - هذا الجواب من ابنه قال :

«يا بنى ما أجمل استسلامك لإرادة الله . وأوثق رباط قدمى ابنه ويديه ثم ألقاه على وجهه، ثم أغلق عينيه ووضع السكين الحار على رقبته البلورية وسحبها بقوة؟ لكن جبريل الأمين بأمر ربه قلب حد السكين فلم يقطع رقبة إسماعيل البيضاء كالفضة .

وفى قول آخر إن سيدنا إبراهيم قيد سيدنا إسماعيل على النحو المذكور وعندما قلبه على وجهه، قال إسماعيل - عليه السلام - يا أبتي! حل رباط يدي وقدمي، حتى لا أكون قد استجبت لأمر الله مجبراً، فحل والده وثاق يديه ورجليه، وأوقفه على قدميه عندئذ نام إسماعيل على جنبه الأيمن وقال: يا والدى الآن ضع سكينك على رقبتي دون أن تشفق على حتى يرى الملائكة أن ابنك إسماعيل قد انقاد لأمر الله وأطاعه كما أطاع والده ويشهدوا بذلك .

وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة سيدنا إسماعيل ليذبحه وضغط عليه بشدة لكن السكين لم يقطع فغضب حضرة الخليل من السكين وضرب حده فى صخرة عظيمة فشطرها نصفين فتعجب إبراهيم وقال: «ترى ما الحكمة؟ وأخذ يفكر فى الأمر وبينما هو كذلك سمع هاتفا ذا خطاب مستطاب» يا إبراهيم قد

صدقت الرؤيا وقد أرسلنا لك كبشا ليكون بدلا وفداء لابنك، وظهر جبريل الأمين عند صفح جبل ثبير ومعه كبش عظيم وحمل سيدنا إبراهيم الكبش إلى مكان مسجد المنحر وبعد أن كبر هو أولا والكبش ثانيا ثم سيدنا إسماعيل أرقده على الأرض وذبحه قربانا لله!! .

نظم

أخذ الفزع كل مأخذ من نبي الله
وسرعان ما ستر وجهه وأخفاه
وفى هيبة أخرج شفرة كالهلال
ليذبح من هو البدر فى الجمال
الشفرة على رقبة إسماعيل وضعها
فما أثرت فيها وما قطعها
وشحذه على الحجر فانشط فى الحال
وأصبح جزءين من التخالفة
وأُنزل من السماء كبشا جميلا
فذبحه بدلا منه فى الحال

وفى رواية أخرى «بينما كان سيدنا إبراهيم مندهشا مما حدث كان ابنه المطيع على الدوام لكل أوامر الله سبحانه يقول يا أبى ما بك حتى إنك تتكاسل عن إنفاذ أمر الله سبحانه؟ فلما أجابه «إن السكين لا يقطع» قال له إذا كان الأمر كذلك فاضرب رأسى بمقبضه حتى تنفذ مهمتك بهذه الصورة»، وبهذا بين له ابنه الطريقة التى يتبعها فى إنجاز مهمته وبينما كان الأب الرحيم يهيم بفداء ابنه بأن يضرب على رأسه بمقبض ذلك السكين الذى فى يده إذ جاءه الهاتف. «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا لقد أرسلنا لك كبشا ليكون فداء لابنك - دع إسماعيل وأمك بهذا الكبش الذى تراه فى ذلك الجبل واذبحه بدل ابنك وفى لحظة سماع عبارة يا

إبراهيم قد صدقت الرؤيا سقط السكين الذى فى يد الخليل الجليل على الأرض من رهبة الصوت المذكور.

وكان سيدنا جبريل مُمسِكًا بالكبش سابق الذكر من أذنه، وأراه لسيدنا إبراهيم وبإشارة من الرسول الجليل كبر الكبش كما بينا سابقا، وقد نبه هذا التكبير إسماعيل عليه السلام فرفع رأسه من الأرض التى يرقد عليها، وقال بلسان عذب العبارة المنجية (الله أكبر والله الحمد) وأمسك سيدنا إبراهيم الكبش الذى أراه إياه جبريل الأمين وذبحه. وفى رواية أخرى إذ رأى سيدنا الخليل مدى طاعة إسماعيل الذى هو ثمرة بستان عمره واستسلامه لأوامر الله سبحانه وتعالى غشيته الحيرة وقال وهو حزين «يا إلهى، لقد أنعمت على وأسعدتنى فى آخر عمري بابن وبعد ذلك أحزنتنى بفراقه إذ أمرتنى بذبحه ولو أن هذه الرؤيا التى رأيتها مصونة من وساوس الشيطان ومقرونة برحمتك ورضائك الشريف سأبدأ فى تنفيذها، أما إذا كانت ضد إرادتك الإلهية فإننى أنصرف عنها وأستغفرك لك.

ثم وضع حد السكين الذى فى يده على عنق إسماعيل عليه السلام الذى يرقد على الأرض مقيد اليدين والقدمين وسحب السكين ثلاث مرات ولكن فى كل مرة كان حد السكين ينقلب وتنجو رقبة إسماعيل عليه السلام من الذبح وغضب نبينا إبراهيم عليه التحية والتكريم وضرب بالسكين صخرة كبيرة لا يقدر ثلاثون أو أربعون رجلا على تحريكها فانشطرت تلك^(١) الصخرة السوداء الضخمة من شدة الضرب إلى نصفين وتدحرج أحد النصفين فى جانب والثانى إلى جانب آخر.

* * *

(١) هذه الصخرة موجودة أمام المزار المسمى مذبح إسماعيل ويظهر عليها أثر السكين حتى الآن.

بينما وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة ابنه واجتهد أن يذبحه أظهر سيدنا إسماعيل لوالده نهاية الطاعة ومنتهى الاستسلام الذى يفوق كل ما أصف . وإذا بصوت مثير للشوق يقول «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ولقد أرسلنا كبشا فداء لابنك فأمسك به واذبحه» .

شمس التبريزى

إسماعيل قد جاء به

وجعله قربان كبش له

فاستدار إبراهيم عليه السلام على عقبه بمجرد أن وصل الصوت إلى مسامعه ورأى عند سفح جبل ثبير كبشا فريدا متناسق التكوين ومن فرط سعادته ترك ابنه إسماعيل ملقى على الأرض مقيد اليدين وذهب للإمساك بالكبش الذى رآه ولكن الكبش المذكور انطلق ناحية مسجد الحنيفة متبعه وألقى فى ثلاثة أماكن سبع جمرات وأمسك به بالقرب من جمره العقبة، وأخذه إلى مكان مسجد المنحر وذبحه .

والمواضع التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم بالحجارة على الكبش هى الأماكن التى يوجد بها الآن: الجمره الأولى، والجمره الثانية وجمره العقبة .

وكان الشيطان اللعين قد ظهر لإبراهيم فى تلك الأماكن وحاول أن يصرفه عن تنفيذ الأمر الإلهى ولكن لما رأى نفسه لا يستطيع أن يحقق أمله انسحب إلى ناحية ما خائبا مدحورا . وإشارة إلى هذه الحادثة يرمى الحجاج الكرام الجمرات الثلاث .

قطعة

ما يرمى به إبليس من حجر

إما حصى وإما جمر

وفى المآل إذا قلبت الكلمتان

فالرجمة تكون جمره

بينما كان سيدنا إبراهيم منهمكا في ذبح الكبش عند مسجد المنح، حل جبريل الأمين وثاق يدي إسماعيل - عليه السلام - وقدميه وقال له «يا إسماعيل اطلب من الحق - سبحانه وتعالى - ما تشاء في هذا الموقف المبارك الذي يستجاب فيه كل الأدعية. وقف سيدنا إسماعيل بين يدي عتبة الرب الجليل وأخذ في الدعاء قائلا: «يا إلهي أدعوك وأتوسل إليك أن تغفر للمؤمنين الذين أتوا إلى الدنيا ثم ذهبوا إلى الآخرة حتى هذه اللحظة» وخلال دعائه جاء والده المكرم وقال: يا بني أنت مؤيد من الله - سبحانه وتعالى - وقد سمع في الآفاق صوت الهاتف يقول يا خليل يا أصدق القائلين ويا إسماعيل يا أصبر الصابرين.

حكمة:

إذا قيل ما الحكمة في إرسال «كبش» فداء لإسماعيل - عليه السلام - وعدم إرسال ثور أو جمل مثلا؟ نقول إنه أرسل كبش لكي لا يكذب والده إبراهيم - عليه السلام - لأنه إذا أرسل جمل أو أى حيوان آخر لما صدق سيدنا الخليل، لأنه عندما أخذ إسماعيل - عليه السلام - طلب منه أن يأتي بحبل وسكين، ولما سأله إسماعيل عن سبب ذلك قال له أبوه لأننا سنذبح شاة. لذا أنزل كبش دون سائر الحيوانات.

يقول عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - إن الكبش الذي جاء به جبريل الأمين آنذاك كان القربان الذى تقبله الله من هابيل بن آدم - عليه السلام - ، وقد أخرج من فرعى الجنان قبل واقعة ذبح إسماعيل بأربعين سنة وامتنع عن الطعام والشراب أربعين سنة كاملة إلى أن أنزل إلى مراعى البسيطة.

وكان الكبش المذكور كبير القرنين أسود العينين ولونه يميل إلى السواد وظل القرنان معلقين فوق ميزاب الكعبة المعظمة، وعلى قول آخر فوق باب المعلا، إلى وقعة الحجاج الظالم واحترقا في أثنائها.

وكان المكان الذى شوهه فيه جبريل الأمين مع الكبش فى مضيق منى. وسفح جبل «ثبير» حيث توجد صخور كثيرة. وقد بنى فوقه قبة من الحجر على أربعة قوائم ظنا أن الحجاج يزورون هذا المكان ويطلق على هذه القبة «قبة الكبش» من قبل سكان مكة.

* * *

استطراد

إن أسلافنا من المؤرخين تناولوا بالبحث الكيفية التي تم بها أمر إسماعيل بالذبح واختلفوا فى هذا الموضوع كثيرا ولكنهم بعد ذلك اتفقوا على كلمة واحدة، وقالوا: «إن بلوغ خليل الله إبراهيم الرابعة والثمانين من عمره دون أن يكون له ولد مما أحزنه وآلمه. ولذا توجه لربه قائلاً: إذا أنعمت على بولد نجيب حلیم - حتى لا ينقطع نسبى فلكنت أفديه طالباً رضاك وكان هذا نذراً منه ومن فرط سعادته بولادة سيدنا إسماعيل ذا السعادة الباهرة غاب عن ذهنه أن يوفى النذر، وبعد ثلاث عشرة سنة من الواقعة اقتضى صدور الخطاب الإلهى تنفيذ إبراهيم نذره إذ قال الله سبحانه وتعالى: «يا إبراهيم كنت ستذبح إسماعيل قربانا فلماذا لا توفى بنذرك».

وتردد إبراهيم فى تصديق هذه الرؤيا وظل فى ذلك اليوم حتى المساء يفكر فى هذا الموضوع! لذا أطلقوا على اليوم المذكور يوم التروية».

وإن كان معنى التروية لغة التفكير إلا أنه قد اصطلح على أن يطلق هذا الاسم على اليوم الثامن وأخذ يفكر بعمق فى صباح تلك الليلة وكان اليوم التاسع من شهر ذى الحجة إسماعه الصوت الهاتف: «يا إبراهيم إن إبليس يبعثك عن طاعة الله، فقرر أن ينفذ أمر القضاء، وقد عرف أن الهاتف الإلهى يوحى له بإنفاذ الأمر، ولذا أطلق على هذا اليوم اسم «عرفة». واليوم الثالث وكان اليوم العاشر من ذى الحجة وأطلق عليه يوم النحر لأن إبراهيم عليه السلام بادر فيه بذبح فلذة كبده.

لاحقة:

الحكمة من أمر إبراهيم - عليه السلام - أن يذبح ابنه إسماعيل - عليه السلام - كما ينقلها على بن أبي طالب - رحمه الله - وقد قال العالم الواقف على سرائر نبينا ﷺ: إنه بينما كان خالق السموات والأرضين يرى سيدنا إبراهيم عليه السلام السموات والأرض ويوقفه على جمالهما وما فيهما رأى حضرة الخليل - عليه السلام - رجلاً يرتكب معصية، فلما دعا الله أن يهلكه هلك ذلك الرجل، وبعد قليل دعا على بضعة أشخاص من المذنبين فلما هلكوا صدر خطاب رب العزة له يا إبراهيم إن دعائك مستجاب دائماً فلا تدع على عبادي فإنهم مجبولون على ثلاث خصال: إما أن يتوبوا وإما أن يسبحوا وإما أن يفوضوا أمورهم، فإذا شئت غفرت لهم وإذا لم أشأ عاقبتهم، ويرى البعض أن سبب صدور الأمر لسيدنا إبراهيم أن يذبح إسماعيل - عليه السلام - هو إظهاره القسوة على العباد وأنه لم يرحمهم.

وقال جماعة من المفسرين العظام عقب تفسير الآية الجليلة ﴿كَذَلِكَ نُورِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥) إنه ذات ليلة في أثناء عروج إبراهيم عليه السلام إلى السماء رأى عبداً عاصياً يرتكب ذنباً فقال: يارب إن هذا العبد يأكل رزقك ويمشى ويتحرك فوق الأرض التي خلقتها، ومع هذا يخالف أوامرك فأهلكه!! ولما كان دعاؤه مستجاباً فقد هلك ذلك الرجل ثم رأى بعد ذلك مذنباً آخر فلما دعا الله أن يهلكه، خاطبه الله - سبحانه وتعالى - عاتباً يا إبراهيم لا تدع على عبادي أمهلم وأمنحهم فرصة، فإنهم يا إبراهيم كثيراً ما يقتربون الذنوب. وفي تلك الليلة أمر في رؤياه بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ولكى ينفذ سيدنا الخليل الجليل «عليه التحية والتبجيل» ما رآه في رؤياه ألقى ابنه على الأرض وهو مقيد اليدين في سفح جبل ثبير على النحو الذي ذكرناه مفصلاً في موضعه، وعندما أمسك السكين بيده غلبت عليه رفته فقال: «يارب

إن هذا الابن الذى استعد لوضع السكين على عنقه هو ثمرة فؤادى وابنى الغالى. وإنه أحب الناس إلى»، وكان قصده من هذا أن يعرض على أرحم الراحمين ما بقلبه من رقة وشفقة، ولما انتهى من كلامه إذا به يسمع هاتفاً من الوحى يقول: «يا إبراهيم أنسيت الليلة التى دعوت فيها بهلاك عبادى؟! إذا كنت رحيماً بابنك على هذا النحو وأنا أيضاً رحيماً وشفيقاً على عبادى ألا تعرف أنني أنا الرحيماً؟! لقد أردت هلاك عبادى وأنا فى المقابل أريد ذبح ابنك.

تكليف حضرة الخليل ببناء الكعبة المعظمة:

كانت إقامة إسماعيل - عليه السلام - مع أمه السيدة هاجر فى الوادى المقدس غير ذى زرع مقدمة لتأسيس قواعد البيت المعظم، لذا تحمل إبراهيم - عليه السلام - كل ما سبق ذكره من الصدمات تحملها صابراً دون قنوط. قد أمر إبراهيم - عليه السلام - بتأسيس كعبة الله. قبل ولادة إسحاق - عليه السلام - بشمانية أو (١٤) أو (١٨) أو (١٧) عاماً^(١) وبعد حادثة الذبح بسبعة أو (١٣)، أو (١٧) أو (١٦)^(٢) عاماً^(٣).

وبما أنهم لا يعرفون حسب عجزهم البشرى مكان بيت الله فقال رب العزة «يا إبراهيم اتبع سكينته» وهى ستدلك على مكان الكعبة.

ذلك لأن الموضع المقدس لكعبة الله كان معروفاً للبشر حتى طوفان نوح الذى أغرق الدنيا غطى الطوفان ببحرٍ رماله مكان البيت فتركه مجهولاً بدون أية علامة، ومع هذا فإن السيول التى تكونت من شدة هطول الأمطار كانت تتحاشى الأرض المباركة للبيت الشريف وتطوف من حول أركانها الأربعة. والذين رأوا هذه العلامة الميمونة عرفوا أن هذا المكان بالذات مكان مبارك مقدس واعتقدوا

(١) القول الثالث مرجح على القول الأول والثانى.

(٢) الرواية الثالثة مرجحة على الروايات الأخرى.

(٣) كان عمر إسماعيل فى ذلك الوقت ثلاثين أو عشرين عاماً كما أن إبراهيم - عليه السلام - كان قد دخل فى المائة من عمره المبارك.

فى ذلك. حتى إن المرضى والمظلومين والمهمومين كانوا يطوفون بهذا المكان ويرون أن أدعتهم قد استجيبت.

عندما كلف سيدنا إبراهيم ببناء وتشيد كعبة الله بوحي من الله الكريم وتشرف بخطاب رب العزة أن اتبع السكينة ركب البراق الذى نزل من السماء وسار مستظلا بظل السكينة سالفة الذكر.

وكانت «السكينة» المذكورة ريح^(١) عجيبة الآثار فى صورة حية ذات رأسين أسماها حجون. كما أن لها رأس وأيضاً جناحان وقد ظهرت على شكل سحابة ذات أربعة أركان وكانت بحجم الكعبة المعظمة وأوصلت «السكينة» إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة ووقفت فوق أرض وساحة البيت الشريف وقالت بلسان حالها إن المكان الذى تظله هو الموضع الأنور لبيت الله المقدس.

وكانت السكينة المذكورة تبدو أحيانا على هيئة أسد أو على هيئة جمل، وكانت تحجب على أسئلة إبراهيم - عليه السلام - سارع حضرة الخليل بمعاونة ابنه إسماعيل تحت إرشاد السكينة التى بينت لهما حجم البيت ومكانه أسرعا فى حفر وتعميق أسس البيت المعظم.

وعندما عزم إبراهيم - عليه السلام - على الذهاب^(٢) إلى مكة المكرمة متتبعا «السكينة رجته زوجته المحترمة السيدة سارة - رضى الله عنها - ألا يقابل السيدة هاجر ولا يكلمها، وعندما اهتدى إلى الموقع الأنور للبيت الأعظم الذى دلته عليه السكينة وعرفه، ذهب إلى دار ابنه السعيدة إسماعيل - عليه السلام - ودق الباب فردت زوجة ابنه قائلة ماذا تريد؟ سألتها عن سيدنا إسماعيل وأمه الرحيمة هاجر، وعرف منها بخروج إسماعيل إلى الصحراء للصيد كما علم بوفاة^(٣) هاجر

(١) يقول الإمام الكلبى إن هذه الريح كانت سحابة على شكل رأس إنسان.

(٢) هذه هى المرة الثالثة التى يذهب فيها حضرة الخليل إلى مكة.

(٣) كانت السيدة هاجر عند وفاتها فى السنين من عمرها، وكان ابنها إسماعيل قد بلغ العشرين من العمر.

ودفنها فى المكان المسمى^(١) حجر إسماعيل، رجع إلى الحرم الشريف، واغتسل بماء زمزم ثم انتحى وجلس ينتظر قدوم ابنه.

وعندما رجع إسماعيل - عليه السلام - من الصيد وجد والده فى انتظاره عند بئر زمزم فصافحه وقبّل يده، ثم أحضر مقداراً من الحليب واللحم المطبوخ واستضافه. وبعد أن أكل سيدنا إبراهيم الطعام الذى أعده ابنه إسماعيل قال له: «يا بنى إن الله قد أمرنى برفع قواعد بيته - عز وجل - فوق تلك الربوة الحمراء، فساعدنى فى إنجاز هذا الأمر وأفهمه أنه مكلف بوضع أساس بناء كعبة الله، وشرع بسم الله فى تعميق الحفرة بعون إسماعيل عليه السلام.

وفى قول آخر إنه عندما خرج سيدنا الخليل من بيته السعيد كلف الله «السكينة» سألقة الذكر وطائراً سريع الطيران وملكا ليرشدوا إبراهيم - عليه السلام - إلى موضع الكعبة المباركة، وعندما وصلوا إلى مكة المشرفة وقفت «السكينة» المذكورة فوق ساحة البيت المعظم وقالت لإبراهيم: «إن كعبة الله التى أمرت بتأسيسها وبنائها فى المكان الذى يحيط به ظلى». وهكذا رأى مكان بيت الله المقدس وعينه.

وكان مع حضرة إبراهيم سبع من الملائكة يعاونون فى ذلك الوقت. وكان الموضع الذى أرته إياه «السكينة» ذا أربعة أركان غير متساوى الأضلاع. وبعد مدة قد أطلقوا على أحد أركانه الركن الشرقى يعنى الحجر الأسود وعلى الركن الآخر الركن العراقى وعلى الركن الثالث الركن الشامى وعلى الركن الرابع الركن اليمانى.

إخطار:

إن الموضع الحقيقى لبيت الله كان ذا ثلاثة أركان وذلك إيماء إلى أن فى قلوب الأنبياء العظام - عليهم الصلاة والسلام - ثلاث خواطر وهى «إلهية وملكية ونفسية» وأن قلوبهم لن تفتح لأية خاطرة أخرى غيرها ثم شاءت الإرادة الإلهية

(١) يوجد داخل الحطيم الكريم وتحت الميزاب الذهبى ويشار إلى مكانه بعلامة وهى حجر أخضر.

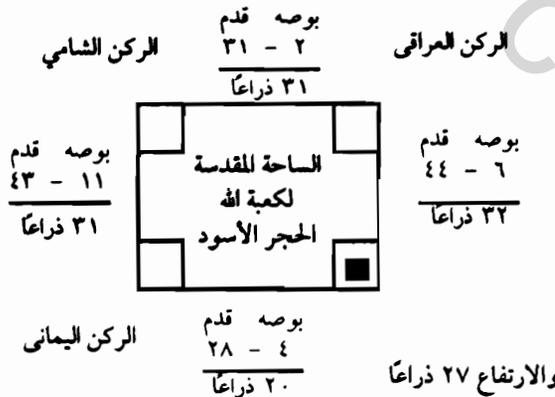
أن يشيد بناؤه أربعة أركان وكان هذا إشارة إلى إمكان وجود أربع خواطر في قلوب المؤمنين.

(روح البيان).

والطرف الشرقي لكعبة الله فيما بين ركني الحجر الأسود والعراقي يميل قليلا إلى الشمال وفي هذه الجهة من بيت الله مقام إبراهيم، بئر زمزم، باب بني شيبه.

وجهة الشمال ما بين الركن العراقي والركن الشامي تميل بعض الشيء ناحية الغرب ويقع حجر إسماعيل والميزاب الذهبي والمقام الحنفي الكائن محل دار الندوة في هذا الجانب من البيت الأعظم، والجانب الغربي ما بين الركن الشامي والركن اليماني يميل قليلا ناحية الجنوب ويقع في هذا الجانب من بيت الله عز وجل الباب المسدود الغربي، وباب العمرة باب الوداع، وباب إبراهيم.

وجهة الجنوب ما بين الركن اليماني وركن الحجر الأسود، وهي مائلة بعض الشيء ناحية الشرق ويوجد في هذه الجهة من الكعبة المعظمة باب الصفا وكل الأبواب الجنوبية وبناء على ما يتضح من الشكل التالي للساحة المطهرة للكعبة المعظمة نجد أن طول المسافة بين ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقي ٣١ ذراعا ومن الركن الشامي إلى الركن اليماني ٣٢ ذراعا والطول من الركن العراقي إلى الركن الشامي ٢٢ ذراعا ومن الركن اليماني إلى ركن حجر الأسود ٢٠ ذراعا.



مساحة هذا الشكل قد قيست بالمقياس المسمى «ذراع اليد» والمقياس المذكور يساوي المسافة ما بين مرفق الرجل إلى طرف الإصبع الأوسط في يده.

وبما أن كل الذين قاموا بقياس المسجد الحرام قد استخدم كل واحد منهم ذراعه الشخصى لذا لم يوافق مقياس أحدهم الآخر.

مثلاً: إن صاحب تشويق الساجد وجد أن ارتفاع «الكعبة المعظمة» الأعلى ٢٧ ذراعاً وستة أصابع بينما وجد الإمام النووى ارتفاعها ٢٧ ذراعاً فقط كما وضع فى كتاب الإيضاح ووافق مؤلف تاريخ خميس على مقياس الإمام السابق، لأن ذراع اليد يختلف من شخص إلى آخر. ولا يعد مقياساً متفقاً عليه.

يقول مؤلف هذا الكتاب إننى قد اختبرت كثيراً من الأذرع وقمتها فوجدتها مساوية لسبع عشرة بوصة إنجليزية واعتبرت هذا هو المقياس المتوسط للذراع وحولت متوسط طول الأذرع إلى القدم الإنجليزى وقست به الأماكن المقدسة، وبما أن المقياس الذى يطلق عليه «ذراع اليد» لا يشبه الذراع الحديدى ولا الذراع العادى، يجد الإنسان صعوبة فى تعيين المقياس الصحيح ولكن القدم الإنجليزى يمكن تحويله بسهولة لأى نوع من أنواع الأذرع وبهذا التقدير يقتضى أن يكون الطول الشرقى للكعبة المعظمة الذى يظهر فى الشكل المذكور أعلاه وهو ٤٤ قدماً و ٦ بوصات والطول الغربى أيضاً ٤٣ قدماً ١١ بوصة وعرض الجانب الشمالى ٣١ قدماً وبوصتان وعرض الجانب الجنوبى ٢٨ قدماً و ٤ بوصات.

ابتدأ نبينا حضرة الخليل «عليه الصلاة والسلام» فى حفر المكان الذى بينته له السكينة بمقتضى الإرادة الإلهية الحكيمة، ونقل الأحجار من جبال لبنان، وطور سينا، طور زتيا، والجودى، وحراء^(١) بمساعدة الملائكة وبعد أن انتزع صخوراً ضخمة لا يستطيع ثلاثون أو أربعون رجلاً أن يرفعوها من مكانها إلى أن وصلوا إلى الأساس القديم الذى وضعه سيدنا آدم أبو البشر. وأخذ فى بناء الجدران جاعلاً مبدأ الطواف المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود الذى أتى به جبريل الأمين من جبل أبى قبيس - ومازال فى مكانه إلى الآن.

(١) قد وضع أبو البشر أساس البيت الحرام بالحجارة من نفس الجبال المذكورة.

وكان الحجر الأسود قد أودع أمانة فوق جبل أبي قبيس فى واقعة طوفان نوح .

وقد أخذه جبريل الأمين من الجبل المذكور وأحضره إلى سيدنا إبراهيم الذى رأى أن يجعله بتفكيره الصائب والرفيع علامة بداية الطواف فوضعه فى جدار الركن الشرقى للكعبة المعظمة .

ومازال إلى الآن فى المسجد الذى فوق قمة جبل أبي قبيس حجر أمام المحراب يزوره الناس على أنه كان الموضع الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى وقت طوفان نوح .

وفى قول آخر إن إسماعيل - عليه السلام - وجد حجرا رآه مناسبا ليكون علامة بداية الطواف بناء على رأى والده ومشورته ولكن الحجر لم يعجب سيدنا إبراهيم وذهب للبحث عن حجر آخر وفى هذه اللحظة نطق جبل أبو قبيس وقال: «يا إبراهيم لدى حجر محفوظ أمانة لك وأظنه الحجر الذى تبحث عنه ليكون بداية الطواف ولا بد أنه الأمانة الكبرى المحفوظة عندى» وأخذ حضرة الخليل عليه صلاة الله الجليل، الحجر المذكور بنفسه ووضعه فى المكان الذى أعده .

قطعة:

الخليل الجليل الذى أرسله الحق

إن شمل الجماد برحمة فنطق

ولا ريب أن بيت الله

إذا تكلم حجر الركن بالكلام فاه

ونار الشوق أبو قبيس تحرق

أمام جمال الكعبة فذاك أليق

نظم

تقوم الدار بحجر فوق حجر
وبذاك اللون أو بلون آخر
محل برعم تفتح فى روضة الخليل
أناربه للخليل الجليل
ونادى أبو قبيس فى العلاء
قائلا سمعت منه ذاك النداء
إن طوفان هذه الدنيا مسح
وهذا البيت للسماء تفتح
ذلك البيت وجبريل الذى أنزله
إن لدى حجراً وديعة أحمله
وبيعتى حتى تسلموها
وفى موضع شئتم ضعوها

(فتوح الحرمین).

ارتفعت جدران البناء المبارك للكعبة المعظمة، و عندما رأى إبراهيم - عليه السلام - أنه فى حاجة إلى استخدام إسقالة عثر على حجر واستخدمه فى مكان الإسقالة وهذا الحجر الشريف هو الحجر القيم الذى غسلت فوقه رعدة بنت عمرو بن جرهم حماها إبراهيم عليه السلام.

ويعرف هذا الحجر المبارك فى ساحة المسجد الحرام باسم مقام إبراهيم الآن وقد استخدمه إبراهيم - عليه السلام - إسقالة عند بناء البيت وارتفعت جدران

البناء السعيد لبيت الله وكان المقام الشريف المذكور يرتفع مع ارتفاع البناء وعندما ينزل إبراهيم إلى الأرض كان يعود إلى هيئته الأصلية

وقد ذكر شكل وصورة الأبنية التي أقيمت فوق المقام الشريف المذكور في الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

وعندما وصل ارتفاع جدران الأبنية الشريفة لبيت العزة إلى تسعة أذرع ترك حضرة الخليل سقفه مفتوحا وألحق جانب باب المعلا إلى أرض المطاف وصنع سقفا من الخشب متصلا بالبيت والمسمى بحظيرة أغنام إسماعيل. وحفر حفرة كبيرة العمق ثلاثة أذرع في الأرض التي تقع جهة يمين الداخل في بيت الله، لكي يوضع بها الهدايا التي ترسل من الأطراف والأكناف وبذلك أتم بناء كعبة الله المعظمة سنة ٣٥٧٤ ق.م.

والمكان المسمى حظيرة أغنام إسماعيل يطلق عليه الآن اسم «حجر إسماعيل» وهذا المكان الشريف هو مدفن السيدة هاجر.

ويروى المؤرخون الكرام أن البقعة السعيدة للكعبة المعظمة ظل بابها دون مصراع ولما مر بها الملك الحميري قام بأداء الحج والزيارة ولما رأى باب الكعبة بدون مصراع ركب بابا خشبيا عليه مفتاحه كما علق فوق البناء المقدس كسوة مزينة، كما جاء بيانه في الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة.

وفي أثناء قيام سيدنا إبراهيم - عليه التحية والتكريم - بحفر أساس الكعبة المعظمة رأى حجرا بين أحجار الأساس القديم وكان مكتوبا عليه العبارة البديعة التالية «أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمائي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته». وترجمة هذه الفقرة المترجمة للعربية باللغة التركية «أنا الله صاحب مكة خلقت الرحم وجعلته اسما من اسمائي وهو الرحمن. وكل من يتصف بهذه الصفة ويعمل بمقتضاها أجزيه جزاء حسنا، وكل من يخالفها أعاقبه أشد العقاب».

ويروى «الإمام الواقدي» أن الحجر المذكور حجر أخضر اللون وكتب عليه السطور الآتية ونقلها على أنها من جملة تدقيقاته .

السطور التي نقلها إلينا الإمام الواقدي هي :

١- **السطر الأول:** «لا إله إلا أنا رب البيت مغلبها وهي قرار ومرخيها وهي قفار» .

٢- **السطر الثاني:** «لا إله إلا أنا رب البيت مهلك الطغاة ومفقر الزناة ومخزي تارك الصلاة» .

٣- **السطر الثالث:** «أنا الله لا إله إلا أنا رازق من لا حيلة له حتى يعلم من له حيلة أن لا حيلة له» .

وبعد أن فرغ إبراهيم - عليه السلام - من بناء كعبة الله المقدسة رفع يديه وابنه إسماعيل - عليه السلام - متجهين إلى أبواب رحمة الله راجين منه - سبحانه وتعالى - أن يكون ما قاموا به رهن قبول معطى العطايا .

وبعد هذا نزل جبريل - عليه السلام - باسطاً أجنحته وقال «إن عملكم قد حاز القبول عند الله» ثم تقدمهما وعلمهما مناسك الحج .

وأدى إبراهيم - عليه السلام - مقتدياً بجبريل - عليهما السلام - فريضة الحج ، وثبت جميع شروط الحج ومناسكه في خزينة حافظة ثم ودع ابنه إسماعيل - عليه السلام - عازماً على العودة وصعد فوق قمة جبل الرحمة ونظر مرة إلى جهة بلاد الشام وأخرى إلى ناحية مكة المعظمة السعيدة وتذكر جودة جو الشام ولطافة هوائها وعذوبة مائها ومر بخاطره حرارة الحجاز الشديدة المتعبة فتأسف على بقاء ابنه في هذا المكان الذي تحيط به الحجارة ودعا له طويلاً . ثم ضغط برجليه على المهماز قاصداً ناحية الشام . وفي هذه الفترة صدرت الإرادة الإلهية «أذن في الناس بالحج» وهكذا أمر بدعوة الناس إلى الحج فأخرج رجليه من المهماز وقال مخاطباً ربه: «يا رَبُّ قد فرضت طواف البيت على عبيدك وأمرت عبدك المطيع هذا بدعوة هؤلاء جميعاً لينالوا من هذه المائدة العامة نصيبهم ولكنني كيف

أستطيع أن أدعو هؤلاء جميعاً حتى يؤدوا مناسك الحج والطواف آتين من الشرق والغرب» فتلقَى هذا الجواب ذا الحكمة: «يا إبراهيم؟ فإذا ما دعوتهم بصيحة عالية فإننا نوصل صوتك إلى آذان الخلائق كلهم».

حينئذ اتجه للجهة اليمنى من باب الكعبة السعيدة حيث كان قد ترك المقام الشريف وصعد فوق الحجر حتى صار مساوياً للجوهر وسد أذنه بأصابعه وصاح متجهاً إلى الشرق والغرب: «يا عباد الله إن الله - سبحانه وتعالى - أمركم أن تحجوا إلى الكعبة الشريفة التي أمرني ببنائها وأن تطوفوا حولها، فأسرعوا إلى إيفاء هذا الغرض تكونوا قد استجبتم للدعوة الإلهية التي تستوجب المغفرة».

وبهذا القول البليغ ذاع الأمر الإلهي وأعلنه على العالم وقد سمع نداء الخليل سواء من كان حاضراً في وقتها أو من كانوا في أصلاب آبائهم أو في أرحام أمهاتهم والذين قدر حجهم في العالم الأزلي من الأمة واستجابوا قائلين «لييك».

رواية: قد سر حضرة الخليل من استجابة الأمة المحمدية قائلين «لييك» وقال «يا ربُّ إننى أريد أن أستضيف هؤلاء» وبالأمر الإلهي أخذ قبضة من تراب الأرض ونثره إلى الجهات الأربعة وفي الأماكن التي أصابها التراب المنشور ظهر الملح وإن هذا المعدن سيكون وليمة مقدمة إلى أهل الأرض إلى يوم القيامة بطلب من إبراهيم وباستجابة الله - سبحانه وتعالى - لدعائه وحيا.

وإذا قيل ألم يكن قبل ذلك ملح؟ يجاب عليه أن الله - سبحانه وتعالى - علق ظهور المعادن لسبب ما وكان نثر إبراهيم - عليه السلام - التراب سبباً في ظهور الملح.

«محاضرة الأوائل».

كان أول من أحس بصيحة دعوة إبراهيم أهل اليمن وعند البعض أن جرهم كان أو أول من سمع الدعوة ومع ذلك فجرهم من أهل اليمن.

نظم

ما العمل إنه جاءه على أنه التواب
وجاءه الأمر «أذن فى الناس»
ما لم يكن بيت القلب من طين وماء
فلتكن الضجة منها حتى تسمع أذن القلب
إن كل من كان فى الأصلاب والأرحام
سمع منه ذبذبة الصييت
إن كل سامع مـعجل
جعل من رأسه قدما للعبودية
إن الخلق منذ القدم فى هذه المحبة
وبلا سبب لم يسلكوا هذا الطريق

(فتوح الحرمین).

بناء على ما يروى أن عدد مرات حج شخص يتوقف على عدد إجابته لصيحة خليل الرحمن وكان الذى سيحج مرة واحدة قال «لييك» مرة واحدة والذى قدر حجه مرتين قال «لييك» مرتين وهكذا.

إذا ما نظرنا إلى حج الأمة المحمدية اليمنية كل عام يدل على أنهم فاقوا جميع المسلمين فى البلاد الأخرى فى التلبية. قال بعض المؤرخين إن إبراهيم عليه السلام عندما أراد أن يدعو الناس للحج لم يدعهم من فوق المقام الشريف بل صعد فوق جبل أبى قبيس أو جبل «ثبير» ونفذ أمر الله - سبحانه وتعالى - إلا أن القول الأول هو المصدق عند الجمهور ومرجح على الأقوال الأخرى.

وبهذه الصورة أتم سيدنا إبراهيم مهمته ونزل من فوق المقام الشريف نزل جبريل - عليه السلام - وأخذ إبراهيم - عليه السلام - وابنه إلى جبل الصفا ومن

هناك إلى جبل المروة وأراهما حدود المسجد الحرام وأوصى بأن يوضع حجر كعلامة فارقة، فى الأماكن التى عينها. ووضع خليل الرحمن^(١) العلامات فى الأماكن التى بينها الرسول الجليل. وفى السابع من شهر ذى الحجة تلا إبراهيم - عليه السلام - خطبة بليغة مقابل البيت الشريف. والآن تلقى الخطبة فى السابع من ذى الحجة من فوق منبر المسجد الحرام تشرح فيها بالتفصيل مناسك الحج والمسائل الخاصة بالحج.

وفى أثناء الخطبة كان إسماعيل - عليه السلام - يستمع إلى خطبة أبيه فى خضوع وخشوع وصدق وأدب جم.

وفى اليوم الثانى أحرمنا من الحرم الشريف بنية الحج وسارا إلى منى مليون ومهللين، وقضيا ليلهما فى الموقع الذى يوجد فيه الآن مسجد «الخيف» وكلما يحين وقت الصلاة كانا يؤديان الفرائض الخمسة فى أوقاتها وأطلق على هذا اليوم يوم «التروية» والحكمة من إطلاق هذا الاسم أنه قد كان ينتظاره قبل وقعة ذبح إسماعيل بيومين مترويا كما سبق أن بيناه.

وبعد ذلك بيوم كان اليوم التاسع من ذى الحجة وبعد أن أديا صلاة الصبح وانتشر ضوء الشمس فوق جبل «ثبير» ذهبا إلى وادى الفيوضات «عرفات» ووقفا فى المكان الذى يسمى الآن مسجد «نمرة».

وأحد أسماء هذا المسجد «مسجد إبراهيم» ويؤدى الحجاج فرضى الظهر والعصر جمع تقديم.

وفى اليوم المذكور صحبهما جبريل الأمين ليريهما الجبال التى فى الوادى وليعرفهما مناسك الحج وفعلاً بين لهما الحدود المطهرة والجبلين اللذين يقطعان حدود «عرفات».

وبعد ذلك دخل إبراهيم - عليه السلام - فى مكان يطلق عليه الآن مسجد «الصخرة»، وأجلس ابنه إسماعيل - عليه السلام - فى مكان ما، وتمتم ببعض الكلمات وهو واقف على قدميه وصلى هو وابنه صلاتى الظهر والعصر متصلتين جمعا، وأخذنا يذكران الله ويسبحانه وعادا بعد الغروب إلى وادى «المزدلفة».

(!) قد بين فى بحث الميقات كيفية وضع هذه العلامات وإلى أى وقت ظلت معروفة.

ويروى أن المكان الذى جلس فيه إسماعيل - عليه السلام - وكان عاليا وغير مستو بين الصبخور، وإنه الآن المكان الذى وقف فيه رئيس قافلة الأنبياء على نبينا وعليهم التحايا، والمحل الذى تتم فيه إبراهيم - عليه السلام - بكلمات وهو المحل الذى يلقى فيه الآن قضاة مكة خطبة عرفات.

وقد أدى إبراهيم - عليه السلام - هو وابنه صلاتى المغرب والعشاء متصلتين جمعاً جمع تأخير، ثم أخذوا يجمعان الحصى كل واحد منهما (٤٩) حصاة لرمى الجمرات وقضيا ليلتهما تلك فى المزدلفة، وبعد أن صليا صلاة الصبح نهضا وواصلوا سيرهما نحو مكان يسمى وادى المَحَسَّر^(١) وسارا فى هذا الوادى قدر خمسمائة ذراع سيراً سريعاً.

وبعد ذلك أعدوا ذبيحة وذبحاها فى مكان يسمى مسجد «منحر»، وهو مسجد لطيف فى ناحية مسجد «الخيف» من منى.

وفى اليوم الثالث من وصولهم إلى «منى» رميا الجمرات التى جمعها من المزدلفة بعد الزوال حسب الأسس الشرعية ثم توجهوا إلى مكة المكرمة بعد أن استراحوا فترة فى وادى «محصب»^(٢) وصليا فيه صلاة الظهر ثم عادوا إلى مكة المكرمة.

وأخيراً عاد إبراهيم - عليه السلام - إلى الشام وفى العام التالى أدى مع زوجته سارة وابنه إسحاق - عليهم السلام - فريضة الحج الشريف.

(١) المحسر اسم واد بين «منى والمزدلفة» وطوله خمسة وأربعون وخمسمائة ذراع. يقال إن أصحاب القيل قد تعبوا فى هذا المكان وأصبحوا غير قادرين على السير، لذا سمي الوادى بهذا الاسم وبما أن السير فى هذا الوادى ببطء سنة نبوية فإن الحجاج يسبرون فيه بتؤدة وبطء ولا يجوز وقوف وقفة عرفات فى هذا الوادى أو فى وادى عرنة.

(٢) ويقال لهذا المكان أبطح أيضا وهو مكان ذو حجارة فى مدخل مكة المكرمة والقرب من مقبرة حجون ومن السنة النبوية أن يقف فيه الحجاج الكرام ويصلوا الظهر والعصر والمغرب والعشاء وأن يقضوا ليلهم فيه ثم يدخلون مكة المكرمة.

وفى هذه الرحلة نالت سارة الرعاية التامة والاحترام الفائق من إسماعيل -
عليه السلام - وكلما تذكرت ما صدر منها نحو إسماعيل - عليه السلام - فيما
مضى خجلت وندمت، إلى أن توفيت أظهرت نحو إسماعيل - عليه السلام -
الود والمحبة.

واستمر حضرة الخليل طول حياته يذهب إلى مكة المكرمة ويعود مستصحبا
ابنه إسحاق - عليه السلام - وكذلك فعل ابنه - إسحاق - بعد وفاة والده^(١) إذ
كان يذهب كل عام إلى أرض الحجاز العطرة ويتلاقى مع أخيه وهكذا يشيد بنيان
الحب والمودة بينهما ويوالى فى المصافاة.

قطعة

كان فى الرسالة أخوان
كلاهما نهج الخليل متتهجان
أولهما فى الشام بدر يتألق
والثانى فى الحجاز شمس تشرق
أولهما كان فى آية حسن سارة يرغب
والثانى معجزة هجرة هاجر يطلب
أحدهما جده أمجد الأظهار
والآخر من الأسباط المختار
ذكرهما فى لساننا
على الدوام فى صلواتنا

وقد واظب المتوجون بتاج النبوة بعد إسحاق - عليه السلام - وكل من آمن
بنبوتهم ورسالتهم على الحج الشريف حتى سيدنا المسيح كانوا عندما يصلون إلى
حدود المسجد الحرام ينزلون من فوق دوابهم تعظيما له ويسيرون حفاة.

(١) وقد توفى إبراهيم - عليه السلام - قبل الهجرة النبوية بـ ٢٧١٨ سنة.

لائحة في ذكر كيف قدمت وتشكلت حكومة العمالقة والجراهمة في مكة المكرمة.

لإسماعيل - عليه السلام - من رعدة ابنة مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن حسن بن نبت بن جرهم بن قحطان اثنا عشر ابنا كانوا زينة الحياة الدنيا.

ويروى فحول المؤرخين أن أسماءهم مجهولة باستثناء نابت وقيدار وقطورا، وكل طوائف العرب صحيحة النسب هم من شجرة سلالة قيدار ونابت. ورغم أن ابن هشام عدد بالترتيب أسماء أبناء إسماعيل في السيرة التي كتبها، على أنهم:

ثابت أو نابت، قيدار، ذيل، منشى، مسمع، ماش، دماء، طيما، انطور، أزر، تيش، قبذا، فإن صاحب مفتاح العبر أيضا، قد صححها على أن تكون: «نابت أو نبت، قيدرا، أدليل، بسام، مشمع، ذومان، ما، حراه، تيما، بطور، ناقش، قدما».

وكلتا الروايتين خاليتان من جليلة الصدق والقبول.

كما اختلف المؤرخون أيضا في تعريف وبيان قحطان أبي جرهم فقد اعتقد بعض المؤرخين أن قحطان كان في الأصل ملكا.

وقد خلعت منه صفة الملائكة بسبب ما اقترفه من ذنوب وأخطاء وأهبط به على وجه الأرض على شكل إنسان!!

وعندما هبط إليها تزوج واحدة من كريمات العمالقة فأنجب منها جرهم - سالف الذكر - لكن خطأ من يعتقدون صحة هذه الرواية بين واضح.

فإن قحطان الذي يقال إنه ملك هو عابر بن شالح من أبناء نوح - عليه السلام - وعند حدوث تبلبل السنة الناس ذهب إلى أرض اليمن حيث أصبح حاكما على من قبلوا الدخول في طاعته أصبح أول حاكم على اليمن.

وعندما بلغ إسماعيل - عليه السلام - التاسعة والثمانين من عمره كان والده قد توفي.

كما توفي هو أيضا وترك الحياة الدنيا بعد مرور واحد وأربعين عاما على وفاة والده^(١).

وأُسندت إدارة حكومة مكة الجلييلة إلى قيدار ونابت وقطورا ورغم أن نابت بن إسماعيل - عليه سلام الله الجليل - قد نجح في حسن إدارة حكومة مكة المكرمة التي ورثها بعد وفاة والده، فإنه عندما توفي، تولى الحكومة الجلييلة لبلدة الله مضاض بن عمرو الجرهمي والد رعلة، وصهر إسماعيل - عليه السلام - واشترط عليه أن يضم إلى كنفه أولاد نابت المتوفى وهكذا تولى رئاسة قبيلة وحكومة مكة برضا القبائل الكبيرة وصعد فوق جبل «قميقمان» الواقع ناحية شعب أبي طالب من جبل أبي قبيس، والتلال الواقعة حول هذا الجبل، ونصب الخيام هناك حيث أقام وأخذ سميدع بن هوش رئيس قبيلة قطورا^(٢) جماعة العمالقة التي كانت تحت إمرته ثم توجه بهم إلى أسنل مكة وبعد فترة قصيرة صعد بهم فوق قمم جبال أجياد^(٣) وبهذا تكونت داخل مكة المعظمة حكومتان صغيرتان وتم الاتفاق - بعد فترة - على أن يقوم مضاض بأخذ عشر البضائع التي تأتي من ناحيتي الشرق والشام ويأخذ سميدع رسوم البضائع التي ترد من ناحيتي الغرب واليمن بشرط ألا يتدخل أحدهما في شئون الآخر.

وفيما بعد زاد عدد جماعة مضاض بن عمرو وعدد أتباع وأشباع سميدع بن هوش، وبمقتضى الحكمة القائلة «إن وجود حكومتين في بلدة واحدة مضر»، نشب بين الجراهمة وقوم قطورا نوع من النزاع حول الملك.

(١) حدود الجبال المحاذية للحجر الأسود انقام الشريف لإبراهيم - عليه السلام - كانت مقر قبيلة مضاض بن عمرو أيضا.

(٢) كان قطورا والجراهمة أولاد عمومة وقد هاجروا مع أفراد قبيلتهم من بلاد اليمن إلى الحجاز. وفي أثناء الهجرة اختار الجراهمة مضاض بن عمرو رئيسا لهم كما اختار أفراد قبيلة قطورا سميدع رئيسا لهم ولما كانت مكة المكرمة في تلك الأوقات مكانا كثير الماء وفير الأشجار اختاروا النزول بجوارها وسكنت الجراهمة فوق جبل قميقمان في أعلى مكة كما سكنت أفراد قطورا جبل جياذ حذاء جبل قميقمان.

(٣) الجهات الواقعة في ناحية جذة من البيت المحترم كانت ضمن مقر الجماعة التي تحت رئاسة سميدع بن هوش.

ويظهر بعض الأشرار من الجانبين كان يقوم نزاع من حين إلى الآخر بينهما . واستمرت هذه الحالة غير المستقرة فترة قصيرة ثم اتحد الجراهمة وهزموا جماعة قطورا وقتل سميدع ، لذا عقد مضاض صلحا مع من بقى حيا من قوم قطورا الذين طلبوا الصلح وهكذا أصبح مضاض الحاكم الأوحد لمكة المفخمة .

وحتى هذه الواقعة - أى تاريخ استقلال مضاض بن عمرو الجرهمى بالحكم كانت حجابة الكعبة وسداتها لبنى إسماعيل وكانت إدارة حكم البلدة المشرفة - مكة المكرمة لرؤساء الجراهمة وعقب وفاة نابت ، ومقتل سميدع بن هوش استولى الجراهمة على سدانة بيت الله أيضاً . ورأينا إدراج هذه الأبيات الصريحة فيما يتعلق بهذا الأمر .

نظم

وكنا ولاة البيت من بعد نابت نظوف بتلك البيت والخير ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى كنا أهلها فأزالنا صروف الليالى والحدود العواصر

والأبيات المذكورة من قصيدة طويلة نظمها عمرو بن الحارث الجرهمى وتحكى طرد وإخراج الجراهمة من مكة المعظمة وانتقال حكومة مكة الجليلة إلى بنى خزاعة .

وعندما اختلت نظم إدارة حكومة جرهم وقطورا أخذ مضاض بن عمرو أبناء قبيلته المسلحين ونزل من جبل قعيقعان ، كما اصطحب سميدع أيضا قومه المقاتلين ونزل من جبل أجياد ، عازما ملاقة مضاض الجرهمى والتقى الجمعان فى المكان المسمى «فاضح» .

وكانت سيوف وسهام وحراب الجراهمة تققع وتصدر صوتا ، ولهذا سمي الجبل الذى صعدوا عليه باسم «قعيقعان» .

كما أن جند سميدع هبطوا من جبل «أجياد» وهم متفرقون ثم أطلقوا على الجبل المذكور اسم أجياد .

وقد التحم جند الطرفين فى القتال فى موقع «فاضح» سالف الذكر وفى النهاية قتل سميدع، وتعرض أفراد عشيرة «قطورا» للإذلال والإهانة كما أنهم لم يستطيعوا حماية رئيسهم لذلك سُمى ذلك المكان «فضيح» لأنهم فضحوا بين العرب.

وعندما تشتت شمل جماعة «قطورا» أرسلوا رجلاً إلى مضاض بن عمرو وطلبوا الصلح.

فقرر أن ينتخب رجلاً ذوى ثقة من الجانبين ليحددوا شروط الصلح وأرسلوا إلى مكان يسمى «مطابخ»^(١).

وبعد أن تداول هؤلاء المبعوثون شروط الصلح وتشااوروا لمدة طويلة، تقرر إسناد أمر إدارة الطرفين إلى عمرو بن جرهم.

فرح عمرو الجرهمى بهذا القرار، واستدعى جند الطرفين إلى الوادى المسمى «مطابخ» وأقام لهم جميعاً مأدبة كبيرة.

وأول حرب وقعت فى المدينة المقدسة مكة الفخمة هى حرب مضاض بن عمرو وأول من قتل فيها هو رأس عشيرة قطورا.

وبالتدريج قوى نظام الحكومة المستقلة التى تشكلت بحكمة مضاض بن عمرو وزادت مكانتها. وتكاثر أبناء وأحفاد قبائل الجراهمة التى كانت ترعى بنى إسماعيل وتحترمهم، لهذا اكتسبت حكومة مكة المكرمة قوة واسعة فى وقت قصير، وأصبح رؤساؤها من الملوك أصحاب الصولات فى ذلك العصر.

ورغم هذا لم تتسع أرض مكة الله المقدسة بالقدر الذى يليق لاستيعاب أهلها، ولهذا اضطرت القبائل للجوء عن موطنها وانتشرت جماعات فى أطراف الممالك وبسبب صلة النسب، أظهر الجراهمة الرعاية والاحترام إلى أحفاد بنى إسماعيل،

(١) مطابخ: مكان واسع فى أعلى مكة المعظمة وسبب تسميتها أنه تم فى هذا المكان طهى طعام المأدبة التى أقامها مضاض بن عمرو الجرهمى للجند.

ولهذا لم يرسلو جندا إلى أى مكان قط إلا وحققوا النصر والظفر ونالوا القوة والعظمة حتى طردوا عدوهم القديم، طائفة العمالقة الباغية وأخرجوهم من البلدان، والطائفة المذكورة من الأمم السامية، ومن أحفاد «عمليق» بن لاو بن آد بن سام بن نوح - عليه السلام، وعندما تفرقت الألسنة نزلوا بساحة صنعاء اليمن، ثم رحلوا بعد ذلك إلى منطقة الحرمين الشريفين وانتصروا على كل من أظهر لهم العداوة وأهلكوهم وقد أقامت جماعة منهم فى بوادى الشام وعندما عصوا الله أمر الله - سبحانه وتعالى - موسى ويوشع - عليهما السلام - بقتالهم.

ورغم أن الملوك الجبارة الذين استولوا على يثرب وخيبر وتلك النواحي وحكموها، كذلك فراغت مصر كانوا من هذه الطائفة، إلا أن بنى إسرائيل قضوا عليهم جميعا وحكموا البلاد التى كانوا يحكمونها حتى قبيل مجئ الأوس والخزرج. وكان ديانة طائفة العماليق عبادة الأحجار والأشجار.

ورغم أن الجراهمة طردوا العمالقة الطغاة الغدارين وأخرجوهم من أرض الحجاز الطاهرة إلا أنهم انقسموا إلى قبائل متعددة وحكموا كل أرجاء مكة المكرمة لفترات طويلة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن العمالقة كانوا من الأقوام الجبارة ويتصفون بشجاعة فطرية هذه الشجاعة التى غطت شهرتها الآفاق.

ولكنهم لما بدأوا فى الاستخفاف بحرمة الحرم الشريف الواجب التعظيم، وقصروا فى رعاية بيت الله وفسقوا فيه ابتلاههم الله باليأس والحرمات فسلط عليهم الجراهمة الذين كانوا يستصغرونهم ويحقرونهم فغلبهم الجراهمة وأخرجوهم من منطقة الحجاز.

تفاصيل هذا البحث موجودة فى الصورة الثانية من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

انتقال حكومة مكة إلى يد بنى خزاعة

بعد أن نجحت قبائل الجراهمة الباغية في طرد طائفة العمالقة من الأراضى الحجازية المقدسة، نكلوا بهم واختار الجند مضاض بن عمرو أميراً لأنفسهم.

وبعد فترة من مقتل سميدع اتخذت عشيرة قطورا مضاض بن عمرو رئيساً لها بعد الانتصار عليها وزادت قوتهم وقاموا ببدع لا تليق بالمكانة الرفيعة لكعبة الله واتسموا بسوء الخلق وقاموا بما يستدعى غضب الله الجليل عليهم وظهرت آثار البغض والشقاوة والطغيان بانقطاع ماء زمزم الذى غار تماماً.

واستخفوا بحرمة كعبة الله الشريفة، واستحلوا المحارم وما نهى عنه، وجرأوا على الاستيلاء على الأموال والهدايا التى يرسلها الملوك والحكام إلى البيت الشريف.

أحلوا الحرام وأخذوا يظلمون الناس ويعتدون عليهم بل تجاوزوا ذلك بأن منعوا الناس من زيارة مكة المعظمة فى خِسة ودناءة.

وكان مضاض بن عمرو رئيس هؤلاء المشثومين من الجراهمة قد جمعهم ذات يوم وخطب فيهم واعظاً فقال: «يا طائفة الجراهمة اجتنبوا المظالم والمعاصى فى جوار بيت الله الشريف، وقوموا بالأفعال الخيرة تنالوا القبول والرضا عند صاحب الكبرياء. فقد سلطكم الله القادر على العمالقة البغاة، عندما انتهكوا حرمة الحرم الشريف وقد تم طرد هؤلاء المشثومين من دائرة الفيض الإلهى ورأيتم كيف حرموا من دخول دائرة الحرم الشريف وسمعتم ما ابتلى به قوم هود وصالح وشعيب - عليهم السلام - من النوازل وأنواع البلاء.

وإذا تمسكتم بما أنتم عليه من رذائل الأخلاق فليس يبعيد وجود طائفة أقوى منكم فتطردكم وتخرجكم - مثل العمالقة - من حدود أرض الحجاز الميمونة فأجابوه بقول يملأه الغرور^(١) وهل يوجد بين العرب قوم أشجع وأجرأ منا، وهل

(١) اسم الشقى الجرهمى الذى هذا القول لمضاض بن عمرو هو مجدع.

هناك من لديهم الرجال الأقوياء والأسلحة البتارة الأكثر والأكمل منا؟ حتى تجرؤ على حربنا وقتالنا وطرردنا وإخراجنا من أرض مكة؟ فلماذا تزعجنا بهوموم الحرب والقتال واحتمال طردنا من ساحة مكة الله؟!

وعندما شعر مضاض بن عمرو أن إصلاح أحوال القبيلة الضالة أمر غير ممكن وأن هذا الحال مقدمة لداهية كبرى، قام ذات ليلة وأخذ الغزالين الذهب وكانا محفوظين فى خزينة بيت الله، وبقية الهدايا القيمة وألقى بها كلها فى بئر زمزم الذى قد نصب ماؤها، ثم سد البئر المذكور بالحجارة والتراب. ثم اصطحب أولاد وأحفاد إسماعيل وأسرع راحلاً إلى الأطراف حتى لا يتعرضوا للخذلان.

كما أوضحنا سابقاً فى الوجهة الخاصة أن الأشياء القيمة التى أخفاها مضاض بن عمرو فى بئر زمزم أخرجها عبد المطلب بن هاشم فيما بعد فى أثناء حفرة للبئر وأجريت قرعة بالانفاق مع رأى العام وكانت نتيجتها أن الغزالين كانا من نصيب البيت الأعظم وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب.

وقد قام عبد المطلب بتعليق الغزالين على جانبى باب الكعبة فزين بهما الكعبة وباع بقية الأشياء أنفق ثمنها كله على بيت الله، وأظهر بهذا مدى إخلاصه وعبوديته.

عقب خروج مضاض بن عمرو مصطحباً أحفاد بنى إسماعيل إلى أطراف البلدان اشتد بغى وطغيان الجراهمة، وتصرفوا حسب هواهم.

وعندما أدرك بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقبائل غبشان الخزاعى، قلة عدد الجراهمة، استعانوا بالقبائل المجاورة المقيمة فى البوادرى لكى يغيروا على الجراهمة وكونوا جمعاً كبيراً وأعلنوا الحرب على الجراهمة.

وبعد معارك كثيرة، حاصروا مكة المعظمة وضيّقوا الخناق على الجراهمة البغاة، وطرردوهم خارج حدود كعبة الله المحفوفة بالهدى.

وأول من تبوأ مقعد الحكم فى مكة المكرمة بعد الجراهمة هو غبشان الخزاعى.

ومن بعده أصبح عمرو بن الحارث الغبشاني أميراً لمكة، وقد توارث أبناؤه وأحفاده الولاية الجليلية لحكومة مكة حتى مجئ خليل بن حبشة بن سلولة صهر قصي بن كلاب.

وكان بنو خزاعة من ساكني بلدة مأرب الواقعة على بعد ثلاث مراحل من مدينة صنعاء اليمن المشهورة.

وعندما علموا أنها ستنتهز نتيجة لخرق السدود والنقب وسيهجم سيل العرم ويفرق سكان بلاد «سبأ» ويمحوهم.

ولما قضت هذه الشائعة راحة الناس وكان منهم عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان فخرج وقد أخذ معه قبيلته المنقادة له وباع أملاكه ومتاعه وأسرع يبحث عن بلدة يسكنها. وكان يقابل أهل البلاد التي يمر بها ويغلبهم، مع هذا لم يستطع التكيف والتألف مع ماء البلاد وهوائها التي يمر بها، لهذا عزم على الذهاب إلى أرض الحجاز المقدسة بناء على ما أخبرته به كاهنة تسمى ظريفة وبعد فترة وصل إلى حدود ميقات مكة.

وفي أثناء إقامته بلغه أن قبائل الجراهمة مصرون على رأيهم بمنع غيرهم من دخول مكة، فتشاور مع حكماء القبيلة. ورأى أن يرسل برسالة إلى الجراهمة يستأذنها في البقاء بأرض مكة المشرفة لفترة قصيرة، ولكن الجراهمة رفضوا رجاء عمرو بن عامر. ولما بلغ قولهم إنه يتحتم عليه - في كل الأحوال - أن يزيل خيامه من عند حدود كعبة الله، وأن يرتحلوا إلى أي بلد آخر عندئذ قال لهم عمرو بن عامر: إنني أرى البقاء في أرض مكة بلا قيد أو شرط، فإذا كان هذا ملائماً لكم فحددوا لنا مكاناً مناسباً بجانبكم نكن إخوة لكم نعاونكم وننصركم، حسبما يقتضى الأمر. أما إذا صمتم على المعارضة والرفض، فسأسلب راحتكم وأستعمل معكم أساليب العنف والسيطرة والقوة القهرية، فأخرجكم من مساكنكم وبيوتكم وأطردكم خارج الحدود، وإذا تصديتم لقتالي فسأنتصر عليكم بعون الله وسأهين رجالكم بقتلهم بالسيف وأقيد أطفالكم ونساءكم بأصفاة الأسر.

ومع هذا القول فإنهم عارضوه فاستجمع كل قوته وحاربهم ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة، وفي النهاية لاذ الجراهمة بالفرار فدخل مكة المكرمة، واستولى عليها وقضى على جماعات الجراهمة الذين قبض عليهم وقهرهم.

واشترك في هذه الحرب غبشان الخزاعي مع أبناء بكر بن عبد مناة بن كنانة. وقد هلك وقتل كثير من الجراهمة، جزاء وفاقا لما اقترفوه من مظالم ومساوى وكانت عاقبتهم جميعا أن أخرجوا من مكة وأبعدوا مطرودين إلى جبال اليمن. والواقع أنه ما من حاكم اعتاد على أن يظلم داخل مكة إلا وهلك، وأخرج هو وقومه وقبيله منها! حتى أطلق على مكة اسم بكة نظراً لأن المدينة المباركة تبك أعناق الجبابرة.

وعلى الذين يرغبون في معرفة تفاصيل هذه الواقعة الرجوع إلى الصورة الرابعة من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

وخرجت حكومة مكة المشرفة من أيدي الجراهمة، وما أن أصبحت في قبضة الخزاعيين وتصرفهم حتى رجع إليها بنو إسماعيل المنتشرون في الممالك والبلدان وأقاموا داخل الأرض المقدسة لكعبة الله، بعد أن استأذنوا الخزاعيين في هذا.

وبعد فترة قصيرة التمس مضاض بن عمرو الجرهمي إذنا بالإقامة في مكة المكرمة فلم يوافق أفراد بني خزاعة علي إقامة مضاض أو أي فرد من الجراهمة في أرض مكة الطاهرة وأجابوه إذا تجاوز أحد منكم حدود الحرم الشريف سنقتله بلا تردد.

واستقبل مضاض بن عمرو رد بني خزاعة بالصمت وحدث نفسه قائلاً: «سأجد لي حيلة فيما بعد لأقيم في مكة».

وذات يوم صعد فوق جبل أبي قبيس يبحث عن إبله. فرأى إبله المفقودة بين يدي بني خزاعة يذبحونها ويقسمونها بينهم، فراقبهم لفترة طويلة ثم قطع الأمل في استرداد إبله وقال في نفسه: «إذ هبطت إلى الوادي لن تسلم من القتل كما

سبق أن هددوك من قبل «ثم أخذ أنصاره وأتباعه وشيعته الذين معه ووجه رجاله تجاه اليمن وخرج من أرض الحجاز المقدسة».

وكما يفهم من قصيدة عمرو بن الحارث بن مضاض التالى ذكرها أنه عندما خرجت البلدة السعيدة المباركة من يد مضاض بن عمرو الجرهمى البلدة التى لا مثيل لها فإنه سقط من فوق كرسى الحكم، وأصبح شيخ قبيلة عادية أصابه الحزن والألم الشديد.

ومضاض بن عمرو هو الحادى والعشرون من ملوك الجراهمة الذين تولوا أمر السلطة فى البلاد الحجازية المقدسة.

وأول من تبوأ مقعد الحكم من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان، عاد وقد استولى على الأراضى الحجازية عندما كان أخوه يعرب يتولى الحكم فى أرض اليمن مكان والده قحطان وهزم جرهم العمالقة واستولى على زمام الحكم.

وعندما توفى جرهم بن قحطان آلت حكومة الحجاز إلى ابنه عبد ياليل بن جرهم وعند وفاته آلت إلى جرشم بن عبد ياليل وعندما توفى جرشم آلت إلى عبد المدان بن جرشم، ومن بعده إلى ثقيلة بن عبد المدان وفى النهاية إلى عبد المسيح بن ثقيلة ومن بعده إلى مضاض بن عبد المسيح ومن بعده إلى عمرو بن مضاض وعندما توفى عمرو آلت إلى أخيه حارث بن مضاض بن عمرو بن الحارث ولما توفى عمرو آلت إلى أخيه الحارث بن مضاض ومن بعده إلى عمرو بن الحارث وبعد وفاة عمرو آلت إلى أخيه بشر بن الحارث وبعده إلى مضاض بن عمرو بن مضاض وفى حياة مضاض هذا خرج حكم مكة من يد الجراهمة كما فصلنا القول فيه أعلاه. وأخذ بنو خزاعة حكم مكة فى أيديهم.

وهذه القصيدة من نظم عمرو بن الحارث وتحكى انتقال حكومة مكة المشرفة إلى إدارة بنى خزاعة.

وقائلة والدمع سكيب مبادر
وقد شرقت بالدمع منها المعاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب منى كأنها
يلجلجه من الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا
صروف الليالي والحدود العوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
ونحن ولينا البيت من بعد نابت
بعز يخطى لنا المكائر
ملكنا فعززنا فأعظم بملكنا
فليس لحى غيرنا كإثم فاخر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته
فأبناؤه منا ونحن الأصاهر
فإن تنشئ الدنيا علينا بحالها
كذلك بالناس تجرى مقادر
أقول إذا نام الخليل ولم أنم
إذ العرش لا يبعد سهيل وعامر

وبدأة منها أوجها لا أحصاها
قبائل منها حمير وبها بر
وصرنا أحاديثا وكنا يغبطه
بذلك عفتنا السنون الغواير
فسحت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم آمن وفيها المشاعر
وتبكى لبيت ليس يؤذى حمامه
يظل به آمنة وفيه العصافر
وفيه وحوش لا ترام أنيسة
إذا خرجت منه فليست تفادر

وآلت الحكومة الجلييلة مكة المكرمة إلى يد بنى خزاعة على النحو المذكور
واستقل بنو خزاعة بزمام إدارتها وبعد ذلك أصابت الحمى كل أفراد
القبيلة المنسوبة إلى عمرو بن عامر، وأدركوا أنهم لا مقام لهم بعد ذلك فى أرض
مكة.

وبرأى ومشورة الكاهنة «ظريفة» هاجر «آزر» إلى «عمان» وثعلبة بن عمرو بن
عامر إلى الشام و الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام إلى جوار «المدينة
المنورة».

وبقى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر المشهور بلقب (الحى) داخل مكة
وتولى القيام بمهام حكومة مكة وأمور حجابة الكعبة.

إخطاره

تولى بنو خزاعة إدارة حكومة مكة المكرمة لمدة ثلاثمائة عام، وخلال هذه
الفترة هزموا الجند الذين أرسلهم ملوك اليمن لتخريب بيت الله شجاعة فى
الدفاع عنه.

ورغم أن بنى إسماعيل طوال فترة إقامتهم فى مكة المعظمة كانوا تحت إدارة الحكومة المستقلة لبنى خزاعة، ولم يتدخلوا فى مسائل الحكم، ولم يخالفوا أحدا قط إلا أن قصى بن كلاب بن مرة بعد ثلاثمائة سنة من حكم بنى خزاعة استطاع أن يحقق قوة وسطوة ويتولى إدارة حكومة مكة، وجمع كل أفراد القبيلة التى ينتسب إليها وأسكنهم داخل حدود مكة، وعززهم وأكرمهم. وبناء على ذلك أطلق عليه بين القبائل لقب «المجمع» وأصبحت قريش التى تنتسب إليه تشكل القبيلة الغالبة.

وقبيلة قريش الجلييلة هى جماعة تنتهى إلى النضر بن كنانة وبناء على الجرائم التى ارتكبتها الجراهمة كما ذكرنا سالفًا تفرقوا فى أطراف البلاد حتى لا يتعرضوا لغضب الله ذى الجلال.

وكما ذكرنا فى الصورة الثامنة من هذه الوجهة أنه بجهد قصى بن كلاب تجمعوا وتقرشوا فى مكة المكرمة ولهذا أطلق عليهم اسم «قريش».

* * *

توضح كيف تم تجديد البيت العتيق فى المرة الخامسة وكيف نجح العمالقة فى تجديده

على الرغم من أن بعض المؤرخين قالوا: إن بناء العمالقة حدث فى المرة الخامسة، إلا أن الرواية التى نقلها الإمام الأزرقى عن عبد الله بن عباس تلمح وتشير إلى أن بناء الجراهمة حدث بعد عمارة العمالقة للكعبة، حيث يقول الإمام الأزرقى فى تاريخه: فى الأزمنة القديمة، توطنت فى مكة المكرمة طائفة تسمى العمالقة وكان كل أفرادها - بصفة عامة - مفرطين فى الثراء، وكانوا أقوى الطوائف على وجه الأرض وكانت حكومة البلدة فى أيديهم.

هذه الطائفة المذكورة، كانت كلها تملك الخيول الأصيلة المرغوبة لدى العرب، وكذلك الإبل وسائر الدواب الجميلة والمرغوبة يشتغلون برعى الدواب فى المراعى بضواحي مكة. أما قوتهم وقدرتهم فكانت مفرطة. وفى زمانهم كانت البقعة المقدسة التى بناها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد أوشكت على الخراب والانهار وذلك بعد انقضاء زمن طويل على عصر الخليل الجليل.

وبناء على ذلك اتفق رؤساء القبائل فيما بينهم على تجديد ما تهالك من بيت العزة وفى أثناء ذلك كان الجراهمة أيضا فى مكة، لكن حكومة مكة الله وسدنتها كانت مقصورة على رؤساء العمالقة. وعندما حازت هذه الطائفة القوة والثروة وأصبحت جوانب مكة المكرمة الأربعة مزدانة بالمروج الخضراء والأشجار المثمرة التى تثير البهجة مالت الطائفة المذكورة إلى متع الحياة واللهو وغاصوا فى الفجور والفسوق، وسار الأمر على هذا المنوال فطغوا وبغوا باعتمادهم الظلم والفساد.

وبلغت مفاسدهم إلى الحد الذى لا يستطيع فيه الرجل أن يستظل بظل شجرة، أو أن يأخذ شربة ماء من أية عين للماء ما لم يدفع نقودا وكانت عاقبة

الأمر أن زالت دولتهم وشوكتهم وأفل نجمهم وأدبر سعدهم حيث تسلط عليهم نوع من النمل فاضطروا للرحيل .

ورحلوا إلى ديار اليمن حيث مساكنهم ومبانيهم القديمة ولم يستطيعوا العيش هناك، وهلكوا جميعا وطوال فترة قيامهم بالمحافظة على البناء المقدس لبيت الله، ولهذا فإن الجدران العالية^(١) للبقعة المقدسة لبيت الله - التي جددوها - خربت تماما ومحيت كلها، وبقيت بقية الحجارة التي وضعت فوق الأساس الخالد الذي وضعه إبراهيم ومنها عرف الناس الموضع المبارك لبيت الله فأصبحوا يطوفون به وفي النهاية حددته طائفة الجرائم.

* * *

(١) كانت جدران كعبة الله التي جددها العمالقة مرتفعة جدا وكانت مزينة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة .

تبين طريقة تجديد البيت الأكرم في المرة السادسة

قام الحارث بن مضاخ الأصغر^(١) من طوائف الجراهمة بتجديد البناء القديم لكعبة الله في المرة السادسة، فقام بتركيب مصراعين لباب المعلا بالكعبة ثم وضع عليه قفلا. أما سبب هذا التجديد فهو السيل الذي روى عنه أبو جهم بن حذيفة - رضى الله عنه - أنه خرب بيت العزة. وقد نزل السيل المذكور من أعلى مكة ودخل البيت الشريف وهدم البناء الكريم لبيت الله الذي سبق وأقامه العمالقة والملوك الذين جاءوا بعد قيام الحارث بن مضاخ بتجديده على النحو السابق.

عمر الجراهمة الكعبة المعظمة ورموها مرة تلو مرة، ولما ضلت قبائل بني جرهم بمرور الأيام وانحرفوا، ظلموا وفسقوا وفجروا وعمتهم الفوضى، مثل العمالقة البغاة.

وكما ذكرنا في البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى بني خزاعة فإنهم لم يصمدوا لهجوم بني خزاعة، وتركوا البلدة المكرمة.

وبعد فترة من انتقال حكومة مكة إلى بني خزاعة، خرب ودمر بيت الله بسيل عظيم اجتاح مكة المكرمة.

وقد سمي هذا السيل «القارة» إشارة إلى غرق امرأة اسمها «قارة» من قبيلة بني بكر.

وبعد انحسار مياه السيل أقام بنو خزاعة جدارا منخفضا حول البيت الشريف للوقاية من السيول التي تكررت من بعد وتركوا البيت الحرام على حاله القديم وظل البيت على نفس الحال حتى زمن قصي بن كلاب.

(١) هو الحارث بن مضاخ - تاسع ملوك الجراهمة.

فى ذكر طريقة تجديد وبناء كعبة الله فى المرة السابعة

بنى قصى بن كلاب بن مرة البيت المعظم فى المرة السابعة وقصى بن كلاب بن مرة من الأجداد الكرام لحضرة النبى صلوات الله عليه وسلامه . وهو الجد الرابع لسلطان الأنبياء عليه وعليهم التحية والذى علا بنسبهم .

إخطار:

إن إحصاء أجداد النبى حتى الجد الواحد والعشرين ومعرفتهم بالترتيب أمر جازئ، وقد قام به المرحوم عثمان عريانى أفندى الكلىسى فى شرح القصيدة النونية التى أطلق عليها اسم «جبر القلائد فى شرح جوهر العقائد». ليس من شروط صحة الإيمان معرفة أسماء آباء وأجداد وحفدة سيدنا النبى عليه أكمل التحيات ويكفى لصحة الإيمان معرفة اسمه الشريف فقط .

وعدانان هو الجد الحادى والعشرون من الأجداد المعروفين لحضرة النبى، وأنه آخر الأشخاص الجائز تعدادهم من أجداد حضرة نبينا ﷺ - ولا يوجد مسوغ شرعى لتعداد من سبقوه .

وحسب ما جاء فى كتاب النسب الذى ألفه زيد بن بكار أن قصى بن كلاب بن مرة، عندما استقل بحكومة مكة المشرفة شرع فى هدم البيت العتيق بعد أن أعد كل ما يلزم لبنائه .

وقام بينائه وتجديده وجعله بناء ضخما رصين الأركان وكان تجديده له على نسق وشكل لم يسبقه إليه أحد .

ولم يكن هدفه من هذا تزيين بيت الله محط الإخلاص وبناءه وإنما أراد أن ينقذ تلك البقعة المقدسة من حالة الخراب .

ولم يعترف مجموعة من المؤرخين السابقين بالانهيار الذى حدث للكعبة فى

المدة ما بين حضرة الخليل وقصى بن كلاب وقالوا: إن قصى بن كلاب هو أول من هدم البناء المقدس لبيت الله الأكرم وبناءه من جديد.

وقال أيضا الإمام الماوردي هذا القول وذكر في كتابه «الأحكام السلطانية» رأيه مفصلا وقال: «إنه بعد سيدنا الخليل - عليه السلام - قام قصى بن كلاب بن مرة بهدمه وتجديده ودعمه ببناء مسقوف بأشجار النخيل ومن أخشاب بلاد الروم وكان ارتفاع جدرانه يزيد تسعة أذرع عن بناء الخليل، وبني كل مواضعه في صورة جميلة لطيفة وفق الأسلوب القديم لسيدنا إبراهيم.

وعلى هذا التقدير فإن العمالقة والجراهمة لم يجددوا بناء البيت العتيق بل رعموه وأصلحوه مرة أو مرتين فقط.

انتقال حكومة مكة المكرمة إلى قصى بن كلاب بن مرة؛

عندما توفي كلاب بن مرة بن كعب، كان ابنه قصى صغير السن أما والدته فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جشعمة بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نصر بن الأزد في أعقاب وفاة زوجها سالف الذكر تزوجت من شخص يدعى ربيعة بن خرام بن حبة بن عبد بن كبير بن عذرة بن زيد بن سعد الذي جاء إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاة وذهبت مع ابنها قصى بن كلاب إلى أراضى الشام حيث يقيم زوجها الجديد^(١).

وسعد هذا الذي يعتبر من بين أجداد ربيعة بن خرام كتب عنه واحد من شعراء عصره أنه أجراً وأشجع أبطال عصره ومدحه وأثنى عليه بهذه القطعة.

لا أرى في الناس شخصا واحداً	فاعلموا ذلك كسعد بن سيل
فارس أضبط فيه عسرة	وإذا ما عابن القرن نزل
فارس يستدرج الخيل كما	يدرج الحر الفطام الجمل

(١) كان ربيعة بن خرام يسكن في أرض عذرة من ملحقات الشام.

وعندما بلغ قصى بن كلاب سن التمييز وأصبح قادرا على التفوق بين الحسن والردئ - إذ نمت قوة إدراكه - نشبت نار النزاع واشتد الاضطراب بين القبائل واشتعلت الفتنة بين جماعة آل ربيعة التي ينتمى إليها زوج أمه اضطرب مزاجه وسلبت منه زاحته وطمأنينته، ذلك لأنه لم يكن من قبيلة ربيعة رجل يعرف أن كلاب بن مرة هو والد قصى سوى ربيعة، ولهذا كان أرباب السوء من القبيلة يؤلمونه ويعيرونه بأقوال مثل: إن والدك غير معلوم لنا وما ألبأك إلى قبيلتنا سوى انتسابك إلى قبيلة مجهولة لا اسم لها ولا شهرة فلو كان قومك معروفين لك لكنت تحتمى بهم تستنصرهم لتنجو من شرنا.

وقد التوى ابن كلاب من هذا الأمر وانزعج من نباح كلاب بنى ربيعة وقص ما جرى بالتفصيل على أمه فاطمة وشكا لها باكية متألما وأبدى ما أصيب به من جرح فى نفسه.

وكانت فاطمة أم قصى من أعقل النساء فقالت لابنها لكى تطفى نار حزنه وتسرى عنه وكأنها تصب عليه ماء الحياة: يا بنى أنت من الصلب الشريف لكلاب بن مرة فأنت أكرم من أبناء آل ربيعة ومن كل الوجوه وأنت أشرف نسبا وأعظم حسبا من كل قبائل العرب، إن قومك وقبيلتك يقيمون فى نواحي مكة المعظمة ويسكنون منذ زمن طويل حول حرم الله.

وهكذا أخبرته أنه ينتسب إلى قبيلة كبيرة من أشرف القبائل العربية.

وعندما سمع «قصى» هذا الكلام من أمه أراد أن يلحق بقبيلته ويذهب إلى مكة المكرمة وعزم على ألا يعود إلى أرض قضاة بعد ذلك أبدا فنصحته أمه قائلة: يا بنى لا تتعجل وانتظر إلى أن يحل الشهر الحرام واذهب آنذاك - مع قوافل الحجاج العرب فأنا لا أحبذ سفرك بمفردك ولما حان وقت الحج ذهب إلى منطقة الحجاز برفقة حجاج قبيلة قضاة وبعد انتهاء الحج أقام خيمة حول كعبة الله وأقام فيها.

وكان قصى حازما بارعا جلدا، وبعد فترة من إقامته فى مكة عرف أهلها شرف حسبه وفضل نسبه فأكرموه كرما شديدا.

وزاد توقير الناس له وتعظيمهم إذ تزوج ابنة حليل بن خبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي وهو من أعظم رجال بني خزاعة آنذاك تولى حجابة البيت بعد أن استولى على حكم مكة المكرمة ورتاسة القبائل.

وعلى قول آخر إنه تزوج من عاتكة ابنة فالخ بن مليك بن قالخ بن ذكوان السلمي وحظى منهم بكل مظاهر التوقير والاحترام والقول الأول مرجح على الثاني وقد ثبت أن حليل بن خبشية صهر قصي بن كلاب حقا وعلى هذا فإن «حبا» هي الجدة الرابعة من جدات الرسول ﷺ.

وبعد هذه المصاهرة بين قصي بن كلاب وحليل بن خبشية اتسع نطاق قدرته ومكانته بالتدرج وتزايد أبناؤه وخدمه وحشمه وأصبح واحدا من صناديد القبائل العظام. وفي أثناء مرض صهره حليل بن خبشية، ترك مفتاح البيت تبعا للقواعد المرعية في ذلك الوقت وأوصى به إلى ابنته «حبا» زوجة قصي بن كلاب.

ولما كانت «حبا» عاجزة عن إدارة أمور البيت وزوجها ليس من أفراد بني خزاعة فهي لا تتجرأ أن تعطي مفتاح البيت الشريف لزوجها، ولكن لطول مدة مرض والدها كلفت زوجها قصي بن كلاب مهمة فتح وإغلاق بيت الله. وعلى قول آخر أنها أسندت هذه المهمة إلى أبنائها. ولما اتضح لحليل بن خبشية أنه أصبح على قاب قوسين من الموت عين زوج ابنته ولى عهد له وسلمه مفتاح بيت الله.

وبالرغم من هذا، أخذ صناديد خزاعة المفتاح من قصي بن كلاب عقب وفاة صهره وأعطوه - حسب العادة - إلى أبي غبشان سليم بن عمرو بن لؤى بن ملكان من كبار طائفة بني خزاعة، وفوضوه في أمور حجابة وسدنة وخدمة كعبة الله المقدسة. وكان أبو غبشان رجلا فاسدا مدمنا للخمر لا يهتم بأمر الدنيا وهمومها وفي يوم من الأيام وهو في بلدة الطائف غارق في ملذاته حسب عادته فقد وعيه ونفذ صبره وثرثر بكلام كثير فقال من ضمن ما قاله

لرفاقه في مجلس اللهو، إنه لا يهمنه أن يبادل مفتاح كعبة الله الأمانة الكبرى بقدر من خمر.

وتداولت الألسن هذه الشائعة حتى بلغت سمع قصي بن كلاب فأخذ لتوه قربة شراب وأعطاهما^(١) لأبي غبشان وأخذ منه المفتاح الشريف في حضور عدة أشخاص وأرسل ابنه عبد الدار ليلا إلى مكة المباركة، يبلغ أهلها بالأمر فأصبح بهذا صاحب المفتاح الشريف، وسعد أعظم سعادة.

وعندما أفاق أبو غبشان واسترد وعيه أراد أن يسترد مفتاح الكعبة من ابن كلاب، ولكن الأمر كان قد شاع بين أهل مكة ولما رفع الأمر إلى ما يشبه المحاكمة بين المتخاصمين ثبت بشهادة الشهود أن أبا غبشان قد أضاع المفتاح وليس له أحقية في استرداده وضربت الأمثال في ذلك إذ يقال «أحمق من أبي غبشان» و«أخسر من أبي غبشان».

ويضرب العرب - الآن - مثل «أخسر صفقة من أبي غبشان» للذين يخدعون في البيع والشراء والذين يتعرضون لمصيبة كبيرة.

وقد انزعج أشرار بني خزاعة لامتلاك ابن كلاب للمفتاح الشريف، وكثر القيل والقال في هذا الموضوع وأخذت نار الخصام تشتعل بينهم لأتفه الأسباب في مبدأ الأمر إلى أن اندلعت فتنة عظيمة أدت إلى الحرب.

ولما كان طالع الحرب في عون قصي، فقد سعد بشرف الحصول على إدارة حكومة مكة.

وفي أثناء اتحاد آل خزاعة ضد ابن كلاب، جمع قصي قومه من قريش وبني إسماعيل للتصالح والاتفاق مع آل خزاعة في مجلس صلح، ولكن بمجرد النقاش في الموضوع ارتفعت الأصوات وتحول النقاش الجاري بينهما إلى نزاع وشجار.

(١) يروى أيضا أن «قصي» أعطى أبا غبشان في تلك الليلة مع قربة مملوءة بالخمر خروفا أيضا.

وأعد كلا الطرفين من فى جانبهما من المتحاربين وتهيئتا للقتال والمبارزة والحرب ووجهوا كل ما فى طاقتهما للصراع الشرس وتشابكا.

ولاحت علامات النصر والظفر فى جانب قصى بن كلاب بن مرة وانفرد ابن كلاب بإدارة الحكومة الجليلة للحرم الشريف ورتاسة القبائل، وطرد آل خزاعة من أرض مكة المباركة العطرة وأقصاهم عنها، وتأمرو ذوو الشأن وكبار القبائل التى انطوت تحت جناح ابن كلاب، برئاسته واستقلاله فأظهروا له الولاء والتبعية والاستسلام.

وقد أورد مؤلف كتاب «الاكتفاء» هذه القصة بطريقة أخرى إذ قال: «عندما توفى كلاب بن مرة» كان ابنه قصى حديث الفطام من الرضاعة وتزوجت أمه فاطمة بنت سعد من ربيعة بن خرام من قبيلة قضاعة. واصطحب ربيعة هذا فاطمة أم قصى. إلى بلاد بنى قضاعة وأنجبت من زوجها الجديد غلاما اسمه «زراح».

تربى ابن كلاب مع أخيه من الأم «زراح» وعندما بلغ سن الرشد، ذهب إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة للزيارة وبعد الحج أقام بجوار حرم الله وأعلن لأهل مكة أنه من فروع نسل إسماعيل وتزوج من «حبي» ابنة حليل بن خشية وهو من رؤساء آل خزاعة وهناك قول أن اسمها «حسبا» وفى رأى أنها عاتكة بنت فالج فأصبح بذلك ذا عزة وشأن.

وأنجب قصى أربعة أبناء يتصفون بالشجاعة هم: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وبعد ذلك انتزع سدانة الكعبة المباركة وإمارة مكة المكرمة من أيدى بنى خزاعة وكانت حكرا لهم.

وأخذ يفكر فى وسيلة لإلغاء نظام «الإجازة» الجائرة التى كانت مرعية بين العرب لكنه كتم آماله فى قلبه إلى أن يجد طريقة لتنفيذها فى ذهنه. وأدرك أن هذا الأمر فى حاجة إلى إعداد قوة عسكرية كبيرة وتهيئة الأسباب التى تحقق هذا.

كما أنه متوقف على عقد أوهام الإتحاد والاتلاف والاتفاق مع شيخ قبيلة قريش وبني كنانة وعرض ما فى ضميره على رؤساء القبائل المذكورة.

وبرأى ومشورة أكبر حكماء هذه القبائل أبلغ أخاه من الأم «زراح» ابن ربيعة الذى يقيم فى بادية بلاد قضاة ونشر «زراح» أفكار أخيه قصى العادلة وأبلغه بأن أبطال قبيلة قضاة سيساندونه. وفى الميعاد المحدد انطلق زراح نحو مكة، ومعه عدد كبير من الأبطال الذين جمعهم إخوته من الأب حسن ومحمود وجمعهم تحت لوائهم وقد أعدوا أقوى أسلحة ذلك العصر مستعدين للهجوم والحرب.

وفى ذلك الوقت كانت قبيلة صوفة التى تنسب إلى غوث بن مرة قد تولت - كإبراهيم عن كابر - إجازة عرفات ورمى الجمار وكذلك الأمر بالنسبة للقبيلة التى تنتهى إلى عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان إذ كانت مختصة بإجازة المزدلفة، وكانوا يتولون توصيل حجاج بقية القبائل فى موسم الحج إلى عرفات ويعودون بهم كما كانت قبائل بنى خزاعة تقوم بحفظ وحراسة البقعة المفخمة للكعبة المشرفة.

وقد بلغ هذا التحكم والطغيان مداه لدرجة أن قبيلة صوفة وهى تضم من بقى من الجراهمة - لم تكن تسمح لأحد من الحجاج بالصعود إلى عرفات ثم العودة إلى المزدلفة، ما لم تكمل أفراد القبيلة رمى الجمرات وكذلك طائفة «عدوان» لم تكن تسمح بالمرور طالما لم تكمل الوقوف بالمزدلفة.

حتى إن قبيلة «صوفة» فى يوم رجوعها إلى مكة، كانوا بموجب ميثاق مكتوب يقطعون عمرة منى ولا يفسحون الطريق إلى حجاج بقية القبائل طالما لم يمروا هم جميعاً من الممر.

استطراد:

ولفظ «صوفة» هو لقب «غوث بن أد» الذى ينتسب أباه إلى جماعة قبيلة مضر، وعلى قول، إنه لقب غوث بن مرة بن قرة بن طابخة بن إلياس بن مضر.

والأفراد الذين ينتسبون إلى هذه الجماعة توارثوا خدمة الكعبة المشرفة منذ الجاهلية على النحو الذى وضحنه آنفا. وقد انتقلت إلى أفراد هذه القبيلة مهام الإجازة والإفاضة من عرفات واقتصرت عليهم لهذا يقف أحد أفراد هذه الجماعة بعد الوقوف بعرفات ويصيح بصوت عال «أجيزى صوفة» ويعقبه آخر صائحا «أجيزى خندف».

بناء على هذا تتحرك من عرفات كل البطون التى تنتسب إلى هاتين الجماعتين ثم يتحرك بعدهم بقية الحجاج.

نشأة الإجازة:

ابتدعت وظيفة الإجازة فى زمن غوث، وحصل غوث على هذه الوظيفة من قبل أمه.

كانت أم غوث امرأة من الجراهمة وقد ظلت لفترة طويلة عاقرا بدون أبناء وذات يوم نذرت قائلة: «يا رب إن أنجبت ولداً سوف أنذره للكعبة» وسرعان ما حملت وعندما وضعت غوثاً بعد مرور تسعة أشهر قدمته لخدام الكعبة المفخمة وفاء بنذرها وكبر غوث وعندما بلغ السن الذى يقدر فيها على العمل أخذ يقوم بخدمة الكعبة المشرفة لفترة طويلة. وهكذا اكتسب حب الناس واحترامهم وزادت مكانته فى أعينهم وكان وفيا بعهدته، لذا كان الناس يستشيرونه فى كل أمر ويعملون وفق مشورته.

وزاد نفوذ غوث بالتدرج حتى أصبح أمر الذهاب إلى عرفات والعودة منها مقصوراً عليه.

وفى تلك الأثناء وضع قواعد الإجازة وعندما وهبت أم غوث ابنها للكعبة المشرفة وفاءً بنذرها أنشد والدها مرة أو أد هذه الأبيات

إنى جعلت رب من بنىة ربيطة بمكة العلية

فباركن لى بها إليه واجعله لى من صالح البرية

وكان غوث يقول عندما يعطى أمر القيام من عرفات:

لاهم إلى تابع بتاعه وإن كان إثم فعلى قضاءه

وبعد وفاة غوث انتقل السماح للحجاج بالتحرك من عرفات والبدء فى رمى الجمرات إلى أبنائه وأحفاده.

ولما أوشكت هذه القبيلة على الانقراض أخذ أمر الإجازة أبناء بنى سعد بن زيد مناة بن تيممة إلى أن انتقلت هذه المهمة إلى أيدى بنى سعد وكان رؤساء الجماعة سواء من جاءوا من صلب غوث، أو من نسل أبنائه وأحفاده كلهم يقال لهم، صوفة.

وجماعة بنى سعد هم الذين ذكرناهم من قبل أفراد قبيلة تنتهى إلى آل صفوان بن شحنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وصفوان بن شحنة أول من تولى من هذه القبيلة وظيفة إعطاء الإجازة إلى الحجاج فى عرفات.

وسلسلة نسب كرز بن صفوان الذى تشرف بإدراك عصر النبوة الميمون ترتبط بشجرة هذه القبيلة وتحكم آل صفوان فى ممارسة مهمة الإجازة إلى الحجاج لم يكن يقل عن استبداد قبيلة صوفة.

لم يكن باستطاعة أحد من الحجاج أن يتجرأ على العودة من عرفات ورمى الجمار فى صحراء منى قبل أفراد آل صفوان حتى ضاق بهم الناس أشد الضيق واستاءوا أشد استياء.

وكان الحجاج كلما ألحوا فى الرجاء والتوسل إلى رجال بنى صفوان فى أيام رمى الجمار قائلين أغيثونا إن الوقت يمضى. كانوا يجيبون عليهم بكلمات غير لائقة قائلين: «كلا كلا مازال الوقت مبكرا فلم تمل الشمس بعد إلى الغروب» فإذا رجوهم وتوسلوا إليهم أن يستعجلوا بعض الشيء كانوا يمعنون فى التأخر

ولم يكن الحجاج في فترة الانتظار يكفون عن الشائم والسباب والدعاء عليهم كما كان إحساسهم بالانكسار مفرطاً.

وكانوا يماطلونهم، في عمر منى ويسمحون بالمرور أولاً لأتباعهم ببطء ثم يأذنون للناس بالمرور.

وقد تحمل الحجاج هذه المضايقات التي توغر الصدور رضوا بها أم لم يرضوا حتى انقرضت سلالة «آل صوفة» أو «آل صفوان».

يكفى لإثبات مدى تحكم آل صفوان واستبدادهم هذه الأبيات التي قالها (أوس بن تميم السعدي) في أثناء توليهم ممارسة إعطاء الإجازة للحجاج.

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم حتى يقال أجزوا آل صفوانا

وبناء على ما قيل أعلاه - عندما كان رؤساء آل صوفة وآل صفوان يضيقون على الحجاج ويتحكمون فيهم كما ذكر كانت الإفاضة من المزدلفة، وإعطاء الأمر والإجازة في يد بني عدوان وحكراً عليهم كما يتضح ذلك من الأبيات الآتية كيف أنهم توارثوا كبراً عن كابر مهمة الإجازة.

كانوا حياء الأرض	غدير الحى من عدوان
فلم يرع على بعض	بغى بعضهم ظلماً
والموفون بالفرض	والموفون بالفرض
بالسنة والفرض	بالسنة والفرض
فلا ينقض ما يقضى	فلا ينقض ما يقضى

كان أبو سيارة عَمِيْلَةَ بن الأعزل مِمَّنْ بقى من أفراد قبيلة عدوان. وقد أدرك عصر النبوة^(١).

(١) عميلة (مصغراً) بن خالد بن سعد بن الحارث بن عابس بن زيد بن عدوان العدواني، أبو سيارة. ذكر الفاكهي أن أبا سيارة كان قبل أن يغلب قضى على مكة. فهذا يدل على تقدم عصره عن زمن البعثة. وهو غير أبى سيارة المَتَعَى (بضم الميم وفتح التاء) الذى ذكره ابن السكن وغيره فى الصحابة. أخرج حديثه أحمد والبقوى وابن ماجه.

راجع الإصابة للحافظ ابن حجر ٧ / ٩٤، ترجمة رقم (٥٨٠).

وفى العصر الذى أشرقت فيه شمس الإسلام وأصبحت تبعث الضوء فى عيون الأنام، كان أبو سيارة هذا يتولى إجازة المزدلفة كما يفهم من خلال هذه القطعة الشعرية التالية.

نحن دفعنا عن أبى سيارة
وعن مواليه بنى فزارة
حتى أجاز سالما حماره^(١)
مستقبل القبلة يدعو جاره

قوله «سالما حماره» يشير إلى إعطاء أبى سيارة رخصة الإفاضة من المزدلفة للناس، من فوق ظهر الحمار وهو مطابق تماما لرواية سيرة ابن هشام.

وقد قلنا فى بداية الاستطراد إنه عقب وقفة عرفات، يقف واحد من آل صفوان، ويقول أجزى صوفة ثم يقف شخص آخر بعده يصيح قائلا «أجزى خندف»، وقد عرفنا من الذى يلقب صوفه والآن يجب أن نعرف ما المقصود بخندف.

و«خندف»: هو لقب سيدة تسمى ليلى بنت حلوان بن عمران وهذه السيدة هى زوجة إلیاس بن مضر^(٢) من أجداد النبى الكرام.

وتبعاً لما ذكره الذين نقلوا أو تحدثوا عن سبب تسمية ليلى بنت حلوان باسم خندف^(٣) مسوق فى الرواية الآتية: إن ليلى هذه أنجبت ثلاثة أبناء من إلیاس هم: عمرو وعامر وعميرة. وذات يوم وبينما كان هؤلاء يرعون إبل أبيهم إلیاس جفلت الإبل من وثبة أرنب نافر. وعندما رأى عمرو جفول الإبل وتفرقتها، قفز سريعا من داخل الخيمة وجرى من خلف الأرنب حتى أدركه وأمسك به فسمى مدركة.

(١) قيل إن حماره هذا عمّر أربعين سنة من غير مرض حتى ضربوا به المثل فقالوا: «أصح من غير أبى سيارة». الإصابة ٧ / ٩٤.

(٢) هو الشخص الذى أهدى أول قربان للكعبة المعظمة.

(٣) عندما يسير الإنسان ضاماً أصابع قدميه كاشفا كعبه مديرا باطن قدميه يقال له خندف.

ولما أخذ عامر الأرنب وطبخه فأسموه طابخة ولمّا فضل عمير البقاء في داخل الخيمة والانقماح فيها قيل له قمعه، ولما رأت الأم ليلى ابنها خرجا مسرعين من الخيمة أسرعتم تجري خلفهما، وفي أثناء الطريق قابلت زوجها «إلياس» الذي سألتها قائلاً: إلى أين أنت ذاهبة؟ فلما أجابت: قد جئت من خلفكم مخدفة أطلقوا عليها خندف، لأنه كان من عادات العرب في الجاهلية تلقيب الناس اقتراناً بالأحداث.

جاهلية العرب:

أطلق على جميع العرب الذين عاشوا قبل البعثة المحمدية أهل الجاهلية وذلك لشدة جهالتهم.

وبناء على بعض الأقوال يطلق الجاهلية للفترة التي خلت من الأنبياء. وادعى بعض المؤرخين أن فترة الجاهلية تطلق على الفترة التي سبقت الذين عاشوا بعد هذه الحادثة التي وقعت بسبب جهل العرب وهي أن «كنانة بن خزيمة» تزوج من مطلقة والده وزوجة ابنه «مرة» وأنجب منها نضر والظاهر أن هذه الرواية خاطئة وأثر من آثار البلاهة.

وتبعاً لما نقل وروى المرحوم الشيخ (تاج الدين اليمنى أبو عثمان عمرو بن بحر) الذي حقق هذا الأمر بدقة وكذلك كل أئمة السير يؤكدون أن برة التي تزوجها كنانة - سالفة الذكر - فيما بعد ليست هي برة زوجة أبيه ومطلقة ولده خزيمة.

وإن كان كنانة قد تزوج مرة ثانية من امرأة اسمها برة إلا أنها كانت بنت أخ امرأته الأولى برة أخت مرة بن أد. لم ينجب كنانة من زوجته الأولى برة ولأجل ذلك تزوج مرة أخرى بموافقة زوجته وتصويبها لرأيه تزوج برة بنت مرة بن أد أخو امرأته الأولى وأنجب منها كنانة.

وبما أن بنت مرة التي تزوجها كنانة كانت تشترك في اسم برة مع امرأة أبيه خزيمة ولوجود صلة القرابة بين الاثنتين قد أدى إلى وقوع الخطأ في أقوال كثير من المؤرخين.

وبناء على ما قرره أئمة علم الأنساب الذين صاغوا لآلئ بحر نسب معلم الكائنات - عليه أطيب الصلوات - أن الجوهر النقى لحضرة سيد الكائنات نبينا - عليه أطيب الصلوات - انتقل من مستودع الأصلاب الطاهرة وقوة ظهر العرب العرباء إلى درة وشاح ظهور الأمهات إلى أن آلت إلى الصلب الطاهر لعبد الله بن عبد المطلب ووصلت منه إلى رحم أمه آمنة بنت وهب، وكل هذه السلسلة من الآباء والأجداد من أعرق الأصول من جهة الآباء والأمهات لذا خلا من دم فاسد إذ تم زواج هؤلاء وفق الشريعة الغراء لعصرهم وجاء طاهر النسب بعيداً من دنس السفاح. انتهى.

ولابد أن وصول زراح بن ربيعة - أخى قصى بن كلاب من أمه - إلى مكة المكرمة مع القوة العسكرية الكافية، قد صادف موسم الحج، حيث أعلن ابن كلاب بن مرة على الناس أنه لا يجوز إبقاء عادة الإجازة، ورأى ذلك فرصة مناسبة لطرد بنى خزاعة عن الحدود الميمونة لحرم الله.

وأسرع بمطالبة أصحاب الإجازة أن يكفوا أيديهم عن تنفيذ ما يأملونه ووجه الحديث إلى رؤساء قبيلة صوفه الذين قطعوا الطريق على الحجاج ليمنعوهم من المرور في مضيق منى يوم رجوع الحجاج إلى مكة المكرمة وقال لهم: يا معشر قبيلة صوفه إن المطلعين منكم على علم الأنساب يعلمون أن حبل نسي المتين يتصل بعدنان وأن وشيجة نسب عدنان تتصل بـ قidar بن إسماعيل بن إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل التسليم - ولهذا فإننى أرى أن كتفى يليق بخلعة الإجازة المشاة وإننى أستحق أعلى المناصب، ولذا أرى أنه قد حان الوقت لإزالة العادة غير المشروعة لنظام^(١) الإجازة واعتباراً من هذا اليوم، فإن لكل إنسان الحق فى أن يجتاز عمر منى وقتما يريد.

وإننى إذ أعلن هذا أبين لكم أننى فى صدد اصطحاب أتباعى الشجعان وأمر من ممر منى قبلكم وأخذ جنود قبيلة قضاة الذين لا يحصى عددهم ولا يعد وتحرك صوب مكة المكرمة.

(١) الإجازة: ترخيص يتضمن مرور وعبور أبناء السبيل من مكان ما بأمن وسلام ويقال إنه المرشد الذى يرافق جماعة لكى تعبر من طريق مخيف ومعناها اللغوى هو الإذن لرجل بالعبور من مكان إلى مكان.

وأراد فتيان قبيلة صوفة الشجعان أن يعترضوا طريقهم ولكن قصى قد مر بالقوة وشدة البأس.

وقد أدرك وجهاء قبائل بنى خزاعة ورؤساؤهم وقد أصابهم القلق الشديد أن الأمر يكاد أن يخرج من أيديهم وأنهم سيفقدون حكومة مكة فيما بعد، لذا تعقبوا مجموعة ابن كلاب معهم قبيلة بنى بكر والتقى الجمعان فى وادى أبطح وافتعل بنو خزاعة أسباب التحرش ودخلوا^(١) فى معركة لا داعى لها.

والتحم الفريقان وتداخلا وتقاتلا ونال كل واحد منهما من الآخر ومات كثيرون من الجانبين. وكان حجاج العرب القادمين من اليمن وأنحاء الجزيرة لأداء الحج واقفين لمشاهدتهم.

وأخيرا طلب آل خزاعة الصلح، وعينوا رجلا انتخبوه للفصل فى قضيتهم وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن لبت بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وتدخلت القبائل العربية الأخرى حتى رضى ابن كلاب بالصلح.

وعندما قبل الطرفان الصلح جمع يعرب جنود الطرفين ودخل بينهما وحكم أن تدخل سدانة الكعبة المعظمة ورئاسة وإمارة مكة المكرمة فى عهدة «ابن كلاب» وقال:

إن وجود الكعبة المعظمة وسدانتها وإمارة مكة المكرمة فى يد وعهدة ابن كلاب خير من استيلاء بنى خزاعة وبنى بكر على الأماكن المقدسة.

وقد قبل جميع رجال كل القبائل هذا الحكم قبولا حسنا وهكذا تحققت آمال ابن كلاب ونال مرامه.

الذيل:

عقب فصل «يعمر بن عوف» فى هذا الأمر تمت كتابة وثيقة صلح تتضمن ما اتفق عليه رؤساء قبائل الطرفين وتقرر الاحتفاظ بنسخة معتمدة منها لدى قصى بن كلاب.

(١) كان القتال فى موقع بين منى ومأزمين وقد أطلق على ذلك المكان اسم مفجر لأن آل خزاعة كانوا يجراون على ممارسة الفسق والفجور وسفك الدماء، وهتك حرمة بيت الله فى هذا المكان.

ومن جملة الشروط التي تضمنتها وثيقة الصلح هذه أن يرفع الظلم والتعدي عن أى إنسان داخل حدود حرم الله وألا يمر ناحية مكة المعظمة وألا يتجاوز بطن مر أى إنساب من جماعات البطون التي تنتسب إلى قبائل خزاعة، ولكن يسمح لمن يريدون منهم أن يسكنوا فوق سلسلة جبال البلد الحرام بشرط عدم دخول مدينة مكة الشهيرة.

وقد حوِّف على الأحكام المدرجة فى وثيقة الصلح المذكورة حتى صلح الحديبية.

وبناء على رجاء بنى خزاعة وطلبهم فى الواقعة المذكورة تفضل سيدنا سلطان الأنبياء - عليه وعليهم أفضل التحية - بقبول انضمام بقية القبائل التي تنتسب إلى بنى خزاعة فى حلف مع المسلمين.

وأدرجوا فقرات إلى وثيقة الصلح التي عقدت فى الحديبية تضمن السماح لجماعات قبائل بنى خزاعة بالدخول إلى مكة المكرمة.

امتدت الفترة المشثومة التي قامت فيها قبيلة بنى خزاعة بحكم مكة المكرمة حوالى ثلاثمائة سنة كاملة.

وكانت الأقوام المنتسبة إلى قبائل خزاعة فى ذلك الوقت تعبد كوكبا لامعا أطلق عليه اسم الشُّعْرَى اليمانى.

والمعروف أن الشُّعْرَى هما كوكبان منيران فى الفلك يسمى أحدهما الشُّعْرَى العبور والآخر الشُّعْرَى الغميصا وهذه النجوم كما يزعم العرب هى أخوات كوكب سهيل أحدهما الشُّعْرَى اليمانى^(١) والآخر الشُّعْرَى الشامى^(٢) وموضعهما حيث

(١) قد قسم علماء الفلك النجوم إلى أقدار وأشعتها إلى درجات. ووفق هذا التفسير أن الشُّعْرَى اليمانى نجم القدر الأول لبرج الكلب الأكبر من البروج الجنوبية وكذلك الشُّعْرَى الشامى نجم القدر الأول من برج الكلب الأصغر من البروج الجنوبية ومن حيث اللمعان يعتبر الشُّعْرَى اليمانى فى الدرجة الأولى بين الكواكب الثابتة والشُّعْرَى الشامى يعتبر فى الدرجة الثامنة للجوزاء، وبرج مشهور من أبراج النصف الشمالى من الكرة ويتكون من ثمانين عددا من الكواكب. كما يعد علماء الفلك كوكبا يسمى رجل الجوزاء وهذا الكوكب يستبر النجم الأول لبرج الجبار من الكواكب الجنوبية ومن حيث الضوء يعد فى الدرجة الخامسة.

(٢) هذا النجم هو الشُّعْرَى العبور.

ييزغان بعد الجوزاء ويبعد أحدهما عن الآخر طول رمحين. وإذا نظرنا إلى صورتها، نجد أحدهما كبيرا جدا لامعا ومائلا إلى الجنوب والآخر صغير ومائل نحو الشمال ويسمى المائل نحو الجنوب الشُّعْرَى اليماني والمائل إلى الشمال الشُّعْرَى الشامي وحسب اعتقاد العرب القدامى فإن الشُّعْرَى اليماني عبر ذات ليلة خفية مع سهيل المجرة واغترب وإن الشُّعْرَى الشامي بكى لفراقهما إلى أن أصيب بغمض العين لذا أطلقوا على هذا النجم اسم الشُّعْرَى الغميص^(١).

وأول من عبد الشُّعْرَى من طائفة خزاعة أحقق يدعى أبو كبش وكان من أشرف بني خزاعة. وقد وقف ذات يوم على رأس قومه وقال: إن كل النجوم التي في السماء تتحرك بشكل عرضي، ما عدا كوكب الشُّعْرَى فإنه يتحرك بشكل طولي، يعنى أنه يشير إلى أن الشُّعْرَى ليس كبقية النجوم. وإنى الآن سأترك عبادة الأوثان وأعبد الشُّعْرَى وأصبح كل من يتبعونه يعبدون الشُّعْرَى وخالفوا في هذا آل قريش.

وقد أطلق مشركو قريش لقب أبو كبش على نبينا ﷺ إيماء إلى هذا السر ويريدون بهذا أن يشبهوه بأبي كبش لأنه أتى بدين جديد يخالف قريش. والواقع أن نبينا ﷺ بهجة العالم، قد خالف قريش في أمر عدم عبادة الأصنام وأبو كبش خالفها في أمر عدم عبادة الأوثان انتهى.

تأسيس مدينة مكة العظيمة المشهورة

كان بنو خزاعة الذين استولوا على مكة العظيمة يتحاشون ويتجنبون الإقامة داخل حدود الحرم تعظيماً للبيت الحرام، فكانوا يقيمون نهارهم حول الكعبة ويخرجون في ليلهم خارج حدودها حيث يبيتون. وكانوا يقولون إنه من الحرم المطلق اقرار ما نهى عنه داخل حدود الحرم المحترم بناء عليه كانوا يبنون المنازل حول بيت الله.

(١) يسمى هذا الكوكب الشُّعْرَى الغميصاً.

وعندما بلغ «قصى بن كلاب» مرامه بالحكومة الجليلة لأم القرى أتى بقومه وقبيلته وجمعهم وقال لهم: أيها القوم الكرام إذا بنيتم بيوتا ومساكن حول كعبة الله، لن تتمكن بقية الطوائف من طردكم وإبعادكم عن الأراضي الحجازية المباركة، بناء عليه أوصيكم أن يبدأ كل واحد منكم فى تهيئة مسكن له وبنائه حول بيت الله من جميع جوانبه فلما أجابه ذوى الأمر والنهى من جماعات قبائل قريش بقولهم أنت رئيسنا وسيدنا، ونحن نوافق على كل ما تأمر به ونتقبله قبولا حسنا فبادر بنفسه ببناء دار الندوة^(١) بعد أن أعلن أنه سيتخذ من هذه الدار مقرا للحكم وقسم جوانب البيت الشريف الأربعة على طوائف قريش وعينها لهم، وأمر أن يقوم أفراد القبائل على الفور بوضع أساس البيوت والمنازل وأن يتركوا مكانا خاليا حول بيت الله للطواف. ولما استصوبت قريش رأى قصى بن كلاب، قدحوا زناد فكرهم وبدءوا فى بناء منازل وتزيينها فى الأماكن التى بينها لهم. ولم يبنوها حول أطراف بيت الله الأربعة، وجعلوا أبواب البيوت كلها تفتح فى اتجاه الكعبة المعظمة، وتركوا طريقا واسعا بين كل منزلين يسمح بالدخول إلى المطاف السعيد.

والمكان الخالى الشريف الذى تركوه بين بيت الله وبين البيوت التى بنوها هو المكان المقدس الذى يطلق عليه الآن اسم المطاف السعيد.

وبقيت البيوت التى بنيت فى عهد ابن كلاب على شكلها وطرازها الذى شيدت عليه فى البداية حتى عصر الفاروق الأعظم، وفى زمن خلافة سيدنا (عمر بن الخطاب) هدمها كلها وأدخل أراضيها ضمن ساحة المسجد الحرام، ووسع (عثمان بن عفان) وبقية أصحاب البر والإحسان دائرة الفيوضات الباهرة للحرمين الشريفين على النحو الذى سنذكره بالتفصيل فى موضعه، وجددوه على الصورة التى عليها الآن.

* * *

(١) رغم أن مجموعة من المؤرخين يقولون إن كعب بن لؤى قد بنى دار الندوة إلا أن ظنهم هذا غير صحيح.

ولما لم يكن فى أولاد كعب بن لؤى حتى مجئ ابن كلاب رجلاً متبونا مقعد السلطنة لذا جمع قصى بن كلاب كل مناصب الجاهلية: الحجابة - السقاية - اللواء - الندوة - النظارة^(١) - صاحب القبة - الأزلام - خازن الأموال - الرفادة - القيادة. وأصبح صاحب المقعد والرياسة والحكم. ولكنه لم يستطع أن ينجح فى تغيير عادات الجاهلية التى تعد بين العرب من الأحكام الدينية، لذا ظلت العادات المذكورة حتى بعثة نور الهدى فى يد آل صفوان وآل عدوان وآل نسة وآل مرة بن عوف.

استطراد:

أهل «نسة»، كما ذكر المفسرون العظام بالبحث والتعريف، هم طائفة من عرب الجاهلية احترفوا القتل والسطو واعتادوا الصيد والقنص وحياة القلق. وحسبما تقضى شرائع إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - بمنع الحرب والجدال فى شهر رجب وذى القعدة وذى الحجة ومحرم، وكان ترك العادات المألوفة لمدة ثلاثة شهور متصلة أمراً ثقيلاً على هذه الطائفة المذكورة فإنهم قالوا: لا طاقة لنا ولا نستطيع الصبر على ترك الحرب والقتال من ذى القعدة إلى صفر بشكل متصل.

أى الجلوس فى الخيام والاستراحة لمدة ثلاثة أشهر متصلة. وأعلنوا وأشاعوا بغير تردد عن ضيقهم من حكم هذه الشريعة الإبراهيمية (على رسولنا وعليه التحيات).

(قلمس بن عبد بن فقيم) الذى ينتسب إلى جماعة قبيلة ينتهى نسبها إلى كنانة، لجأ هذا الرجل إلى طريقة غريبة لكى يبطل ويفسد حكم عدم القتال فى

(١) وتسمى أيضاً ركز القبة.

الشهور المذكورة، إذ ركب ناقه في موسم الحج السنوي الذي يعلن فيه البدو عن أفكارهم وخاطب أفراد القبائل الموجودة بالقرب منه وهو يريد أن يختبر درجة قوة عقيدة الذين هم على دين إبراهيم وإخلاصهم لها، فقال ما معناه: يا معشر العرب إن إلهكم قد أحل لكم هذه السنة شهر محرّم ونقل حرمة إلى شهر صفر، وعلى الفور قامت مجموعة ممن أخذوا برأى قلمس وقوله بالإغارة وقتل قبائل البدو اعتباراً من تلك اللحظة، وعندما رأى قلمس أن حكمه في هذا الأمر قد استقبل باستحسان وعرف أن فكره سيروج وقف في موسم الحج في السنة التالية خطيباً بينهم وأعلن أن حرمة شهر محرّم قد تأجلت بأمر الله إلى شهر صفر، أي أن شهر محرّم حلال وأن شهر صفر سيكون حراماً بدلاً منه واستقبل هذا الأمر عند أفراد جميع القبائل بسرور زائد.

وتصديقاً لهذا اعتاد أن يخطب في كل موسم حج ويؤجل حرمة الشهر الذي يريده إلى شهر آخر.

وبعد قلمس انتقلت هذه العادة السيئة إلى ابنه عبادة وبعد وفاته إلى «قلع بن عبادة»، ومن بعده أيضاً إلى «أمية بن قلع» ومن بعده إلى «عوف بن أمية» وعندما توفي عوف انتقلت إلى ابنه «أبي ثمامة جنادة بن عوف» وعندما أشرقت شمس الإسلام وظهرت أشعتها في الأفق في زمان أبي ثمامة جاءت الآية الجليلة لتبطل العادة المذكورة وتلغيها.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا يُؤَاظِمُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٣٧).

واختلف المفسرون في تحديد اسم الشخص الذي تجرأ وابتدع هذه العادة القبيحة فادعى بعضهم أنه نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة، وادعى البعض الآخر أنه جنادة بن عوف وبعضهم ادعى أنه قلمس بن عبد بن فقيم، والذين قالوا إنه قلمس بن عبد بن فقيم يؤيدون ادعاءهم بذكر قول الشاعر:

وفينا ناسي الشهر قلمس

والقول الأخير مصدق عند الجمهور وجدير بالقبول والشخص المدعو قلمس^(١) هو الجدد الخامس لجنادة بن عوف الذي أدرك عصر النبوة.

ورغم أنه يوجد من يقولون بما ذهب إليه عبد الله بن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما، أن من وضع العادة السيئة بتأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، هو عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف إلا أن المفسرين اتفقوا على صحة القول الأول ورواية القول الثاني لم يستطيعوا أن يرتقوا بقولهم إلى مرتبة الصحة والتواتر.

وقد نقلنا هذه التفصيلات التاريخية عن أهل السنة من التفسير القيم للإمام فخر الدين الرازي - عليه رحمة الله الهادي - ويقول الإمام الرازي قبل أن ينقل ويروي الأخبار والدراسات المتواترة للمفسرين إن حسابات عرب الجاهلية كانت مرتبة حسب السنة القمرية، ولهذا فإن شهور العرب في زمن الجاهلية، كانت تعد اعتباراً من رؤية الهلال وقد اعتادوا أداء فريضة الحج في اليوم العاشر من شهر ذي الحجة اتباعاً لسنة سيدنا الخليل. وبهذا الحساب كان موسم الحج لا يتفق مع فصل بعينه كل سنة فكان أيضاً يصادف أبرد أيام الشتاء وأحياناً يصادف أكثر أوقات فصل الصيف حرارة ولهذا فإن بعض المتأخرين من زمن الجاهلية لم يكونوا يجرون على الذهاب أو المجئ إلى مكة المكرمة في أوقات اشتداد البرودة والحرارة، وكان من يترددون عليها بسبب التجارة لا يتمكنون من البيع والشراء في هذه الأوقات التي توافقت وقت التجارة بسبب قلة عدد الحجاج.

وفي النهاية أحيل الأمر إلى مجلس قومي^(٢) يتكون من ممثل لكل قبيلة لإيجاد حل مناسب لهذا الأمر. وذهبت الهيئة المذكورة إلى أن الشهور المرتبة للسنة القمرية دخل بالمصالح الدنيوية ورأوا حلول موسم الحج في وقت معتدل ومثمر حيث تزدهر حركة البيع والشراء على الوجه المطلوب ويسهل التردد على الأسواق والملاهي التي تقام عند أطراف مكة وقالوا: فإن أضيف شهر إلى شهور

(١) اسمه حذيفة وهو ممن اشتركوا في واقعة أصحاب الفيل.

(٢) إن إمكان إحالة رئاسة هذا المجلس إلى قلمس بن عبد بن فقيم بعيد الاحتمال لذا لا يوجد بين أقوال

المفسرين وبين رواية الإمام الرازي.

هذه السنة نساء أفراد القبائل شهرا. وأنه إذا روعيت هذه الأصول مرة كل ثلاث سنوات، فإن موسم الحج سيأتى فى كل سنة فى فصل ثم واحد من المحاصيل وبناء عليه يأتى الناس بمحاصيلهم فيكون حجا وزيارة وفى الوقت نفسه تجارة ورتبوا الشهور وفقا للسنة الشمسية ولأن السنة الشمسية تفترق قليلا عن السنة القمرية، احتاجوا إلى إضافة أيام فجمعوا الفروق التى تحدث بينهما وأضافوا شهرا إلى بعض السنوات واعتبروا أن شهور تلك السنوات ثلاثة عشر شهرا. وبعد هذا الترتيب صادف الحج فى بعض السنوات بشهر ذى الحجة ونقل من شهر إلى آخر.

وظهر نتيجة هذا النقل أمران هما زيادة شهر على بعض السنوات من فائض الأيام التى تنتج عن تجميع أيام السنة الكبيسة وتأخير شهر حرام إلى شهر آخر ولأن العبادات المرتبطة بالسنة القمرية تخل بالمصالح الدنيوية على زعمهم، تركوا حساب السنة القمرية وربطوا عباداتهم بحساب السنة الشمسية وأخروا ونقلوا شهراً حراماً إلى أشهر آخر.

والواقع رغم أنه قد تبدو فائدة دنيوية فى تركهم هذا إلا أن الله - تعالى - قد أمر باتباع حساب الشهور القمرية منذ عهد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - عهد الهداية.

وبينما الحال يجرى على هذا الوضع ترك أهل الجاهلية الأمر الإلهى باتباع حساب السنة القمرية من أجل أن يحققوا حسن سير المصالح الدنيوية، وأخذوا بترتيب السنة الشمسية ونتيجة لحدوث هذا الترتيب بدئ فى تأدية الحج فى شهور غير الأشهر الحرم وكانت هذه الجرأة الجاهلية سببا فى إمعانهم فى الكفر، لأن الله - سبحانه وتعالى - كان قد حدد حجهم فى الأشهر الحرم وحدها وإنهم فضلوا مصالحهم الدنيوية على التعليمات الدينية، إذ اتبعوا العمل بالسنة الشمسية وحجوا فى غير شهور الحج بوجود أيام كبيسة فى السنة الشمسية وتجروا على القول لحمل أتباعهم على قبول فكرتهم والعمل بحسابهم وليس باتباع حساب الشهور القمرية.

وازداد كفرهم بترك وإنكار أمر الله - سبحانه وتعالى - الذى تطيعه كل الكائنات، وقد قام نبينا صاحب الشريعة - عليه أكمل التحية - بأداء الحج الشريف فى شهر ذى الحجة من السنة التى تكمل فترة دور النسي^(١) ولكى ترجع الأشهر الحرم إلى وضعها القديم أى لكى يصادف الحج اليوم العاشر من شهر ذى الحجة بعد مرور اثنى عشر شهراً من موسم الحج فقد قال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب الذى بين جمادى وشعبان» أو كما قال .

والمناصب التى جمعها «قصى بن كلاب» كانت كلها محترمة ومرغوبة عند عرب الجاهلية وتعتبر كل وظيفة منها من أقدس وأعظم الوظائف بين القبائل وكانت كل الوظائف المذكورة مسندة إلى أكثر الرجال مكانة وثراء من قبائل قريش، وكانوا يتوارثونها أبا عن جد بطنا بعد بطن.

الحجاجة:

وكان أهل الجاهلية يطلقونها على مهمة حفظ أستار باب الكعبة المعظمة. وفى زمن جاهلية العرب كانت خدمة بيت الله مفتاح مصباح السعادة، لذا استحوذت على الحجاجة الأيادى القوية الخيرة وأخيرا انحصر منصب سدانة كعبة الله فى أسرة بنى عبد الدار بن قصى بن كلاب.

وأشرق نور نبينا كاسر الأصنام والأوثان وناشر أنوار الإيمان عليه صلوات الله المنان، وسدانة الكعبة المعظمة فى يد «عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى» .

وتلطف - ﷺ - بعثمان بن طلحة - رضى الله عنه - وأسعده بأن أعاد إليه وأنعم عليه مرة أخرى بالمفتاح الشريف لكعبة الله بموجب الآية الكريمة التى نزلت بأن يظهر الحرم الشريف من الداخل والخارج من رجس الأصنام.

(١) سنة حجة الوداع.

وسبب الخدمة الجليلة لحجابه كعبة الله، فى أولاد عبد الدار هو الآتى: عندما تقدم العمر بقصى بن كلاب وصار شيخاً كان ابنه الثانى «عبد مناف» قد أصبح له من الشرف والمكانة بين قبائل العرب القدر الكبير ولم يتمكن أحد أن ينال مثل هذا الشرف وهذه المكانة ليس فقط من بين إخوته بل من بين صناديد أشرف قريش قبل والده وبعده.

ولما كان ابن كلاب يحب ابنه الأكبر عبد الدار من بين أولاده حبا جما واتفق مع زوجته «حبي» فى هذا الحب، لذا كانا يأملان أن ينال من الشرف والمكانة مثل ما ناله أخوه الأصغر عبد مناف.

واستبدت رغبة «حبي» بهذا الأمر حتى لم تعد تطيق صبرا على كتمانها، فقالت ذات يوم لزوجها قصى إننى سأغضب منك إن لم تؤمن لعبد الدار فى أثناء حياتك ما يجعله يحظى بالفخر والشرف بين القبائل فقال لها: بل اسعدى، فإننى سأسند إليه أمرا يجعله يشرف من يقوم به بين الناس، أتريدى أن تعرفى أية خدمة جليلة هى؟ إنها حجابة الكعبة العظمى ورتاسة دار الندوة حيث لا يستطيع أحد من أشرف قريش وسادات القبائل أن يدخل البقعة المقدسة لكعبة الله طالما لم يحصل على إذن من صاحب هذا المنصب. كما لا يمكن أن يرسل الجند إلى أية ناحية ما لم يصدر، وبناء على هذا قام قصى بن كلاب بتقسيم مناصب السنة المكرمة المعززة بين الناس وهى «السدانة والرئاسة والسقاية والرفادة والقيادة واللواء» بين ولديه عبد الدار وعبد مناف فأعطى عبد الدار سدانة الكعبة، ورتاسة دار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف خدمات السقاية والرفادة والقيادة.

وظل قصى يودى بنفسه هذه الخدمات الجليلة إلى أن وافته المنية، وعند وفاته أصبحت هذه الخدمات بموافقة صناديد القبائل لابنه عبد الدار وعند وفاة عبد الدار أصبحت سدانة الكعبة لعثمان بن عبد الدار، ورتاسة دار الندوة لعبد مناف بن عبد الدار، وقد تولى رئاسة دار الندوة أيضاً أبناء عبد مناف بن عبد الدار فى

حياة أعمامهم وذلك بأمر وتكليف منهم، ولهذا إذا أراد أحد من قريش أن يتناقش فى أمر مشكل كان يرجع إلى «عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار»، فيفتح دار الندوة ويرأس الأشراف الصناديد المجتمعين وكان أمر الرئاسة مسندا أحيانا إلى أبناء هاشم بن عبد مناف، وأحيانا أخرى إلى أبناء أخيه.

وقد انتقلت حجابة كعبة الله بعد عثمان بن عبد الدار إلى أبنائه وفى النهاية انتقلت إلى «عبد العزى بن عبد الدار» وعند وفاته انتقلت إلى «أبى طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار» ثم إلى أولاده وأحفاده بعد وفاته.

عندما هاجر «عثمان بن طلحة» إلى المدينة المنورة وانفرد ابن عمه «شيبه بن عثمان» بمفتاح الكعبة الشريفة ومازال إلى الآن فى حوزة يد أولاد وأحفاد شيبه بن عثمان.

السقاية:

على وزن النهاية وكانت وظيفة خاصة بتقديم الماء العذب إلى الحجاج القادمين وذلك فى الجاهلية.

وفى نهاية فترة الجاهلية وبداية صدر عصر الإسلام ونتيجة لقله الماء العذب فى مكة المكرمة كانوا يجلبون المياه من أماكن بعيدة، ويخلطونها بأشياء مثل التمر والزبيب، ثم يوزعونها على الحجاج كالشراب. وكان القيام بهذه المهمة الجليلة يسند إلى من يتولى المنصب الجليل «سقاية الحج».

وكان الذين يوكل إليهم سقاية الحجيج إلى ظهور ماء زمزم المكرم كما ذكرنا يملئون قربا كثيرة بالماء الذى يحصلون عليه ويتخذون لهم مكانا فى جانب الكعبة ويقدمون الماء لسقاية العطاش من الحجاج وكان السبب الرئيسى لابتداع هذه المهمة فقدان الماء فى مكة.

ذلك لأنه فى أواخر العهد الجاهلى لم يكن فى مكة المعظمة آبار للماء سوى الآبار التى أمر بحفرها «عبد شمس بن عبد مناف» فى ذى طوى وهاشم بن عبد

مناف فى المكان المسمى (شعب أبى طالب ومطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف فى المسفلة)، والآبار الآتى ذكرها والتي خص أصحابها بها أنفسهم وهم أمية بن عبد شمس، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو الحجاج وبنو سهم ومرة بن كعب^(١) وبنو كلاب بن مرة. ولهذا كان سواء الأهالى أو الحجاج يعانون من متاعب كثيرة بسبب قلة الماء، بناء عليه أنشأ قصى بن كلاب وظيفة سقاية الحج. وأنقذ أهل مكة إلى حد كبير من أزمة المياه.

(١) كانت بئر مرة بن كعب خارج المدينة.

الآبار الموجودة في مكة العظيمة قبل ظهور بئر زمزم الشريف

كان يوجد في مكة المكرمة قبل ظهور زمزم الشريف ثمانية آبار معروفة مخصصة لسقاية الأهالي وهي: طوى، بذر، سجله، حفر، سقية، أم حراد، سنبله، غمر.

ولهذا كان المكلفون بمهمة السقاية يأتون بالماء من هذه العيون ويعدون الشراب على النحو الذي وضحناه آنفا وكانوا يسارعون لسقاية الحجيج القادمين.

طوى:

اسم البئر التي حفرها عبد شمس بن عبد مناف على النحو الذي سبق التعريف به. وكانت هذه البئر تقع بجوار قصر محمد بن يوسف الثقفي المعروف باسم «بيضاء» الواقع في الطرف العلوي من مكة المقدسة. وهي الآن من الآثار القديمة والتي تقع في مكان يسمى «ذى طوى».

بذر:

اسم البئر التي حفرها هاشم بن عبد مناف، ويروى أنها كانت تقع في ميدان شعب أبي طالب في جبل خندمة وهي مندثرة الآن.

سجله:

هي البئر التي حفرها مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وحسب ظن واعتقاد بنى نوفل أن مطعم بن عدى قد اشترى هذه البئر من أسد بن هاشم، ويقرر بنو هاشم أنه عندما ظهر زمزم الشريف وأغنى عن سائر الآبار قدم هاشم بن عبد مناف البئر المذكورة هبة منه إلى مطعم بن عدى.

حضر، سقية، أم أحراد، سنبله، غمر؛

هذه الآبار لا تعرف الجهات الكائنة بها، وبناء على الروايات التي تقول أن «حفر» هي البئر التي حفرها أمية بن عبد شمس وبثر بنى أسد «سقية» حفرها بنو أسد بن عبد العزى، و«أم أحراد» حفرها بنو عبد الدار، وسنبله «بئر خلف بن وهب حفرها بنو جمح، و«غمر» حفرها بنو سهم لأنفسهم، وهذا يقتضى أن هذه الآبار موجودة فى عصر الصحابة.

وكانت الآبار الثلاثة المسماة «رم»، «خم» و«حفر» خارج مدينة مكة الشهيرة. وقد أمر مرة بن كعب بن لؤى بحفر بئر رم. وكلاب بن مرة بحفر خم، وحذيفة بن غانم بحفر بئر حفر، وأصبح فى حكم العادة فى مكة أن يجلب كبراء قريش الماء الذى يشربونه من هذه الآبار.

وعندما ظهر ماء زمزم وكان أصفى وأحلى من كل المياه، بدأ الناس فى الامتناع عن شرب مياه الآبار المذكورة ليس فقط لعذوبة مائه ولكن لقرب موقعه أيضا.

وفى الواقع فإن بئر زمزم الشريف الذى هو أحلى من مياه كل الآبار والعيون؛ لأنه بئر سيدنا إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام.

وعندما توفى عبد مناف بن قصى انتقلت مهمة سقاية الحجيج الجليلة، وخدمة الرفادة إلى ابنه هاشم بن عبد مناف، قام هاشم بمهمة السقاية هذه على أكمل وجه طوال فترة حياته، وبعد وفاة هاشم بن عبد مناف أسندت هذه الخدمة إلى أمية بن عبد المطلب، وقد استمر فى القيام بمهمته حتى ظهور بئر زمزم الشريف.

وبما أن عبد المطلب كان يملك كثيرا من الإبل، فقد كان يحلب ألبانها فى موسم الحج ويمزج لبنها بالعسل، ويمزج ماء زمزم بالزبيب، يقدمه للحجاج ليشربوا منه ويرتواوا. وعندما توفى عبد المطلب بن مناف، انتقلت مهمة سقاية الحج إلى ابنه الأصغر عباس «رضى الله عنه».

وعندما انتفت الحاجة إلى سقاية الحجاج على النحو السالف لوجود ماء زمزم، كان عباس يجفف عنب الحدائق التي اشتراها في الطائف ويمزج ماء زمزم بالزبيب، ويقدمه للحجاج وذلك اقتفاء لأثر والده.

ولما كان القيام بمهمة سقاية الحج في زمن الهادي الذي منح النضارة لقلوب الناس القاحلة بماء حياة الإسلام، موكلة إلى عباس بن عبد المطلب بن هاشم، فقد تفضل النبي ﷺ بإلقاء هذه المهمة في يده بإسنادها إليه رضى الله عنه.

مسألة:

- هل يجوز سحب السقاية من بنى عباس؟

والجواب: لا يجوز لأنها أسندت إليهم من قبل نبينا صاحب الشريعة عليه أجمل التحية وإذا كان إسناد خدمة السقاية المستقلة في ظل نور الإسلام حقه أن يسند إلى أبى طالب بن عبد المطلب، فإنه كما سنوضح فيما بعد، فإن أبى طالب عندما استبدت به الحاجة، اقترض مبلغاً من المال من سيدنا عباس ولما لم يستطع سداد هذا المال، ترك سقاية الحج المسندة إليه عن طيب خاطر وتبرع بها إلى عباس بن عبد المطلب تسوية للدين.

وعندما كان عباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - على قيد الحياة، كان يتولى بنفسه متابعة مهام سقاية الحجيج، وبعد وفاته انتقلت هذه الخدمة المقدسة إلى أولاده وأحفاده ثم إلى خلفاء بغداد، وفي النهاية انتقلت إلى يد أبناء الزبير ابن العوام.

لاحقة:

فى أثناء خلافة وليد بن عبد الملك عين خالد بن عبد الله القسرى واليا على مكة، وبناء على رأيه المجانب للصواب أصدر الأوامر بأن يحفر بئراً فى كل من «ذى طوى» و«حجون» وذلك ليخفف عن الناس أزمة المياه^(١).

وبما أن مياه هذه الآبار التى تم حفرها كانت أعذب من مياه بقية الآبار، فقد

(١) فيما يتعلق بانتقال السقاية إلى الزبيرانظر ما جاء فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

سعد أهل مكة من حفر هذه الآبار واعتادوا على شرب مياهها دون أن يشربوا من مياه الآبار الأخرى.

وعندما رأى خالد بن عبد الله ميل الأهالي وتعلقهم بمياه هذه الآبار صعد المنبر على الفور وقال: «أيها الناس من الأعظم، الخليفة الذي تم اختياره وعين لإدارة شئون الأهالي أم الرسول الذي بعثه الله، فمن الممكن ألا تعرفوا عظمة الخليفة بينما سقى خليل الله إبراهيم - عليه التحية والتعظيم - ملح أجاج قد سقى خليفتم ماء عذب فرات.

وبهذا كان يريد أن يفضل مياه هذه الآبار على ماء زمزم الشريف وأمر بصنع حوض من الجلد المدبوغ في الحرم الشريف، وأن يملأ بماء هذه الآبار التي حفروها، وكأنه كان يريد أن يشير إلى أن مياه هذه الآبار أفضل من ماء زمزم الشريف.

والحال أنه بعد فترة انقطع ماء الآبار المذكورة تماما وانطمست الآبار ولا يوجد الآن من يعرف مكان هذه الآبار.

اللواء:

هو اسم مهمة في الجاهلية مشهورة بين القبائل باسم اللواء.

وإن كانت هذه المهمة مقصورة على رجال أسرة بنى أمية، إلا أن ألوية قبائل قريش المسماة (العقاب) كانت مع حامل اللواء الذي يتولى المهمة المذكورة.

ومن جملة عادات الجاهلية أنه إذا استدعى الأمر تعبئة الجنود وتوجيههم إلى مكان ما، كان الشخص الذي يتباهى بالقيام بهذه المهمة يعقد مجلس الحرب. ويغرس الراية المذكورة حيث يشاء فيحشد حولها أبطال قريش وكانت تعلن الحرب بغرس اللواء المذكور في المكان الذي حدده عاقد اللواء عند وقوع الحرب ويجتمع الرجال المسلحون عند اللواء المذكور ويتم توجيههم إلى المكان الذي ستدور فيه الحرب.

وقد ظهر لواء الإسلام السعيد أثناء تولى أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس مهمة حمل لواء قريش.

وقد انتقلت مهمة حمل اللواء بعد قصى بن كلاب إلى أبيه عبد الدار وعندما توفى انتقلت إلى أولاده وأحفاده. وظلت في حوزة أكثر أفراد هذه الأسرة نفوذا حتى زمن غزوة أحد الجلييلة، أيا من كان هذا الشخص، لكن جميع أفراد هذه الأسرة قتلوا جميعا في الغزوة المذكورة.

الندوة-معناها الاجتماع؛

وكانت الندوة تطلق على المجلس الذي يجتمع في دار الندوة^(١) التي بناها قصى بن كلاب في الجاهلية. وكانت القرارات التي تصدر عن هيئة هذا المجلس تلقى قبولا حسنا بين القبائل بدون النظر إلى هذه القرارات هل هي صحيحة أم خاطئة، حسنة أم قبيحة؟

وبما أن المسائل الهامة المتعلقة بأهالي مكة المعظمة كان يتم بحثها في هذا المجلس حتى إعطاء الإذن بزواج البنات كان يصدر من الهيئة المجتمعة في دار الندوة، لذا كان ممنوعا منعا باتا أن يحضر الاجتماع في دار الندوة من لم يبلغ العقد الرابع من عمره أى لم يبلغ أربعين سنة من عمره من رجال القبائل باستثناء أبناء قصى بن كلاب.

وكانت إدارة الهيئة المذكورة مسندة إلى أحد أصحاب النفوذ من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب رئيسا وعدد محدود من الأعضاء.

ولما كانت رئاسة هيئة دار الندوة موكلة إلى يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فقد أذن سيدنا محمد النبى رئيس مجالس الأنبياء أن يستمر يزيد فى أداءه مهمته بادئا بالبسملة فى اتخاذ الإجراءات الشرعية.

السفارة؛

تم إنشاء هذه الوظيفة لإصلاح ذات البين، فإذا وقع نزاع بين أى قبيلتين أو جرى شجار أو نزاع بين رجلين، فإن الشخص القائم بمهمة السفارة يقوم مقام الحد الفصل فى القضية. وحكمه وقراره الذى يصدره لا يرد مهما كان القرار. وبذلك ينتهى النزاع.

(١) يطلق عليه أيضا منصب مشورة الأمور.

وكان منصب السفارة حكرا على أسرة بنى عدى بن كعب وعندما آل منصب السفارة إلى سيدنا عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب رضى الله عنه تولاه بنفسه وقد حان الوقت السعيد الذى ظهر فيه الذى أظهر المعجزات فى حل أصعب المشكلات - ﷺ .

النظارة؛

كانت وظيفة مثل إدارة الرسوم فإذا نقلت أحمال أو أثقال أو البضائع من مكان إلى آخر، كان من الأصول المرعية فى الجاهلية أخذ رخصة حملتها أو موقعة من الموظف الذى يتولى مهمة النظارة.

وقد بعثَ النبي ﷺ وأبو بكر الصديق - رضى الله عنه - لنظارة قبائل بنى تيم، يتولى هذه المهمة.

صاحب القبّة ومعناه ناصب الخيمة؛

وكانت هذه الوظيفة وظيفة متواضعة فالذى يكلف بها كان ينصب خيمة لعظماء قريش.

إذا ما حدث شىء يشغل قريشا أو يحزنها أو إذا أيد بعث حملة عسكرية إلى جهة ما أو إذا اقتضى الأمر المشورة فى حادث مهم فكان صاحب القبّة بحكم وظيفته ينصب خيمة فيجتمع فيها زعماء قريش يديرون الأقداح ويتشاورون.

ولما ثبت النبي - ﷺ - روح خيمة الإيمان كان هذا المنصب فى بنى مخزوم بن نقيط بن مرة وكان خالد بن الوليد بن المغيرة يتباهى ويفتخر بمنصب نصب الخيمة هذا.

الأزلام؛

جمع زلم يطلق على سهام القرعة، كان العرب فى الجاهلية يقتسمون أموالهم بالسهام التى تسمى «الأزلام» ويتفألون بها.

وكانت وظيفة استخدام السهام وحفظها وظيفه مهمة إلى حد ما، لذا كانت لاتسند إلى أى شخص. وكل من يريد القيام بعمل ما كان يرجع إلى هذا الموظف ليعرف وجه الخير أو الشر. فى هذا الأمر وكانوا يعملون برأى هذا الموظف بعد إجراء القرعة.

طريقة التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام؛

كان يؤتى بالسهمين ويوضعان فى جراب وقد كتب على واحد منهما كلمة «أمر» وعلى الآخر كلمة «نهى» ثم يكلف الشخص الذى يريد أن يتفاءل أن يخرج سهما من الجراب اعتباطا. وكان يلزم العمل بما كتب على السهم الذى أخرجه.

وكان يحتكر هذه الوظيفة بنو جمح بن عمرو بن كعب ويديرونها، وكان أفراد القبائل الأخرى يحبذون طريقتهم فى إجراء القرعة ويرضون بها.

وقد بعث خاتم الأنبياء - عليه صلوات الله الرحمن - وصفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يتولى هذه العملية.

قرعة العرب فى الجاهلية

إن وظيفة التفاؤل بالأزلام كانت وظيفة مهمة عند العرب وكانوا يتفاءلون بثلاثة سهام؛ إلا أن العرب فى الجاهلية كانوا يقومون بإجراء أنواع أخرى من القرعة، وإنهم كانوا يلعبون القمار بالسهام فى شكل غريب.

من أشهر أنواع القمار عندهم كانت القرعة التى تسحب بالأزلام الكائنة عند «هبل» وكان يجمع بين هذه السهام وسهام الطالع وهو الذى كان يطلق عليه الميسر.

لأن العرب فى الجاهلية كانوا يحتفظون بجانب «هبل» صنمهم الكبير بسبعة سهام، وعند اللزوم كانوا يقترعون بهذه السهام ويعملون بموجبها.

وكان مسطورا على كل سهم من السهام كلمات مختلفة مثل: «دية المقتول» أو

«نعم الأمر» أو «لا» أو «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فإذا ما اختلف فى دية المقتول كانت تجرى القرعة بين أسماء المظنونين وبين سهم «دية المقتول» وكان الشخص الذى تصيبه «دية المقتول» يضطر لدفع الدية.

وكان أهل الجاهلية يقترعون بسهام «نعم ولا» فإذا ظهر سهم «نعم» يحكمون أن هذا العمل خير وعند ظهور «لا» يحكمون بأنه شر، وفى الحالة الأولى يمضون رأسا فى عملهم، وفى الحالة الثانية يؤجلون العمل سنة أخرى، ويجددون القرعة لنفس العمل.

إذا ما شك فى نسب شخص ما كانوا يقترعون بسهام «منكم - من غيركم - ملصق»، فإذا أصابت قرعة منكم، فيكرمون ذلك الشخص ويعزونه ويسعدونه، فإذا أصابت القرعة «من غيركم» يعتقدون أن القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الشخص فى حلف معهم، أما إذا أصابت القرعة «ملصق» يحكمون بأن ذلك الشخص مجهول النسب، وإنهم يثقون ثقة تامة فى نتائج الاقتراع بتلك السهام.

وإذا أرادوا أن يحفروا بئرا أو أن يكشفوا عن منبع ماء كان يكتب على السهم كلمة «مياه» وكانوا يقترعون به لتعيين محل الحفر أو الكشف.

وإذا أرادوا أن يختنوا طفلا أو أن يزوجوا بنتا أو يدفنوا ميتا كانوا يقترعون كما ذكرناه من قبل، ويعملون بموجب تلك القرعة.

إن الاقتراع بتلك النيات لم يكن يجرى فى أى مكان بل كان يجرى أمام هبل المنصوب داخل الكعبة، ويقوم به خادم ذلك الصنم.

وكان على الشخص الذى يرغب فى إجراء القرعة إعطاء خادم هبل مائة درهم وعدة رؤوس من الإبل أو الغنم أو حيوانات أخرى، لتذبح قربانا، ثم يتجه إلى هبل قائلا: إن فلان بن فلان قد اشتبه فى نسبه، أو نريد أن نختنه - أو نزوجها - فدلنا على الحقيقة ووجهنا إلى ما يجب عمله.

وبعد ما يلهج بمثل هذه الكلمات يذكر الأمر الذى من أجله يريد أن يجرى القرعة، ويتضرع لهبل طالبا منه أن يظهر الحق والصواب فيما هو مقدم عليه،

وبعدما يذبح الحيوانات التي جلبها معه ويوزعها على الفقراء ثم يشير بإجراء القرعة، وهذه من جملة شروط القرعة ومن هنا كان على الذين يريدون إجراء القرعة أن يوفروا مقدارا من النقود، وأن يعدوا بعض الحيوانات ليقدموها لخدام هبل الذي يذبح الحيوانات ويوزع لحمها للفقراء، ثم يأمر بإجراء القرعة وكانوا يعملون بما جاء في القرعة.

ولا يقتصر مكان إجراء القرعة على هبل بل يجوز لأى واحد من أهل الجاهلية إجراء القرعة فى أى مكان كان، وهذا نوع من أنواع قراءة الطالع، وكانت هذه القرعة تتم - أيضا - باستقسام الأزلام وقطع الخشب سالفه الذكر.

وكان يطلق سواء على قطع الخشب التى بجانب هبل أو قطع الخشب التى فى حوزة الناس أزلام - أقلام - أقداح. وإذا ما ترجمناها إلى اللغة التركية فمعناها سهام، إن الأخشاب التى يستعملها قارئ الطالع ثلاث قطع كتب على أحدها «أمرنى ربي» وعلى الثانية «نهانى ربي» وترك الثالث بدون كتابة أو إشارة. وكان قارئ الطالع فى الجاهلية يباشر عمله؛ ليعين للذين يلجأون إليه طالبين حكم الأزلام فيما يقدمون عليه من عمل، فيقوم بخلط الأسهم الثلاثة ثم يضعها فى جراب ويختار أحد الأشخاص الذين يثق فيه أصحاب الشأن، ويطلب منه أن يدخل يده فى الجراب ويخرج السهام واحدا تلو الآخر، ويقرأ ما كتب عليها ويبين حكم القرعة.

وكان لابد أن يعتقد أهل الجاهلية إذا أصابت القرعة كلمة «أمرنى ربي» أن هذا العمل خير وإذا أصابت القرعة السهم الذى يكتب عليه «نهانى ربي» أن هذا الفعل شر، وإذا أصابت القرعة السهم الخالى من الكتابة كانت إعادة إجراء القرعة بعد مرور سنة من الضرورات الدينية.

وبناء على هذا فالذين يريدون القيام بعمل ما ويريدون أن يعرفوا وجه الخير أو الشر فى هذا العمل، يلجأون إلى قراءة الطالع ويجرون القرعة بثلاثة أسهم يضعونها فى جراب بعد أن يخلطوها، ثم يكلفون أحد الذين يثق بهم صاحب

الشأن فى حسن طويته ويجعلونه يمد يده داخل الجراب، ويخرج السهام واحداً واحداً وينظرون على المسطور فوق السهام وينطقون ببعض الكلمات يبينون إذا ما كان فعل هذا الأمر خيراً فيمضون فى فعله أو شراً يمتنعون عنه.

ومن جملة شروط إجراء القرعة أن يلف الرجل الذى يدخل يده فى الجراب قطعة من الجلد المدبوغ الناعم حول يده تسمى ريانة والغرض من هذا ألا يحس الرجل بعلامة ما على السهم فيخرجه ويجامل الأشخاص الذين يحبهم ويخرج لهم ما يريدون من السهام.

وكانت مهمة الرجل الذى يقوم بإجراء القرعة بالأزلام مهمة رسمية يقوم بحل الخلافات التى تحدث بين الحكومة والقبائل، ويفصل بينهما بينما يقوم الآخر بالفصل فى الخلافات التى تحصل بين الأفراد بعضهم بعضاً ومن هنا كان يختلف كل منهما عن الآخر.

وذهب بعض المؤرخين فيما نقلوه من روايات، أن الاستقسام بالأزلام هو إنه عند ما يهيم إنسان بالقيام بعمل مهم يأخذ معه ثلاثة سهام أو سبعة منها ويضعها فوق الحجارة التى نصبت حول المسجد الحرام والتى يقال لها نصب^(١) ويستمد من هذه الحجارة المعونة فى تحقق تلك الأعمال، ويذبحون لها قرابين طلباً لرضاها.

لعب القمار فى الجاهلية

كان الناس فى الجاهلية يلعبون القمار بضم وجمع عشرة سهام واسم هذه اللعبة «ميسر» وهذا بناء على تدقيق علماء التفسير العظام - رحمهم الله العلى - وأخبارهم، وإطلاق لفظ ميسر لهذه اللعبة، لأنه يمكن كسب المال بيسر وسهولة فيها.

وكان يجتمع عدة من أغنياء الجاهلية ويشترون بالدين كثيراً من الجمال على أن تدفع أثمانها فيما بعد ويذبحون هذه الإبل ويقسمون لحومها ثمانية وعشرين جزءاً

(١) ومن الروايات الموثوقة أن هذه النصب كانت أصناماً وكان عندها ثلاثمائة وستين قطعة.

ثم يقسمون هذه الأجزاء على عشرة سهام وهذه السهام هي ١- فذ ٢- توام ٣- رقيب ٤- جلس ٥- نافس ٦- مسبل ٧- معلى ٨- منيح ٩- سقيح ١٠- وغد. وبناء على أصول لعبة الميسر يجعل ويفرز لكل سهم أنصبة معينة وتترك بعضها من غير نصيب وكان لفذ نصيب واحد وللتوأم نصيبان وللرقيب ثلاثة أنصبة ولجلس أربعة ولنافس خمسة ولمسبل ستة ولمعلى سبعة وتترك سهام منيح وسقيح وغد بدون أنصبة.

ويذبح المقامرون الأغنياء هذه الإبل ويقسمونها أنصبة حسب حصص الأسهم المذكورة، ويضعون كل نصيب في مكان معين ثم يضعون السهام في جراب أو إناء بعد أن يخصص لكل مشترك جراباً باسمه، ثم يسحبون بواسطة رجل موثوق سهماً من جراب كل مشترك ويعطون نصيب كل واحد منهم حسب ما جاء في السهم.

والشخص الذي أصابه سهم من السهام التي لا نصيب لها لا يأخذ شيئاً من لحوم الإبل ولكنه يجبر على دفع نصيبه من ثمن الإبل.

وبعد سحب القرعة وجمع نقود الإبل وتوزيعها وتسليمها إلى أصحابها، يقوم كل واحد منهم بتوزيع كل اللحم الذي كسبه على الفقراء مباحياً مفتخراً. وكانوا يذمون الذين لا يشتركون في اللعبة ويصفونهم بالبخل والتقتير، بل وينشدون قصائد الهجاء في ذمهم. «انتهى»

خازن الآلات والأموال:

هذه الوظيفة عبارة عن نظارة الخزانة^(١) العامة وكانت الأموال والأسلحة التي تدخر للحرب توضع تحت عبءة هذا الموظف، وظهرت شوكة الإسلام حينما كانت هذه الوظيفة في عهد حارث بن قيس بن عدى بن سهم من بني سهم بن عمرو بن هصيص، ورفعت حجب الكفر والظلام عن الأنظار.

رفادة:

على وزن إفادة وتأتى بمعنى المسئول عن نفقات أصحاب الحرف وكانت وظيفة هامة وذات مكانة وقد ابتدعها قصي بن كلاب بن مرة.

(١) يطلق عليها بيت المال أيضاً.

وكانت قريش بناء على تصويب ابن كلاب وترتيبه تجمع مقدارا من النقود وتشتري بها التمر والزبيب والحبوب وتقدمه تحية لقوافل الحجاج فى مواسم الحج .

وكان فقراء الحجاج حتى زمن قصى بن كلاب يعانون من مشكلة كبيرة، لهذا فكر ابن كلاب بينه وبين نفسه فى سبيل حل هذه المشكلة وقرر ترتيب هذه الرفادة .

إذ جمع رجال قبيلته يوما وقال لهم يا معشر قريش إنكم تسكنون حول كعبة الله وتميزون بلقب سكان أهل البيت، وتمتعون بالإقامة داخل حدود بلد الله، لذا فأنتم مدينون بإطعام الحجاج الذين يأتون استجابة لدعوة الله .

ولكى تظهروا للضيوف القادمين مظاهر الاحترام على الشكل اللائق بهم، عليكم أن تسارعوا فى مد موائد المآدب لفقراء الحجاج فى كل عام أما إقامة هذه المآدب فىكون بتخصيص مقدارا من المال سنويا وإعطائه إلى وكيل الصرف ليشتري به البضائع اللازمة لإطعام الحجاج . وبما أنه كان نافذ الكلمة بين القبائل العربية فقد استحسنت اقتراحه وهكذا وضع نظام الرفادة الشامل النفع وبناء على ذلك أخذت قريش تجمع فيما بينها النفقات اللازمة لهذا الغرض، وكأنها ضرائب مفروضة، وتسلمها لابن كلاب، وهو بدوره يتولى توفير البضائع اللازمة لإطعام فقراء الحجاج فى مواسم الحج وهكذا برزت مظاهر كرمه واحترامه للحجاج .

وقد بعث النبى ﷺ ونظام الرفادة فى يد الحارث بن عامر بن عبد مناف . وقد أطعم الحجاج فى السنة التاسعة الهجرية بواسطة أبى بكر الصديق وقد أطعم الحجاج فى حجة الوداع بلا واسطة .

وقد قام سادتنا الخلفاء الراشدين بمراسم الرفادة على الوجه الأكمل فى سنوات خلافتهم .

إن نظام الرفادة أو عادة إطعام الفقراء من الحجاج قد انتقلت إلى الخلفاء العباسيين وإلى سلاطين البلاد الإسلامية وكانت تتم بواسطة ولاة ولاية الحجاز الجليلية فى سوق منى فى مواسم الحج .

حكى المرحوم تقي الفاسي من مؤرخي مكة المكرمة ومن الذين شاهدوا رأى العين إقامة سماط الرفادة وكتب في كتابه «تاريخ مكة» وقال: كانت الرفادة في الجاهلية وفي صدر الإسلام وأوائل الدول الإسلامية من الأصول المقررة والمرعية وقد رأيت أنا أيضا إقامة موائد الرفادة. كان الطعام الذي سيقدم إلى فقراء الحجاج يطبخ في صحراء منى السعيدة ويطعم الحجاج إلى نهاية الحج، وذلك بناء على أوامر السلاطين وقد ألغى هذا النظام فيما بعد ولكنني لا أعرف تاريخ إلغائه ولا أتذكر في عهد من الحكام قد ألغى.

وظلت عادة الرفادة ملغاة إلى يومنا هذا إلا أن القائمين بإمارة مكة يقومون بتوزيع مختلف أنواع الأغذية ومقدار كاف من اللحوم على جنود السلطان وخاصة الحجاج الفقراء الموجودين في منى منذ عودتهم من المزدلفة حتى يوم توجههم إلى مكة المكرمة.

وفي الليلة الثانية للعودة من المزدلفة تقام احتفالات كبيرة أمام خيام شريف مكة ووالى الحجاز ويتم إطلاق الألعاب النارية خارج خيام المحمل الشامي والمصرى ليبعث الفرح والسرور في قلوب الحجاج ذوى الابتهاج بمشاهدة هذه المناظر. وفي اليوم الأول من عيد الفطر يقوم شريف مكة كرما منه بمد سماط المآدب الرفيعة إلى رجال الأهالي وموظفي الدولة الموجودين وقد بلغت هذه المآدب من الفخامة ما يفوق الوصف.

وقد حضرت مأدبة سنة ١٢٨٩. قد مدت مائدة يطلق عليها «السماط» في غرفة مستطيلة وتزينت بكل ما يمكن توفيره من أنواع الأطعمة اللذيذة والفواكه النادرة وقد جلس حولها أمير مكة ووالى المدينة والضيوف.

وكانت المائدة ترتفع عن الأرض مقدار قدم ونصف قدم وكان طولها ٣٩ قدما وكان عرضها تسعة أقدام.

وترك للمدعوين حرية اختيار الطعام الذى يرغبون فى تناوله حسب الأصول وبالتالي كان كل شخص حرا فى القيام أو الجلوس وفق رأيه.

وقد استمر إطعام الضيوف إلى المساء إلا أن حضرة الشريف لم يمكث إلى نهاية الطعام بجانب المائدة.

وقد تم إطعام الضيوف جماعة بعد جماعة ثم أكرم الضيوف بحضور الأمير بتقديم فنجان قهوة لهم.

وفى هذا اليوم الذى بسط فيه السماط لم يبق إنسان فى مكة إلا وأكل وشبع من هذه النعم، وبما أن هذه الضيافة تقام كل سنة من قبل شريف مكة فإن ما يصرف فيها يساوى ما كان ينفق من أجل الرفادة.

إن كل لقمة مما أعد لإطعام الناس تفوق من حيث الفخامة ما كان يقدم فى العصور السابقة عدة مرات ومع هذا فإن ما يقدم من طعام فى سماط مكة وما يقدم لجنود السلطنة والفقراء من اللحوم والأغذية فى منى لا يوافق أصول الرفادة لأن الأصول المرعية فى الرفادة إطعام الحجاج وبدون استثناء. ويجب ألا تقتصر هذه الضيافة على إطعام الفرقة العسكرية وبعض الفقراء.

ولكننا لو تذكرنا أن عدد الحجاج الواقفين على جبل الرحمة كانوا قلة قليلة فى العصر الجاهلى وكان ما يقدم لهم فى أثناء ضيافتهم التمر والزبيب فإن القيام بمثل هذا العمل غير ممكن فى عصرنا هذا.

فعدد الحجاج فى عصرنا الراهن تجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة ألف، ومأدبة الرفادة من تمر وزبيب قد تحولت إلى أطعمة متنوعة ولحوم مطبوخة لذا فإن القيام بهذا العمل حسب أصول الرفادة فى العصر الجاهلى يكاد يكون مستحيلاً وغير قابل للتنفيذ.

وبما أن مأدبة الضيافة التى أقيمت من جانب الإمارة السنية قد عمت المعايدة الرسمية وكانت سببا فى اختلاط الفقراء مع الأغنياء والوجهاء والأشراف فحسنتها زادت مرات ومرات على أصول الرفادة ونظامها.

شكل السماط

أصول المعايدة: يبدأ أهالى مكة المكرمة مع حلول مواسم الأعياد فى تحسين صلتهم بعضهم مع البعض، وبهذا يجددون علاقات المودة والإخاء فيما بينهم.

ومن العادات القديمة المرعية أن أهل مكة المكرمة يقسمون أيام عيد الفطر، بحيث يكون الاحتفال به في أحد الأحياء إذ يعلن أصحاب الشأن أن العيد اليوم في حي فلان ويستقبل أعيان وعظماء هذا الحي فلان وفلان وفلان زوارهم في منازلهم. وفي هذا اليوم يتفق الأعيان والعظماء والأغنياء فيما بينهم ويحددون الشخص الذي سيستقبل الزوار للمعايدة. لذا يسرع سكان الأحياء الأخرى إلى الحي الذي سيحتفل فيه بالعيد.

كما أن سكان هذا الحي يذهبون في اليوم التالي إلى بيوت أعيان الحي وأثريائهم وهكذا يسرعون في أداء مراسم المعايدة المتبعة. إن سكان مكة المكرمة يهتمون بهذه العادة ويرعونها أعظم الرعاية حتى إنه لا يبقى في مكة أفراد صغارا كانوا أو كبارا إلا لقي بعضهم بعضا ويدعون لهم بالخير.

وتشمل هذه المعايدة، أصحاب القبور من الموتى، لذا يذهب الرجال ثم النساء في اليوم الأول من عيد الفطر الشريف للمعايدة ويظلون هناك إلى وقت الزوال في مقبرة المعلى وسائر المقابر حيث يزورون أقاربهم ويتلون بعض السور القرآنية ثم يعودون إلى منازلهم.

وبما لاشك فيه أن هذا الأمر من السنن السنية الحسنة إلا أنه قد أسئ استغلال هذه العادة إذ أصبح اختلاط الرجال بالنساء في المقابر حكم عادة وبما أن هذه العادة ستؤدي إلى الاختلاط والفساد فمن الواجب منع اختلاط الرجال بالنساء هناك. انتهى.

إن طريقة المعايدة الحسنة التي ذكرناها من العادات المتبعة في بعض بلاد الأناضول والرومللى.

إننى قد حضرت العيد في بعض ولايات الأناضول وكذلك في ولايات الرومللى كما حضرت مراسم العيد في مكة المعظمة، إذ إن المعايدة في تلك الولايات لا تطابق تماما المعايدة في مكة المكرمة^(١).

(١) لا يحتفل بعيد الأضحى بهذه الصورة لأن الأهالى في أيام عيد الأضحى يتواجدون في عرفات ومنى يؤدون الشعائر.

ولما كان أهالى كل قرية فى تلك الولايات يذهبون إلى القرى الأخرى يتزاورون للمعايدة فيمكن أن نعتبر ذلك مُشابهًا لأصول معايدة مكة المكرمة .

القيادة:

تعنى إمارة الجيش وهى عبارة عن قيادة الجيش فى الحرب والقتال .

إن هذه المناصب كانت خاصة بقريش لذا فإنها تتفوق على القبائل الأخرى بهذا المنصب وتفتخر به .

لما أسند ابن كلاب مهام الحجابة والسقاية واللواء والرفادة الهامة إلى ابنه عبد مناف وهو مازال على قيد الحياة فكأنه اختاره وليا للعهد .

وأسند إلى ابنه الكبير عبد الدار مهمة إدارة دار الندوة لتسوية نزاعات قريش .

وقد أوصى عبد مناف بإدارة حجابة البيت واللواء والسقاية والرفادة بموافقة بقية أخوته وخاطب عبد الدار قائلا « يا بنى إننى أجعلك رئيسا على القبيلة ، حيث لا يستطيع أى إنسان من أشرف القبائل أن يدخل كعبة الله طالما لم تفتح لهم بابها ، ولا يستطيع إنسان أن يعقد لواء الحرب دونك ، واللواء المزمع عقده يجب أن يكون فى يدك بلا منازع ولا يستطيع إنسان فى مكة أن يشرب من ماء زمزم إلا إذا سقيته أنت ولا يستطيع إنسان أن يأكل طعاما فى موسم الحج إلا إذا أكل من طعامك . ولا بيت فى أمر من أمور قريش الهامة إلا إذا تم الحكم بذلك فى بيتك .

اختلاف قريش:

بعد وفاة «قصى بن كلاب» أدار أبنائه بموجب وصيته لعبد الدار حكومة مكة متفقين ، ولكن فيما بعد ظهر بينهم الخلاف ، فإن بنى عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس وعبد المطلب ونوفل تباحثوا عن شرفهم وفضلهم وفكروا فى انتزاع مناصب الحجابة والسقاية واللواء والرفادة من أيدي بنى عبد الدار فدبت بينهم الخصومة ، وتباهوا وقالوا: إنهم أجدر وأحق منهم بالقيام بهذه الخدمة الجليلة وادعوا أنهم الأفضل والأشرف - فى كل الجوانب - من أبناء عمهم عبد الدار ، وأخذوا يتحرشون ببعضهم باستمرار ، وفى النهاية اتفقوا على أن يحال الفصل فى النزاع الدائر بينهم إلى زعماء القبائل للحكم فيه .

أما زعماء القبائل فقد اختلفوا فى أمر هذا النزاع إذ التزمت جماعة منهم جانب بنى عبد الدار حتى لا يخالفوا وصية قصى بن كلاب، والتزم البعض الآخر جانب بنى عبد مناف تحكّمهم فى ذلك بعض المصالح العصرية.

وعندما ظهر هذا النزاع كان صاحب النفوذ فى أبناء عبد الدار هو عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أما صاحب الكلمة النافذة والأمر فى أبناء عبد مناف فهو عبد شمس بن عبد مناف.

وبعد مناقشات ومجادلات ومحاورات بين رجال القبائل المختلفة التى التزمت جانباً من الجانبين، قرروا إسناد مناصب السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف وتظل إدارة دار الندوة فى يد بنى عبد الدار وهكذا أسكتوا الجانبين وألزموهما بهذا الاتفاق وأجبروا الطرفين على توقيع معاهدة بهذا الأمر.

وبناء على هذا الاتفاق أعطيت مهمة السقاية والرفادة إلى أبناء بنى هاشم بن عبد مناف وبقيّة المناصب إلى بنى عبد الدار وقد أظهر كلا الطرفين رضاهما وموافقتهما على هذا الحكم، إلى أن توصلوا إلى هذا الحكم والنتيجة كانت ست بطون من قريش قد اتفقت وتعاهدت على أن تحمى بنى عبد الدار من غدر بنى عبد مناف وأطلق على هؤلاء أحلاف قريش وهذه البطون الست هى: بنو عبد الدار وبنو عمرو بن هصيص بن كعب وبنو جمح عمرو بن هصيص ابن كعب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو عدى بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر. وقد سعى كل هؤلاء على أن يصطحبوا أحد أبناء عبد الدار وأن يكونوا عوناً ونصراً لهم حتى لا يهزموا أمام بنى عبد مناف.

واتفقت قبائل بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة ابن كلاب وبنى تيم بن مرة بن كعب، مع أبناء عبد شمس بن عبد مناف أما قبائل عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فقد بقيت على الحياد ووقفوا موقف المتفرج انتظاراً لما سيتهى إليه الأمر.

وأقسمت كل جماعة من الجماعات المتفقة على ألا يتخلوا أو ألا يتراجعوا عما أقسموا واتفقوا عليه.

وعقب ذلك أحضرت نساء عبد مناف إناءً مملوءاً بالطيب الرطب، وتركته أمام الجماعة الموجودة عند كعبة الله وتبعاً لعادة الجاهلية غمس رجال الجماعة المتفقه أيديهم فى هذا الإناء ومسحوا أيديهم الملوخة بالطيب على جدران الكعبة المشرفة تأكيداً لقسمهم وأقسموا مرة أخرى على المحافظة على القرار الذى اتخذه.

وكان قصدهم من هذا أن يؤكد كل فريق منهم للأخر ثباته على هذا فأقسم بشأن ذلك القرار المتفق عليه.

وعلى الرغم من حمل الفريقين المتفقين أسلحتهم بعد هذا القسم واستعدادهم للحرب، إلا أن زعماء القبائل قرروا فيما بينهم التوسط بين أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف وأسفر هذا التوسط عن إجبارهم على قبول ما تم الاتفاق عليه. فانطفأت نار الحرب والقتال التى كادت أن تنشب بينهم بقاء الصلح المقترح. وبهذه الصورة تم الحفاظ على الاتفاق الذى تم التوصل إليه حتى عصر النبوة. انتهى.

وكان لعبد مناف ابنان آخران غير عبد المطلب، ونوفل وهما عبد شمس وهاشم، وكان لكليهما نصيب فى مناصب الرفادة والسقاية بناء على قرار القبائل الست. وكان عبد شمس شديد الفقر مع كثرة العيال وكان أخوه هاشم من الأغنياء، ولما كانت إدارة السقاية والرفادة من الأمور المرتبطة بالمال والثراء فقد أسندت كل منها إلى هاشم، فتولى مهمتهما وفق هذا القرار.

واسم هاشم الأسمى هو عمرو، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه هو الذى ابتدع طعام الثريد فى مكة المكرمة.

وهاشم هذا هو الذى ابتدع تسيير القوافل إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا للتجارة، وسارت قريش على نهجه فيما بعد لأن قريشاً وإن كانت تشتغل بالتجارة قبل ذلك إلا أن تجارتهم كانت مقصورة على أطراف مكة فقط.

وحدث فى أثناء سفره إلى الشام أن علم القيصر حاكم الشام بأمر شرفه وحسبه وعلو قدره بين قومه فاستدعاه وأظهر له الشيء الكثير من الاحترام والاهتمام، وفى خلال حديثه معه الملح له أنهم يأتون بأمتعة الحجاز واليمن إلى الشام فى الصيف ولما كان هذا الأمر يتطلب رخصة تتضمن عهداً بالأمان فأعطاه

القيصر حاكم الشام هذه الرخصة رعاية لمكانته بين قومه وسمح له بأن يتردد رجال قريش على الشام للتجارة.

وبعد فترة قصيرة حصل أخوه عبد شمس من حاكم الحبشة على رخصة مماثلة ومطلب من حكام اليمن.

وكذلك حصل نوفل من حكام بلاد فارس على رخصة مماثلة وهكذا عودوا قريش على التجارة مع هذه البلاد، وكان هذا نوع من الأصول والعقبات التي أزلها قصى عن طريق الإجازة.

وكانت قريش التي تسكن مكة - آنذاك - آمنة من غارات لصوص البدو الذين يغيرون على القبائل التي تسكن حول مكة لأنهم يتهبونها.

وكان الشعار الذي ترفعه قريش أمام اللصوص قولهم: نحن سكان حرم الله وأهل بيت الله الحرام، إلا أن هذا الشعار كان يفيد عندما يتجرءون على دخول مكة المكرمة، لذا كانوا لا يتجرءون على الابتعاد عن مكة كثيرا وفيما بعد استطاعت قريش تحت حماية وظل أبناء عبد مناف أن تتمتع باستيراد البضائع وتصديرها إلى كل مكان.

وقد أحسن هاشم بن عبد مناف القيام بأداء المهام التي أسندت إليه بموجب قرار القبائل الست وذهب إلى الشام لغرض التجارة وفي أثناء وجوده في ولاية غزة^(١) انتقل إلى رحمة الله فانتقلت مناصب السقاية والرفادة التي كانت مسندة إليه إلى أخيه عبد المطلب أعظم وأكبر شخصية في قريش حينئذ.

وبعد وفاة هاشم بفترة قصيرة مات أخوه عبد المطلب في مكة ومات أخوه نوفل بن عبد مناف في أثناء رحلة في العراق وبذلك انتقلت أعباء إدارة المنصبين الجليلين إلى عبد المطلب جد النبي - ﷺ - وولده عبد الله.

بلغ عبد المطلب من الشرف والجاه ما لم يبلغه آباؤه وأجداده ونال محبة الناس، ولم يكن له من أبناء سوى الحارث ولهذا كنى بأبى الحارث.

وذات يوم قال ابن عمه عدى بن نوفل بن عبد مناف ليس لك أبناء سوى

(١) اسم بلد مشهور في أرض فلسطين.

الحارث فإنك إذا تصورت أن تتولى رئاسة قبائل قريش لفترة طويلة، فهذا الأمل واه وعبث بالنسبة لك. أما نحن فأبناؤنا وأتباعنا كثيرون، وسيثول لنا - ذات يوم - زمام الرئاسة وهو أمر غنى عن التعريف أو التذكير به.

فأجابه عبد المطلب: أتخيفنى بسبب قلة أولادى؟ إن شاء الله سيكون لى من الأبناء عشرة، وعندئذ أذبح أحدهم قربانا عند الكعبة ابتغاء مرضاة الله^(١).

وحسب حكمة الله، فبعد فترة نال عبد المطلب ما تمناه وبلغ عدد أبنائه عشرة كاملة وعندئذ جال بخاطره ما نذر وأقلقه هذا الخاطر طويلا وأطال التفكير فى هذا الموضوع ثم قرر أن يستدعى أبنائه ويشرح لهم الأمر وأخذ موافقتهم واحدا بعد الآخر، ورأى أن يكتب أسماءهم كل على حدة على عشرة سهام من سهام القرعة، ثم أخذ هذه السهام، واصطحب أبنائه عند الصنم الكبير المسمى هبل داخل كعبة الله. وضرب القرعة لاستكشاف الطالع حسب العادة المتبعة فى الجاهلية، وخرجت القرعة باسم عبد الله والد النبي - ﷺ - وأحب أولاده إليه وأفضلهم، ولم يأت هذا التفضيل والحب البشرى من الفراغ لأنه رأى فى المنام عدة مرات ما يبشر بأن هذا الابن سيكون له شأن كما رأى فى ولده هذا أشياء خارقة تدل على أنه سيكون والدا للجوهر النادر لسيد البشر، ونتيجة لكل هذا فإنه كان يفضل ابنه ويقدمه على إخوته، ويأمل بأن الله - سبحانه وتعالى - سينجيه من الذبح ونروى واحدة من الخوارق التى جعلت عبد المطلب يأمل أن يكون ابنه أبا سيد البشر.

أفشى عبد الله - ذات يوم - سرا لأبيه حيث قال: يا والدى العظيم، إننى متى أخرج من مكة وأصعد جبل ثبير وحيثما أجلس، يظهر فى ظهرى شعاعان من نور لامع يتجه أحدهما وينتشر ناحية الشرق وينتشر الآخر ناحية الغرب، وبعد فترة يتجمعان مثل السحاب الممطر الذى يسطع ويعلو نحو السماء ثم يعودان إلى ظهرى مرة أخرى، ويتم كل هذا فى لحظة واحدة، كما أننى أسمع فى الأماكن التى أجلس فيها هاتفاً يقول: السلام عليك أيها المستودع فى ظهره نور محمد

(١) جرى هذا الحوار أثناء قيام عبد المطلب بحفر بئر زمزم، وتفصيل هذه الواقعة مدون فى الصورة الخامسة من الوجة الأولى أى فى قصة زمزم.

ﷺ، وإذا جلست تحت شجرة جافة، إذا بها تخضر وتكتسب نضرة وعندما أبرح المكان تعود الشجرة متلفة الساق إلى حالتها الأولى.

وهكذا كان ينقل لوالده ما رأى من الخوارق بعين بصيرته وبصره فقال له أبوه: يا بني إننى أبشرك وأهنتك بحملك النور المحمدى، وقد بشرت بهذا عدة مرات وكل الرؤى التى رأيتها قبلك - تدل على أنه سيولد من صلبك الشريف من سيزين القمط.

والواقع أنه كلما كان يتقرب من اللات والعزى وهى من أكابر أصنام قريش كانا يخاطبان عبد الله بصوت مشابه لصوته قائلين: أنت لا تحفل بنا ولا تعبدنا! إن النور الذى سيضى الدنيا قريبا ذلك النور الذى فى ظهرك هو نور محمد عليه سلام الله الأحد، وإن صاحب هذا النور سيحطمننا كما سيحطم كل الأصنام ويقضى علينا جميعا.

وللدلالة الأسباب الظاهرة السابق ذكرها أحب عبد المطلب ابنه عبد الله أكثر من بقية إخوته ولأجل ذلك كان يخاف عليه حتى من هبوب الرياح ومع ذلك كان يثق أيضا فى السهام التى بجانب هبل عند إجراء القرعة بالقدح^(١).

وبناء على ذلك عندما أصابت القرعة اسم عبد الله وقضت بذبحه راح الأب فى بحر عميق من التفكير، وبعد ما أفاق من تفكيره قال: ما العمل؟ هكذا قدر الله ثم أخذ والد النبى ذا المكانة العالية إلى جوار الصنم الذى أطلقت عليه قريش اسم إساف^(٢) وأرقدته على الأرض. وبمجرد أن علم عباس الأخ الأكبر لعبد الله بما ينوى الأب لأخيه أسرع إليه، وأدركه وسحب أخاه من تحت يدي والده عبد المطلب. وفى أثناء هذا جرح عبد الله فى وجهه، وظل أثر هذا الجرح ظاهرا إلى أن توفى.

(١) القدح يطلق على السهم الذى بلا ريش. ويطلق على السهم السابع فى المير القدح المعلى، ونصيب هذا السهم عند أهل الجاهلية يفوق أنصبة السهام الأخرى، وكان أهل الجاهلية يلعبون القمار بهذه السهام ويتفاهلون بها، ومن يريد معرفة مزيد من المعلومات حول كيفية لعب المير أو كيفية التفاوض بها يمكن أن يتفضل بالرجوع إلى البحث الخاص بإجراء القرعة عند العرب.

(٢) كان هذا الصنم من قبل بجوار بئر زمزم.

إن انتزاع حضرة العباس أخاه عبد الله من تحت قدمي عبد المطلب يقتضى أن يكون العباس أكبر من عبد الله، وهذا من سهو الرواة لأنه وفقاً للروايات الصحيحة أن عبد الله أكبر من أخيه العباس.

حيث إن عبد المطلب تزوج من هالة أم ابنه حمزة - رضى الله عنه - بعد أن وفى بنذره، وبناء على هذا أن حمزة رضى الله عنه وأخاه العباس - من الأم - رضى الله عنه لم يكونا قد ولدا بعد حينما قرر عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله^(١). وبناء على هذا يلزم أن يكون عبد الله أصغر أبناء أمه وليس أصغر أخوته جميعاً.

ورغم أن ابن إسحاق قد أخطأ فى تأويل قول المرحوم البكائى الذى يعتبر من الأئمة الثقات، وذهب إلى ما يخالف الرواية السابقة، فإن بعض أهل السير ردوا وخرجوا ما ذهب إليه ابن إسحاق، وقالوا إن حمزة - رضى الله عنه - أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة - رضى الله عنهم جميعاً - وأيدوا رأيهم بما قاله العباس: عند مولد خاتم الأنبياء - عليه وعليهم التحية - كنت قد بلغت الثالثة من عمري، وعندما شاهدت وجهه المنير المبارك قالت لى النساء قبل وجه أخيك، فتشرفت بتقبيل وجهه الكريم.

وقول سيدنا العباس هذا لم يترك أى شك فى أنه أصغر من عبد الله بن عبد المطلب، ولهذا فإن قول المرحوم الإمام البكائى يحمل على أن عبد الله كان أصغر أبناء أمه عندما حمل للذبح.

ورغم أنه لا حاجة إلى إطالة القول لإثبات هذا الأمر فما لاشك فيه أن سيدنا حمزة وأخاه العباس - رضى الله عنهما - قد ولدا بعد الوفاء بالندى. وهو أمر ثابت بدلالة الروايات الصحيحة، حيث إن عدد أبناء عبد المطلب كان اثني عشر. انتهى.

(١) هذه الرواية تؤكد صحة ادعاء الرواة من أن أبناء عبد المطلب كانوا اثني عشر ابناً.

ولما كان الموقف الصعب الذى بدر من عبد المطلب قد أثار قلق قريش، واضطربوا وتوترت نفوسهم وقالوا: نحن غير راضين من هذا الأمر، وعلينا أن نبحث عن حل حتى لا يصبح ما يريد أن يقوم به عبد المطلب عادة متبعة بيننا.

لذا استفسروا رأى الكاهنة سجاح^(١) العاقلة والتي تقيم فى بلاد خيبر. وسجاح هذه كانت كاهنة لها صلة بطائفة الجن وفق اعتقاد أهل الجاهلية وتستعين بهم؛ ولهذا فقد فهمت ما فى ضمير مبعوثى قريش، وقالت لهم سأسأل الطائفة التى أتبعها فى هذا الأمر وسأخبركم بالجواب الذى سألتقاه منها.

ورجع رجل قريش إلى محل إقامتهم وقد اعتراهم اليأس ثم رجعوا إلى سجاح مرة ثانية فى اليوم التالى.

وقد سألتهم سجاح فى هذه المرة قائلة: ما مقدار الرجل عندكم؟ فأجابوا عشر من الإبل، فقالت لهم: أحضروا عشرا من الإبل واضربوا القداح على اسم عبد الله، وعلى اسمها فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربيكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربيكم ونجا صاحبكم ورجع وفد قريش إلى موطنهم.

تعريف الكهانة

كهنة: جمع كلمة كاهن وتعنى المشتغل بمعرفة الفأل أو الطالع.

كان من عادات أهل الجاهلية العمل وفق ما يقوله الكهنة وكان الكهنة يزعمون أنهم على صلة بالشياطين، ويستقون منهم الأخبار المتنوعة ويخبرون بها من يلجأ إليهم. وقد ادعى بعض الكهنة أنهم يستخدمون خدما من طائفة الجن وأنهم يتلقون منها أخبار الغيب.

ولكن الآية الكريمة حسمت هذا الموضوع عندما أخبرتنا ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (النمل: ٦٥) بمعنى أن الجن لا يمكنهم أن

(١) يروى كذلك أن اسمها قطية.

يطلعوا على الغيب ومن هنا كانت ادعاءات الكهنة فى هذا الأمر كاذبة ولا أساس لها.

ومن الكهنة الذين نالوا شهرة كبيرة بين كهان الجاهلية: سطيح - خطر - سجاح.

والذين اطلعوا على أحوال الكهنة فى الجاهلية أخبروا أن الكهانة أنواع مختلفة.

فمنهم من يأتى بسبع قطع من الحجارة، ويضع على كل واحدة منها علامة ويطلق عليها اسما ويأخذ هذه القطع فى قبضة ثم يحركها ويتمم ببعض الكلمات الخاصة به، ثم يفتح قبضته وينظر إلى أوضاع الحجارة، ثم يحكم إن كان ما يريد خيرا أم شرا^(١).

ومن أنواع الكهانة أيضا الزجر، العرافة، الطيرة وهى تختلف من حيث الإجراء.

العرافة:

مثلا معناها الإخبار عن الغيب بواسطة الجن بالنظر إلى الأشياء الشفافة والبراقة، كالنظر إلى كوب من الماء أو إلى قرص الشمس أو إلى الزجاج أو البللور، حيث يرون فيها الجن ويستقون منها الأخبار، وإن هذه الصنعة مازالت موجودة فى أيامنا، ويكسب المشتغلون بالخرافات أموالا طائلة.

الزجر والطيرة:

استقاء الأخبار عن كيفية طيران الطيور، وعن أصواتها والاستدلال بها على وقوع الأمر.

كان أهل الجاهلية عندما يسافرون أو يخرجون لرحلة صيد أو قنص يتفاءلون من ظهور ثور وحشى من جانبهم الأيمن، ويحملونه على أنه خير لهم، وإذا ما

(١) هذا النوع من قراءة الطالع أو الكهانة نوع من أنواع الكهانة التى عرفناها فى موضوع الأزلام.

ظهر هذا الحيوان من الجانب الأيسر يتشاءمون منه، ويعتقدون أنه شر محض. وكانوا يراقبون محط الغربان ويتأملون صورة هبوطها على الأرض وكيفية صياحها. وإذا ما تحركت الغربان وفق ما يزعمون أنه خير يفرحون، ويتهجون أما إذا لم تحط الغربان في الأماكن التي يريدون أن تحط فيها أو إذا لم يصح كما يريدون تشاءموا من طيرانها وتحركاتها وهبوطها هنا وهناك ويغضبون ويطردونها من محطها باللقاء الحجارة عليها.

وقد ظهر كهنة قبل البعثة المحمدية وأخبروا بنبو محمد - ﷺ - وصدقوا واعترفوا بهذه النبوة.

حكاية:

مروية عن حضرة لهيب بن مالك^(١) إذ قال: كان لقبيلتنا كاهن من أعلم كهنتها يدعى خطر في ٣٨٠ من عمره، وعلى رواية تاريخ خميس في ١٨٠ سنة من عمره.

وقد اجتمعنا عنده يوما وقلنا له يا خطر أخبرنا بأشياء بواسطة علم النجوم وسنعمل وفق ما تنبئنا به وقال إذا ما أتيتم غدا سأخبركم عن الخير والشر، وفي اليوم التالي ذهبنا إليه مجتمعين في الفجر. فوجدناه في هذه المرة واقفا منتصف القامة وقد فتح عينيه من الحيرة والدهشة، وركزهما نحو السماء فكأنه في حالة الاحتضار.

ولما رأيناه واقفا ساكنا لا يحرك رموش عينيه اعتقدنا أنه قد مات، ونادينا قائلين: خطر، وأخيرا أشار لنا أن نمسكه من جانبيه فأمسكناه. وبعد مدة سقط من السماء كوكب كبير كأنه طائر يحط على الأرض بخفة.

حيثذ صاح خطر صيحة عالية وأخذ يتحدث بشدة وجد قائلا: أصابه وجع عظيم قد عجز عن الإتيان بالأخبار، وقد تشتت أفكاره المضطربة قد عاودته المشقة والصعوبة إلام ستنتهى حالته قد انقطعت جبال من كانوا يسترقون السمع وقد حزن.

وبعدما وقف هادئا ساكنا فترة توجه نحونا وقال: يا أولاد بني قحطان

(١) إن هذا الشخص من الأصحاب الكرام ومن قبيلة أزد التي تنتهي إلى لهب وقبيلة أزد من سكان اليمن.

سأخبركم بالحق والحقيقة أقسم بالكعبة الشريفة ذات الأركان الأربعة. أقسم بالبلدة المباركة التي يسكنها المؤمنون قد منع المستمعون من الجن عجزوا عن الاستماع إلى الأخبار؛ وذلك بسبب بعثة نبي ذا شأن ورفعة وكأنه في لمعانه نجم ثاقب، وقد بعث للإنس والجن. إن هذا النبي السعيد قد بعث مؤيدا بالفرقان والقرآن وأبطل عبادة الأوثان. وقد حدثنا بعبارات مسجعة ما يفيد المعاني السابقة وهكذا تركنا في ذهول وخبره بهذه الأقوال.

وقلنا لخطر يا خطر إننا لنأسف على كهانتك إنك لتخبرنا بشيء عجيب... والمتنظر منك أن ترحم قومك الذين يتبعونك وتراعى جانبهم. فأجاب خطر إنني أحب قومي أكثر من نفسي لذلك سأدفعهم إلى تبعية نبي عظيم الشأن هو أعظم الأنبياء جميعا وأفضلهم ودليل عظمته ظاهر مثل شعاع الشمس، وقد بعث في مكة ويدعو إلى أداء صلوات خمس وإنه تنزل عليه من قبل الله آيات بينات.

فاستوضحوا الأمر قائلين: يا خطر من هذا الشخص النبيل الذي تعرفه وتصفه لنا؟ فتحدث خطر قائلا: إنه ينتمي إلى قبيلة قريش السعيدة، ويعيش بين أفرادها لا خفة في حلمه، وأنه لا يظهر بعض كلامه ويخفي الآخر وخلقه خال من الفساد والخلل، وإن ذاته الشريفة السعيدة تنتمي إلى آل قحطان وآل ديش بن الهون، وينتهي نسبه إلى قبيلة خزيمية بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقد أجاب خطر على تساؤلاتنا التي طلبنا فيها أن يبين لنا القبيلة التي ينتمي إليها من قبائل قريش، قال إنه من آل هاشم بن عبد مناف، ومن أكارم أهل مكة المعظمة وقد بعث لغزو المشركين وقتل الملحدين، وأضاف خطر قائلا بما أن هذا الكلام أخبر به رئيس الجان نفسه فهو صحيح تماما، وغاب عن الوعي قائلا الله أكبر قد ظهر الحق وانقطعت الأعيب الجن وأفاق بعد ثلاثة أيام.

وقبل الإسلام إذ قال لا إله إلا الله وأغرانا وحشنا على قبول الدين المحمدي المبين. وقد قص لهيب بن مالك هذه الحكاية الغريبة بالتفصيل على أحبائه، ثم عرض ما جرى على نبي الإنس والجان - عليه وعلى آله صلوات الله المنان - ففضل نبينا صادق القول قائلا: «سبحان الله قد نطق صدقا إن هذا الشخص سيبعث يوم القيامة أمة وحده»^(١).

(١) الخبر في ترجمة لهيب في الإصابة ٩/٦ - ١٠.

وقد ثبت من هذه الحكاية إلى درجة ما شأن قراءة الطالع فى الجاهلية، وأحوالهم فى مد الناس بالأخبار واستراق الشياطين السمع لمعرفة الأخبار من السماء.

وفى الواقع أن مردة الشياطين كانوا يسترقون السمع فى السماء لمعرفة الأحداث إلى زمن ولادة عيسى - على نبينا وعليه السلام - ويلقون بالأخبار إلى قلوب الكهنة. وقد انقطعت ثلث الأخبار التى تأتى بواسطة استراق الشياطين السمع فى السماء فى زمن عيسى - عليه السلام - وانقطع ثلثاها الباقيان بولادة نبينا الذى بعث رحمة للعالمين وهكذا لم يبق أثر من استراق السمع، ولم يبق مجال لأخبار الكهنة.

وقد عرف عبد المطلب بالطريقة التى أوجدت بها سجاح فى إجراء القرعة، واتبع عبد المطلب الطريقة كأنها دستور مكتوب، وضرب القرعة فخرجت تسع مرات واحدة تلو الأخرى على عبد الله وأصابت فى المرة العاشرة اسم الإبل، ولما كان عدد الإبل الذى تجرى عليه القرعة قد بلغ المائة ناقة قالت قريش: يا عبد المطلب إذا ذبحت هذه النوق المائة قربانا تكون قد أوفيت بنذرك، وأدبت حق الله وأخبروه بما وصفت به سجاح.

ولكن عبد المطلب لم يلق سمعا إلى قول سجاح ولا إلى أقوال قريش، وقال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات فضرب فخرج القدح على الإبل فى المرات الثلاث.

ولما رأى عبد المطلب ذلك قام فذبح مائة من الإبل ووزع لحمها على أهل مكة طلبا لرضاء الله، وأفهم الناس أن دية الرجل بين العرب ستكون مائة من الإبل بمقتضى ما حدث.

قد ظل حكم عبد المطلب هذا مرعيا إلى ظهور نور النبوة، وقد أبقى صاحب الشريعة - عليه أكمل التحية - هذا الحكم نافذا بحيث تكون دية الرجل مائة من الإبل.

فى تفصيل كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الثامنة

قد حدث هذا التعمير والبناء بعد بناء إبراهيم عليه السلام بـ (٢٤١٩) سنة، أو على رواية أخرى بعد (١٧٠٣) سنة.

وكان بانى بناء الشريعة - عليه السلام - فى ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد، وكان بيت العزة الذى بناه إبراهيم - عليه السلام - قائما بعينه.

وقال المؤرخون متبعين الإمام مجاهد: إن هذا الحادث كان قبل البعثة النبوية بخمسة عشر عاما، والذين اتبعوا^(١) ابن إسحاق قالوا إن البناء كان قبل البعثة النبوية بخمس سنوات^(٢).

-فتوى:-

قد أدرجنا صورة من فتوى رضا أفندى والذى يؤيد قول ابن إسحاق فى هذا الموضوع لما عهدنا فى فتواه من صراحة متبركا بها.

-صورة الفتوى الشريفة:-

إذا تفرق أهالى حى أحد المساجد وخلا من المصلين فهل يجوز لورثة الواقف أن يمتلكوه؟

الجواب: لا يجوز ذلك.

لأن الكعبة المعظمة فى فترة الخلو من الرسل - امتلأت أطرافها بالأصنام

(١) ابن إسحاق هو التابعى المشهور صاحب المغازى والسير وبحر العلوم والخبر محمد بن إسحاق بن أبى بكر، وقد تلاقى بالإمام على وأسامة ومغيرة بن شعبة وتوفى سنة ١٥١هـ.

(٢) ورأى ابن إسحاق أيضا - بلوغ النبى ﷺ - الخامسة والثلاثين من عمره السعيد.

وخربت، فلم تنتقل إلى ورثة آخرين. وعلى هذا من بنى الكعبة المشرفة وواقفها؟

الجواب: إن الكعبة الشريفة شرفها الله، قد جدد بنائها خمس مرات إلى الآن، كما أنها عمرت بتجديد حوائطها.

أولاً: بناها الملائكة بأمر الله - سبحانه وتعالى.

ثانياً: بناها حضرة إبراهيم عليه السلام.

ثالثاً: قد بنيت في الجاهلية على ستة أعمدة بعد هدمها وإخراج حجر إسماعيل من البيت من قريش.

وكان النبي - ﷺ - في الخامسة والثلاثين من عمره السعيد. واشترك في بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود في مكانه بيديه الشريفتين.

وفي المرة الرابعة بناها عبد الله بن الزبير إذ احترقت الكعبة في عهد يزيد اللثيم - فهدمها عبد الله وبناها وفق رسم إبراهيم - عليه السلام - وعلى أساسه وأدخل حجر إسماعيل داخل البيت وفي المرة الخامسة جدد بنائها في ٧٤ هجرية إذ اقتلع بناء ابن الزبير وأعيدت إلى سابق عهدها بأن أخرج حجر إسماعيل من الكعبة الشريفة، وفي سنة ألف وتسع وثلاثين وفي عهد السلطان مراد الرابع قد جددت جدرانها وعمرت بيد قاضي مكة المكرمة السيد محمد الأنقروى. وقد صرح في صدر الشريعة أن واقف البيت هو حضرة إبراهيم - عليه السلام.

إخطاره

لم يذكر المرحوم رضا أفندي في فتواه بناء وتعمير البيت في عهد آدم عليه السلام وأولاده وعهود العمالقة والجراهمة وقصى بن كلاب، لأنه تفادى التطويل في الكلام وإلا فمن المحقق أن البيت الشريف قد جدد إحدى عشرة مرة.

وقال الشيخ محمد صالح في كتابه البليغ «سبل الهدى والرشاد في هدى خير العباد» وهو يتحدث عن تجديد البيت المعظم للمرة الثامنة: بينما كانت سيدة من

سيدات قريش تبخر داخل كعبة الله المملوءة بالفيض الإلهي ومعها مجمرة خاصة، فجأة احترق ملبسها بشرارة انتشرت من المجرمة. وسرت النار التي حرقت ملبسها إلى جدران الكعبة وستائرهما وسقفها فأحرقت جدران الكعبة وخربت حوائطها ثم حدث سيل عظيم، وهدم السد الذي أقيم أمام ممر السيل ومجراه وخربه، واتجه نحو داخل كعبة الله وأضرت المياه أسس الجدران السهلة الانهيار.

وقرر زعماء قريش بعد هذا الحادث الأليم أن يجددوا بيت الله^(١) مسقفا وأن يراعوا في صنع باب معلا لبيت الله المعظم يراعى فيه والمتانة والعلو عن الأرض مقدرين ما قد يحدث من السيول وألا يسمحوا بالدخول في داخل كعبة الله لكل من هب ودب وأخذوا يجتمعون من حين لآخر لمذاكرة هذه الأمور إلا أن الاجتماعات كانت تنفض دون أن يعلنوا ما وصلوا إليه من نتائج وذلك لعدم وجود الأشياء اللازمة لتعمير البيت ولضيق ذات أيديهم.

وفي أثناء ذلك عرفوا أن سفينة كبيرة قد جنحت أمام جدة، وأنها تحمل كثيرا من الأخشاب وأنواع الرخام واللوازم الحديدية الأخرى. كما عرفوا أن ربان السفينة بارع في فن العمارة والبناء لذا بعثوا بوليد بن المغيرة ومعه بعض التجارين البارعين في حرفتهم حتى يطلعوا على صلاحية الأشياء المذكورة للبناء.

واستطاع الوليد بن المغيرة أن يقابل الربان سالف الذكر ويشتري منه حمولة السفينة بثمن بخس ثم فاتحه في أن هذه الأشياء من أجل بناء كعبة الله المقدسة وأنها ستستعمل في أعمال البناء والعمارة. وهكذا حمل معه الأشياء المشتراة وفي رفقته الربان المذكور ووصل إلى مكة.

وبناء على ما ينقله المؤرخون فإن هذه السفينة كانت قد حملت من قبل قيصر الروم وأرسلت لبناء وتعمير كنيسة في الحبشة أحرقتها قبيلة قريش أو أحرقتها طائفة من بلاد الفرس، وعين ربانها للقيام بترميم وتعمير خرائب الكنيسة.

(١) حتى ذلك الوقت لم يكن هناك سقف للكعبة المعظمة ومن ثم كانت الهدايا الثمينة المحفوظة في خزينة بيت الله تتعرض للسرقه.

وبناء على الحكمة القائلة «إذا أراد الله شيئاً هيأ أسبابه» فالسفينة قد تعرضت لعاصفة شديدة وجنحت على اليابسة في مياه جدة وهكذا وقعت في يد العربان لتكون سبباً في عمارة كعبة الله .

ولما وصل الربان المذكور إلى مكة المكرمة تفقد مع نجار من أصل قبلى كلفته قريش بمصاحبته فى بناء الكعبة المعظمة، وابتدئ فى هدم بناء البيت الشريف حتى يستطيع أن يسقفه وتخلى الأهالى عن فكرتهم فى عدم السماح بهدم البيت .

- ظهور حية كبيرة فوق الكعبة:

من الأحداث الغريبة أن حية عظيمة الجثة صعدت فوق مخزن الهدايا الذى حفره سيدنا إبراهيم، وكانت الحية تصعد فوق جدران كعبة الله وتظل هناك منحنية الرأس للشمس، والذين يرون هذه الحية يخافون من شكلها المرعب ويعتقدون أنها من حراس البيت .

وكان جسم الحية لامعاً متلألئاً ترسل أشعة إلى الأطراف كالسنة النار، وكانت تخيف من يحاول الاقتراب منها بفتح فمها المخيف وإخراج أصوات مفزعة .

وكانت الحية بيضاء الجسم وكان رأسها فى حجم جدى وزيلها أسود كسواد الغراب وكانت كبيرة الحجم مهية المنظر، وكانت تمنع الخونة والمتسلطين عند الاقتراب من الكعبة المعظمة .

وفى يوم من الأيام حينما كانت الحية فوق جدران الكعبة كعادتها ظهر طائر جسمه أكبر من العقاب، وانقض على هذه الحية الضخمة وأخذها بين براثنه وطار بها إلى ناحية الشرق وتركها فوق جبل «حجون» .

والمؤرخون الذين قصوا سبب ظهور هذه الحية قالوا: إن المخزن الذى حفره إبراهيم - عليه السلام - وسماه (أخسف) ليحفظ فيها الهدايا التى قد ترد من أنحاء مختلفة لبيت الله الأعظم لم يكن للكعبة فى ذلك الوقت سقف وكانوا يقدمون الهدايا إلى كعبة الله من الذهب والمجوهرات المرصعة وأشياء قيمة وكانت هذه طريقتهم فى التقرب من الله وإظهار الود لإبراهيم عليه السلام .

وبعد مضى الوقت امتلأ المخزن وجوف الكعبة المنير بالهدايا مما دفع بعض السفلة من الناس إلى مد يدهم لسرقة أشياء من هدايا الكعبة عندما كانت تسنح لهم الفرصة وعندما ضبط بعضهم متلبسين بالسرقه قطعت أيديهم ليكونوا عبرة للآخرين . وسقط بعضهم وهلكوا وهم يمدون أيديهم ليسرقوا الأشياء المحفوظة .

بينما ضل أقوام الجراهمة فى مكة المعظمة ورفضوا الاستماع إلى نصائح «مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض» مقتدين بشقى يسمى «مجدع» اتبع أحد التعساء إغواء نفسه ونزل فى داخل الخزانة المذكورة ليسرق الأشياء المحفوظة فيها ولحكمة ما انهارت جهات الخزينة الأربعة فجأة وهلك الشقى تحت الانقاض .

وفى رواية أخرى أن الشخص الذى دخل كعبة الله كان معه أربعة من رفقاءه وأن كل واحد منهم وقف فى ركن من أركان البيت المحترم وحملوه على أكتافهم وأنزلوه فى داخل كعبة الله وكان غرضهم أن يسرقوا الأشياء الثمينة التى فى داخل الكعبة، بأن يناول كل واحد منهم الآخر الأشياء المسروقة إلا أن الشخص الذى رفع إلى أعلى جدران الكعبة زلقت رجله ووقع على أرض المطاف ومات، أما رفقاؤه فهربوا حتى لا يقعوا فى أيدي السلطة .

وبناء على ذلك خلقت تلك الحية التى سبق ذكرها وظلت تحرس وتحفظ خزينة كعبة الله ما يقرب من خمسمائة سنة وكانت تتراعى فوق جدران الكعبة كما سبق توضيحه وتثير الخوف والدهشة فى الأطراف .

وحينما رأى أهل مكة هلاك الحية بهذه الصورة اعتبروا هذا إيذانا من قبل الله بعمارة الكعبة وسروا بذلك وابتدروا فى هدم بنائها .

وبينما كان القرشيون مشغولين بهدم الجدران ضرب أبو وهب عمرو بن عائذ بن مخزوم - خال والد مجدد بنىان الشريعة رصينة الأركان عليه أقوى التحية - على حجارة بفأسه وأخذ قطعة منها .

إلا أن تلك القطعة طارت من يد عائذ وعادت إلى مكانها القديم، وقال عائذ لعظماء قبيلته وقد اهتز وخاف من وثوب قطعة الحجر طائرة من يده إلى مكانها

القديم قائلا: يا معشر قريش يجب أن نتجنب إعمار البيت من مال الربا والفواحش والأموال المشكوك فيها والتي جمعت بالظلم ويجب أن نحرص في بناء بيت الله على إنفاق المال الحلال.

وأراد بهذا أن يبين لأهل مكة أن إعمار بيت الله يجب أن يتم بالمال الحلال، وبناء على هذا جمع أهل مكة للمرة الثانية ما استطاعوا جمعه من المال الحلال، وسلموه إلى اللجنة التي تشكلت للاهتمام ببناء وتجديد بيت الله.

ولكن مع هذا لم يكونوا واثقين من مدى حليّة النقود التي جمعوها أول مرة والتي أنفقت في سبيل تجديد بيت الله، لذا خافوا من نزول المصيبة بهم إذا شرعوا في هدم بيت الله وترددوا كثيرا، وفي النهاية خاطبهم وليد بن المغيرة قائلا: يا قبائل قريش إذا كنتم فعلا تنوون إصلاح كعبة الله فالله لا يهلك المصلحين. ثم أخذ فأساً وأخذ يهدم بمفرده جدران بيت الله. ومع ذلك لم يتجرأ أحد من قريش على المشاركة في هدم البيت وظلوا ينتظرون ما سوف يحل وليد، ولما رأوا أن وليد قد نجا من أى ضرر اتفقوا جميعا على هدم البناء وفي ختام الهدم اقتسموا بناء البيت، بناء على رأى عائذ وتعهد بنو عبد مناف مع بنى زهرة ببناء الجهة التي يوجد فيها باب الكعبة العالى كما تعهد بنو مخزوم وبنو تميم وبعض القرشيين ببناء ما بين الركنين الشرقى واليمانى^(١) وبنو عبد الدار بن قصى وبنو أسد ابن عبد العزى بن قصى وبنو عدى بن كعب بن لؤى الجهة التي فيها الميزاب الذهبى، وبنو جمح مع بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى جهة ظهر الكعبة، وشغل بعضهم بنقل الحجارة من جبل الكعبة^(٢) وحرص الآخرون على هدم البناء.

ولما هدموا جدران البناء المقدس بحثا عن الأساس الإبراهيمى ظهر حجر

(١) قد بنى هذا الركن غلام سعيد بن العاص الذى يسمى باقوم، ولما كان المذكور من أقباط اليمن المهرة فى فن العمارة لذا أطلق على هذا الركن الركن اليمانى.

(٢) جبل الكعبة فى حي الشبيكة بقرب مدفن الشيخ محمود بن إبراهيم بن آدم، وفى مكان مقابل لجبل أجياد. وكلما يقتضى الأمر ترميم كعبة الله وترميمها تؤخذ الحجارة اللازمة لها من هذا الجبل.

أخضر كعلامة^(١) للأساس القديم، ولما أرادوا أن يتزعموا ذلك الحجر الأخضر برقت نار عظيمة^(٢) هزت أرض مكة، فخافوا من تعميق الأساس أكثر من ذلك، وبنوا أسس الجدران فوق ذلك الحجر الأخضر، ووجدوا تحت الحجر الأسود الكائن في الركن الشرقي ورقة كتب عليها باللغة السريانية، وبحثوا عن واحد من طائفة اليهود ليقراها.

وكان مفاد تلك الورقة الآتى:

أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر وحفظتها^(٣) بسبعة أفلاك^(٤) حنفاء لا تزول حتى يزول أخشابها مبارك لأهلها في الماء واللبن.

يقول البعض أن ورقة أخرى وجدت في مقام إبراهيم وقد كتبت عليها الآية الكريمة: ﴿فَلَا رَفْثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٩٧).

والعبارة البديعة الآتية: مكة بيت الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحل لها رجل من أهلها.

وأيد هذا المعنى الشامل ما قاله النبي - ﷺ - في يوم فتح مكة بما أن الله - سبحانه وتعالى - حرم مكة المكرمة فلا يجوز لأحد من قبلى ولا من بعدى أن يحلها إلا أنها قد أحلت لى ساعة من نهار.

ولما ارتفعت جدران كعبة الله من جوانبها الأربعة وحن وقت وضع الحجر الأسود فى مكانه ظهر نزاع شديد بين القبائل، وصاح أفراد كل قبيلة قائلين نحن سنضع الحجر الأسود فى مكانه، وأخذ النزاع صوراً مختلفة من الحوار والمناقشة

(١) أن الحجارة التى أسس بها إبراهيم - عليه السلام - الكعبة خضراء اللون مثل الزمرد ولعته وفى شكل وحجم سنم الجمل.

(٢) إن هذه الشعلة قد برقت من تحت الحجر الأخضر المسمى حجر إسماعيل، وقد اهتزت من شدة اشتعالها جميع بيوت مكة المكرمة.

(٣) كتب فى نسخة أخرى «حفظتها».

(٤) سقطت كلمة أفلاك فى نسخة أخرى.

والمشاجرة حتى أطلق على قبائل (بنى عبد الدار، بنى عدى، بنى مخزوم، بنى سهم، بنى جمح) لقب لعقة الدم.

واستمر الخصام بين القبائل فى هذه المشكلة خمسة أيام، ولكن أبى أمية بن المغيرة^(١) وكان أكبر المعمرين فى قريش كلها ومن حكماء قومه، جمع عقلاء القبائل واقترح عليهم بأن يحكموا فى هذا الموضوع أول الداخلين من باب الصفا وعلى قول من باب بنى شيبه، فى وقت محدد يعينونه ووافق على هذا الاقتراح عقلاء القبائل.

وقد حاز هذا الاقتراح حسن القبول لدى القبائل الأخرى أيضا، وحدد الميعاد وجلس القوم وعيونهم صوب الباب ينتظرون، وكان أول من دخل فخر العالم وسبب راحة الأمم ﷺ.

وفرح المترصدون بقدوم سلطان الرسل الموسوم باليمن ورطبوا ألسنتهم بذكره إذ قالوا هذا محمد الأمين رضينا به ثم قالوا له: إننا أقسمنا على أن يكون أول الداخلين حكما لفض النزاع بين القبائل، وبما أنك كنت أول الداخلين سنقبل رأيك الخاص لحل هذا الخلاف. وبهذه الطريقة نقلوا للذات النبوية العالية خلاصة ما حدث بين القبائل.

وبما أن الرسول - ﷺ - كان معروفا بين القبائل بالصدق والاستقامة كانت قريش تحيل إليه حل ما عجزوا عن حله من القضايا.

ولما استقر منشأ النزاع فى ضمير النبى - ﷺ - وفهمه جيدا وضع الحجر الأسود فى داخل ثوب^(٢) وجعل رؤساء القبائل الأربع العظيمة يمسك كلا ركنها من أركانه وهم:

عتبة بن ربيعة، زمعة أبو حذيفة بن المغيرة، وقيس ابن عدى ثم حمل الحجر

(١) وكان أبى أمية مشهورا بين قومه بفرط الكرم والجدود حتى أنه كان يكفى زاد أصحابه فى الرحلات، لذا أطلق عليه لقب زاد الركب.

(٢) يروى عن ثقة أن هذا الثوب كان جبة الرسول ﷺ.

الشريف ووضعه فوق الثوب فرفعوه جميعا حتى إذا بلغ موضعه وضعه بيده الشريفة، وهكذا أرضى صنائيد القبائل وأسكنهم.

وكانت قريش عندما شرعت فى هدم كعبة الله أخرجت الصنم الكبير هبل من خزانة بيت الله حيث كان ركزه عمرو بن لحي ابن قمعة، ونقله إلى مكان قريب من مقام إبراهيم ونصبته هناك وفى أثناء إتمام عمليات البناء نقلوا هبل من حيث كان منصوبا إلى مكانه القديم فى الخزانة التى فى داخل بيت الله، ونصبوه هناك ثم أخذوا يرسمون فوق جدران الكعبة المعظمة فى الداخل والخارج صورا كبيرة، وكان بينها صور الأنبياء العظام والملائكة الكرام.

إن فاتح أقاليم الرسالة عليه أقوى التحية قد محا وأزال ما كان منصوبا فى داخل الكعبة أو خارجها من الأصنام والأوثان، وما كان على جدرانها من الصور كلها يوم الفتح الميمون، وأمر بإزالة صورتى إسماعيل وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام - اللتين كانتا مرسومتين فوق طلاء الكعبة فى الداخل.

وكان المشار إليهما مصورين وهما يمسكان فى أيديهما أزالام الميسر. ولما كان النبى - ﷺ - يعرف أن إبراهيم وابنه إسماعيل لا يمارسان الميسر، دعا على قريش التى صورتها بهذا الشكل إذ قال «قاتلهم الله». ثم أمر بأن يوضع هبل وهو عبارة عن حجر كبير - خارج باب السلام.

ويروى أن أجزاء المنكسرة أصبحت موطأ القدم فى عتبة باب السلام.

إننى قد رأيت هذه العتبة ودست عليها. ولم يبق له ما يشبه الصورة أو الوجه لذا أتردد فى قبول هذه الرواية؛ لأن الصنم المسمى بـ «هبل» كان منحوتا من العقيق الأحمر كما سبق ذكره فى بحث كيفية دخول الأصنام فى أرض الحجاز، وكانت يده اليمنى مقطوعة عندما أحضره عمرو بن لحي من أرض الشام لذا ركب له أهل مكة يدا من ذهب خالص.

صور الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة

كان علماء عبدة الأصنام يهتمون بصنع تماثيل الأنبياء على أكمل وجه

ويحفظونها ويتوارثونها جيلا بعد جيل . ويعتقدون أن هذه الصور تطابق أشكال
وشمائل الأنبياء تمام المطابقة .

وبناء على زعم هؤلاء العلماء واعتقادهم أن الصور الموجودة فى خزائهم قد
حصل عليها النبي دانيال بواسطة ذى القرنين ورسم وصور كل واحدة منها على
حدة .

قد وجد ذو القرنين هذه الصور فى مغارة من أرض المغرب، ثم صرما
بخرقه^(١) حريرية ثم حفظها، وانتقلت تلك الصرة إلى يد النبي دانيال - عليه
سلام الله المتعال - فنقل صور الأنبياء إلى ألواح متعددة فتكاثرت عددها .

وقد يصدق - إلى درجة ما - تطابق الصور القديمة التى توارثها الملوك، صور
الأنبياء وشمائلهم، إلا أن الصور التى رسمها القرشيون على طلاء داخل بيت
الله لا يمكن أن تطابق شمائل الأنبياء والملائكة .

قد انتقلت عادة توارث صور الأنبياء فيما بعد إلى سلوك عبدة الأوثان، وتعود
كل واحد منهم أن يحفظ هذه التصاوير فى خزانة ولا يريها لأحد .

تأمل الحكاية الآتى ذكرها عن الصور التى توارثها قياصرة^(٢) الروم وكانت
لصورة الهيكل النوراني المحمدى وصورتى الشيخين المكرمين .

قال دحية بن خليفة الكلبي حامل الرسالة النبوية السابقة إلى هرقل^(٣)
الرومى، كما هو مسطور فى السيرة النبوية ذات الرائحة البنفسجية: عندما حملت
الرسالة النبوية الداعية للهداية وجدت قيصر الروم فى دمشق، وانتهزت وقت
خلوه من المشاغل واعتدال مزاجه وأتيت برسالتى .

وتلقى هرقل الرسالة النبوية السعيدة بتعظيم فوق العادة وتوقير شديد، وقبل

(١) تطلق خرقة على قطعة قماش .

(٢) يطلق لقب القياصرة على ملوك الروم وهى جمع كلمة قيصر . ومعنى القيصر مشقوق، قد ماتت أم
القيصر الأول وهى حامل وأخذ الطفل بعد شق بطنها، وبعد جلوسه على العرش أطلق على ملوك الروم
لقب قيصر .

(٣) اسم ملك الروم المعاصر للنبي ﷺ .

الخاتم الذى فوقها. ثم فتحها وقرأها ووضعها فوق كرسى بجانبه، وكان هذا الكرسى خاصا لوضع الكتب المقدسة.

ثم استدعى البطارقة وعلماء النصارى وجمعهم، ثم صعد فوق كرسى لإلقاء خطبة - وفق آداب تلك العصور - وألقى مقدمة مثيرة مشوقة أجبرت الحاضرين للاستماع ثم قال: يا بطارقة النصارى إن هذه الرسالة الشريفة التى زينت يدي ونالت احترامى رسالة من قبل نبي آخر الزمان ومن أحفاد إسماعيل الذى بشرنا بظهوره المسيح - عليه السلام - وأتى فى كلامه بكثير من الأقوال التى تصف ما يتحلى به نبينا من المكارم الأخلاقية.

إن أقوال هرقل كانت ذات تأثير سيئ على الحاضرين، إذ قام البطارقة من أماكنهم معترضين بتهور، وتجروا على السير نحو ملكهم هاجمين، فلما رأى هرقل أن البطارقة غير مستعدين للاعتراف بنبوة محمد والتصديق بها، أراد أن يُسكن غضبهم وتخلّى عن الحمد والثناء وقال: لا، لا إنما أردت بهذا الكلام التأكيد من مدى تمسككم بدين عيسى ومدى ثبات عقيدتكم فيه.

إننى لا أريد أن أصدق بمحمد، كما أننى لا أحثكم على قبول الإسلام دينا، وإننى قد سررت إذ رأيت مدى صلابة عقيدتكم. الرجل الحق يجب أن يثبت فى دينه مثلكم. . . إننى أحبكم.

وهكذا أسكن غضبهم وفى اليوم الثانى أدخلنى فى حجرة خالية ووجه إلى أسئلة وتلقى إجابة، ثم أدخلنى فى حجرة واسعة مزينة.

وكانت هذه الحجرة بيت الأصنام، وتحتوى على ٣١ قطعة من التماثيل وأشياء هرقل لهذه الصور وقال: لأى صورة من هذه الصور يشبه نبيكم؟

وبينما أجيل النظر فى الصورة جذبت نظرى صورة تشبه أجمل الأنبياء فقلت إن هذه الصورة تشبه نبي الإنس والجن، وكانت هذه الصورة قد رسمت بشكل كأنها توجه خطابا لشخص ما فازدت عجبا لذلك. ثم أشار هرقل إلى صورة منصوبة على يمين الصورة السابقة، وسألنى: هيكل من هذا؟ فقلت إنه رجل من

أمة محمد ويطلق عليه أبو بكر؛ لأن الصورة كأنها نفس أبي بكر. ثم أشار إلى الهيكل القائم على الجهة اليسرى من الصورة التي تشبه النبي - ﷺ - وسألني هيكل من هذا؟ فأجبت له أنها صورة رجل شهير يسمى عمر بن الخطاب؛ لأنها كانت تشبهه شبا كبيرا وكأنها ذاته.

ثم قال لى هرقل: بعد أن تلقي منى الإجابات السابقة إنه قد ذُكرَ في الإنجيل أن الإسلام سيبلغ كماله بمعاونة هذين الرجلين. وقال: جاء في الإنجيل أن الناقص من الدين سيبلغ حد الكمال بمعاونة المشار إليهما. وقد أعادني معززا إلى المدينة دار السكينة.

وبعد فترة مثلت أمام النبي - ﷺ - وحكيت ما رأيته من هرقل الرومي، فقال حضرة النبي الصادق القول:

«لقد قال هرقل الصدق فالله سيعز الإسلام بأبي بكر وعمر، وسيوفقهما في الحصول على الفتوحات العظيمة».

.حكاية:

كان الحكيم بن حزام^(١) إذا اجتمع في مجلس من المجالس مع قومه، وانتقل الحديث لذكر هرقل كان يقول: قبل أن أتشرف بالإسلام، ذهبت إلى الشام في تجارة، ولم يكن سلطان الأنبياء - عليه أعظم التحية - قد هاجر بعد إلى المدينة المنورة، وكان بصحبتى «أمية بن الصلت بن عبد الله بن ربيعة» وهو من الطائف، وعندما علم هرقل أننا من أهل مكة استدعانا وقال: من أى قبيلة أنتما؟ وهل لكم صلة قرابة بمحمد بن عبد الله - ﷺ - صاحب دعوة النبوة؟

فأجبت: نحن من قريش، ومحمد الأمين من أبناء عمومتنا ويتصل نسبنا به في

(١) حكيم بن حزام ابن أخى سيدتنا خديجة الكبرى رضى الله عنها، وقد ولد داخل الكعبة قبل واقعة الفيل بثلاثة عشر عاما، وقد أمضى نصف عمره فى الإسلام والنصف الآخر فى الجاهلية، وعاش عشرين ومائة عام حيث توفى فى العام الستين من الهجرة فى المدينة المنورة. ويروى أن سيدنا على أيضا ولد داخل الكعبة المشرفة ولكن هذه الرواية لا أصل لها.

انظر: الإصابة ٣٢/٢.

الدرجة الخامسة. فقال هرقل: أتجيئونني عما أسألكم عنه فيما يتعلق بهذا الرجل بدون خلاف؟ وهل أنتم ممن يصدقونه ويؤمنون بدعوته لله؟ فأجبتة عن سؤاله الثانى وقلت: ونحن ممن يرفضونه ويرفضون أحكام دينه ودعوته.

لكننا لن نكذب فى حضورك وسنجيبك بصدق على كل ما تسأل عنه، وأقسمت بألّهتنا بأننى سأقول الصدق.

وسأل هرقل عن أحكام الشريعة المحمدية الغراء، فلما أجبناه إجابة واحدة لا خلاف فيها، قام من مكانه، وسار إلى الأمام وذهبنا معه كذلك. وكان بداخل قصره كنيسة مزينة فأمر بفتح بابها، واصطحبنا معه لداخلها.

وكانت هذه الكنيسة حجرة ملكية فخمة لا نظير لها، ويوجد فى وسطها صنم كبير مغطى بأستار من الذهب وموضوع فوق كرسى مرصع، رفع هرقل الأستار وقال: هذه الصورة صورة من؟!

فأجبناه: لا نعرف! لم نر صورة كهذه من قبل.

فقال: إنها صورة وجه أبى البشر.

ثم أخذنا من غرفة إلى أخرى وأرانا تماثيل مختلفة، وسألنا هل الشخص الذى يدعى النبوة يشبه إلى واحد من هذه القبائل؟

وكانت هذه التماثيل تماثيل أنبياء مختلفة، وكانت مغطاة بستائر ثمينة مزركشة وجميلة.

وبما أننا لم نر تماثلاً يشبه الذات النبوية العالية أجبناه بقولنا: «إنها لا تشبه محمد بن عبد الله عليه السلام».

وبعد ذلك، أمر بفتح قاعة كبيرة ومزينة أيضاً، وهى أكبر من كل القاعات التى رأيناها من قبل وكان فى وسطها تماثيل مغطى ذو هيئة نورانية، فكشف التماثيل بأن رفع الستار وسأل: من يكون هذا؟ قلنا: نعم.

إن هذه الصورة تشبه محمداً الأمين الذى يدعى النبوة فى بلدنا. وفى الواقع أنها كانت صورة لا تختلف عن شكله أبداً.

بناء على هذا وجه هرقل خطابه إلينا، وقال:

(إن هذه التماثيل التي شاهدتموها قد نحتت قبل ألف سنة، لو كان هذا التمثال هو تمثال محمد الأمين الذي ذكر تماما فمما لاشك فيه أن الرجل نبي مرسل. فعند وصولكما إلى مكة فعليكما بتصديق نبوته بلا تردد. وإذا قدر لى لقاء فسوف أغسل رجله المباركتين وأشرب ماء غسلهما).

حكاية:

كان «جبير بن مطعم» من الصحابة^(١) الكرام، ومن أولاد نوفل القرشى، ويتصل نسبه بعبد مناف الجد الثالث للنبي ﷺ، وقد قال: كنت قد ذهبت إلى الشام في بدء البعثة النبوية، فاستدعاني رئيس أساقفة نصارى الشام وسألنى: أتعرف الرجل الأمى الذى يدعى النبوة فى بلدتكم؟ فلما أجبته: نعم! إنه ابن عمى! أمسكنى من يدى وأدخلنى غرفة مليئة بصور الأنبياء المزينه، وأشار إلى الصور واحده تلو أخرى وسألنى: أيمكن أن ترى بينها صورته؟ فلما أجبته: بالنفى أخذنى إلى حجرة أخرى، وكانت بيت التماثيل وكان فى داخلها تماثيل مزينة ومجسمة، وسألنى رئيس الأساقفة: يا ترى هل يوجد تمثال مشابه لصورة ابن عمك؟! فلما تأملنا رأيت تماثلا نورانيا على شكل رسول الله ﷺ، وبجانبه صورة تشبه الصديق وصورة أخرى بجانب صورة الصديق تشبه عمر بن الخطاب فأشرت إلى الصورة، وقلت هذه الصورة تشبه صورة حضرة محمد ﷺ.

ولما استفسر عن الصورتين الأخرين؛ أجبته قائلا: هذا ابن عمى ابن أبى قحافة وذلك ابن عمى عمر بن الخطاب. بناء على ذلك أنهى كلامه قائلا: إن هذا الرجل الذى ظهر فى بلدتكم مدعيا النبوة، أشهد أنه المبعوث الحق والرسول المطلق وهذان خليفته.

حكاية:

تروى حكاية ذات عبر حدثت فى عهد أبى بكر الصديق؛ إذ بعث فى أثناء خلافته - رضى الله عنه - هشام بن العاص سفيرا إلى إمبراطور الشرق هرقل، وقد تحدث هشام عن ماهية هذه السفارة وحقيقتها.

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢٣٥، والخبر فى دلائل النبوة لليهقى ١/ ٣٨٤-٣٨٥.

قال هشام بن العاص^(١): كنت أرسلت أنا وصديق لى من قبل أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - لدعوة هرقل إلى الإسلام، وعندما وصلنا إلى المدينة عاصمة إمبراطورية هرقل أنزلونا فى قصر غاية فى الفخامة، وبعد ثلاثة أيام استدعانا هرقل، وأجرى لنا مراسم الاستقبال، وفى أثناء الحديث أمر بإحضار صندوق كبير جدا ومزين بالذهب ذى أدراج كثيرة، ففتح أحد هذه الأدراج وأخرج منه لوحة حمراء اللون ملفوفة بقطعة قماش سوداء. وقد رسم عليها صورة شخص حسن الطلعة طويل القامة، فأشار هرقل إلى اللوحة المذكورة، وسألنا هل تعرفون هذا الرجل؟

أجبتاه بالنفى. فقال: إنها صورة سيدنا آدم عليه صلوات الله الأعظم. وكانت هذه الصورة لرجل أحمر الوجه واسع العينين، ذو قامة طويلة شعره مفرق إلى جانبيين وقد جدل بصورة منسقة، وبعد أن وضع هرقل صورة سيدنا آدم فى مكانها فتح درجا آخر من أدراج الصندوق، وأخرج لوحة أخرى ناصعة البياض لامعة وملفوفة داخل قطعة قماش سوداء. وكانت الصورة المرسومة فى هذه اللوحة، صورة لرجل أحمر العينين فسأل هرقل: صورة من هذه؟ وكانت الإجابة بالنص: لا نعرف!!

فقال: إنها صورة سيدنا نوح - عليه السلام - وقد رسمت هذه الصورة لرجل أبيض اللون، عيناه تملان إلى اللون الأحمر كبير الرأس، كثيف اللحية. وفى النهاية فتح هرقل درجا ثالثا، وأخرج لفافة قماش سوداء، بداخلها لوحة بيضاء. وكانت اللوحة تحوى صورة رجل أبيض البشرة، وضاء الوجه وكأنه يتسم وهو فى أبهى صورة.

وسأل هرقل: أتعرفون هذا الرجل؟ ولما أخذ الرد بالنفى، قال: هذه صورة إبراهيم عليه التحية والتعظيم، ثم فتح درجا آخر، وأخرج صورة صاحبها فائق الجمال وساطع الأنوار، وتذكرنا بمحمد ﷺ.

وقد بكينا فى أول مشاهدتنا للصورة كأننا رأينا حضرة صاحب الرسالة القدسية. وقد أظهر هرقل لهذه الصورة توقيرا وتعظيما أكثر من الصور الأخرى.

(١) الخبر فى دلائل النبوة ١/٣٨٦-٣٩٠ بطوله، وانظر أيضا تفسير ابن كثير ٣/٥٦٤-٥٦٧.

وعندما سأل هل تعرفون صاحب هذه الصورة؟ وقد تلقى الجواب منا إذ قلنا: إن هذا التمثال اللطيف يشبه صورة محمد عليه السلام، قال: الله يعلم أنه هو ونهض من مكانه وجلس عدة مرات. ثم قال: إذا كانت هذه الصورة هي الشكل المبارك لمحمد - عليه السلام - فاعلموا أن دينكم هو الدين الحق.

وأراد أن يبين شك في كون هذه الصورة لمحمد - ﷺ - إذ نطق بهذه الجملة. ولكننا قلنا له: يا ملك بلاد الروم إن هذه الصورة صورة الحبيب ذى الكبرياء عليه أفضل التحيات ولاشك في ذلك، وبها الكثير من شمائله الشريفة، حتى إننا ظننا أنفسنا في حضرته السعيدة فائضة النور. وبهذه الإجابة زال شك هرقل إلى درجة ما، ولكنه لم يجرؤ على تصديق أن هذا التمثال صورة مشابهة لرسول الله العالى المقام، وظل يوجه إلى وجهنا نظرات بلهاء لمدة ساعة ثم أفاق، واستجمع عقله وسألنا وقد ظهرت عليه الحيرة:

احذرا أن تكونا قد أخطأتما في تمييز صاحب الصورة إذ قد تكون لشخص آخر. ثم فتح درجا آخر وأخرج منه تمثال رجل غائر العينين متراكب الأسنان مقلص الشفتين. وكانت هذه الصورة تبدى علامات الغضب والحدة وتبعث الخوف فى مشاهديها. وإذا بها صورة سيدنا موسى بن عمران عليه صلوات الرحمن. وبجانب صورة موسى - عليه السلام - صورة أخرى تشبه صورة موسى الذات العالى إلى حد ما. أخبرنا هرقل أنها صورة هارون بن عمران - عليه سلام المنان - ثم فتح ثمانية أدراج درجا بعد درج، وأخرج من كل واحد منها صورة ملفوفة فى قطعة حرير سوداء، وقال إنها الأشكال المنيرة لحضرات سادتنا: لوط - إسحاق - يعقوب - إسماعيل - يوسف - داود - سليمان - عيسى عليهم السلام.

وكانت صورة سيدنا لوط داخل صرة من الحرير الأبيض، وتبدو صورته جميل الوجه عليها علامات الغضب. كما كانت صورة إسحاق داخل صرة بيضاء وقد رسمت بلون مائل للحمرة، وكانت صورة يعقوب - عليه السلام - داخل صرة بيضاء وكانت تشبه شكل إسحاق المبارك إلا أنها كانت تتميز بوجود خال

أسود اللون فى الشفة السفلى . أما صورة إسماعيل - عليه السلام - فقد كان أبيض اللون، حسن الوجه، أقى الأنف، متناسق القوام، وكان يلمح فى وجهه السعيد نور محمد ساطع اللمعان .

وقد وصف هرقل هذه الصورة الجميلة أن صاحبها إسماعيل - عليه السلام - جد نبيكم - عليه أفضل الصلاة والسلام .

وكانت صورة يوسف - عليه السلام - ساحر زليخا فى صرة بيضاء، وكان فى الخلقة يشبه آدم - عليه السلام - تماما لكنه فى صورة أجمل، متناسق الأعضاء حتى إن من يرونه يقولون: لا بد أن تكون شمس الملاحظة هذا النور .

وكانت صورة داود - عليه السلام - داخل صرة بيضاء، وقد بدا فيها أحمر اللون ضخم البطن متقلدا السيف .

وإذا جئنا إلى صورة سليمان بن داود فنجد ممتطيا جوادا ضخم الأليتين، طويل الرجلين، وكانت هذه اللوحة ملفوفة بقطعة حريرية بيضاء .

أما هيكل عيسى - عليه السلام - فكان ملفوفا فى داخل صرة بيضاء، وكانت صورة ذاته الشريفة تبديه فتيا صلبا أسود اللحية، كثيف الشعر حسن الوجه .

وكنا نشاهد الصور المذكورة واحدة تلو الأخرى، ونظر فى كل واحدة منها بكل رقة بالبصر والبصيرة . وغرقنا فى بحر الحيرة من شدة التعجب والاستغراب . ولم نجرؤ على القول بأن هذه هى صورة الأنبياء المشار إليهم، قلنا للملك: أيها الملك، كيف حصلتم على صور الأنبياء هذه؟!

فإذا ما نظرنا إلى الرسم اللطيف لسيدنا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - نبينا رأينا أنها تحمل نفس شمائله الشريفة؛ فلا بد أن تكون كل هذه الصور مطابقة لصور الأنبياء مع العلم أنه من الصعب إيجاد دليل قوى وسند يعتمد عليه الحكم على هذا الأمر، وبهذه العبارة لم نصدق ولم نكذب صحة تلك الصور المشروحة .

وعندما رأى هرقل ترددنا الواضح فى تصديق حكاية الصور قال: إن هذه الصور بقيت من الأزمنة الغابرة، وإن كان من الصعب إثبات مدى مطابقة الصور لشكل أصحابها ما لم نرهم، إلا إننى عندى البينة الكافية لتأكيد صحة هذا الأمر.

يجب ألا ترتابوا فى أن الصور الشريفة للأنبياء ذوى الشأن الذين ذكرت أسماؤهم هى لهم. فإن سيدنا أبا البشر - عليه سلام الله الأكبر - أراد رؤية من اتصفوا بخير الصفات والذين ستيبوأون مقام النبوة من أولاده وأحفاده. ولما عرض أبو البشر ما فى ضميره على عالم السر والخفايا، أنزل الرحمن من عنده الصور المذكورة مرسومة على لوح مزين لحكمة لا يعرفها سواه.

وقد وضع سيدنا آدم اللوح المذكور فى مغارة فى بلاد المغرب بعد رؤيتها وهال عليها التراب والحجارة إلى أن وجدها ذو القرنين. ولفها فى قطعة من الحرير وحفظها، ولهذا انتقل اللوح المذكور مع قطعة الحرير هذه إلى يد النبي دانيال - عليه السلام - وقام المشار إليه برسم كل واحدة منها فى لوحة مستقلة، وبذلك نجح فى عمل صور كثيرة للأنبياء.

إن الذى ابتهجتم برؤيته وقررتم عينا بمشاهدته من الصور فجميعها من جملة الصور التى رسمها النبي دانيال، وقد ورثها الناس كابرا عن كابر إلى أن وصلت إلينا فى نهاية الأمر. وهكذا طيب خاطرنا وأعادنا إلى وطننا.

ورغم أننا لم نصدق أن الصور التى رأيناها عند هرقل تشبه شمائل الأنبياء الكرام، إلا أن الأمر ظل يتفاقم فى ذهننا وقد اضطررنا أن نعرض الأمر على الخليفة حتى نستوضح حقيقة الأمر منه.

وحينما وصلنا إلى المدينة المنورة توجهنا للقاء حضرة الخليفة الصديق وقبل أن نتحدث بما حدث أخبرنا بكل ما حدث أمام هرقل من مشاهدة الصور وما تحدث به بلا زيادة ولا نقصان وبعد ما بكى قليلا قال: إن طوائف اليهود وطوائف النصارى قد قرءوا فى كتبهم صفات النبي - ﷺ - ونعوته ولكنهم تمردوا وعاندوا ولم يؤمنوا به.

إن خلاصة هذه الحكاية مكتوبة فى كتاب دلائل النبوة منقولاً عن الإمام البيهقى الذى نقله عن أبى أمامة الباهلى وهو قد نقله عن هشام بن العاص الأُموى^(١).

وقد نقل عن كعب الأحبار أن حضرة آدم - عليه السلام - حينما اقترب أجله، استدعى أبناءه الذين كانوا على قيد الحياة وأراهم تابوتا، ونظر أبناؤه إلى التابوت، فوجدوا به أدراجا كثيرة صغيرة بعدد الأنبياء الكرام - على نبينا وعليهم السلام - والدرج السعيد الذى فى نهاية الأدراج، كان خاصا بخاتم الأنبياء وكان تحفة لامعة الأنوار مصنوعا من الياقوت الأحمر.

وفى داخل البيت كان إمام الأنبياء - عليه وعليهم السلام - قائما يصلى وعن يمينه الصديق وعن يساره الفاروق ومن خلفهم ابن عفان وأمامهم صاحب القرآن على بن أبى طالب - رحمهم الله، ورضى عنهم أجمعين.

وكان مسطورا على جبهة الصديق الكريم عبارة: «هذا أول من تبعه من أمته» وعلى الجبين المبارك للفاروق عبارة «قرن من حديد، أمين شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم» وعلى جبهة ابن عفان «ثالث الخلفاء» وعلى جبهة على بن أبى طالب «هذا أخوه وابن عمه المؤيد بنصر الله» وعلى قول «ليث كرار غير فرار يحب الله ورسوله» وكان يرى فى جوانب هؤلاء المهاجرون والأنصار النقباء والخلفاء الآخرون.

صورة دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز:

إن القبائل التى تقطن الحيم حول كعبة الله عبدة أصنام مصنوعة من الأحجار والأشجار، والزمن الذى مالوا فيه إلى الضلالة كان فى عهد (أردشير بن شابور) من ملوك الفرس وكان «عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف» الذى لا دين له حاكما لأرض الحجاز المقدسة.

وقد نقل الإمام «الراشطى» أن عمرو بن لحي بن قمعة هو الحارث بن عمرو بن مزيقيا بن عامر ماء السماء بن الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن أزد

(١) دلائل النبوة للبيهقى ١/٣٨٦-٣٩٠.

من نسل زيد بن كهلان بن سبأ، وأن نسبه هو نهاية نسب أفراد قبائل بنى خزاعة. ورغم هذا فإن بعض علماء النسب انتقدوا هذه الرواية المنقولة عن الراشطي وخرجوها قائلين: إن هذه الرواية رأى من يدعون أن خزاعة من أهل اليمن. ورفعوا سلسلة نسب عمرو إلى إلياس بن مضر.

والواقع أنه عندما توفى قمعة بن خندف كانت زوجته حاملا وتزوجت من الحارث بن عمرو مزيقيا وبعد فترة ولدت لحى وتربى لحى فى كنف الحارث ونسب إليه.

وعلى هذا يكون لحى ربيب الحارث بن عمرو مزيقيا وابن قمعة بن إلياس بن مضر. وهذا القول هو المرجح وأكثر صحة من القول الآخر.

واسم لحى بن قمعة ربيعة وجدته لأبيه: خندف المسماة بليلى بنت حلوان بن عمران بن الحان بن قضاعة وزوجها هو إلياس بن مضر.

أما سبب إطلاق اسم خندف على ليلى فقد ذكر فى البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب. وقد انفصلت قبيلة خزاعة من عمرو بن لحى وبما أن ليلى «خندف» وكانت والدة قمعة أطلقت أفراد قبيلة خزاعة على ليلى اسم الأم.

قال المؤرخون الذين ذكروا سبب إطلاق اسم خزاعة لبني عمرو قد هاجر أهل سبأ عقب وقعة سيل العرم من بلادهم، وهاجر كل جماعة إلى مكان ما واشتهروا باسم ذلك المكان.

وفى ذلك الوقت استقر أولاد وأحفاد مازن الأزدي بن الغوث بن ليث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فى جانب ماء اسمه غسان^(١) القريب من المكان المسمى «مشلل» واختاروا الإقامة فيه قبل بنى مازن، ولما انقطع وانجزعت جماعة عمرو بن لحى عن القبائل الأخرى، وسكنوا بأطراف مكة المكرمة قيل لبني عمرو بن لحى بنو خزاعة.

(١) هناك رواية تقول إن الماء المسمى «بغسان» من مياه سد مأرب وإنه اسم ماء منسوب لأبناء مازن بن الأزدي بن الغوث ولذلك يطلق على بنى مازن الغساني إلا أن الرواية الأولى أصح.

الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام هم أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن عبد الله بن الأزد بن الغوث .
وعندما أخرج بنو خزاعة قبائل الجراهمة من مكة المعظمة بالقوة وأبعدهم إلى بلاد اليمن اتخذوا عمرو - مستحق الجمر - رئيسا لقبيلتهم واجتهدوا على أن ينفذوا كل ما جاء به من البدع والخزعبلات عن طيب خاطر^(١).

إن الأسباب الرئيسية لرضا بنى خزاعة العمل بما كلفهم به عمرو دون تفكير ترجع إلى تكريمه للقبائل البدوية وجوده معهم وإلباسه الخلع للعظماء والوجهاء في مراسم الحج .

وكان عمرو بن لحي، الذى نال رئاسة بنى خزاعة يسافر إلى بلاد الشام فى أثناء حكومته . وقد رأى أحفاد العمالقة يعبدون الأصنام فى مدينة مأرب من أرض البلقاء التى استوطنوا بها فسألهم : ما أسباب عبادتكم لهذه الجمادات؟ فأجابه عبدة تلك الأصنام بقولهم : إنها مجموعة من الآلهة صنعت على غرار الهياكل العلوية والصور البشرية وإنما نستمر فى عبادتها واحترامها وتوقيرها وقد اتخذناها آلهة لنا وعلى هذا فهى تستجيب لتضرعاتنا، فإذا ما طلبنا منها مطرا فى أى وقت تنزل مطرا وإذا استعنا بها فى حاجة من حوائج الدنيا فتحقق مطالبنا؛ فصدق قولهم وطلب منهم أن يعطوه واحدا منها قائلا: إذا أعطيتموني واحدا منها أحمله إلى أرض الحجاز وأدعو بنى إسماعيل لعبادته وأرغبهم فيه، فقاموا على الفور بإهدائه صنما ثقيلا يسمى هبل .

وفى رواية أخرى أن إساف ونائلة من الأصنام التى أهديت إلى عمرو بن لحي من قبل العمالقة .

وقد سر عمرو بن لحي إذ أهدى له إله وأخذ هبل المذكور ووضع فى المخزن الذى صنعه إبراهيم لحفظ الهدايا المقدسة لعتبة الكعبة الشريفة، وعلى قول آخر ركزه فوق جبل الأخشب^(٢) وطلب من الأهالى أن يظهروا له الاحترام اللازم ويتعبدوا له ليلا ونهارا .

(١) إن هذه الكيفية قد حررت بالتفصيل فى المكان الخاص به من كتاب مرآة المدينة .

(٢) هذا القول ضعيف .

وقد عرف فاضل أبو الفوز البغدادي في كتابه القيم المسمى «سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب» أصل هبل الذي اعتقد عمرو في ألوهيته. وقال: إن هبل الذي حمله عمرو بن لحي من الشام إلى مكة كان تمثالا لإنسان عجيب الشكل. وكان مصنوعا من العقيق إلا أن يده اليمنى كانت مكسورة.

وقال إن قريشاً الذين صدقوا ألوهيته قاموا بتركيب يد من الذهب له وأخذوا يعبدونه مظهرين له الاحترام والتوقير والإخلاص.

قال ابن إسحاق في تعريف هبل: هبل صنم كبير مصنوع من العقيق على شكل إنسان لكن يده اليمنى كانت مكسورة ومفقودة، ولما رأى آل قريش أنه بلا يد صنعوا له يدا من ذهب وركبوها فيه.

وكان لهبل خزينة خاصة لوضع الهدايا التي تقدم له وتحفظ فيها. وكذلك كان له سبعة أقداح لإجراء القرعة^(١) ولا يمكن للذي يريد إجراء القرعة استخدام القداح ما لم ينذر بذبح مائة من الإبل. انتهى.

وبعد ذلك بمدة شاع خبر هبل الذي جلبه عمرو - متسحق الجمر - بين مشركي البدو، حيث أخذوا يقرؤون ويعظمون ذلك الصنم بتحريض من عمرو وتشجيعه وأشركوا هبل المصنوع من الحجر بخالق الأفلاك - تنزهت ذاته عن الشرك - وهكذا كفروا.

ورغم أن مشركي العرب قد اعتنقوا الكفر فقد ظل بينهم بعض الأفراد محافظين على دين الخليل وتمسكوا به.

وكان هؤلاء يقومون بتعظيم بيت الله، والطواف حوله وأداء الحج ويخرجون لأداء العمرة ويصعدون عرفات والمزدلفة ويذبحون الأضاحي ويعتمرون اقتفاء لآثار سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل - عليهما السلام.

وكانت دعوة عمرو بن لحي قبائل العرب البدو لعبادة الأصنام قبل البعثة

(١) توجد معلومات وافية حول هذا الموضوع في البحث الخاص بالقرعة عند العرب في الجاهلية.

النبوية بألف عام وعلى قول بثلاثمائة وخمس وعشرين سنة، وبعد فترة قصيرة كان كل ساكنى منطقة الحجاز من أولاد إسماعيل - عليه السلام - قد اتجهوا إلى عبادة الأصنام المنحوتة من الأشجار والأحجار ولهذا فإذا خرج أى واحد منهم أو أى قبيلة خارج ميقات كعبة الله كان يأخذ معه - بهدف تعظيم بيت الله - حجرا من المسجد الحرام على النحو الذى سنذكره مفصلا فيما بعد - ويضعه فى الأماكن التى ينزل فيها ويأخذ فى الطواف حوله كما كان يطوف بالكعبة.

وبمضى الوقت غاب عن الذهن سبب تعظيم الأحجار واستبدل دين الخليل بعبادة الأصنام وتحول الناس عن عبادة خالق العباد إلى عبادة الأصنام.

وبعد ذلك اهتم الذين غيروا دينهم بتعظيم حجارة المسجد الحرام حتى إنهم فاقوا فى عبادة الأصنام الضالين من أفراد الأمم الأخرى الذين يعبدون الأصنام.

ويبلغ الأمر حداً حتى إن قبيلة قريش وطائفة بنى كنانة كانوا يلبنون فى وقت الحج قائلين «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ويدخلون داخل الكعبة ممسكين بأيديهم غير المباركة الأصنام التى صنعوها بأيديهم، واستمر هذا الحال المشؤوم حتى يوم إشراق نور النبوة.

وخلال تلك الفترة اهتم أهل الحجاز بعمل أصنام كثيرة مثل: اللات - العزى - مناة - ذو الخليفة - ذو الكفين - ذو الشرى - قلس - رضاء - ذو الكعبات وغيرها من الأصنام وقد سميت بعض هذه الأصنام بأصنام عبدة الأصنام فى عهد نوح - عليه السلام.

وقد ظهر فى الفترة التى بين آدم ونوح - عليهما السلام - خمسة أشخاص^(١) وكانوا حريصين على طاعة الله وعبادته وبهذا نالوا حب الناس واحترامهم وعندما أتم هؤلاء آجالهم وارتحلوا إلى عالم العقبى لم يستطع أولادهم وأتباعهم أن يتحملوا آلام فراقهم وتحسروا عليهم، فصنعوا - بإيعاز من الشيطان - لكل واحد منهم صورة ليعلقوها فى مساجدهم. وفعلا قد وضعوا هذه الصور فى مساجدهم وظلوا يزورونها بكثرة ليخففوا شدة حزنهم وليزيلوا وطأة حسرتهم.

(١) توجد تفاصيل وافية فى هذا الموضوع فى البحث الخاص ببدء ظهور الاصنام.

وبطبيعة الحال، مات الأبناء والأتباع فأوعز الشيطان إلى بقية الناس بعبادة الصور. إذ قال: «أيها الناس! إن هذه الصور^(١) كانت صور من عبدهم آباؤكم فأنتم باتخاذكم إياها آلهة وعبادتها تعملون على نشر الدين وعلى إدامة الطقوس التي قام بها آباؤكم». ودفع الناس إلى عبادة صور هؤلاء الأفراد الخمسة إلى قبيل زمن نوح عليه السلام.

وفى واقعة الطوفان المشهورة دفنت هذه الصور المجسمة تحت التراب، واختفت عن أعين الناس، ورغم هذا فإن إبليس اللعين - كما سنذكر فيما بعد - استطاع أن يبرز جميع هذه الصور إلى الأعين بطريقة ما دفع العرب إلى عبادة الأصنام وأثار هذا العمل ضيق أهل الإيمان وأزعجهم.

وقامت جماعات حمقى من القبائل من أحفاد بنى إسماعيل وتدخل الشياطين بصناعة أصنام مشابهة للأصنام التي أخرجت من تحت الأرض وسموها بأسماء هؤلاء الصالحين الذين ذكروا آنفا وأخذوا يعبدونها بكل إخلاص وخضوع.

وتبعا لدراسة المؤرخين فإن أسماء هؤلاء الصالحين المشار إليهم كانت: سواع - ود - يعوق - يغوث - نسر.

والأصنام التي صنعت لتختص بهذه الأسماء:

سواع: وصنعت على شكل امرأة، ود: على صورة رجل، يغوث: على صورة أسد، يعوق: على صورة حصان، ونسر على صورة طائر النسر وفي النهاية كانت تلك الأصنام التي عبدتها القبائل العربية البدوية على أشكال الحيوانات المذكورة.

بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض

لم يكن على وجه الأرض أحد من بنى البشر يعبد الأصنام حتى تاريخ رفع سيدنا إدريس إلى السماء وأصبح مظهرا للسر الإلهي القدسي.

(١) المقصود بهذه الصور هي صور الخمسة أشخاص الذين سلف بيانهم ويرى - على نحو ما سنيته في محله - إن أحدهم سيدنا إدريس والأربعة هم خلقاؤه، أو أولاد سيدنا آدم أبى البشر.

وبناء على قول المؤرخين فإن رفع إدريس إلى السماء كان بعد هبوط سيدنا آدم
أبى البشر بـ ١٤٧٢ سنة وكان أبوه يزد يبلغ من العمر ٥٢٩ سنة فى ذلك الوقت
وكانت ذاته النبوية على اختلاف الروايات ٣٢٥ أو ٣٧٠ أو ٤٥٠ أو ٣٦٥ سنة
من عمره وبعد هذه الواقعة ظل يزد والده على قيد الحياة مدة ٤٣٥ سنة أخرى .

ومع اعترافنا بأن الله قادر على كل شىء، فإن بقاءه على قيد الحياة هذه الفترة
الطويلة أمر خارق للعادة ولهذا لو حكمنا بأن هذه الروايات لا تخلو من الخطأ
فإننا نعتقد أن أحدا من القراء لن ينتقدنا ولن يخطئنا .

وعندما أصبح سيدنا إدريس مظهر الله الجليل ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم:
٥٧) لم يحتمل أحد خلفائه المخلصين ألم الفراق وأخذ يصيح ويصرخ حتى
وصل صوت صراخه إلى الملائكة الأعلى وأزعج سكانه .

وذات يوم ذهب إبليس اللعين إلى حجرة الخليفة المشار إليه وقال له: أيها
العاشق المشتت القلب والوجدان ما أصعب تحمل نار الفراق الحارقة وإيجاد حل
لهذا الأمر من أصعب الأمور بل هو مستحيل .

فإذا ما رسمت صورة تحتوى على شمائل حضرة إدريس ثم تضعها فى مكان
ما فى حجرتك وأبرزتها بحيث تشاهدها أمامك دائما وتذكر أوقات مصاحبتك لك
لعلك تجد الود المؤثر لآلام فراقك . قال هذا وصنع صورة الجسم لسيدنا إدريس
وقدمها لهذا المحب الوفى المتحسر .

وكان ذلك الخليفة صافى القلب ساذجا غافلا عما يهيم له إبليس من شر
ودسيسة وفى نفس الوقت ثملا من شراب فراق إدريس فأخذ الصورة الخالية من
الروح التى قدمها له الشيطان، وظل ينظر لها إلى أن حان أجله .

وبهذه الطريقة خفف من نار الشوق لكنه لم يعلن لأحد قط حقيقة الأمر .
حيث ظل على هذه الحال طوال فترة حياته .

وعند وفاة الخليفة عجز الناس الذين رأوا هذه الصورة فى حجرتة الخاصة عن
معرفة صاحب الصورة وعن سبب وجودها فى حجرة الرجل فظلوا فى حيرة من
أمرهم .

ورأى الشيطان أن الفرص سانحة فى هذا الوقت لغواية البشر وإضلالهم فتمثل فى هيئة رجل من الزهاد العابدين وتوجه إلى حيث يجتمع الحيارى فى فهم كنه الصورة التى وجدت فى غرفة الخليفة فتحدث قائلاً: إن فى رأى أن هذه الصورة - وحاشا - صورة الله - سبحانه وتعالى - خالق السموات والأرض.

ولاشك أن العبادة الخفية أكثر قبولا عند الله، لهذا كتم عنا حضرة إدریس - عليه السلام - وخليفته الذى ترك ملذات الدنيا وأخفيا تعبدهم لهذه الصورة وبهذه المقدمة دفع الناس إلى الضلالة وأراهم أول طريق للضلالة. وانخدع الناس بمظهر الشقى الأبدى المتخفى فى زى المتصوفة وأعدوا صنما وأخذوا يمارسون طقوس عبادة الأصنام.

وقد نقلت هذه الحكاية عن مؤلف (روضة الصفا مولانا محمد خاوند).

والشخص الذى قال عنه إنه أحد خلفاء سيدنا إدریس هو الحكيم أسقليينوس أعقل وأرشد خلفائه وأفضلهم إلا أن عبارة: «أخذ من الشيطان الصورة المجسمة لسيدنا إدریس ولم يغيبها عن نظره»، لا بد وأن تكون غير صحيحة لأن سيدنا إدریس اتخذ لنفسه أربعة من الخلفاء هم «إيلادس» و«أوس» و«أسقليينوس» و«بسلوخس» وأسند إدریس - عليه السلام - لكل واحد منهم إدارة جهة من جهات الدنيا الأربع، وكان «أسقليينوس» أكثرهم زهدا وورعا؛ لذا نال لقب خليفة الخلفاء.

وفى أثناء رفع سيدنا إدریس إلى السماء كان «أسقليينوس» فى بلاد اليونان، مركز الجهة التى كلف إدارتها ولما علم بالأمر ظل يبكى وينوح لفترة طويلة وأزعج الناس فى الدنيا ببيكائه ونواحه، وفى النهاية قام بعمل رسمين مجسمين لسيدنا إدریس - عليه السلام - أحد الصورتين وهو جالس على كرسى والأخرى وهو يرفع يده إلى السماء واعتاد فى أثناء عبادته أن يلقي نظرة على هذين الرسمين.

وبما أنه لاشك في أن «أسقلينوس» كان مؤمنا موحدًا بالله فلم يكن هدفه من إقامة الصورتين المجسمتين عبادة الأصنام وإنما كان من أجل تعظيم سيدنا إدريس وتوقيره.

ولكن وآسفا!! عندما توفى «أسقلينوس» لم يستطع «صاب بن إدريس» وسائر الحكماء البلهاء أن يدركوا نيته وعقيدته وحملوا ما فعله هذا على أنه من عبدة الأصنام وبعد مدة بنوا بيوتا للأصنام ونظموها وأصبحوا من عبدة الأصنام وثلّموا إذ شربوا من خمر الضلال واتخذ كل واحد منهم صنما فأضلوا الناس وحملوهم على عبادة الأصنام.

وقال بعض المؤرخين: إن ابتداع الأصنام كان أولا بين أبناء قابيل، وقد ابتدعت في زمن حكم (اليارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام).

وطبقا للنتائج التي أسفرت عنها الدراسات التي قام بها ناقل هذه الرواية إن أبا شيث - عليه السلام - قد تلقى أمرا خاصا من سيدنا آدم - عليه السلام - لكي يخفى التابوت الذي وُضِعَ فيه أبو البشر عن أولاد وأحفاد قابيل.

وبسبب هذا الأمر نقم أولاد قابيل على شيث - عليه السلام - واتجهوا للعمل ضده ولهذا ظلوا لفترة طويلة يظهرون عدم رضاهم ويبدون علامات الألم والضيق.

ولأن هذا الأمر كان سببا كافيا لدى إبليس اللعين لضلالة الناس، فقد أقام تمثالا مباركا لسيدنا أبي البشر، وضعه في تابوت، ثم أعطاه إلى أحفاد قابيل قائلا لهم: إن الشيء الذي أخفى عنكم هو نفسه هذا الشكل فأخذة الأحفاد وهذا هذا الشكل المجسم من روعهم بعدما رأوه لفترة، وبعد ذلك سعى كل واحد منهم إلى الحصول على صنم. ثم أصبحت بدعة أن يوجد صنم في منزل كل إنسان وفي مركز ومجمع كل قبيلة تابوت على صورة خاصة.

وأظهروا جميعا لها الاحترام الشديد والتوقير والتعظيم وأخذوا يعبدونها حيث أصبحت من الضرورات الدينية بين آل قابيل.

والأصنام التي عبدت في زمن نوح - عليه السلام - هي: ود، سواع، يعوق، يغوث ونسر، صنعت على غرار الأصنام التي عملت في زمن أبناء قابيل.

وكما حقق وصف حضرة إسماعيل حقى - قدس سره الجلى - مؤلف «روح البيان» فأسماء هذه الأصنام الخمسة هي أسماء أولاد سيدنا آدم من صلبه، وإنه بواسطة الشيطان اللعين، قد عمل نموذجاً لكل واحد منهم، وكان ذلك في عهد يارد بن مهلائيل، وظلت تعبد حتى عهد نوح - عليه السلام.

وعند ظهور طوفان نوح دفنت هذه الأصنام في الأرض واختفت عن العيون. ورغم هذا فإن إبليس الملعون أخرجها من باطن الأرض في فترة من الفترات - ولما نقلت إلى مكة المكرمة برأى ومشورة «عمرو بن لحي بن قمعة بن إلباس بن مضر» أخذ الناس يتعبدون لها ثم اتخذها كل عرب الجاهلية آلهة لهم وظلوا يعبدونها إلى البعثة النبوية لخير الورى عليه أفضل التحايا.

وكانت قبيلة هذيل تعبد سواع وقد اتخذت طقوساً خاصة بها ونظمت مواسم حج وزيارة لإلهها سواع رغم القبائل الأخرى المخالفة.

وحسبما قال فاضل أبو الفوز البغدادي فإن الأسماء التي أطلقت على الأصنام المذكورة هي أسماء الصالحين الخمسة السالفة التعريف والذين كانوا على قيد الحياة في عهد «يارد أو يرد» والد سيدنا إدريس ولما توفي هؤلاء الخمسة في عهد يارد في خلال شهر واحد الواحد تلو الآخر، تأثر الناس أعظم التأثر وأبدوا مظاهر الحزن والألم لوفاتهم وعندئذ ظهر شخص يتصل نسبه بنسب قابيل فأقام تماثيل لهؤلاء الخمسة وأطلق على كل واحد منها اسم أحدهم ووضعها في ميدان الميادين.

وأخذ الحزاني يزيلون حزنهم وألمهم بالطواف حول هذه التماثيل وفي هذه الفترة كان طواف الناس حول التماثيل لإظهار التعظيم والتوقير والحب لهؤلاء الصلحاء الخمس وفيما بعد اتخذ الناس هذه التماثيل آلهة يعبدونها واستمرت هذه الحالة إلى زمن نوح - عليه السلام.

وإدعى بقى بن مخلد أن هذه الأسماء انتقلت إلى الهنود وأطلق الهنود هذه الأشياء على أصنامهم العظام.

ولما كان فى داخل كل صنم هندى جن يخبر المتعبدين بأخبار الغيب كان يظن الهنود أن أصنامهم تتكلم وتتحدث وتسمع.

ولما بدأت أصنام مكة أيضا تخبر مشركى قريش ببعض الأخبار عما سيحدث فيما بعد اعتقدوا مثل الهنود أن أصنامهم تنطق وتتحدث.

الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة

قال سيدنا عبد الله بن عباس وهو يتحدث عن سبب إسلام عمر الفاروق: وَعَدَّ سيدنا عمر بن الخطاب صناديد قريش بقتل الذات النبوية الشريفة وذهب إلى بيت فى داخله صنم يتعبد له بعض البلهاء من بنى خزاعة، ذهب ليؤكد لقريش بالقسم أمام الصنم بأنه سيوفى بوعدده.

وبينما كان سيدنا عمر يستعد للقيام بقسمه صدر من داخل الصنم صوت هاتف. وقد تعجب أفراد قريش من صدور مثل هذا الصوت وأنصتوا فى قلق وخوف وحيرة لما يقوله الصنم فأدركوا أنه يردد الأبيات الآتية:

شعر

يا أيها الناس ذو الأجسام	ما أنتم وطايش الأحلام
ومسندو الحكم إلى الأصنام	أصبحتمو كراتع الأصنام
أما ترون ما أرى أمامى	من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهامه	حتى بدا نورا بأرض الشام
محمد ذو البر والإكرام	أكرمه الرحمن من أمام
قد جاء بعد الشرك بالإسلام	يأمر بالصلاة والصيام
والبر والصلوات للأرحام	ويزجر الناس عن الأثام
فبادروا سبقاً إلى السلام	بلا نفور وبلا إحجام

وتفرق القرشيون الموجودون في معبد الأصنام المذكور كما تفرق صغار الحجل، واتجه كل واحد منهم إلى ناحية، بينما اتجه الفاروق الأعظم - رضى الله عنه - إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ومن هناك إلى بيت حمزة وعلى قول إلى دار الأرقم ابن الأرقم. ولكن قبل وصوله إلى ذلك البيت السعيد المشار إليه قابل رجلا من بنى سليم فقال له ما يدور في نفسه. وحينئذ استصوب الرجل أن يذهب عمر قبل اتخاذ أى قرار إلى صنم قبائل بنى سليم الذى اتخذه إلهها والمسمى بـ ضمارة^(١) ليفصل فى القضية، وهكذا توجه الرجل إلى بيت أصنام بنى سليم، ولكن عمر سمع منه الأبيات الآتية فحطم ضمارة الضخم من شدة غضبه.

شعر

أودى الضمار وكان يعبد مرة	قبل الكتاب وقبل بعث محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى	بعد ابن مريم من قريش مهند
سيقول من عبد الضمار ومثله	ليت الضمار ومثله لم يعبد
أبشر أبا ^(٢) حفص بدين صادق	تهدى إليه وبالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلا إنه	يأتيك عز فوق عز بنى عدى
لا تعجلن فأنت ناصر دينه	حقا يقينا باللسان وباليد

وبعد ما حطم سيدنا عمر ضمارة وجعله ألف قطعة، قد تحولت العداوة التى كان يضمها للنبي - ﷺ - إلى مودة أبدية؛ لهذا رجع فوراً إلى المنزل أخته ومن هناك إلى دار ابن الأرقم السعيدة بصحبة زوج أخته، ودخل فى دائرة الإسلام المنجية على النحو المذكور فى كتب السيرة بالتفصيل. رضى الله عنه.

حكمة:

وائل بن حجر «بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمي» أحد الصحابة الكرام^(٣)، ومن ملوك حضرموت المشهورين كان يعبد صنما لامعا من العقيق

(١) ضمارة على وزن كتاب وهو الصنم الذى كان يعبده عباس بن مرداس وقومه.

(٢) كنية سيدنا عمر.

(٣) انظر ترجمته فى الإصابة ٦/٣١٢.

الأحمر، وكان يسجد احتراماً وتوقيراً له وكان يذبح له قرابين كثيرة كل يوم بغية نيل رضاه.

قال هذا الصحابي: كنت نائماً في قصرى وقت الظهر فى يوم من الأيام، فاستيقظت إذ سمعت صوتاً حاداً يصدر من خزانة الصنم، فوثبت من فوق سريرى وأخذت أسجد بجانب الصنم، فسمعت فى ذلك الوقت هذه الأبيات التى تخرج من بطن الصنم.

الأبيات:

يا عجا لوائل بن حجر يخال يدرى وهو ليس يدرى
ماذا يرجى من نحيب صخر ليس بذى عرف ولا ذى نكرى
ولا بذى نفع ولا ذى ضرر لو كان ذا حجر^(١) أطاع أمرى

وعندما سمعت هذا الشعر رفعت رأسى وقد ملأنى العجب والحيرة ومالبت أن قلت:

يا أيها الناصح - بما تأمرنى؟ فسمعت صوتاً يقول فى عبارات منظومة:
«شد الرحال إلى يثرب المباركة.. حيث يكثر النخيل.. فليس لفضلها حصر».

وفى نهاية الشعر المذكور سقط الصنم على وجهه وتحطم وتفتت أجزاءه، وعقب ذلك ارتحلت إلى دار السكينة المدينة المنورة وأسرعت بالدخول فى المسجد النبوى الشريف، ودعانى رسول الله - ﷺ - وبسط طرف رداءه المبارك، وأقعدى عليه ثم صعد المنبر وألقى خطبة بليغة وقال عقب الخطبة: «أيها الناس إن هذا الرجل هو وائل بن حجر، وقد جاء من بلاد بعيدة كحضر موت راغباً فى الإسلام» وما لقيت بعد ذلك رجلاً من الصحابة فى المدينة إلا وقال لى: يا وائل إن النبى - عليه صلوات الله الأكبر - قد بشرنا بمجيئك إلى المدينة المنورة منذ ثلاثة أيام.

(١) يعنى وائل بن حجر.

الأبيات التي سمعها وائل من داخل الصنم

ارحل إلى يثرب ذات النخيل وسر إليها سير مشمعل^(١)
قبل نقضى العمر المولى تدين بدين الصائم المصلى

محمد المرسل خير الرسل

وكان الصنم الذي تعبده قبيلة خطامة سببا في إسلام «مازن بن غضوبة»^(٢) رضى الله عنه وهو من وجهاء تلك القبيلة.

وكان هذا الصنم إله قبيلتي (خطامة وصامت) وقد عين أفرادهما مازن بن غضوبة خادما له.

وقال مازن بن غضوبة هذا وهو يتحدث عن الحادثة التي أدت إلى إسلامه: «كنت قد ذبحت ضحية للصنم الذي أخدمه تقريبا له وطلبا لنيل رضاه، وفجأة سمعت من جوف الصنم صوتا يخاطبني، ويقول: يا مازن استمع إلى لعلك تسر وتسعد لقد بعث رسول من أحفاد بنى مضر لإظهار الدين الحق وإعلانه، فترك الآن عبادة الحجارة المنحوتة وانج بنفسك من نار جهنم المحرقة.

وهكذا سلب منى عقلى وشعورى، وتعجبت من حال الصنم وتحيرت حتى لم أدر ما أفعله تجاه هذا الأمر، وبعد أيام جاء رجل من قبيلة أزد وقال هل تعلمون أنه قد ظهر في مكة المكرمة رجل يسمى «محمد»، ويدعو من يقابله واستجيبوا لدعوة الله، وهكذا أخبرنا بظهور النبي ﷺ.

بينما تعجب الناس من هذا الخبر، قلت لنفسي، هذه هي حقيقة ما سمعته من الصنم في اليوم السابق، وبعد أمد حطمت ذلك الصنم جذاذا، وقد نلت عز المثول أمام الرسول - ﷺ - وقبلت الإسلام دينا.

هناك كهنة في الجاهلية دخلوا الإسلام بإغراء الجن وتحريضهم، يقول عبد الله بن كعب - رضى الله عنه -: بينما كنت جالسا مع عمر بن الخطاب ومعنا أناس آخرون في المسجد النبوى السعيد، دخل أحد الأعراب فى المسجد وجاء إلى

(١) المشمعل: السريع. يكون فى الناس والإبل انظر اللسان: شمعل. ص ٢٣٢٨. ط. دار المعارف.
(٢) انظر ترجمة مازن بن غضوبه فى الإصابة ٦/١٥-١٦، وثقات ابن حبان ٣/٤٠٧. وقصة إسلامه هذه فى دلائل النبوة لليهقى ٢/٢٥٥ وما بعدها.

جانبنا، فقال حضرة الخليفة عندما رأى الرجل: إن هذا الإنسان كان من كهنة أهل الجاهلية ورد على سلام الأعرابي وقال له هل أسلمت؟ فأجابه الرجل: نعم يا أمير المؤمنين نعم أسلمت ونجوت من دنس الكفر والضلالة.

قال: ألم تكن كاهنا في الجاهلية؟ فأجابه قائلا: يا أمير المؤمنين لا داعي لذكر الماضي، قال عمر إذ تلقى هذه الإجابة الدالة على الندامة - داعيا رافعا يديه: «يا رب لقد كنا نعبد الأصنام إلى أن أنعمت علينا وأكرمتنا ببعث الرسول الكريم والنبى الحبيب - ﷺ - يا رب إننا نادمون آسفون على ما مضى من زمان قضيناه فى عبادة الأصنام يا رب تجاوز عن ذنوبنا واغفر لنا».

وبعد هذا الدعاء وجه كلامه إلى الأعرابي المذكور قائلا: حدثنا عن قرينك الذى كان يخبرك بالغيب فى زمن كهانتك، وكيف أغراك ودفعك إلى قبول دين محمدا؟!.

فأجاب الأعرابي على النحو التالى جاء الجن الذى يرافقتى قبل شهر من إسلامى وقال هذه الأبيات:

شعر

عجبت للجن وإبلاسهما وشدها العيس بأحلاسهما
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمن الجن كأرجاسها

رغم أن رفيقى لم يقل شيئا آخر غير هذا الشعر إلا أنه رجع فى اليوم التالى وأنشد الأبيات الآتية:

عجبت للجن وإجلابهما ونصبها العيس وأعمالها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمن الجن كضلالها

ورجع رفيقى فى الليلة الثالثة، وقرأ الأبيات التالية:

عجبت للجن وإجلابهما وشدها العيس بأقتابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما زُمَّعُ الجن كصياها

عندما أتم الأعرابي كلامه وسكت قال حضرة الخليفة مصدقا المشار إليه: ذات

يوم كنت أجلس بجوار الصنم وقد ذبحت عجلا قربانا إلى أحد الآلهة التي كنا نعبدتها في الجاهلية، فخرج من جوفه صوت رقيق يثير الشوق وقال: أيها الشيخ أعلن بلسانك الفصيح صحة أمر لا إله إلا الله، وانشره بين الناس.

وقال «جبير بن مطعم» أيضا أن أباه سمع بعض الكلمات من أحد الأصنام التي يعبدها. قال مطعم حسب ما يرويه ابنه وينقله: كنت جالسا يوما في بيت الأصنام إذ تكلم الصنم الذي كنت جالسا بجانبه، فقال: استمع إلى ما يثير عجبى استمع إلى تخمين حان وقته سيظهر من العرب رسولٌ من سلالة هاشم بن عبد مناف. إن مسقط رأسه سيكون مكة المكرمة ومهجره سيكون المدينة المنورة.

وبعد أن قص سيدنا جبير هذه الحكاية التي سمعها أبوه من الصنم المذكور، أضاف أنها قد حدثت قبل البعثة المحمدية - عليه وعلى آله أفضل التحية - بفترة طويلة.

ومن الصحابة الكرام الذين أسلموا بإغراء من الجن هو «تميم الدارى»^(١) قال: حضرة تميم وهو يعرفنا بسبب اعتناقه الإسلام: وأنا في طريقى إلى الشام ذات يوم - أقبل الليل، فقررت أن أنام في مكان هادئ في أحد الوديان، فترجلت من فوق دابتى واتجهت ناحية المكان الذى اخترته، وبعد برهة سمعت هاتفا يقول: نلجأ إلى الله الواحد، وآمنا مع كوننا من الجن لم نجد أحداً غيره نلوذ به لقد ظهر حضرة رسول الثقلين - ﷺ - وقد صلينا خلفه في جبل حجون^(٢) بعد أن اتبعناه، قد اعتنقنا الإسلام وآمنا برسالته، فأسلم أنت أيضا حتى تسلم.

وقد سمعت كلاما بهذا المعنى وبادرت في ترك المكان وذهبت إلى دير أيوب، وحكيت ما سمعته إلى راهب الدير الذى قال: نعم لقد ظهر خير الأنبياء فى الحرم - وسيهاجر إلى الحرم فتوجهت فورا - إذ سمعت هذا الكلام إلى مكة المعظمة فوجدت حضرة النبى ﷺ واحتميت بدائرة الإسلام المنجية^(٣).

(١) دار بن هانى بن حبيب، هو والد بطن من العرب، وهو تميم بن أوس الدارى، من الصحابة الكرام. انظر الإصابة / ١ / ١٩١.

(٢) اسم جبل فى مكة المكرمة.

(٣) نقل الإمام الواقدى هذه الرواية عن خالد بن سعيد، وقد نقل هو أيضا عن تميم الدارى.

من الذين آمنوا بإغراء الجن أيضا خريم بن فاتك بن الأخرم يروى أن الحكاية الآتية قد نقلت عن خريم بن فاتك ذاته (١).

«ذات يوم، كنت أبحث عن دابة ضالة لى وسرت حتى وصلت إلى مكان موحش، ولما وجدتها كان قد أنهكنى التعب، فربطت دابتي التي كنت أمتطيها ورأيت الاحتماء بهذا المكان وكان هذا المكان واسعاً ثم استندت على حلس البعير، وقبل الاستغراق فى النوم سمعت من الهاتف الشعر الذى سيكتب فيما بعد.

ولأن قلبى كان قد امتلأ بنور الإسلام قلت: أيها الهاتف من أنت؟ فجاء الجواب: أنا بن مالك بن مالك فإذا أردت أن تسلم فانا أكفيك مؤونة البحث عن جملك الضائع وأوصله إلى بيتك إلى أن تعود إلى أهلك وعيالك فسمعت هذا الكلام وذهبت إلى المدينة المنورة بلا تأخير.

وتصادف وصولى إلى مدينة طيبة ظهيرة يوم الجمعة، فتوجهت رأساً إلى المسجد النبوى الشريف وكان الرسول - ﷺ - يلقي الخطبة فقلت لنفسى لأقف خارج المسجد إلى أن تنتهى الخطبة الشريفة إلا أن أبا ذر الغفارى جاءنى وقال يا خريم، قد وصل إسلامك إلى مسامع النبى - ﷺ - وقد بعثنى إليك لأبلغك سلامه وسروره بإسلامك ادخل إلى المسجد وأدّ الصلاة مع الجماعة وبعد الصلاة قابلت رسول الله - ﷺ - الذى قص لى ما حدث فى ذلك الوادى وأن الهاتف سالف الذكر قد أوصل جملى إلى بيتى وأوفى بوعدى.

هذا هو الشعر الذى استمع إليه خريم من الهاتف (٢).

تعوذُ بالله ذى الجلال ووحّد الله ولا تبال

ما هول الجن من الأهوال

فتحير خريم بن فاتك عندما سمع هذه الأبيات وقال: يا هاتف - يرحمك الله - وضح لى صراحة ما تريد أن تقوله فقال الجن الذى ظل مخفياً.

(١) إن حضرة خريم من الأصحاب الكرام ترجمته فى الإصابة ١٠٩/٢.

(٢) هذا الهاتف كان من الجن الذين آمنوا بنبينا سيد الثقلين.

هذا رسول الله ذو الخيرات يدعو إلى الجنة والنجاة يأمر بالصوم وبالصلاة

وكانت المنظومة المذكورة التي أجاب بها الهاتف تعنى أن رسول الله ﷺ هو صاحب هذه الخيرات وأنه يدعو إلى الجنة والنجاة ويأمر بالصوم والصلاة، وهي إشارة إلى صدق ما يدعو إليه الرسول - ﷺ.

ومن الذين آمنوا أيضا بناء على ما أخبره به الجن سيدنا سلمة بن زيد^(١). قال حضرة سلمة الذي ينتهى نسبه إلى بطن من بطون قبيلة خشعم كان أفراد قبيلتنا لا يعتقدون فى حرمة أى شئ قط وبينما كانوا ذات يوم يعبدون أصنامهم ويجرون طقوسهم فجأة سمعوا صوت الهاتف يقول يا أيها الناس أصحاب الوجود. لماذا تنظرون إلى أوهام الرؤيا؟ لماذا تستمعون إلى الناس^(٢) الذين يسندون الحكمة إلى الأصنام وينسبون إليها. إن هذا النبى^(٣) سيد الناس وإنه أحكم الحكام يعلن عن نور الإسلام وإنه أسد فى بلد الله الحرام، وإذ سمع أفراد قبيلتنا ما يفيد تلك المعانى فاهتموا كثيرا وتفرقوا وقللوا راجعين إلى منازلهم حتى إن أفراد القبيلة قد حفظوا هذه الأقوال وظلوا يذكرونها إلى أن ظهر النبى - ﷺ.

قالت فاطمة بنت النعمان^(٤) النجارية: كان هناك جن يأتى كل يوم إلى منزلى ويعاكس هذا وذاك، وذات يوم جاء وصعد فوق الجدار وبدا إلى حائرا هادئا وإننى لم أكن قد شاهدته حائرا وساكننا هكذا فزاد اهتمامى فسألته ماذا حدث لك هذا اليوم حتى تقف هكذا مهذبا هادئا؟ فبدأ الكلام قائلا: لقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - نبيا يحرم اليوم الزنا، وهكذا فهمت أن نبينا قد بعث عليه الصلاة والسلام.

ومن الذين اعتنقوا الإسلام بنطق الأصنام عبد الله بن ساعدة الهزلى. قال

(١) حضرة سلمة بن زيد من الأصحاب الكرام.

(٢) المقصود منه الشخص الذى جعلهم يتخذون الأصنام آلهة.

(٣) المقصود به نبينا محمد ﷺ.

(٤) نعمان النجارى من الأصحاب الكرام. انظر الإصابة ٦ / ٢٤٤، ترجمة ٨٧٥١.

حضرة عبد الله: كان الصنم الذى نعبد ونقدسه «سواع» وكنت أعتقد كما يعتقد أفراد القبيلة التى أنتسب إليها أن سواع قادر على فعل كل شىء وبناء على هذا الظن كنا نعبده ونحبه وبدا يظهر أشياء خارقة ولعله نتيجة لإيماننا به - وهذا مما زاد وقوى عقيدتنا فيه . وأنا أيضا ذهبت إليه يوما من الأيام حاملا معى غنما مصابا بالجرب طلبا للشفاء عنده . وإذا بجن فى بطن سواع يخاطبني قائلا: وأسفا - أن الستائر قد أسدلت وقد صعق الجن بالشهب الأصنام فقدت حكمها وسيطرتها. قد نزل خير الكتب^(١) وبعث خير العرب^(٢) . وهذا كان مفاد^(٣) كلماته .

وعندما سمعت هذا القول . رجعت إلى بيتى وكرهت عبادة الأصنام وأسرعت لاستكناه الأحوال ومعرفة الأخبار فعلمت أن النبى - ﷺ - قد بعث فى مكة المكرمة وفى الحال ذهبت هناك واعتنقت الدين الإسلامى المبين .

خرج مالك بن نفيح^(٤) يوما إلى الحقول للبحث عن جملة الضائع وبعد أن ظل يبحث عنه مدة طويلة وجدته فى مكان ما وعزم على العودة ولكن المساء قد فاجأه ولم يرد أن يسير ليلا كعادة العرب ونام فى سفح جبل وراح فى سبات .

يقول مالك هذا: بينما كنت فى حالة يقظة لم يغلبنى النوم بعدما سمعت هاتفا يقول: يا مالك! يا مالك! لو حضرت المكان الذى برك فيه جملك قليلا ستجد شيئا يسرك ويجعلك محظوظا، فسحبت جملى إلى مكان آخر وحضرت إلى المكان الذى كان فيه جملى، ووجدت فيه صنما قد نحت على شكل امرأة فأخذته ونصبته فى نفس المكان، إن ظهور هذا الصنم ملأنى فرحا وسرورا حتى إننى وهبت أحد جمالى قربانا له وسميته غلاب وحملته على جملى الآخر وعدت إلى بلدى .

وقد حسدنى الناس على حسن حظى وأرادوا أن يأخذوه منى وينصبوه فى مكان عام، ولكننى لم أهتم بجلبتهم وصياحهم فأخذت غلاب ونصبته فى مكان معين من بيتى .

(١) هو القرآن الكريم .

(٢) هو نبينا محمد ﷺ .

(٣) لا بد أن هذا الجن كان كافرا لأنه يتأسف على نزول القرآن وبعث نبينا ﷺ .

(٤) مالك وأخوه حارث بن نفيح الأنصارى من الصحابة الكرام . انظر الإصابة / ٧ / ٨٤ ترجمة ٥٢٧ .

وحينما أخذت غلابا إلى بيتي كنت قد نذرت أن أذبح له كل يوم قربانا وذبحت في ظرف ثلاثة أيام ما كنت أملكه من الأغنام ولما لم يبق معي ما أقدمه له قربانا ذهبت إليه لأعتره له .

وعندئذ خرج من جوف الصنم صوت يقول: يا مالك! يا مالك! لا تأسف على مالك الذي تلف بل أذهب إلى جانب البئر الواقعة في بلاد قبيلة «أرقم» فستجد هناك كلبا أسود، فخذهُ واذهب إلى الحقول للصيد فتعنتي .

بعدهما وضع مالك ما قال غلاب وعرفه قال وهو يبين كيف وجد ذلك الكلب وكيف استخدمه في الصيد بالأمر: خرجت إلى الطريق وذهبت إلى البئر التي في بلاد قبيلة أرقم فاستقبلني كلب أسود فربطته من عنقه وأخذته معي وتوجهت إلى الحقول للقنص، وسرنا في الحقول مدة وإذا بالكلب الذي في يدي قد رأى غزالا وهاج حتى كاد أن يقطع الحبل الذي في عنقه، ولكنني ترددت في إطلاقه وفي نهاية الأمر أطلقتته فجرى الكلب وقبض على الغزال .

وإنني قد سررت من جهد الكلب ورجعت إلى البيت وذبحت الفريسة قربانا لغلاب، وهكذا خرجت للصيد في اليوم الثاني والأيام الأخرى حتى أصبحت من عادتي أن أخرج للصيد وأذبح ما أصطاده قربانا لغلاب وأوزع لحمه .

وفي يوم معهود جرى الكلب وراء نعامة ولكنه لمح في الطريق غرابا، ونفر منه وتراجع، وكاد أن يدخل بين أرجل الفرس التي كنت أمتطيها. وبما أنني لم أر الغراب استغربت من حالة الكلب وترجلت من الدابة لأستطلع الأمر. حينما رأي الغراب خاطب الكلب قائلا: يا كلب فأجابه الكلب ماذا يوجد؟ لقد هلك هذا وظهر الإسلام وأسلم أنت أيضا لتجد النجاة!! وعندما قال هذا اختفوا فجاء من أمام عيني وأعتقد أن كلاهما كان من الجن والسبب في دخول «ابن النفيح» في الإسلام كان هذا الحادث .

اتفق أن «مالك بن مرداس السلمى» كان يتجول بين أشجار النخيل، وفي وقت الظهيرة ظهر رجل يرتدى ثوبا أبيض من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه وهتف له قائلا: يا عباس بن مرداس! إن الشياطين والجن الذين يسترقون السمع للأحداث السماوية قد تفرقوا وإن أحوال الدنيا قد تغيرت - من أولها إلى آخرها -

ألا تعلم أن نبيا بارا تقيا ملهما من قبل الله قد ظهر مساء الأثنين وليلة الثلاثاء - وهو صاحب الجمل المقطوع الأذنين - ففرع عباس بن مرداس فزعا شديدا ومضى إلى صنم قبيلة ضممار فأخبره ما سمع من كلام هذا الرجل وبينما كان يتحدث إليه خرج من بطن الصنم صوت عجيب يلقي هذه الآيات:

قل للقبائل من سليم كلها هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد قبل أن نزل الكتاب على النبي محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قريش مهند

يقول عباس بن مرداس^(١) حطمت «الضممار» ألف قطعة إذ سمعت فيه هذا الكلام ثم مضيت إلى المدينة المنورة ومعى ثلاثمائة من قبيلتنا وولنا شرف المثل بين يدى الرسول - ﷺ - وبناء على أمره - ﷺ - قصصت ما حدث وأسلمنا كلنا فى حينه رضى الله عنهم.

إن هذه الواقعة مروية من قبل «عبد الرحمن بن أنس السلمى» وليس الضمار هذا الصنم الذى حطمه حضرة عمر بن الخطاب الفاروق بل هو صنم آخر يحمل نفس الاسم.

وعندما اقترب ظهور النبى - ﷺ - سمع عن كثير من الأصنام مثل هذا الكلام الموثوق من صحته والتي أخبرت بظهور النبى - ﷺ .

وبما أن أكثر ما سمع من أصنام مكة قبل البعثة كان الإخبار بما سيحدث والتمسك بالغيب وكان عبدة الأوثان يلاحظون أن ما يخبرهم به أصنامهم صحيح والأحاديث التى يخاطب بها الناس تطابق الواقعة لذلك زاد تقديسهم لهذه الأصنام والتمسك بها واعتمادهم عليها وتأكد إيمانهم بها فأقبلوا بإخلاص على عبادة هذه الأصنام.

والأصنام الخمسة التى مر ذكرها والتى وضعت فيما بعد فى مكة والتى حصل عليها عمرو بن لحي بن قمعة وحملها إلى مكة المكرمة وأخذ يتعبد لها ويحمل

(١) عباس بن مرداس السلمى من الأصحاب الكرام وشجعان العرب وهو شاعر منقطع النظر. انظر: الإصابة ٤ / ٣١ ترجمة ٤٥٠٢.

الناس على عبادتها قد اتخذها عرب الجاهلية آلهة لهم وأطلقوا على كل واحد منها اسما خاصا.

ويبين المؤرخون كيفية انتقال هذه الأصنام لبلاد العرب على يد عمرو بن لحي الضال على هذا الوجه:

كان عمرو هذا - بناء على اعتقاد أهل الجاهلية - تابعا للجن وكان دائم الاتصال به ودائم الحديث معه.

وقال له الجن يوما: يا عمرو! إن تماثيل الآلهة الخمسة التي كان يعبدها الناس في عهد نوح وإدريس - عليه السلام - قد ظهرت على سواحل جدة، فابحث عنها وبعدها تجدها انقلها إلى مكة.

وأسرع عمرو - وقد سمع ما قاله الجن - بالسفر إلى جدة وحمل تلك الأصنام من شواطئ جدة وعاد إلى مكة وأجبر الناس على عبادتها وقسمها بين القبائل المتفرقة وبعث لكل قبيلة في موطنها بصنم خاص لها وهكذا بدأت عادة عبادة الأصنام بين العرب وأخذ كل سكان الحجاز من تلك الأوقات في عبادة الأصنام. وإن كانت هذه الرواية تكذب الرواية التي تقول أن عمرو بن لحي قد جلب هذا الصنم من أرض البلقاء في الشام إلا أن إحضار عمرو الأصنام الخمسة إلى مكة من أرض الشام حدث بعد جلبة هبل.

ومع كل هذا قد ركز عمرو هبل^(١) داخل الكعبة، وأهدى الأصنام الخمسة إلى رؤساء القبائل وهكذا حمل جماعات العربان على عبادة الأصنام ووفق في نشر الوثنية في الحجاز.

إن اللعين الذي حمل أحفاد بنى إسماعيل على الارتداد عن دين إبراهيم إلى الوثنية هو عمرو بن لحي الذي عاش ما يقرب من (٣٤٠) سنة وقد كتب له أن يرى ألف مقاتل من أحفاده وقد استمر حكمه وحكم أبنائه في مكة المكرمة ٥٠٠ عام. ووفق هذا الحساب قد ظل بيت الله في يد المشركين ألف عام وهو مكان لعبادة الأصنام.

(١) أول صنم أدخل الكعبة هو هبل وهو من أعظم أصنامهم.

ادعاء جمشيد الألوهية

يقول المؤرخون إن عبادة الأصنام قد بدأت في أيام جمشيد العنيد من ملوك البشداية.

وبناء على ما جاء في ترجمة تفسير أبو الليث أن (جمشيد) أخو الملك (طهمورث بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام).

ويقال إن جمشيد أول من كشف وأوجد الأدوية المركبة والمفردة والتداوى بالنبات، كما كشف عن المعادن المتنوعة واستخدم الذهب والفضة وأنواع الزينة والجمال والملابس الحريرية المتنوعة وتطيب بأعواد العنبر، وصنع الخمر وأنواع الطيب والمعطرات.

دام ملك جمشيد ثمانمائة عام ودخلت الأقاليم السبعة في حوزته وسخر الأئس والجن وحكم أهل المشارق والمغرب مما قوى شوكرته وزاد في عظمته.

وقد اعتلى جمشيد عرش الحكم في عهد إدريس^(١) - عليه السلام - وأقام العدل بين الناس وحرص على الوثام والمحبة لذا سمي رعيته يوم جلوسه على العرش نوروز وأصبح هذا اليوم من كل سنة عيداً لهم يحتفلون به كل عام.

ويقال إنه في فترة حكمه قد رفع عن الناس - لحكمة ما - الموت والمرض والشيخوخة فما عرف في ظرف ثلاثمائة عام من حكمه أن أحداً قد مات أو مرض أو شاخ.

وقد ظهرت في زمانه بدائع الصنائع ومختلف آلات الحرب وطبقات الأمراء ودرجات المقاتلين ونصبت الخيام كما تم استخراج الجواهر والآلي من البحر وصناعة الإسبيداج والكلس وبناء الحمامات.

ولقد أمضى جمشيد أواخر أيامه في الرفاهية والسعادة لا يفكر إلا في ملذات طعامه وشرايه إذ بلغ ملكه أقصى ما كان يتمناه من قوة وعزة واحتشام.

وكان يفكر أحياناً في حالته الصحية وكيف أنه لم يتعرض لمرض وكيف أنه لم يشعر بالآلام في أعضاء جسمه ولا أوجاع واضطرابات وكان يتساءل أحياناً قائلاً: يا

(١) في قول أنه في عهد إدريس وفي قول آخر في زمن صالح عليهما السلام.

ترى هل هناك شخص يشبهنى فى عظمتى وقدرتى ولم يصبه مرض فى مدة حياته؟! .

وحينئذ نسى بشريته وأخذ يحاول أن يفهم ماهيته، وغشيه يوم من الأيام نوم وعقب هذا حدث نفسه قائلا: على أغلب الظن أننى لست من جنس البشر، إذ كيف أكون بشرا ولم يصبني مرض وتقلب المزاج والشعور بالكآبة. ولكنه نسى أنه فى حاجة إلى كل ما يحتاجه البشر من الأكل والشرب وقضاء الحاجة، وبعد فترة دخل الشيطان فى غرفته دون أن يشعر به حراسه وأيقظه من نومه.

ولما اقتحم عليه الشيطان حجرته وهذا لم يكن له فى الحسبان لأن اقتحام أحد عليه حجرته دون أن يراه أحد من الحراس كان ضربا من المستحيل بدون رؤية أحد من الحراس؟ لذلك تملكته الحيرة وقال له حينما رآه فجأة أمامه: من أنت؟ وتلقى ردا من إبليس المضلل: إننى ملك نزل من السماء قد جئت لأعرفك من أنت.

ولما كان جمشيد مشتاقا لمعرفة نفسه فكر أن هذا الشخص الذى يقتحم عليه حجرته لا بد أن يكون شخصا ذا قدرة فائقة وربما يستطيع أن يعرفه بنفسه لذلك وجه إليه سؤال إذن أخبرنى من أنا؟ لأننى لا أشبه بنى البشر فى شىء؟ فرد الشيطان قائلا: لعلك نسيت من أنت؟

إنك رب سكنة السموات والأرضين!! . . . وكنت فى السماء منذ ثمانمائة عام . . . حينما استغرقت فى النوم فإننى هبطت بك على الأرض وفق أمرى . . .

إن عدم إصابتك بالمرض طول حياتك وانتصارك على ملوك العالم جميعا ليس دليلا كافيا على أنك إله.

كما أن دخولى إلى الحجره بدون أن يرانى أحد ألا يثبت أننى رسول السماء؟! وهكذا خدع إبليس جمشيد الأبله بقوله المزخرف.

وقد قبل جمشيد الأدلة الواهية التى ساقها له إبليس واقتنع بالوهيته واستفسر منه الطريقة التى سيتحرك بها بعد ألوهيته فأجابه إبليس اللعين: يجب أن توقد فى هذا الميدان نارا عظيمة ثم تدعو الناس جميعا وتعلن لهم أنك إله وتطلب

منهم أن يسجدوا لك، وأن تلقى إلى النار كل من يمتنع عن السجود، وهكذا عرفه بطقوس المجوسية، وهكذا جعل إبليس اللعين جمشيد يوقد ناراً حامية ويدعو الناس وجعلهم يسجدون له بعد أن أعلن ألوهيته فصدقه الناس. وبعد ذلك نصب خمسة أشخاص خلفاء له، وأعطى لكل واحد منهم صنماً كبيراً وأرسلهم إلى أطراف مملكته بعد ما أمرهم بأن يدعوا الناس إلى السجود إلى هذه الأصنام وأن يعترفوا بألوهيته وأن ينال المصدقون التعظيم والتوقير وأن يعاقب المنكرون بإلقائهم في النار.

كانت أسماء هذه الأصنام التي أعطيت للخلفاء: ود - سواع - يعوق - يغوث - نسر. وهكذا انتشر هؤلاء الخلفاء حاملين أصنامهم في أرجاء العالم وابتدروا في إضلال الناس بنشر طقوس الوثنية إلى أن مات جمشيد لعنه الله.

قد مات جمشيد بعد فترة من إرسال الأصنام إلى أطراف مملكته، وهكذا نجح ربع سكان العالم من الاحتراق بنار الضلال، إلا أن مبعوثيه إلى أركان العالم أخذوا ينشرون طقوس الوثنية والمجوسية في أرجاء العالم وأدخلوا أكثر الناس في الوثنية.

قد قبض على جمشيد حياً في نهاية الأمر في حربه مع «الضحاك» ابن أخى شداد بن عاد، وقد جعله قطعتين بعد ما نشره بعظمة شبيهة بالمنشار لنوع من أنواع الأسماك.

عاش جمشيد ألف عام قضى ١٠٠ أو ٣٠٠ أو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة في الحكم حسب الروايات المختلفة.

يدعى مؤرخو الفرس نبوة جمشيد، إلا أن ابن عباس قال إن القول ببعث نبي من الفرس كذب، وخرج روايات هؤلاء المؤرخين الواهية والذين يدعون نبوة جمشيد من مؤرخى الفرس الجهلة قد اقتنعوا أن سيدنا سليمان - عليه السلام - هو جمشيد، إلا أن جمهور أئمة الأخبار بينوا أن هناك أكثر من ألفى سنة زمنية بين سليمان - عليه السلام - وجمشيد، كما أن جمشيد قد كفر وأشرك في أواخر أيام سلطته، ويكفى هذا دليلاً على بطلان تلك الادعاءات.

ظهور طقوس الوثنية بين أحفاد إسماعيل

قد كثر أحفاد بنى إسماعيل المقيمين فى جوار الكعبة المعظمة. وأدى هذا التكاثر إلى تفرقهم فى أطراف البلاد فهاجر بعضهم إلى بلاد الشام، والبعض الآخر إلى بلاد اليمن، وعند هجرتهم حملت كل قبيلة قطعة من الحجر من الكعبة الشريفة تذكارا وتبركا منها، ووضعت الأحجار فى مكان مرتفع توقيراً لها.

وقد رأى الشيطان اللعين مدى استعدادهم لاعتناق الوثنية وعبادة الأصنام، فقال: الأولى أن نعبد الأصنام المصنوعة والمصورة بدلا من هذه الحجارة الغليظة الخالية من الذوق والجمال، وهكذا نحتت وصورت الأصنام الخمس السالفة الذكر، وحمل رؤساء القبائل على عبادة الأصنام بواسطة عمرو بن لحي، وقد ابتدر هؤلاء الزعماء فى عبادة الأصنام، وقد استحسنا أقاويل الشيطان وانصرفوا إلى الوثنية وتقديس الأصنام بعد أن تركوا قراءة صحف إبراهيم جانبا.

أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل:

أول من اعتنق الوثنية من بنى إسماعيل هو هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الأردل. إن هذا المنحط قد اتخذ الصنم الذى يطلق عليه «سواع» إليها وحمل قومه الذين يسكنون على بعد ثلاثة أميال من مكة المعظمة على تقديسه وعبادته، واستمرت ضلالة هذه القبيلة التى تعبد سواع إلى بزوغ شمس الإسلام فى عصر السعادة. وقد كلف عمرو بن العاص فى العام الثامن من الهجرة النبوية بهدم وتحطيم معبد أصنام هذيل، وقد نال الأجر والثواب بأداء عمله على أحسن وجه.

كان فى عصر السعادة لبنى سليم صنما يسمى: سواع يقوم بسدائنه (غاوى بن عبد العزى) بينما كان غاوى بن عبد العزى جالسا يوما بجانب ذلك الصنم المنحوس جاء ثعلبان قافزين متواثين، وصعدا فوق الصنم الذى تعبد له قبيلة بنى سليم ورفعا رجليهما وبالا فوق رأس الصنم، ووسخا الصنم العظيم (سواع) ولطخاه.

وأنشد غاوى إذ رأى هذه الحالة:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وخاطب بنى سليم قائلا أقسم بالله أن هذا الصنم لا ينفع ولا يضر. ثم كسر سواع وجعله ألف قطعة، ثم توجه إلى المدينة المنورة حيث أسلم أمام النبی - ﷺ - وحينما مثل غاوى أمام النبی - ﷺ - استهجن اسمه، وسماه «أرشد بن عبد ربه» وظل اسمه أرشد بعد ذلك.

من المخذولين الذين تركوا دينهم عظيم من عظماء قبيلة قضاة وهو «كلب بن وبره بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاة»، وكان رجال القبيلة المذكورة يسكنون في بلدة «دومة^(١) الجندل» حتى حلول السنة المذكورة ويمضون أوقاتهم في عبادة «ود» الذي اختاره لهم كلب بن وبره إلهًا لهم.

إن «ود» الذي اختاره بنو قضاة إلهًا لهم - كما سبق ذكره - نحت على شكل رجل ضخم الجسم، بقدر لا يتصوره الإنسان، وقد ألبس طبقتين من الثياب وعلق على عنقه سيفًا وقوسًا.

إن قضاة كان أبا لقبيلة كبيرة وإليه نسبت جماعات قبائل قضاة، ويتصل نسبه بـ «حمير» بن سبأ في الدرجة السادسة.

وكان لأبى وبره بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلف بن قضاة تسعة أبناء هم: «خافى، عمرو، سليم، وبره، جرم، ملوان، أشجع، سعد، قدامة» وأحفاد هؤلاء أصبحوا فيما بعد ملوكا آباء قبائل. وقد نصب ابنه الرابع «وبره» خيامه في «دومة الجندل» حيث استقر، وبعد موته خلفه ابنه - سالف الذكر - كلب والذي اعترف بألوهية «ود» وعاش حياته متعبدا له مع أتباعه البؤساء البلهاء.

ومن الأراذل الذين تركوا دينهم الشقى الذى اشتهر باسم «أنعم» من قبيلة طيء، وقد اتخذ هذا البائس صنما يطلق عليه «يغوٲ» إلهًا له وكان هذا سببا فى اتخاذ الناس هذا الصنم إلهًا لهم إلى سنة فتح كعبة الله.

(١) إن هذا المكان وقطورا طبقا لما بينه سيد جلى على بعد ٥ مراحل من الشام و(١٥) مرحلة من المدينة المنورة، وهو حصن منيع ومدينة بحرية مشهورة.

وقد اتخذ هذا الصنم أهالي جرش من قبائل طيء ابن آدد بن مزحج بن آد إلها لهم وعبدوه.

والجرش اسم مقاطعة في اليمن كان يسكنها بنو مزحج الذين اتخذوا الصنم المنحوس «يغوٲ» إلها لهم وعبدوه.

وقد اتخذ سكان حولان صنما يسمى «غم أنس» إلها لهم وحولان بن عمرو بن الحاف بن قضاة، وفي رواية حولان بن عمرو بن برة بن آدد بن زيد بن مهسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبائك وعلى قول آخر حولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مزحج بن آد، كانوا يسكنون في البلاد التي أطلق عليها حولان.

أن سكان هذه البلاد قد أخلصوا في العبادة لـ «غم أنس»، حتى إنهم كانوا يعتقدون أن البركة والنماء سينقطع عنهم إذا لم يخرجوا سهما من حيواناتهم ومحاصيلهم ويقدموه إلى هذا الصنم.

من الذين يعبدون الجمادات هم قبائل همدان التي تسكن أرض (همدان)^(١). همدان: على وزن سكبان، اسم قبيلة يسكن أفرادها في صحراء «همدان» في الحيام، وكانوا يعبدون صنما كبيرا نصبوه في قرية على شكل «حيوان» يقال له «يعوق» واستمروا في التعبد له إلى قرب ظهور نور النبوة.

وكانت قبيلة ذو الكلاع في مكان يطلق عليه حمير من أرض اليمن وتتعبد لصنم يطلق عليه «نسر».

حمير على وزن درهم اسم موقع على الجانب الغربي من صنعاء اليمن. وكان سكان هذه المنطقة وما حولها يعبدون صنما منصوبا في مكان يسمى «بلخ» من أرض سبأ ويطلق عليه «نسر».

وكان أهل اليمن وحمير يعبدون «نسر» ويترددون كذلك على معبد الأصنام الذي يطلق عليه «رثام» في صنعاء اليمن. وخلاصة القول أن العرب في الجزيرة

(١) همدان اسم قبيلة كبيرة من سكان اليمن وإذا ما كتب همه دان فهو اسم لبلد في عراق العجم الذي بناه هم دان ابن الفلوج بن شام.

كانوا يتخذون فى أسفارهم صنما كإله لهم، كما كانوا يوجدون فى بيوتهم أصناما وكانوا يزورونها ويتذللون لها حين خروجهم للسفر أو عودتهم منه وإنهم كانوا لا يعودون إلى بيوتهم قبل زيارة بيت الأصنام، ويتذللون لها ويظهرون خضوعهم لها بعد رجوعهم من السفر.

فى تلك الفترة التى خلت من الرسل كان بعض أفراد قريش يتعبدون لهيل الذى جلبه «عمرو بن لحي» من أرض البلقاء ونصبه فى داخل الكعبة، والآخرون يتعبدون لإساف ونائلة المنصوبين بالقرب من الكعبة المعظمة وبئر زمزم، وكانوا يطوفون حولهما ويذبحون لهما القرابين.

ويقال إن «إساف» المنصوب بالقرب من بئر زمزم بن بقى أو يعلى أو بغا أو عمرو من طائفة الجراهمة و«نائلة» هذه بنت ديك أو زيد بن جرهم أو سهيل أو ذئب أو عمرو بن ذئب من أقوام قطورا.

وبناء على قول منقول عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن إساف ونائلة أحبا بعضهما فى أرض اليمن، وحينما كان الجراهمة على ضلال خرج العاشقان إلى طريق مكة المكرمة بغية الحج، وحينما وصلا إلى مكة وجدا الكعبة الشريفة خالية من الناس وارتكبا جريمة الزنا فى داخلها، وكان جزاؤهما لحكمة ما أن تحجرا. وأخرج أهل مكة هذين المتحجرين خارج الكعبة، وركزوا إساف على جبل الصفا، ونائلة على جبل المروة، ترهيبا للذين يفكرون فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وتشهيرا لهما، وبعد فترة نسى سبب تحجرهما، وفى نفس الوقت تولى رئاسة حكومة الحجاز عمرو بن لحي، وصدق بين العرب ألوهية هيل، فما كان من عمرو إلا أن وضع واحدا من الصنمين بجانب الكعبة الشريفة، والآخر بالقرب من بئر زمزم، أى وضعهما بين الكعبة الشريفة وبئر زمزم اللطيفة، وأمر الناس بعبادتهما وتقديسهما.

وأخذ عرب الجاهلية منذ تلك الأوقات يتعبدون لهما، ويضعون الهدايا الواردة من الأطراف والأكناف بين إساف ونائلة متبركين بهما، وكانوا يبدءون بالطواف من إساف وينتهون عند نائلة، وكان من عاداتهم أن يقبلوا الصنمين عند بدء الطواف والانتهاه منه.

وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨).

عندما كره أهل الإيمان الطواف بينهما، نزلت للتبيان أنه لا حرج من السعي بين الصفا والمروة، وفي يوم الفتح كسر هذين الصنمين، وجعلا جزازا مثل سائر الأصنام التي كانت موجودة في أطراف الكعبة المعظمة.

إن بعض قريش من أحفاد وأبناء ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر كانوا يتعبدون لصنم كان يقال له: «سعد الصخر» وعمرو بن حمة من أولاد أوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأسد بن الغوث وقبيلته كانوا يتعبدون مع قبائل خثعم وبجيلة لصنم كائن في أرض دوس ويسمى «ذو الخلصة»^(١) كما كان يتعبد بعض الجماعات من قبيلة بني كنانة وطائفة من قريش لصنم كائن خارج مكة المعظمة في بطن نخلة يطلق عليه «عزى» الذي هياه للعبادة سعد بن ظالم، وقد أسند سدانة البيت الذي توجد فيه عزى إلى بنى شيبان الذين ينتهى نسبهم إلى سلّيم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان.

قال بعض المؤرخين الذين عرفوا «عزى» إنها شجرة عظيمة^(٢) وقال الآخرون إنه بيت أصنام، وقال قسم منهم إنها صنم كبير^(٣).

يقول الذين يدعون أن عزى «شجرة عظيمة» أن سعد^(٤) ابن ظالم رئيس قبيلة بنى غطفان ذهب يوما إلى مكة، وأخذ يطوف بالبيت المعظم وبعد الطواف رأى أهالي مكة يسعون بين الصفا والمروة، فحسداهم على ذلك فأخذ من ساحة المسجد الحرام ثلاث قطع من الحجارة، كما أخذ من جبل الصفا والمروة من كل

(١) ذو الخلصة اسم واحد من العرب. قد قتلوا أبا هذا الرجل، ولما أراد أن يثار لأبيه ذهب ليحج القرعة بالأزلام، وأمرته الأزلام بالأى يطالب بثار أبيه، واستجاب لأمر الأزلام وترك الثار وقال هذه الآيات:

لو كنت يا ذى الخلص الموتورا
مثلى وكان شيخك المقبوراً

لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢) قد قبلت هذه الرواية من الجميع لصحتها.

(٣) فالذين يدعون أنها صنم يقولون إن أطلال وبقايا هذا الصنم مازالت باقية خارج حصن الطائف مع بقايا الأصنام الأخرى.

(٤) اسم والد سعد فَرَاة ولكنه كنى بهذا الاسم لكون اسم أخيه ظالماً.

واحد منهما حجرا، ورجع إلى موطن قومه بنى غطفان فى بطن نخلة وركز الحجر الذى أخذه من الصفا فى مكان، كما ركز الحجر الذى أخذه من المروة فى مكان آخر، وأسند الحجارة التى جمعها من ساحة البيت الحرام على شجرة بينهما، ثم جمع قومه وخاطبهم قائلا: «يا قومى! إن أهل مكة يطوفون حول الكعبة كما إنهم يسعون بين الصفا والمروة، وإنهم اعترفوا بالوهية الكعبة والصفا والمروة وأقروا بها، ثم أشار إلى الحجارة التى جلبها من مكة وقال فليكن لنا واحد من أحجار الصفا والأخرى من المروة، وهذه الشجرة كعبتنا فلتخذ هذه آلهة لنا ونطيعها».

وهكذا حمل أهل غطفان على عبادة هذه الحجارة، وقد استحسّن أهل غطفان رأى سعد وأسندوا سدانتها إلى بنى شيبان من أولاد «سليم» بن منصور بن عكرمة بن خَصْفَةَ بن قيس عيلان. وقد استمرت عبادتهم لها إلى عصر النبوة.

وقد أقاموا مبان حول هذه الشجرة. وهكذا أصبحت الشجرة يظلها السقف وكانت هذه الشجرة من فصيلة نمرّة وكان أهل غطفان يخلصون لها العبادة، إذ يستمعون إلى أقوال الجن الذى حل فى داخل الشجرة.

وبناء على هذا التعريف أن «عزى» بيت للصنم أقيم فوق شجرة من فصيلة «نمرّة» وفى موطن قبيلة بنى غطفان، وعلى قول آخر إنها فى مكان آخر، وهى عبارة عن بناء أقيم فوق ثلاث أشجار كبيرة. وكان الذين يتعبدون لها يسمعون منها أصواتا مختلفة.

وقد كلف سيدنا خالد بن الوليد بقطع هذه الشجرة وقلعها، وفى أثناء قيام خالد بمهمته خرجت من داخل «عزى» عجوز شمطاء قبيحة المنظر، مبعثرة الشعر عارية، وأخذت تشد شعرها، بينما أخذ خادم البيت يصرخ ويولول إلا أن سيدنا خالد عجل بقتل العجوز، وقلع الشجرة من جذورها وهكذا محاهها من الوجود.

وكان فى ذلك الوقت معبود بنى ثقيف الذين يقيمون فى الطائف صنما يقال له «مناة» وكانت قبيلة بنى ثقيف تقوم بخدمتها.

مناة- كانت مناة معبود الجماعات التي تقيم حول مكان يسمى قديد الذي يقع على الجانب البحرى من جبل «مشلل»، كما كان يعبدها أهل يثرب وقبائل الأوس والخزرج الذين عرضوا تبعيتهم لسكان قديد.

مشلل- على وزن معظم اسم جبل ويهبط إلى قديد المذكور من هذا الجبل. وبناء على قول آخر أن مشلل اسم مطلع مقابل قديد وإن الصنم المذكور كان منصوبا فوق المطلع^(١).

وعلى قول آخر أن مناة صخرة عظيمة كان يعبدها قبائل هذيل وقضاعة وأقوام من بنى ثقيف يزورونها ويطوفون حولها ويتقربون لها بالذبايح^(٢).

قد حطم هذا الصنم سعد بن زيد الأشهلى فى سنة الفتح وخربه. وظهرت من بطن مناة عجوز شمطاء سوداء الوجه، عارية الجسد، وأخذت تقتلع شعرها تصرخ وتنوح وتدق صدرها، وقتل سعد هذه العجوز، وحطم الصنم ألف قطعة.

وعند البعض أن مناة واللات والعزى كانت فى داخل الكعبة المكرمة، كما أن هبل كان داخل مخزن الهدايا لبيت الله مثل ما سبق ذكره عدة مرات.

لانت؛ اسم فاعل من لت السويق، كان من عادة العرب فى الجاهلية وفى مواسم الحج لتّ السويق بالماء والسمن، ويخلطونه وينضجونه ويقدمونه للحجاج وكان اللات صورة هذا الرجل الذى اعتاد أن يقدم السويق للحجاج.

وبما أن هذا الرجل قد اتخذ لنفسه صنع السويق مهنة له أطلق عليه اللات. وفيما بعد صنع أحد رؤساء قبيلة بنى ثقيف صورة لهذا الرجل وأخذ يتعبد لها مع أفراد قبيلته.

إن الرواية التي تقول إن بنى ثقيف قد اتخذوا الصنم الذى أطلق عليه اللات إلها لهم هى أصح الأقوال.

(١) أكد الإمام السهوى هذه الرواية.

(٢) وهذه الرواية مقبولة مصدقة عن الأكثرين.

وهناك رواية أخرى تقول: إنه لم يكن صنما، إذ كان هناك حيث يسكن بنو ثقيف في الطائف صخرة^(١) وكان رجل غنى قد فتح محلا فوق هذه الصخرة، يبيع فيه سمنا، وفي مواسم الحج كان يصنع سويقا ويخلطه بالسمن الذي يبيعه، ويطعم به الحجاج. وبما أن هذا الرجل كان يلت السويق فوق هذه الصخرة أطلق عليها اللات.

وبعد فترة ترك الرجل تجارته، وهجر الصخرة إلا أن عمرو بن لحي الملحد سحب بنى ثقيف إلى الصخرة، وقال لهم: إن الشخص الذي كان يصنع السويق ويطعم به الحجاج قد دخل في هذه الصخرة، ومن هنا يجب أن نتعبد لها، وتلقى بنو ثقيف قول عمرو باستحسان وأخذوا يتعبدون لها.

وكان عمرو بن لحي يخدع بنى ثقيف قائلا: يا بنى ثقيف إن ربكم يبعث البرودة إلى الطائف بواسطة اللات، كما يرسل الحرارة إلى تهامة بواسطة العزى.

وعند البعض أن لاة مخففة من إله، وفي زعم بنى ثقيف أن اللة وسيلة للتقرب إلى الله. وكان مشركو العرب يطلقون «اللة» بمعنى الاحتجاب أو الارتفاع على كل صنم، وعلى هذا الاعتبار يعنى به المعبود. سواء أكانت اللة المناة أو العزى أو الأصنام التي كانت عند زمزم المكرم.

إساف ونائلة كلها كانت من معبودات العرب الباطلة في الجاهلية، ومعبودات أهل مكة وقد حطمت بتمامها يوم فتح مكة، وعند توسيع الحرم الشريف ترك كبيرها خارج باب السلام تحت موطن الأقدام^(٢).

وبما يروى، أنه عند فتح مكة - اليوم المؤلم للمشركين - وجد خارج كعبة الله وداخلها ثلاثمائة وستون صنما، وكان كل صنم موضوعا فوق قاعدة مصنوعة من النحاس الأصفر.

(١) إن هذه الصخرة ما زالت في الجهة الغربية من مدينة الطائف إلى يومنا هذا.

(٢) كما ذكر أنفا أن الصنم الذي وطئته الأقدام هو هبل، وغالب الظن أن الصنم الذي ديس بالأقدام ليس هبل بل صنم آخر.

إن قائد الأنبياء - عليه أقوى التحايا - أشار بأصابعه الشريفة إلى كل صنم فوقعت كلها على الأرض، وتحطمت أجزاءها، وكان كلما أشار إلى وجه صنم وقع على ظهره وكلما أشار إلى ظهره وقع على وجهه .

عندما حطمت نائلة - خرجت من جوفها عجوز دميمة سوداء الوجه عارية، وأخذت تنوح وتولول، وقال سلطان الدين - عليه سلام الله المعين - مخاطبا أصحابه ومشيرا إلى العجوز - هذه هي نائلة التي يتعبد لها المشركون، وإنها تنعى نفسها وتبكي لأنها لن تعبد بعد اليوم .

قد جمع إبليس الأكبر - ولم يستطع صبورا على ما جرى - وأخذ يصرخ بحرقة حتى جمع أتباعه الشياطين حوله .

إخطار:

ينقل أن الشيطان قد صرخ وبكى وصاح مرتين قبل هذا - أول مرة عندما لعن من قبل الرحمن، والمرة الثانية عندما صلى النبي - ﷺ - أول مرة .

ومما يروى عن الإمام الشافعي - رضى الله عنه - أن الشيطانين اللذين نالا شرف الإيمان: أحدهما قرين نبي آخر الزمان، والآخر ملازم نوح عليهما السلام^(١) .

معلومات خاصة بالجن والشياطين

من الوجهة الأولى إلى هذه الصفحة كتبت بحوث وحكايات - كلما جاءت المناسبة - عن الجن والشياطين وكان بعض الجن يحلون في الأصنام والأوثان ويخبرون على لسانها بأخبار الغيب التي يطلعون عليها بالاستراق إلى الملأ الأعلى . يخبرون أهل الجاهلية الذين كانوا يتعبدون للأصنام، وحتى تؤيد هذا الادعاء سردنا هنا بعض الحكايات المروية والموثوقة، كما ذكرنا وقيدنا بعض الآيات والفقرات المسجوعة المسموعة من الأصنام، ولا حاجة إلى إثبات وجود الجن والشياطين لأصحاب الفضل والإيمان .

(١) وفي الكلام عن الجن تفصيل ذلك .

ولأن كتاب «مرآة الحرمين» قد يقع كذلك فى أيدي العوام من الناس، رأيت وجوب إيراد معلومات خاصة بالجن والشياطين فى هذا المقام.

فيا أيها القراء الكرام!! لا تعجبوا من وجود الجن والشياطين وما ينسب إليهم من أقوال، فقد ورد ذكر الجن والشياطين فى القرآن الكريم، كما رويت أشعار نسبت إلى الأصنام، وأخبر صحابة النبى الكرام بما روى من أشعار وأسجاع هاتين الطائفتين من المخلوقات لأن لهما القدرة على التشكل فى هيئات مختلفة، ويتكلمون بكل اللغات، ويقلدون البشر فى أصواتهم كما أنهم يضلون الناس عن سواء السبيل، وبين قبائلهم وعشائرتهم نزاع وصراع وحروب، وكانوا يسترقن السمع إلى عهد النبى ﷺ ثم منعوا من ذلك.

ومما جاء فى كتاب (اليواقيت والجواهر) لعبد الوهاب الشعرانى: «إن وجود الجن ثابت بالقرآن الكريم والكتب المنزلة الأخرى، ويصدق من الخلف إلى السلف، وإن هذه الطائفة مخلوق ناطق يأكلون ويشربون ويتزوجون ويلدون».

ويقول الشيخ أبو طاهر القزوينى: «إن ما يدل على وجود الجن تخيل الناس آثارهم الخفية، وينكر المعتزلة وجود الجن، ويقولون إن الجن هم دهاة الناس، كما أن الشياطين هم المردة من الناس، وأولوا ما جاء فى القرآن الكريم عن وجود الجن وأوصافهم».

سؤال: من كم أصل يتكون المخلوقات عامة؟

جواب: يتكون الخلق من أربعة عناصر وفق قول الإمام الماوردى. وهى: الماء، التراب، الهواء، والنار.

المخلوقات الخفية من الهواء والنار، والمخلوقات الظاهرة من الماء والتراب. والنار، كما هو معروف، تتكون من الغور واللهيب أو الشعلة والدخان، والنور ضياء محض والدخان ظلام محض، والشعلة مارج متوسط - يعنى شر محض - وبما أن الله - سبحانه وتعالى - خلق الجن من مارج من النار فهو ينتسب إلى الملائكة من الناحية النورانية، كما ينتسب إلى الشياطين من ناحية الظلمة

والدخان، ومن هنا كان من الجن من هو مطيع ومن هو عاص، ومن هو مؤمن ومن هو كافر، وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: ٢٧) وقد اختلفوا في هذه النار ولذا قال بعضهم إنها نار الشمس، وقال الآخرون إنها نار البرق.

لننتقل للبحث عن إبليس:

هل إبليس من الملائكة؟ أم هو من الجن؟ وقد اختلف في هذه المسألة أيضا. بناء على رأى فريق أن إبليس كان من طائفة الجن التي استكبرت على وجه الأرض وعصت، وقد سل الملائكة سيوفهم وأسروا إبليس وساقوه إلى السماء وبهذا دخل في زمرة الملائكة وإذا ما قلنا إن إبليس من الجن والملائكة تكون قد أصبنا الحقيقة الآن.

وبناء على قول فريق آخر إن إبليس من حيث الفعل من الجن ومن حيث النوع من الملائكة، فهو من ناحية فعله من الكفار.

يقول الإمام الماوردي في كتابه المسمى (النبوة) وهو ينقل أقوال المنكرين: «إن خالق الكائنات خلق سكنة البحر والبر مثل الإنسان والنعامة والحيوانات المفترسة والطيور العادية والحشرات من الماء والطين كما خلق الحيوانات التي تعيش في داخل الماء مثل الضفدع والسماك من نباتات الماء وأن هذه الأجناس الأربعة التي خلقت من أربعة من أصول صاعدة مثل الملائكة والجن فهم الصاعدون، واثنين من الأصول الأربعة هابطة مثل حيوانات البر والبحر فهي من الهابطة.

وقد اعتذر الإمام الماوردي عن نقله هذا الكلام قائلا: «إن ما ينقله ليس من رأيه ولكن هدفه من نقل هذا الكلام أن يفحم خصمه ويسكته بنقل ادعائه وكلامه».

وقال الشيخ أبو طاهر - رحمه الله - مرة أخرى: إن هؤلاء الجن عندما تكتمل صورتهم تزول صورتهم الأصلية بالقدرة الإلهية، يتشكلون بشكل آخر لا يشبه صورتهم الأصلية.

كما أن الإنسان قد تحول إلى لحم وعظم وبشرة بعد أن غابت عنه صورة الماء والطين والتراب، وكما اختلفت أشكال الحيوانات المفترسة والطيور والحيوانات الأخرى، وتشكلت بأشكال متغيرة كذلك زالت من الملائكة والجن والشياطين صورة الهواء، وداخلهم مكون من مصنوعات العالم - جل شأنه - إلى أشكال وهيئات لطيفة خاصة بهم لذا يطلق عليهم المخلوقات الروحانية.

إن المخلوقات الروحانية تتميز بعضها عن بعض بأشكال لطيفة خاصة بكل نوع؛ إلا أنه لا يعرف هيئاتهم إلا خالق العالم - سبحانه وتعالى - إذ يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (المدثر: ٣١). إن تشكل المخلوقات الروحانية ودخولهم إلى صور متنوعة نستطيع أن نشبهه بتغيير ملابسنا.

وإن هذه المخلوقات الروحانية تمر في هواء الجو مثل علائم السماء المخضرة المحمرة أو المصفرة أو ألوان أخرى مختلفة. كما أن «عبد الله بن عباس» بينما كان جالسا في المسجد النبوي الشريف مع والده رأى بمفرده صورة الرسول - ﷺ - مع جبريل، ولما أخبر الرسول - ﷺ - بذلك أخبره أنه سيصيبه العمى ولكنه سيفقه في أمور الدين ويتفوق في التأويل والتفسير.

إن الله - سبحانه وتعالى - قد قدر لهذه المخلوقات أوضاعا تستطيع بها أن تتشكل بصور مختلفة وقت ما تريد مثلما نحن نقدر أن نغير ملابسنا وقتما نشاء تغيير الملابس لنا وتغيير الصور لها. وكل موجود يتصرف بالشكل الذي قدر له فإن ملابسنا الثقيلة تتكون من الصوف والمنسوجات والحرير وملابس المخلوقات الروحانية تتكون من المنسوجات اللطيفة مثل الهواء والأشعة ومع ذلك فأجسام الملائكة والجن أخف من الهواء و أرق منه.

وعندما يريد الله - سبحانه وتعالى - أن يرى لنا الملائكة والجن يجعل للهواء كيفية خاصة ويأمر الملائكة والجن أن يتشكلوا بالشكل الذي يريدونه فيشاهدهم الناس حينئذ على الشكل الذي تشكلوا به.

قال الله - تعالى - في حق الملائكة: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ (الأنعام: ٩).

وإن كان من المستحيل أن يتحول الملك في الحقيقة إنسانا ولكنه يدخل في شكل الإنسان بواسطة الهواء، لأن الهواء إذا تكاثف مثل السراب يمكن رؤيته. وإذا قيل ما معنى قول الله - تعالى - : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٢٧). يجاب بأنه لا يمكن رؤية الجن على شكله الذي خلقه الله سبحانه وتعالى؟ ولكن يمكن رؤيته على شكل الكلب أو الهر بل إن رؤيته على هذا الشكل هو ما يحدث في أكثر الأوقات.

تفضل الشيخ الجليل وقال: «إن واحدا من الجن وجه إلى سبعين سؤالا خاصا بالتوحيد وطلب منى الإجابة بعد أن تشكل على شكل فصيلة الكلاب التي تسلم من الدنس وحدث ذلك في ليلة من الليالي وقد غسل فرش المسجد الجامع بالماء والطين وطهره ظنا منه أنه كلب حقيقى».

قد أجبت على أسئلة الجن فى تأليفى اللطيف المسمى بـ «كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجن».

وإذا ما قيل «هل سيحتجب الجن منا فى الجنة أيضا؟» يجاب عليه: بأن الأمر سينعكس فى الجنة كما أننا لم نرهم فى الدنيا وهكذا لن يرونا فى الجنة من حيث نراهم نحن كما أن بعض الخواص منا يراهم فى الدنيا وهكذا سيرانا بعض الخواص منهم».

سؤال - هل تتغير أصواتهم وفق تغير أشكالهم أم تظل أصواتهم الأصلية دون تغير؟

جواب - تتغير أصواتهم وفق الشكل الذى يتشكلون به إنسانا كان أو بهيما أو حيوانات أخرى.

سؤال - إذا ما تشكل الجن بصورتنا هل يستطيعون أن يتلفظوا بكل الحروف كما نتلفظ نحن؟!

جواب - تطابق بعض حروفهم حروفنا بينما تخالف بعض حروفهم حروفنا عند الحديث لأن أجسامهم اللطيفة لا تتحمل الحروف الغليظة والصلبة التي نلفظها.

سؤال - كيف نستطيع أن نفهم كلامهم ناقص الحروف؟

جواب - إنهم لا يتحدثون بحقيقة حروفنا بل بالحروف المماثلة لها، فإذا تكلموا بحقيقة حروفنا وأنقصوا حرفا من كلامهم لما فهم منهم شيئا.

سؤال - هل يستطيعون الحديث بكلامنا وهم متشكلون فى صورة غيرنا؟

جواب - لا يستطيع أى مخلوق روحانى أن يقوم به إلا إذا كان شيئا خارقا للعادة.

سؤال - قيل فيما سبق «خلق الجن من مارج من نار» والمارج معناه المختلط ما كنه هذا الاختلاط؟

جواب - المارج «نار تحتوى على مواد رطبة ومن هذه ينشأ اللهب والشعلة اشتعال الهواء لذا تحتوى على الرطوبة.

سؤال - الشياطين هم المردة والأشقياء من الجن فلم يدخلون فى كلمة الجان اسم الجنس؟

جواب - إن سبب دخول الشياطين فى اسم الجنس لأن الجان مخلوق بين الإنسان والملائكة.

الجان مخلوق عنصرى وهذا هو علة تكبره - لو كان خلق طبيعيا خالصا لما تغلبت عليه طبيعته العنصرية ولظل دون تكبر مثل الملائكة.

الجان مخلوق برزخى فى نشأته. فهو يحتجب ويتشكل فهو أقرب إلى الأرواح النورية لاحتوائه على لطافة النار من جهة كما أن له وجهة أخرى عن طريق النيابة فهو من عنصر الرماد كما أشار إليه الإمام الماوردى رحمه الله.

ويجرى الشيطان فى جسم الإنسان مجرى الدم، ولكن الإنسان لا يشعر به، لو لم ينهنا لذلك النبى - ﷺ - لظلت ملابس الشيطان لنا وإلقائه الوسوسة فى صدورنا مجهولا لدينا. إن الشياطين لا يظهرون لنا إلا فى حالة تجسمهم إلا أنهم أكثر قدرة على الاستتار من الجان.

سؤال - ما الفرق بين الجسد والجسم؟

جواب - هناك فرق بين الجسم والجسد: والجسم يرى عادة، فهو إما لطيف لا يرى وأما شفاف أو كثيف.

وأما الجسد فهو حالة المخلوقات الروحانية حينما تظهر في اليقظة بالأجسام. وبعض الأجساد تظهر في صورة تشبه الأجسام في شعور النائم ومع هذا كل ما ذكر ليس أجساما بذاته ونفسه.

سؤال - هل صورة الجن أو الملك هي عين صورتها عندما يظهران ويشاهدان؟

جواب - نعم إن الملك والجن هما حقيقة نفسيهما كما أن الكلام المكون من الحروف والأصوات في الحقيقة كلام الله. قيل لأحد الناس عرّف الجن فقال: «إن الجن حيوان ناطق هوائى».

سؤال - هل هناك من الجن من لا يصدق القسم الذى يحلفه الإنسان بأسماء الله تعالى الحسنى؟

جواب - نعم يصدقون جميع الأيمان التى تحلف بأسماء الله - بخلاف الإنسان - إذ ليس بمقدورهم ردها.

يقول الشيخ أبو طاهر «إن الجن لا يتخاير ولا يجاوب إلا بالرقى إذا ما قرئت رقية على مجنون فكأنك تلقى على الجن شعاعا من الشمس فيضطر إلى الطاعة وتمنعه من العصيان. قد سخرت لسيدنا سليمان - عليه السلام - الريح كما سخر الجان. إن الجان مخلوقات بالغة اللطف والدقة والرقه والخفاء حتى إذا اختلطت بالفضة المذابة فى البوتقة فتسبب الرجرجة والاضطراب كما يسبب للإنسان الذى يحل فى جسمه. وعندما تقرأ الرقى على مجنون يزعجونه وهذا ثابت بالحديث الشريف الذى يخبرنا بأن «الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم».

سؤال - ما الدليل على أن الجن مكلف بالإيمان؟

جواب - الدليل هو قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

وقد رأى النبي - ﷺ - سبعة نفرٍ من الجن تحت نخلة ثم خط خطا حول عبد الله بن مسعود وأمره بالألا يخرج من هذه الدائرة.

يقول عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه: «قد استمعت إلى نبي الإنس والجان - ﷺ - وهو يحاكمهم ويفصل منازعاتهم كما سمعت أصواتهم». ثم علمهم النبي - ﷺ - «سورة الرحمن» كما جاء فى كتب التفسير وأمرهم بأن يؤدوا الصلاة.

سؤال - هل هناك دليل على دخولهم الجنة؟

جواب - نعم يدخلون، فقد سئل ابن عباس مثل هذا السؤال وبعد ثمانية أيام من البحث والتدقيق أجاب أن قول الله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئُنْ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن: ٥٦). دليل على دخول الجن فى الجنة.

قال الضحاك: إن الجن يدخلون الجنة ويجازون وفق أعمالهم مثل الإنس. وقال «سفيان» إنهم سينجون من النار بثواب إيمانهم ولكنهم سيمثلون لقول الله - تعالى لهم «كونوا ترابا».

وبناء على قول الشيخ أبى طاهر أن أكثر الجن لا يعتقدون فى البعث كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ (الجن: ٧).

سؤال - هل سيظل الجن ممنوعا من استراق السمع منذ بعثه النبي - ﷺ - إلى يوم القيامة؟! أم المنع لوقت معين؟

جواب - الحقيقة أنهم سيمنعون إلى يوم القيامة، وبما أن الشهب تحرقهم عن الاستراق لذا لن يستطيعوا أن يخبرونا بأخبار الغيب.

سؤال - ما حقيقة الشهب؟

جواب - هناك قولان فى هذا الخصوص:

١- أن الشهب نور بعد ما يحرق بشدة نوره الجن، يعود إلى مكانه ثانيا.

٢- أن الشهب نجوم، تنزل من تحت السماء فتحرق الجن ولا تعود.

سؤال - هل إبليس أبو الجن كما يروى فى أقوال الناس؟

جواب - ليس إبليس أبا الجن. بل وجد الجن قبل إبليس ولكن إبليس أول العصاة.

سؤال - ما مدى قدرة إبليس؟

جواب - عمل إبليس هو أن يأتى الناس من حيث لا يشعرون ويهلكهم أو يلقي فى قلوب الناس الوسواس بحيث ينقص منزلة الناس عند الله، وإبليس لا يستطيع أن يؤثر فى عباد الله المؤمنين الأتقياء ولا أن يتسلط عليهم كما بينه الله - سبحانه وتعالى - ولكنه يتسلط على الغافلين عن وحدانية الله ومن يشركون به. إن الذين يتجنبونه ويحذرونه ولا يتبعونه ينجون من دسائسه وكيده.

وما أعظم دسائس إبليس وما أشدها وأكثرها فإذا ما انصرف الإنسان عن دسيسته من دسائسه فإنه يأتية من طريق آخر ويسلك جميع السبل ليحمل الإنسان على اتباع طريق العصيان.

ومن جملة دسائس إبليس أنه يحمل للناس كشوفا صحيحة وعلوما تامة ويحاول أن يخفى الذى يقوم بهذا العمل، ومن إحدى دسائسه أنه يكشف للناس معاصى الآخرين ويهتك خفاء الأشياء ويظهر عورات الناس والشخص الذى يطلع على مثل هذه الأحداث يظن أنه وصل إلى درجة عظيمة من الفراسة دون أن يعرف أنها عطية الشيطان له وقد أصبح الشيطان سمعا له وبصرا.

إن مثل هذا العبد يجب أن يبادر بالتوبة حتى لا يكون من الهالكين.

ومن دسائس إبليس الخفية لأكثر الأولياء. هو الظهور فى قلب الولي وأن يدخل حيث يتوجه إليه بالتضرع والابتهاج فيدخل العرش حيناً والكرسى حيناً والسماء حيناً آخر. وإذا كان فى علم الله أن ينجى هذا العبد عرفه أن كل هذه من حيل الشيطان، وهكذا يخيب إبليس فى سعيه ويضيع وقته سدى أما إذا لم يحفظ الله - سبحانه وتعالى - عبده هذا - نعوذ بالله - فيكون من الهالكين.

سؤال - هل يتسلط الشيطان لظاهر الإنسان أو لباطنه؟

جواب - إن شياطين الجن يتسلطون لباطن الإنسان بينما يتسلط شياطين الإنس لظاهرة وباطنه وإذا ما وقع إغواء أو وسواس لظاهر الإنسان من قبل شياطين الجن إنما يقع بناء على إذن من شياطين الإنس.

سؤال - هل عداوة الشيطان أكثر شدة لأبى البشر أم لذريته؟

جواب - عداوة الشيطان أكثر لبني آدم، لأن بني آدم خلقوا من ماء والماء ضد النار واليابس يجمع بين آدم وإبليس، فقد خلق أحدهما من التراب والآخر من النار واجتماع التراب مع النار ليس كاجتماع الماء والنار. لأجل ذلك صدقه عندما أقسم أنه كان ينصح آدم ولكن الأنبياء ذوى الشأن لم يصدقوه لأنهم خلقوا من مادة مضادة للمادة التي خلق منها الشيطان.

وقد سلحنا الله - سبحانه وتعالى - بعلامات تقوم مقام «البصر الظاهر» وأودعها في قلوبنا بواسطة الشرع الشريف حتى نقاوم هذا العدو الشرس كما جند الملائكة في عالم الغيب لحراستنا.

سؤال - يخبروننا أن هناك نوعا من الشيطان ليس بإنس ولا جن، هل هذا الخبر صحيح؟

جواب - نعم إنه صحيح. إن الشيطان فى جميع أحواله شيطان - صحيح، أن الشيطان فى جميع أحواله شىء حسى ويمكن أن يكون معنويا أيضا. وهذا يحدث عندما يجتمع أبليس الجن مع شياطين الإنس ويتحاورون ويتشاورون فيما بينهم عندئذ يظهر شيطان جديد معنوى.

سؤال - ما الفرق بين هؤلاء الشياطين الثلاثة؟

جواب - إن شياطين الإنس أو الجن يفتحون أبوابا فى قلوب العباد للتوجه لغير الله - سبحانه وتعالى - بوساوسهم، أما الشيطان المعنوى فيستنبط من هذه الوسواس شبهات وضلالات لا يستطيع أن يستنبطها لا إبليس ولا غيره.

ويتخذ الشيطان أحيانا جسما إنسانيا ويبدل جهده لإغواء الناس وإضلالهم، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ (ص: ٣٤).

والمثل على ذلك يأتي الشيطان ويحاول أن يخالف العبد أوامر الله وإذا ما رأى أن دسيسته لن تقبل، يغير طريقته قائلا: «إن الله - سبحانه وتعالى - لن يؤاخذك إذا فعلت كذا» محاولا خداعه، وإذا ما أحس أنه لن يفلح في هذه الطريقة أيضا يقول بحسن نية «إنك إذا أحسنت ظنا بالله تعالى فهو لا يؤاخذك لأنك عبد الله سواء في طاعتك أو عصيانك والله - سبحانه وتعالى - يصنع شيئا ويقدره».

إن الشيطان يعلم جيدا أن المؤمن لن يعصى الله بدون تأثير خارجي كالتأويل والتزيين والوسوسة. لو كان المؤمن يعصى الله بدون وسوسة إبليس لما أوجد الله - سبحانه وتعالى - الشيطان.

سؤال - كيف يتناكح الجن؟

جواب - إن تناكح الجن يشبه تداخل الأدخنة المنبعثة من فرن للفخار، ويتلذذ الشخصان بتداخل بعضهما في البعض ويشبه حملهم بتلقيح النحل ويتم بمجرد الرائحة.

سؤال - هل للجن قبائل وعشائر مثل الناس؟

جواب - نعم لهم قبائل وعشائر. وقد قامت فيما بينهم حروب كبيرة. وما نعرفه ونراه من الأعاصير ما هي إلا أثر من آثار حروبهم، وأحيانا يسدون الطريق لهبوب الرياح في أثناء حروبهم فتنتج عنه قيام الأعاصير المثيرة للتراب والغبار، ولكن ليس كل إعصار نتيجة لحروب الجن.

سؤال - من الذى سمي أولا باسم الشيطان؟

جواب - أطلق على شخص اسمه الحارث. وقد عصى الحارث هذا ربه فطرده الله - سبحانه وتعالى - وتناسل الشياطين كلهم منه. ولكن من آمن منهم مثل «هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس» التحق بصنف الجن المؤمنين ومن ثبت منهم على الكفر ظلوا شياطين.

- حكاية:

هناك كثير من الجن قد نالوا شرف اللقاء مع الأنبياء العظام - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام - وبناء على رواية منقولة عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن أحد الجن قد جاء إلى رسول الله - ﷺ - فى وضح النهار وطلب منه أن يتفضل بتعليمه القرآن الكريم.

قال أنس - رضى الله عنه - وهو ينقل هذه الحادثة:

كنا نتنزه فى يوم من الأيام بجوار المدينة المنورة مع النبى - ﷺ - فظهر أمامنا رجل عجوز وأقبل يسير نحونا وإذا به جن قد تشكل فى صورة إنسان. قد أخبرنى النبى - ﷺ - بأنه من طائفة الجن. ولما أتى إلى جانبنا بدأ حوار بينه وبين الرسول - ﷺ -

الرسول - ﷺ -: إن هذا السير سير الجن.

الرجل العجوز: نعم يا رسول الله.

الرسول - ﷺ -: من أى جن أنت؟

الرجل العجوز: من هامة بن همام بن لاقيس بن إبليس.

الرسول - ﷺ -: إذن بينك وبين إبليس أبوان؟

الرجل العجوز: هو كذلك يا رسول الله.

الرسول - ﷺ -: ما عمرك؟

الرجل العجوز: قد أمضيت عمر الدنيا كلها - حينما قتل قابيل هاويل كنت

بلغت بضعة أعوام وفى تلك الأوقات كنت أمضى أيامى بصيد البوم فوق الهضاب، وإفساد الأطعمة المطبوخة أو إثارة النزاعات بين الناس.

الرسول - ﷺ -: أقبح به من عمل!!

الرجل العجوز: لا تلمنى يا رسول الله! إننى أسلمت أمام نوح - عليه السلام

- وتعرفت على هود - عليه السلام - وصاحبت إبراهيم - عليه السلام - في المنجنيق ويوسف - عليه السلام - في البئر، وتشرفت بصحبة المسيح بن مريم - عليه السلام - وطلب منى عيسى - عليه السلام - أن أبلغك سلامه .

الرسول - ﷺ - عليه السلام - ما طلبك منى؟

الرجل العجوز: قد علمنى موسى التوراة الشريفة وعيسى الإنجيل المنيف وأتمنى لو تعلمنى القرآن الكريم، وفى نهاية هذا الحوار تفضل فخر الكائنات عليه السلام بتعليم العجوز القرآن الكريم، وبعد ذلك عاد العجوز بعد أن ودع الرسول ﷺ .

- حكاية:

عندما أضاءت بعثة الباعث لخلق الكائنات - عليه وعلى آله أفضل التحيات - الأقطار الحجازية بالهداية والنور، سرت شرارة نار الفتنة والانشقاق بين سكان «أم القرى» وبين عربان البادية مما حمل الناس على نقل أمتعتهم من مكان إلى آخر وفى أثناء هذه الفوضى تشكل مسلمو الجن بأشكال مختلفة، وأخذوا يعلنون أن نبي الثقلين قد بعث وحاولوا أن ينشرو الإسلام .

وقد أسلم خال الصحابى الجليل ربيعة بن أبى براء فى تلك الآونة فى صورة غريبة .

ينقل لنا حضرة ربيعة بن أبى براء - رضى الله عنه - سبب إسلام خاله بصورة غريبة ويقول:

عندما ألبس السلطانُ الكريم السير - عليه وعلى آله صلوات الله الأكبر - خلعة النبوة رأى خالى أخو أمى ثعبانا مخيف الشكل وأسلم من خوفه وعندما حكى لى هذه الواقعة قال لى:

بينما كنت أنتزه فى الحقول رأيت حية مخيفة وكانت تطارد ثعلبا ضعيفا فأردت أن أنقذ هذا الحيوان المسكين فأخذت من فوق الأرض حجرا إلا أن الثعلب وقع على الأرض فجأة وهلك . ولكن الثعبان أيضا قد قطع نفسه وكان الحجر الذى أخذته من فوق الأرض مازال فى يدي .

فقلت إن الثعلب المسكين قد مات من شدة خوفه من الحية. ولكننى لم أجد تفسيراً لموت الحية منقطعة إرباً وهذا ما حملنى إلى تفكير عميق، وبينما أنا غارق فى حيرتى سمعت صوتاً يقول: «ما أتعسك!! لأنك تسيبت فى قتل نفس» وفى عقبه سمعت من ينادى:

«يا دائر» فانتبهت واتجهت صوب الصوت الذى ينادى لأعرف ماذا سيكون رد دائر وفى ذلك الوقت ظهر دائر قائلاً: ماذا هناك؟ وعندئذ تلقى دائر الأمر الآتى اذهب إلى بلاد بنى عذافرة^(١) وأخبرنا عن مدى جرأة هذا الكافر وما الجناية التى ارتكبها فزادت حيرتى إذ سمعت الهاتف والجواب الذى تلقاه وزاد خوفى وفزعى فنظرت حولى فاضطرت أن أوجه الخطاب إلى جهة الهاتف الغائب إذ لم أجد ملاذاً ولا ملجأً.

فقلت - يا هاتف! أنا لم أقترف ذنباً ولم أقدم على جناية عمداً!

فقال - كنت سبياً فى قتل نفس.

فقلت - لا علم لى بهذا!

فقال - ولكن عندى علم بذلك.

فقلت - أنا أعوذ برحمتك.

فقال - ماذا تريد أن تقول؟

فقلت - اعف عني.

فقال - أفى الإمكان عفو كافر قتل نفساً مؤمنة؟

فقلت - أنا مسلم.

فقال - إذن تكون قد نجوت.

فقلت - أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقال - نجوت، نجوت. ألا تستطيع أن تعود من حيث جئت، إن الحوار الذى

(١) عذافرة اسم قبيلة من الجن.

جرى بينى وبين الهاتف الغائب أدى إلى فائدتين، أسلمت ونجوت من الموت. وقد اهتز جسمى من الفرح وزادت حيرتى ودمعت عيناي، ولما أردت أن أعود إلى عملى إذا بى أتلقى الأمر الآتى «اركب الوحش بن الذئب واذهب حيث يسكن أبو عامر» فركبت الوحش الذى ظهر بجانبى وصعدت فوق الجبل العظيم الذى كان أمام طريقى وبعد مدة هبطت إلى الناحية الأخرى من الجبل، ولكن هنا ظهر أمامى فارسا وقال لى لا تتحرك، وسلم سلاحك. إن أمر الفارس الشديد قد أثر فى جسمى المضطرب وظننت أن حياتى قد قضى عليها، فاضطرت لتسليم سلاحى له. وقال الفارس بعد ما أخذ سلاحى.

- من أنت.
- أنا مسلم.
- السلام عليكم.
- وعليك السلام - فليجعلك الله - سبحانه وتعالى - فى ظل رحمة أبى عامر وحمايته.
- ومن أبو عامر؟
- أنا أبو عامر.
- معذرة، لم أعرفك.
- لا بأس - بشرى لك!! لا مجال للخوف لأهل الإيمان فى هذه البلاد.
- قد سرنى ما أخبرتنى به.
- كنت راكبا فوق الجبل. لماذا بقيت الآن مترجلا؟
- أين ركابك؟
- وهنا وقفت وانتهت لى لى وحكى لى لى كل ما جرى بالتفصيل فأخذنى من يدى وأوصلنى إلى مقر جماعة الهوازن^(١) استودعنى هناك وعاد إلى بلده.
- انتهى.

وكل هذه القصص تدل على صحة ما ينقل عن إسلام بعض الجن.

(١) إن هوازن بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خَصَمَةَ بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهو أب لقبيلة كبيرة وأولاد هوازن بكر وسبيع، وحرب، ومنبّه، ولاعقب لسبيع، وحرب ابنى هوازن.

وقد أخبر الشيخ عبد الوهاب الشعراني عن وجود المسلمين والكفار من الجن، ويتفضل بالاستمرار في حديثه ليبين هل هناك بين كفار الجن من يعتقدون الإسلام.

سؤال - هل يستطيع الشياطين الذين كفروا أن يصبحوا مؤمنين بعد قبولهم الإسلام؟

جواب - هذا موضع خلاف بين العلماء. وسبب الخلاف الآتي: قال رسول الله - ﷺ - ما من أحد إلا وله قرين يأمره بالسوء، فقال الأصحاب الكرام: وأنت يا رسول الله فقال مجيباً: «نعم ولكن الله أعانني عليه فأسلم» (حديث شريف).

فاختلف حفاظ الأحاديث في حركة حرف الميم في «فأسلم» فقرأها بعضهم بضم الميم ويكون معنى الحديث عندئذ إنني أنجو من شره وقرأها بعضهم بفتح الميم وأشاروا إلى أن قرين الرسول - ﷺ - قد قبل الإسلام ديناً. وأيد بعض أئمة الحديث هذا المعنى برواية الخبر اللطيف الذي يقول: «فلا يأمرني إلا بخير». (١)

ولكن لا يمكن لإبليس أن يسلم بدليل حكم هذا الحديث، لأن الله - سبحانه وتعالى - قد لعن إبليس إلى يوم القيامة.

سؤال - ما دام إبليس أول العصاة هل يجب أن يتساوى مع قاييل؟

جواب - نعم وهو كذلك. فقاييل أول أشقياء بنى البشر كما أن إبليس أول عصاة الجن، ألم يقل الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف: ٥٠). ومعناها أن هذا المخلوق من جنس العصاة.

سؤال - قال الله - سبحانه وتعالى - في كتابه المنزل على لسان إبليس ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحشر: ١٦)، ألا يشير معنى الآية الكريمة إلى أن إبليس موحد في أعماق نفسه؟

(١) أخرجه مسلم في ٥٠ كتاب صفات المنافقين، (١٦) باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم ٦٩، ٧٠ ص ٢١٦٨ والبيهقي في الدلائل ٧/ ١٠٠-١٠٢ (الروايتين) وانظر الهامش بدلائل النبوة ٧/ ١٠٠-١٠٢.

جواب - لا يدل هذا على توحيده، لأنه هو الذى كان سببا فى وجود الشرك. وإذا فرضنا أنه قد وحد فى ذلك الوقت، فمن المحتم أنه بعد قليل أصبح كافرا.

سؤال - الكفر الذى يأمر به إبليس ليس شركا: لأن الكفر هو اتخاذ المخلوق إلهًا آخر غير الله بينما الشرك هو جعل مثل وند الله - سبحانه وتعالى - وعلى هذا التقدير فكيف يكون إبليس أوجد الشرك؟

جواب -: إن المقصود هنا من الكفر هو الشرك، كما قال لقمان مخاطبا ابنه. وقال الله - تعالى - ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة: ٢٩) والمقصود من الظالمين هنا هم المشركون. وكذا تفضل الله - سبحانه وتعالى - جل من قائل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣)، وقال ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (الأأنعام: ٨٢)، إن المقصود والظاهر من كل هذه الآيات هو التوحيد ومقابل الشرك هو التوحيد.

سؤال - الجلوس مع الجن مذموم أم محمود؟

جواب - مذموم وليس بمحمود. فالعلماء الذين يجيزون الجلوس معهم جهلة، لأن الجن فضوليون كفساق الناس فبما أن العاقل يفر من مجالسة الفساق يجب عليه أن يفر من مجالسة الجن، وفى الواقع - لكون أصلهم من النار - فهم كثيرو الحركة ومن هنا فهم ميالون للفضول. فجلساء الجن لم ينالوا خيرا وإن شرهم لشديد لجلاسهم وإنهم كفساق البشر يحاولون أن يطلعوا على عورات الناس وهذا ليس من شأن العقلاء.

ويقول الشيخ محيى الدين - قدس سره - فى باب ٥١ من الفتوحات لم يستطع أحد أن يعلم شيئا عن الله - سبحانه وتعالى - بمجالسة الجن، لأن الجن أجهل من الناس بصفات الله تعالى والعالم الطبيعى، ويمكن أن يتخيل جلاس الجن أنهم يستطيعون الاطلاع على أحداث العالم ووقائعه لكن هذا الموضوع مرتبط بإرادة الله وكرمه مهما يعلمون فقط بعلم السيماء الخاص بالنباتات والأحجار والأسماء والحروف والذين يتعلمون هذا يتعلمون ما ذمته الشريعة الإسلامية. لأن الذين يجالسون الجن يكتسبون صفة التكبر والله - سبحانه وتعالى - قد ذم المتكبرين ونص على دخولهم النار. انتهى.

هذا وإن كان أهالى مكة المعظمة انشغلوا بالتعبد للأصنام إلى يوم الفتح، إلا أنهم كانوا يحترمون الكعبة المعظمة حق الاحترام ويرعونها.

كما أن عرب الجاهلية يقدون إليها فى مواسم الحج من جميع جهات الجزيرة ويقومون بأداء الحج.

وكانوا يبنهون أولادهم بأن يتجنبوا ارتكاب المعاصى والبغى والشقاوة، ويغرسون فى قلوبهم احترام بيت الله ويأمرونهم بمراعاة حرمة بيت الله والابتعاد عن جميع ما يسئ إليه وإلى مكة المكرمة وينشدون القصائد فى مدح بيت الله ويحرصون على تفهيم أولادهم كيفية احترام الملك التابع لبيت الله الحرام وكيف هلك الجبابرة من الأسلاف الذين أساءوا إلى البيت، وخاصة كيفية هلاك أصحاب الفيل الذين أتوا لتخريب البيت الحرام.

وقد أدرجنا هنا بعض الأبيات من القصيدة المطولة التى قالتها سبيعة بنت الأَحَبِّ بن زينة بن جذيمة بن عوف^(١) بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَةَ بن قيس عيلان لابنها «خالد» بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة فى تعظيم بيت الله، وذلك لثبث صدق مدعانا.

الأبيات:

أبنى لا تظلم بمكة	لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بُنى	ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكة	يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه	ويُلْحُ بخديه السعير
أبنى قد جربتها	فوجدت ظالمها يور
الله آمنها وما	بنيت بعرضتها قصور
ولقد غزاها تبع	فكسا بنايتها الحبير
وأذل ربى ملكه	فيها فأوفى بالندور

(١) انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٨- وسيرة ابن هشام ٢٥/١ ط دار الفكر بتحقيق محمد فهمى السرجانى.

ويظل يطعم أهلها	لحم المهاري والجزور
يسقيهم العسل المصفى	والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه	يرمون فيها بالصخور
والملك فى أقصى البلا	دوفى الأعاجم والجزور
فاسمع إذا حدثت واف	هم كيف عاقبة الأمور ^(١)

إن شدة تقديس أهل مكة للبقعة المباركة لكعبة الله وعظيم تقديرهم لها وكذلك وفود الحجاج إليها من كل فج عميق من أنحاء الجزيرة العربية، ملأ قلوب بعض الملحدین حسداً وغيظاً وحقدًا، لذا حاولوا أن يهدموا بيت الله الحرام وأن يبنوا فى بلادهم كعبة أخرى. ومن هنا كانت قصة أصحاب الفيل المليئة بالعبر قبل ولادة النبي - ﷺ - الباهر السعادة بأربعة وخمسين يوماً.

قد أراد «أبرهة» الوثني من حكام اليمن وقد جمع حوله بعض القبائل وأقدم. على هدم وتخريب كعبة الله المعظمة - كما سيأتى تفصيله فيما بعد - ولكنه خر بجيشه وأضمحل.

قصة الفيل العجيبة:

بلاد الحبشة:

قد انقرض ملوك التباة فى عهد أصخمة النجاشى^(٢) وهكذا انتقل حكم اليمن إلى قبضة «أبرهة بن الصباح» الأشرم قائد جيش النجاشى أصخمة نيابة عن ملكه.

وقد انزعج «أبرهة» عندما رأى أن عرب الجاهلية يزورون الكعبة المعظمة فى مواسم الحج متبعين فى ذلك ملة إبراهيم - عليه السلام - الحنيفية، ويفد إليها من الناس من أماكن بعيدة متكبدين فى ذلك مشقات عظيمة.

(١) الآيات فى سيرة ابن هشام ١/٢٦.

(٢) النجاشى لقد أصخمة، إلا أنه علم على ملوك الحبشة مثل قيصر الروم وأكاسرة الفرس. ومعناه فى اللغة النبطية «العطية»، كان النجاشى ملك عظيم القدر وقد آمن بسلطان الملوك نبينا ﷺ وعرض عليه أشواقه فى مكاتباته.

قد تساءل هذا المغرور محدثا نفسه: يا ترى لماذا حاز هذا البناء المسمى بالكعبة كل هذا التوقير والتعظيم من قبل العرب؟! ما يا ترى مكانة هذا البناء وما مدى جماله وزينته حتى يجذب إليه كل هؤلاء الناس؟! .

ولما عرف أن الكعبة بيت من الحجارة المأخوذة من الجبال الكائنة حولها وأنها بناء حجرى عال عزم - بناء على رأيه الفاسد - أن يبني معبدا أعظم وأضخم من الكعبة الشريفة وكتب إلى النجاشى طلبا يقول له فيه إننى أبني بجانب قصر غمدان^(١) فى صنعاء قصرا عظيما رصين البناء فخما يليق بعظمتكم وعلو شأنكم وسوف أجتهد على أن يكون هذا القصر مزينا لا مثيل له فى الفخامة فى العصور السابقة .

وبما أن النجاشى لم يلتق بالرسول - ﷺ - فلا يعد - عند من يشترط اللقاء مع النبى ﷺ - من الصحابة الكرام وإن كان بعض العلماء يعدونه من الذين يؤمنون بالمعاهدة من الأصحاب الكرام. قد مات النجاشى فى رجب من السنة التاسعة من الهجرة وصلى على جنازته فى المدينة المنورة وهذا يرجح كونه من الصحابة .

يروى أن هذا القصر قد هدم فى عهد عثمان بن عفان أو خلافة عمر وقصر غمدان أحد عجائب الدنيا وكان أحد جدرانه الأربعة أصفر اللون والثانى أبيض والثالث أخضر والرابع أحمر اللون داخل هذا القصر، وفوقه قصر آخر من سبعة طوابق وكان بين طوابقه فواصل قدرها أربعون ذراعا وكان ارتفاع جدرانه الخارجى ٣٠٠ ذراع وكان فى كل ركن من أركانه الأربعة صورة أسد فاغر الفاه مكشوف من الأسفل فارغ البطن وعندما كان يدخل الهواء فى أسفله يخرج من فيه محدثا صوتا غريبا شبيها بصوت القنفذ .

(١) قصر غمدان من القصور التى بناها يشرح من ملوك اليمن . وقال بعض الرواة: إن يعرب بن قحطان هو الذى وضع أسسه وأكمله وائل ابن حمير بن سبأ . وقال بعضهم (أن بانيه ضحاك ومع مرور الزمان انتقل أسسه إلى سيف بن ذى يزن)، والرواية الأخيرة أقرب إلى الصحة وقال المؤرخون (أن ضحاکا قد بناء ونسبه إلى «نجم الزهرة» وبناء على هذا فإن قصر غمدان أحد البيوت السبعة التى نسبت إلى الروحانية وسميت بأسماء الكواكب السبع السيارة).

وعندما أرسل أبرهة^(١) الطلب إلى النجاشي أخذ يحضر أسس المعبد وفي ظل نفوذه وقوة دولته أخذ يستدعى من البلاد البعيدة الأساتذة من المهندسين والمتخصصين في فن العمارة وجلب أنواع الرخام الصافية اللامعة كالفضة وأعمدة متنوعة وملونة ومتينة وحجارة قيمة ملونة ذات أشكال مختلفة والحجارة المنتزعة من قصر بلقيس ذات نقوش ومرصعة بالذهب والفضة وبني في صنعاء^(٢) اليمن عاصمة ملكه، كنيسة تثير الحيرة والدهشة بما تحتوى في خارجها وداخلها من اللواقيت والمجوهرات التي رصعت بها الجدران كما صنع فيها منابر مصنوعة من الأبنوس والعاج ووضع في أرجاء الكنيسة المذكورة أصناماً مصنوعة من الذهب والفضة، وعلق في أبراجها نواقيس ضخمة ثم أعلن وأشاع^(٣) في أطراف الجزيرة أنه سيمنع الناس من زيارة الكعبة والطواف حولها وسيجبرهم على زيارة كنيسته هذه.

وبما أن الكنيسة قد بنيت في مكان عال كما كان مبنائها شاهق العلو فأطلق عليها بيت (القليس) إيماء إلى علوها. ثم بعث الرسل يدعون الناس لزيارة الكنيسة والحج إليها.

وكان غرض أبرهة من هذا صرف أبناء العرب عن زيارة الكعبة والحج إليها مرة في السنة ويحملهم على التوجه إلى كنيسة صنعاء باليمن.

وعلى هذا أكره العرب على زيارة بيت الأصنام الذي في صنعاء وتوجهوا إليه وأصبحوا لا يريدون أن يروا وجوه الذين يتحدثون عن هذا المعبد المنحوس، وبناء على كراهيتهم الشديدة لهذه الكنيسة قتل أفراد قبيلة كنانة، الرسول الذي بعثه «أبرهة بن صباح الأشرم» ليدعوهم، فقتلوه رمياً بالسهم.

(١) لم يشر أبرهة في طلبه الذي كتبه للنجاشي إلى عزمه على هدم الكعبة حتى لا يفضبه.

(٢) إن مدينة صنعاء الشهيرة في القسم الخامس من أقسام البلاد اليمنية وعاصمة البلاد الكائنة في هذا القسم وتقع بين درجة (٥) (٢٢) دقيقة في العرض الشمالي وبين (٣٢) درجة و٤٤ دقيقة في الطول الشرقي وفوق صحراء واسعة.

(٣) وقد روى هذه الواقعة أبو الوليد وابن هشام وابن إسحاق وإن كان في أقوال كلهم زيادة أو نقصان إلا أن كلها مؤيدة لرواية ابن إسحاق.

وعندما شاع بين سكان اليمن متانة بيت القليس ورساتته أخذ أبرهة يبعث الرسائل والرسائل إلى سكان اليمن ومن حولها، ويقول مفتخرا مباحيا إننى قد وفقت فى بناء معبد فخم وضخم لن ينس العرب معه اسم الكعبة فقط ولكنهم سيأنفون من ذكر اسمها.

وأخذت مثل هذه الأخبار تنتشر تدريجيا فى بلاد الحجاز حتى ذكرت فى خيم البدو واستثقلها القرشيون؛ لذلك اختاروا شابا بطلا من سادات العرب يتصل بنسب بنى فقيم بن مالك ومن قبيلة كنانة وهو «فيل بن حبيب الخثعمي»، وبناء على القول المختار «قلمس»^(١) بن عبد الله بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمية بن مدركة بن الياص بن مضر» من أهل نسيئة، ومعه رفيق شجاع وذها إلى صنعاء ودخلا فى بيت القليس حيث قضيا حاجتهما ثم لطخا جدرانها بالقاذورات لينفرا أهل اليمن من زيارة الكنيسة، وأرادا بهذا أن يلمحا أن الدار القذرة التى يلجون فيها صبح مساء لا تصلح إلا أن تكون بيت خلاء.

لما عرف أبرهة ما جرى زاد غضبه وحزنه وتآلم جدا، ولما عرف أن الذين تجرأوا على فعل ما حدث هم من سكان مكة المكرمة أقسم على هدم وتخريب الكعبة المعظمة وقال: «إننى أستطيع أن أثار من العرب بهدم البيت المعظم بالفيلة» وأعد جنده وجمع - بناء على قول - فيلين مشهورين، وعلى قول ثمانية أفيال، وفى رواية أخرى عشرة وعلى قول اثنا عشر أو ثلاثة عشر وبناء على روايات أخرى ألف فيل أو أربعة آلاف^(٢) فيل-شجاع كما أخذ معه فيل النجاشى المسمى محمود^(٣) وساق كتائبه وجيشه نحو مكة سنة «٥٧٠م».

اقتنع أبرهة الذى أعد كل هذه الفيلة وكل هذه الحشرات الحشبية لإدارة الأفيال عندما رأى كل هذه القوة بأنه لن يتعب فى هدم الكعبة المعظمة.

(١) قلمس بن عبد الله بن فقيم فهو من أفراد أهل نساء، اسمه الحقيقى «حذيفة» والزمن الذى يتنسب له يقال له «دور نساء» أيضا. قبل ذلك لبنى فقيم لأنهم كانوا ينسأون الشهور. انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٠، ولسان العرب مادة نساء

(٢) كان ثلاثة عشر فيلا من هذه الفيلة مدربين أحسن تدريب بينما كان الباقي من الفيلة العادية.

(٣) كان هذا الفيل أبيض اللون ويسمى محمودا وكنيته أبو العباس.

وكان يسوق أمام جنده أربعة صفوف من الفيلة وكان يظن أنه سينتصر حيثما يتجه بهذه الفيلة ويعتقد أنه لن يجد صعوبة في هدم البيت المعظم وتخريبه .

قد زحف أبرهة نحو مكة الله ومعه ٦٠٠٠٠ (١) ألف أو ثلاثمائة ألف (٢) من الحشرات الحبشية لإدارة وسوق الفيلة وفي رأسه فكرة هدم البيت وتخريبه المستحيلة .

وقابل في طريقه العرب الذين خرجوا للدفاع عن بيت الله ، وحاربهم وداسهم بسنابك خيوله وانتصر عليهم وأسر قوادهم وقيدهم بسلاسل الأسر، وضرب خيامه في مكان بين الطائف ومكة المكرمة المسمى «بمغمس» وأغار على حيوانات أهل مكة واستولى عليها ونهبها .

من الذين رفعوا السلاح في وجه جيش أبرهة أولهم «ذونفر» من أشرف اليمن، والثاني الذي واجهه في أرض خثعم «نفيل» (٣) بن حبيب الخثعمي أو «باعس» وأخوه «غفرس بن أقبل» (٤) ونهران وناهس» تحت قيادة نفيل وبعض أفراد القبائل العربية .

وقد وقع «ذونفر» ونفيل بن حبيب وهما من قواد الجيش وملوك اليمن أسيرين، وتفرق العرب الذين كانوا تحت قيادتهما وقيدا بالسلاسل بأمر أبرهة . ثم فك أسر نفيل بشرط أن يكون دليلا لهم في أثناء سيرهم في أرض العرب .

عندما وصل أبرهة إلى الطائف بدلالة «نفيل بن حبيب ضم مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف» من بني ثقيف أحد أتباعه الضالين إلى جيش أبرهة ليكون دليلا لهم وهو «أبورغال» .

وقد سار «أبورغال» مع جيش أبرهة إلى أن وصلوا إلى مكان يسمى

(١) صاحب هذه الرواية كان يحب أن يبالغ في كلامه لأن ابن إسحاق لم يذكر عدد الفيلة ولا عدد الجنود .

(٢) هذا القول أقرب إلى الصحة، لأنه لم يقصد عدد الجنود بل أراد أن يكتفى عن كثرتهم كما تشير إلى ذلك الآيات التي ستقدها فيما بعد والتي نظمها عبد الله الزبيري .

(٣) نفيل - هو أكمل بن ربيعة بن غفرس وكان من رؤساء قبائل شهران وباعس .

(٤) خثعم لقب أقبل .

«مغمس» حيث تشقق ومات لحكمة ما، والبدو سكان البادية يرجمون حتى الآن قبر «أبو رغال» ويستحرقونه. (١)

اسم ثقيف أبو عوف - قسى بن النبيت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أقصى بن دعى بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان، لما قابل مسعود بن معتب الثقفى أبرهة عظمه وحدثه بفرح وسرور وقال له: «يأيها الملك إننا سندلك على الطريق، إن عامة أبناء قبيلتنا عبيدك وكل ما تأمر به مجاب. . الكعبة التى تريد أن تهدمها وتخربها لا قيمة لها عندنا، إن بيتنا بيت اللات وهو فى الطائف وكل أهل الطائف يعظمون هذا البيت كما تعظم الكعبة ثم قدم لهم «أبو رغال» السالف الذكر ليدلهم على طريق مكة.

عندما انفلق أبو رغال وهلك كان أبرهة قد بعث بكتيبة من الجنود فى رفقة أسود بن مقصود الحبشى الذى كان فى مغمس للتعرف على أحوال مكة المكرمة، عندما وصل هؤلاء الجنود إلى أطراف مكة نهبوا وسلبوا الحيوانات التى كانت ترعى هناك.

بناء على هذه الواقعة ركب «عبد المطلب بن هاشم» سيد قريش وخادم الكعبة المعظمة ذو الرأى السديد بغله واتجه نحو معسكر الحبشة، وقد استقبله أبرهة استقبالا عظيما ورحب به أيما ترحيب - إذ بلغه علو شأنه بين قومه وأشار له أن يجلس فوق كرسى فخم مزين.

وفى قول آخر إن أبرهة لم يستطع أن يقاوم ما كان عليه «عبد المطلب» من الوجاهة والمهابة فنزل من كرسيه وجلس فوق البساط وأجلس المشار إليه بجانبه وقاله له: «اطلب منى ما تشاء» فأجابه قائلا: «لا أريد منك شيئا غير أن ترد لى أربعمائة جمل نهبتها جنودك. والصحيح مائتان».

قد تخير أبرهة من هذه الإجابة الساذجة واندعش وقال له: ظننتك قد جئت ترجونى ألا أهدم الكعبة إنك تعرف جيدا أننى جئت لأهدم الكعبة التى تشكل ركننا من دينكم وأخربها.

(١) السيرة النبوية ٤٩/١. والعرب تستحرقه لأنه كان دليلاً لصاحب الفيل. وفى جامع معمر بن راشد أن أبارغال من ثمود وأنه كان بالحرم حين أصاب قومه الصيحة، فلما خرج من الحرم أصابه الهلاك كما أصاب قومه فدفن هناك.

ثم أراك لا تطلب منى أن أنصرف عن هذا العمل بل تريد أن تسترجع ما نهبه جنودى من إبلك وهذا أمر لا يمكن أن يثير إلا عجبى ودهشتى .

فتلقى من عبد المطلب هذه الإجابة الحكيمة :

«لما كنت صاحب الإبل فإننى أريد أن أستردها . وللكعبة صاحب أيضا فإذا أراد سيمنعك من التسلط عليها» .

واستغرق أبرهة فى تفكير عميق إذ تلقى هذا الرد ثم قال مستهزئا : «أذهب وانظر كيف سيحافظ ربك على الكعبة ضد قوتى القاهرة وسطوتى الجبارة» ثم أعاد لعبد المطلب جماله وردة معززا مكرما وبين له أنه لم يأت ليحارب أهل مكة إنما جاء لهدم الكعبة المعظمة، وتخريبها، ومن هنا ليس لأهل مكة ما يثير قلقهم أو يخوفهم .

قد رأى سكان مكة - بناء على رأى عبد المطلب - أن يخلو مكة وينسحبوا إلى الجبال وألا يحاولوا الدفاع عن مكة ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يتمنون أن يروا المصيبة التى سوف يتعرض لها أبرهة .

قال بعض المؤرخين : «قد أخبر الجنود المكلفون بالذهاب إلى مكة أبرهة أنهم لم يوفقوا فى قتل عبد المطلب بعد ما نهبوا جماله» .

وقد أرسل أبرهة إلى عبد المطلب حميريا يقال له «حناطة» ليخبره بأن هدفه من المجئ إلى مكة هو هدم الكعبة وإذا كان بين الأهالى من يريد أن يدافع عن الكعبة يجب عليهم أن يستعدوا للحرب والقتال .

وكان رد عبد المطلب إننا لا نحارب إن البيت بيت الله إذا ما صانه وحفظه فهو بيته . أما إذا لم يحفظه، فليس لنا قبل للدفاع عن البيت . ثم ذهب مع «حناطة» إلى أبرهة وعندما مثل أمامه قد نزل من سريره وأجلسه بجانبه ورحب به أعظم ترحيب وكرمه تكريما .

لو كان أبرهة رأى من عبد المطلب أدنى علامة تدل على رغبته فى عدم هدم

البيت لتنازل عن فكرته ورجع إلى بلده لأن هيئة البيت المحتشمة وما فيه من روحانية فى طريقة وضعه وما فيه من عظمة ومهابة قد ألقى فى قلبه خوفاً وخشية فوق العادة - فالأمين إبراهيم - عليه السلام - قد بناه تنفيذاً لإرادة الله - سبحانه وتعالى - إلا أن عدم صدور أدنى التماس أو رجاء بخصوص عدم هدم البيت من عبد المطلب حمل أبرهة على المضى فى عزمه لأنه لم يجد سبباً يثنيه عما أقدم عليه .

وبلهجة كلها ثقة رد عبد المطلب على أبرهة رداً قاطعاً مما أياسه وأنس أهل مكة ببشارة خفية، لأنه كان واثقاً أن أى فرد مهما كانت قوته لن يستطيع إلحاق الحسارة ببيت الله المعظم وذلك تكريماً وحرمة لخاتم الأنبياء - ﷺ .

لأن النبى - ﷺ - انتقل إلى رحم أمه فى الفترة التى غزا فيها أبرهة الحجاز ووصل بالقرب من مكة وبدأت تظهر علامات خارقة للعادة، كما سعد عبد المطلب بالرؤى الجميلة فى منامه، وكل هذه القرائن كانت تنم عن قرب تشرىف النبى - ﷺ - إلى الدنيا، ولكل هذا كان عبد المطلب يأمل ألا يستطيع أبرهة هدم كعبة الله بتخريبها، أخذ حناطة الحميرى عبد المطلب مع بعض أولاده وأتى بهم إلى خيمة أبرهة .

وعلم عبد المطلب بأن سيف ذى نفر فى السجن فالتقى معه واستمع إليه إذ يقول: يا عبد المطلب ماذا تنتظر من أسير يترقب قتله اليوم أو غداً وماذا تأمل منه، ومع هذا سايس الفيل «محمود» من أحبائه وهو شخص يسمى «أنيس» وهو من الذين يثق فيهم أبرهة ويعتمد عليهم وقد أرسلت له بأنباء . فذهب إليه وفعلاً ذهب إليه عبد المطلب وتلقى معه .

كان النبأ الذى أرسله ذو نفر إلى أنيس^(١) يشمل المعانى الآتية :

(١) قد رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - أنيس وسائق الفيل محمود، فى مكة يتسولان . وكما تقول المشار إليها إن كليهما كان أعمى وبما أنهما قد نهوا أبرهة بحسن قبول عبد المطلب أنجاهما الله بما حل بجيش أبرهة وأصيبا بالعمى .

«إن الشخص الذى نهبت حيواناته، هو سيد قريش وهو صاحب عين زمزم الموجودة بمكة إن هذا الشخص يطعم الناس فى الصحراء والوحوش على رؤوس الجبال».

إن المطلوب منكم هو إيلاغ أبرهة بأن جنوده قد استولت على مائتين من إبل عبد المطلب سيد قريش، فإذا استطعت فاشرح الموضوع لأبرهة واحمله على تكريمه ورد إليه له، وقد نقل أنيس هذه الأقوال إلى أبرهة لذا أكرمه أعظم إكرام وأعاد له جماله.

إن «يعمر بن نفائة بن عدى بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة» رئيس قبيلة بنى بكر وخويلد بن وائلة الهذلى رئيس قبيلة «بنى هذيل» أراد أن يصرفا أبرهة عن هدم الكعبة وذلك بعرض ثلث واردات تهامة^(١) الحجاز السنوية، ولما رفض طلبهما استعدادا للحرب بالاتفاق مع قبائل (قريش وكنانة وخزاعة وهذيل والقبائل الأخرى)، ولكنهم غيروا رأيهم واتبعوا فكرة عبد المطلب إذ أحسوا أنهم سيتعرضون للهزيمة.

وعندما رأى أبرهة أن أهل مكة لا يدافعون عن بلادهم، ساق حشراته إلى «وادي المحسر»^(٢) الواقع بين المزدلفة ومكة المعظمة واستعجل فى تنظيم صفوف جيشه وطلب من ساسة القبيلة أن يهينوا أفيالهم للهجوم على مكة ودفعوا الفيل «محمود» نحو الكعبة، ورغم جهود السائس المضنية لسوق الفيل محمود ناحية الكعبة المعظمة لم يتحرك الفيل خطوة واحدة نحو الهدف، ولم تفد جميع محاولاتهم وما بذلوه من سعى لدفع الفيل نحو الكعبة كلما كانوا يسوقونه إلى الأمام يقع ولا يتحرك.

ولما رأوا أن المحاولات المضنية لدفعه إلى الأمام لم تأت بنتيجة، لذا سقوه

(١) إنها مدينة زيد المشهورة فى الناحية الجنوبية من قطعة الحجاز.

(٢) إن سبب إطلاق محسر على هذا المكان لأن أصحاب الفيل قد تعرضوا هناك لعذاب الله وعقابه. لأن الفيل محمود لم يتقدم إلى الأمام بعد هذا المكان وتبعته الأفيال الأخرى ولم تتحرك خطوة إلى الأمام.

خمرا - بأمر أبرهة - حتى يفقد عقله وتميزه ثم وجهوه إلى جهة أخرى .

وأسرع محمود السير لتلك الجهة وتبعته الأفيال الأخرى وأخذت تجرى بسرعة خلف محمود وعندما أرادوا أن يوجهوها إلى الكعبة كانت تبرك ولا تتحرك وكأنها لا تريد أن تهاجم الكعبة المعظمة .

عندما رأى «نفييل بن حبيب الخثعمي» الأسير المصفد، بالأغلال لدى أبرهة هذه الحالة المليئة بالحكم للفيل «محمود» - إذ كان يمتنع من السير نحو الكعبة وعندما يوجهونه ناحية الشام أو اليمن كان يسرع - أمسك نفييل بن حبيب أذن الفيل وقال له: «يا محمود احذر من التقدم لأنهم يريدون أن يستغلوك في تخريب بيت الله مع أنك في بلدة الله، فابرك محمود أوعدُ راشداً من حيث جئت» .

أراد نفييل بن حبيب بفعله هذا أن ينبه الجيش الحبشي أن ما يريد أبرهة يشبه خيالا مستحيلا وأن محمودا والفيلة الأخرى لن تهاجم كعبة الله المعظمة . إلا أن أبرهة لم ينتبه لما يريد ابن حبيب الخثعمي كما لم يستطع أن يدرك شيئا من حركات الأفيال الحكيمة بل أصر على تنفيذ ما في ضميره وأخذ يضرب الفيلة ويشتمها حتى كاد يهلكها .

وفى تلك الأثناء أخذ عبد المطلب «عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي وبضعة من رجال قريش المخلصين معه ومضى إلى باب المعلى من الكعبة المعظمة واحتضن حلقاته وأخذ يتضرع ويناجي قاضي الحاجات وهو ينشد الآيات الآتية :

نع رحله فامنع رحالك
ب وعابديه اليوم ألك
للتنا فامر ما بدالك
ومحالهم أبدا محالك
أمر يتم به فعالك

يارب إن المرء يم
وانصر على آل الصليب
إن كنت تاركهم وقب
لا يغلبن صليهم
فلئن فعلت فإننه

بينما كان أبرهة مشغولاً بسوق الفيلة نحو كعبة الله التصق عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن عبد الدار بباب الكعبة العظيمة أيضاً وأخذ يناجى ربه وينشد بعض الأبيات التي تبين نهب أسود بن مقصود الحميري^(١) حيوانات أهل مكة واستيلائه عليها.

وبينما كان عبد المطلب ورفاقه منهمكين عند كعبة الله بالتضرع والابتهاال وكان أبرهة يبذل جهده لحمل الفيلة للسير نحو الكعبة إذ ظهر فجأة في السماء مجموعة من الطيور الصغيرة تشبه طائر «السنونو» من ناحية البحر يحمل كل واحد منها في منقاره حجراً واثنين بين مخالبه وكان أكبرها في حجم حبة الحمص وأصغرها في حجم حبة العدس أى ثلاثة أحجار من سجيل^(٢) واتجهت أسراب الطيور نحو مكة المكرمة.

جاء في رواية أن هذه الطيور الصغيرة أقبلت من ناحية البلاد الهندية، وكانت مناقيرها حمراء ورعوسها سوداء، رقابها طويلة أجسامها شبيهة بأجسام الخفافيش وبناء على قول آخر أن مناقيرها كانت صفراء رقابها خضراء وأجسامها شبيهة بأجسام العصافير وقد سطر على كل حجر تحمله اسم الشخص الموكول بهلاكه.

قد فسر عكرمة ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ (الفيل: ٣) كلمة أبابيل عنقاء المغرب.

يقول صاحب القاموس إن (عنقاء المغرب) ظهرت في عصر موسى - عليه السلام - قد خلق أولاً أنثاها ثم خلق ذكرها وهكذا تناسلا وتكاثر نسلهما وبعد وفاة النبي المشار إليه انتقلت هذه الطيور إلى حجاز نجد حيث أخذت تؤذى

(١) أسود بن مقصود هو من رؤساء الحشرات الحبشية التي أرسلها أبرهة من مغمس للاستيلاء على حيوانات أهل مكة. والأبيات التي كان يرددتها عكرمة يدعو بها على أسود بن مقصود أوردها ابن هشام في السيرة ٥٣/١.

(٢) إن هذه الحجارة خليط من التراب والحجر والذي أطلق عليه في القرآن الكريم اسم «السجيل» وكان أصغره في حجم حبة العدس وأكبره في حجم حبة الحمص.

الأطفال الصغار ولكنها طارت إلى أعشاش الهلاك والعدم بفضل استجابة دعاء «خالد بن سنان العبسي»^(١) الذي عاش في عهد النبي - ﷺ .

يروى أن أجناسا من طيور الأبايل تعيش في زماننا في نواحي الهند الصينية وأنها تُبَعَثُ إلى دار السعادة استانبول كهدايا .

إن هذه الطيور لا تشبه طيور الأبايل تمام الشبه إلا أن الذين ينظرون إليها بعين الإمعان يجدون فيها علامات تحمل الناس على تشبيهها بتلك الطيور، ويعتقد أنها تعرضت لتغير شكلها بمرور الزمان وقد نقلت روايات كثيرة عن شكل ولون وصورة هذه الطيور، حتى أن «عبد الله بن عباس» يروى أن لها مناقير كخراطيم الفيل وأسنانا شبيهة بأنياب الكلاب. ويدعى بعض الرواة أن الطيور الموجودة الآن فوق باب إبراهيم والزرزير من بقايا طيور الأبايل والله أعلم بالصواب .

لم يكن يعرف شيئا عن ظهور هذه الطيور لا أبرهة ولا عبد المطلب ورفقاؤه الذين كانوا يتضرعون إلى الله ممسكين حلقات كعبة الله . وفي فترة نظر عبد المطلب إلى السماء ورأى كثيرا من الطيور الأبايل تقبل نحو مكة المفخمة وتعجب من أشكالها وقال لرفقائه: «أيها الأصدقاء إن هذه الطيور لا تشبه طيور نجد وتهامة ولا بد أن يكون في هذا حكم ما» ثم اتفقوا على أن يصعدوا فوق قمة جبل أبي قبيس ليروا الطيور جنود الله المجتدة - التي ظهرت من ناحية البحر وبعد فترة وقفت حذاء جنود أبرهة الذين أزعجوا العالم . ثم تركت الحجارة التي كانت ذات آثار نارية الواحد تلو الآخر وكان كل حجر يدخل من فوق رؤوس الأعداء الحشرية وينفذ في أجسامهم ويخرج من أدبارهم ويقضى عليهم بالهلاك في التو واللحظة .

لم يبق بين جنود الأعداء فرد متنفسا لم يهرب إلا أبرهة والفيل محمود والأفيال التابعة له .

وكل من يمك بجثة أحد هالك كان يستطيع أن يحملها كما يحمل البيضة لأن الحجارة كانت قد أحرقت أجسامهم كما تحرق النار الفتيل . ثم ظهر سيل عظيم

(١) انظر خبره في: المعارف لابن قتيبة ص ٦٢ .

بالبحر مثير للدهشة وحمل جثث الأعداء المتتنة وكنسها إلى البحر وهكذا ظهرت
ساحة مكة الله .

وهناك قول يدعى أن الحجارة التي ألقيت من قبل طيور الأبايل إذا ما أصابت
شخصا تظهر فى جسمه بثور مثل البثور التى تظهر فى الشخص المصاب بالحصبة
والجدري، والذين أصيبوا بها ماتوا وهلكوا من شدة أوجاعها والبقية الباقية
وصلوا إلى الحدود اليمنية بكل صعوبة ونجوا بجلدهم فارين .

حينما تشتت جيش أبرهة واضمحل كما سبق تعريفه، هجم أهالى مكة على
معسكره وأخذوا ما وجدوه من أموال وأسلحة وأشياء ونالوا ثروة وأصبحوا من
أهل اليسر والغنى ونالوا غنائم بدون أن يتعبوا ودون أن يتعرضوا للمحاق
والمشاق وذلك لحزمة حبيب الحق رسول رب الفلق وتضاعفت شهرتهم عن ذى
قبل ونجوا من شر العدو القوى الشرس الذى أخاف عربان جزيرة العرب، كما أن
القبائل المعارضة لهم انصرفت عن حربهم وقتالهم لأنهم اعتقدوا أن أهل مكة
مؤيدون من قبل الله .

وقد ولد خاتم الأنبياء سيدنا محمد بعد واقعة الفيل بأربعة وخمسين يوما وبناء
على هذا التقدير قد حدث قدوم أبرهة إلى مكة ومغادرته لها فى أواسط شهر
المحرم ويوافق ولادة النبى - ﷺ - فى شهر ربيع الأول الموافق لشهر أبريل من
الشهور الرومية .

قد أطلق العرب على السنة الميلادية التى توافق خمسمائة وتسع وستين «عام
الفيل» وقد اتخذوا هذه الواقعة مبدأ تاريخ لهم وتفاخروا بها وأنشدوا فى حقها
أناشيد وألقوا القصائد وأخذوا يعظمون أهل قريش ويوقرونهم قائلين «هؤلاء أهل
الله، لذلك أهلك الله أعداءهم»، لا يستطيع إنسان أن يحصى الأشعار والقصائد
التي ألقيت بخصوص هذه الواقعة وإنما قد أدرجنا بعض هذه القصائد المختارة من
قبل المؤرخين .

والقصيدة الآتية من جملة تلك القصائد وقد أنشدها عبد المطلب بن هاشم .

قلت والأشرم تردى خيله
كاده يتبع فيمن جندت
فانشنى عنه وفى أوداجه
نحن أهل الله فى بلدته
إن للبيت لربا مانعا
إن ذى الأشرم غربا لحرم
حمير والحى من آل قدم
جارج أمسك فيه بالكظم
لما يزل ذلك على عهد أتم
من يرده بأثم يصطلم

والأبيات التالية من قصيدة طويلة لعبد الله بن الزبعرى بن عدى بن قيس بن عدى بن سعيد^(١) بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، يقول عبد الله بن الزبعرى:

يتكلموا عن بطن مكة أنها
لم تخلق الشعرى لىالى حرمت
سائل أمير الجيش عنها ما رأى
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم
كانت بها عاد وجرهم قبلهم
كانت قديما لا يرام حريمها
إذ لا عزيز من الأنام يرومها
ولسوف ينهى الجاهلين عليمها
بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
والله من فوق العباد يقيمها

وعرض ابن الزبعرى فى المصراع الذى قال فيه «بل لم يعش بعد الإياب سقيمها» بأن أبرهة هلك أيضا فى صنعاء. كما أنشد هذه الأبيات أبو قيس صيفى بن الأسلت بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك الأوسى:

ومن صنعه يوم فيل الحبو
محاجنهم تحت أقرابه
وقد جعلوا سوطه
فولى وأدبر أدراجه
ش إذ كلما بعثوه رزم
وقد شرموا أنفه فانخرم
مغولا إذ يمموه قفاه كلم
وقد باء بالظلم من كان ثم

(١) كذا نسه ابن إسحاق، والصواب سعد بن سهم، وسعيد أخو سعد بن سهم انظر: السيرة النبوية ١ / ٥٨.

وينسبون القطعة الآتية إلى أمية بن أبي الصلت - الأبيات:

فقوموا فصلوا لربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخشاب
ف عندكم منه بلاء مصدق غداة أبي يكسوم^(١) هادى الكتائب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب إلى أهله الأحباش غير عصائب

أراد أبرهة أن ينجو من هذه الكارثة المهولة وطلب من «نفييل المكي» الذى
مازال فى أسره أن يدلّه على الطريق فأجابه قائلاً:

«أين المفر و الإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب»

حينئذ اعتمد على نفسه فى الفرار ووصل إلى بلاد الحبشة بصعوبة يقع تارة
فى الطريق ويقوم أخرى، وقص كل ما حدث على النجاشى بالتفصيل، واصفا
شكل الطيور وصورها فقال النجاشى: ما أعجبه من حادث أيا ترى ما نوع هذه
الطيور؟! فأشار أبرهة إلى طائر قائلاً: كانت تشبه لهذا الطائر الصغير وإذا بالطائر
يرمى الحجارة التى يحتفظ بها على أبرهة ويقضى عليه بحيث قطع الحجر يديه
من منكبیه، ورجليه من فخذه بينما أصابه واحد من الحجارة فى رأسه وأهلكه.
وبناء على رواية أخرى أن أبرهة لم يهلك بحجارة طير الأباييل بل مرض
بمرض الجدام الخبيث وعاد إلى اليمن بعد ما ترك أبا يكسوم نائباً عنه حيث لقى
حتفه^(٢).

إن أبا يكسوم هذا أخذ يقص للنجاشى أحداث طيور الأباييل، وإذا بأحد
طيور الأباييل الذى كلف بإهلاك أبا يكسوم هذا يلقي بحجر على أبا يكسوم
بمجرد الانتهاء من كلامه وهكذا تأسف النجاشى إذ عرف كيف هلك جيشه فى
أرض مكة.

قد حدثت وقعة الفيل الغربية فى اليوم السابع عشر من شهر المحرم فى وقت

(١) أبو يكسوم اسم الشخص الذى تركه أبرهة فى المعسكر نائباً عنه.

(٢) انظر السيرة لابن هشام ٥٥/١، المعارف لابن قتيبة ص ٦٣٨.

الفجر. كما أن النبي - ﷺ - شرف الوجود ليلة الاثنين من الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت ولادة النبي ﷺ بعد حادثة الفيل بأربعة وخمسين يوماً بالتمام.

بعد ما هلك أبرهة على الوجه الذى ذكره اختلاف الأخبار فيما بينهم وتركوا العناية بالقليس.

وأهملت كنيسة الأحباش فترة طويلة حتى تحول ما حولها إلى غابات وأصبحت مقراً للوحوش والسباع، حتى أن الذين يرون منظرها الذى يثير الدهشة - يخافون أن يمروا من جانبها.

وبعد فترة باتت بجانبها قبيلة من عربان البادية فى ليلة من الليالى وأوقدوا ناراً فسرت شرارة منها إلى تلك الكنيسة فاحترقت وانمحت من الوجود.

ويزعم بعض المؤرخين أن الخليفة الأول أبو العباس السفاح من خلفاء الدولة العباسية قد عرف أن القليس قائمة كما هى فأمر والى اليمن بهدم تلك الكنيسة وهكذا استطاع أن يستولى على الدر واليواقيت التى لا تعد ولا تحصى.

استطراد:

بناء على ما قرره علماء طبقات الأرض بعد الكشف على الفيل محمود أنه من فصائل الأرض الثالثة إلا أنه قد شوهد فى الأرض الرابعة أيضاً.

ويستدل من الحكاية التالية على أن محمود كان من الحيوانات الضخمة فى الجثة وإقدام أبرهة على هدم الكعبة بفيلين أو اثنى عشر فيلاً فقط. إلا أنه إلى وقتنا هذا لم ير حيوان فى ضخامته كما أن علماء طبقات الأرض والطبيعة لم يكتبوا شيئاً عن وجود حيوان ضخم مثله فى كتبهم.

إلا أن صياد السمك قد وجد جثة حيوان ضخم متجمد بين الثلوج قبل هذا بست وسبعين سنة فى مصب نهر (لنا) بسبيريا.

إلا أنه لم يستطع أن يعرف كنه هذه الجثة، لذا تركها على حالها وعاد. وبعد ما ذابت الثلوج بخمسة أعوام ظهرت الجثة للعيان واستطاعت المياه أن تدفعها إلى شاطئ النهر بالقرب من قرية فانترعها سكان القرى المجاورة.

كما أن كلاب العراء والوحوش التي أقبلت من فوق الجبال ظلت تأكل لحمها فترة ولم يبق منها إلا هيكلها العظمى بدون رجليها الأماميتين .

وأرسلت أكاديمية بطرسبورج متخصصا ليعاين الجثة وبعد المعاينة قرر ذلك المتخصص أن الجثة جثة الفيل محمود واسترجع بقايا الجثة من أيدي القرويين ولم يكن قد بقى منها غير الرأس والأنياب ومع هذا لم يستطع أن ينقلهما إلا بهمة عشرة من الحمالين .

قد وزن أنياب هذا الحيوان فوجدها (١١٢) أقة، فإذا ما سلمنا بضخامة جسم الفيل محمود بهذا القدر وعرفنا بناء على الروايات أن أبرهة قد ساق أربعة آلاف فيل لهدم الكعبة - المستحيل التنفيذ - نستطيع أن نفهم بأدنى ملاحظة عدد السياس الذين يحتاج إليهم أبرهة للعناية بالفيلة ومن هنا لا يستبعد أن يكون عدد المشتركين في الجيش ستين ألفا .

معلومات خاصة في صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به:

إن الحيوان الذي نطلق عليه الفيل قد خلق بخصائص تميزه عن جميع الحيوانات، لقد استخدم الناس في الأزمنة القديمة الفيل في الحرب وفي أعمال شاقة أخرى .

بما أن الفيل يتصف بالصدق والوفاء والحلم والذكاء وهي من الصفات الحميدة فمما لا شك فيه أن الإنسان يمكنه أن يستفيد منه .

ومن صفاته الحدة والغضب أيضا إلا أنه يعرف مدى قوته، لذلك يكظم غيظه وحدته ولا يتهور إلا إذا تعرض للخطر .

وبما أن قوته تامة وكاملة فإن هذا يدفعه إلى أخذ ثأره ممن أساء إليه، ولكنه يشكر نعم من أحسن إليه ويبين له صداقته .

إن عينيه صغيرتان بالنسبة لضخامة جسمه . وبما أن عينيه الصغيرتين مرآة لما يعتمل في أعماق نفسه يمكن أن يفهم من حركة عينيه شكره ومجاملته وغضبه وتهوره .

أذناه مبسوطتان كبيرتان عريضتان وأرجله غليظة وجلده تخفيه طبقة فوق طبقة وله خرطوم يرتخى من فيه .

وبما أن خرطومه فى غاية القوة فهو يدافع به ضد كل شىء وغير هذا له نابان قويان بارزان من جانبيه فمه فإذا اضطر استخدمهما فى الهجوم أو الدفاع .

وقد استخدمه الناس فى الأزمنة القديمة مستفيدين من طبيعته الحليمة فى جميع الأعمال . والآن يستخدمه الناس فى آسيا والهند كحصان عادى ، حتى إنهم يقدمون على صيد الحيوانات المفترسة بواسطة الفيلة .

كان الأوائل يبنون قلاعاً صغيرة ويملاؤها بالأسلحة الخاصة بزمانهم مثل الخنجر ، الرمح ، السهم ، القوس السكين ويقومون بتعبئتها بالجنود القادرين على الحرب والضرب ثم يحملون الفيلة بهذه القلاع والحصون الصغيرة ويسوقونها إلى ميدان المعركة .

يروى أن «بدوس» ملك الهند قد ساق مثل هذه الحصون فى حروبه ضد الإسكندر الأكبر الشهير فى آسيا فى سنة ثلاثمائة قبل ميلاد عيسى عليه السلام .

والخلاصة أن الأقوام الهندية كانوا يسوقون فى حروبهم الفيلة المدربة لنظم قتالهم قبل اختراع الأسلحة النارية وتعد أقوى جيوشهم وفيالقهم ، تلك التى تضم هذه الحصون المتقلة . وبما أن الفيلة تخاف وتنفر من دخان البارود وضوئه ومن أصوات المدافع والبنادق فقد أهمل سوق الفيلة فى ميادين الحرب ، منذ اختراع الأسلحة النارية .

فى تعريف رصانة أبنية القليس؛

إن معبد الأصنام الذى بناه أبرهة فى صنعاء اليمن كان بناء متيناً مربع الشكل ، وكان ارتفاع جدرانه ستين ذراعاً « ٨٥ قدماً » وكان سمك جدرانها ستة أذرع « ٨ قدم و ٨ بوصة » .

وكانت قاعدتها السفلية قد ملئت قدر عشرة أذرع وفرشت بحجارة ملونة مصقولة ووضعت أمام الباب سلال من الرخام المجلو الصقيل .

إن مقدار ٢٠ ذراعاً «٢٨ قدم ٤ بوصة» من الجدران ابتداء من الأرض كانت مبنية من الحجارة المنقوشة التي يطلق عليها اليمانيون «حورب» والجزء الأعلى منها كان مصنوعاً من الرخام الملون العجيب في أشكال مثلثة وركزت فوق زوايا المثلث الرأسية تماثيل مصقولة مصنوعة من خشب الأبنوس ونصبت فوق كل هيكل أعمدة مصنوعة من المرمر.

وكان يحيط - دائراً ما دار- بيت القليس حائط عالٍ في غاية العلو ومتين وفي اتساع مائتي ذراع أي ٣٨٢ قدم و ٤ بوصات بينه وبين البيت، وكانت بوابة كبيرة تفتح في محاذاة باب بيت القليس، وكان ارتفاع مصراع البوابة ١٤ ذراعاً أي ١٩ قدم، ١٠ بوصات وعرضه أربعة أذرع أي ٥ أقدام و ٨ بوصات وكان مصنوعاً من قطعة واحدة من النحاس.

وكان يربط بين بوابة الحائط الخارجى ودرج باب بيت القليس جسر معلق في طول ثمانين ذراعاً أي ١١٣ قدم و ٤ بوصات وفي عرض أربعين ذراعاً أي ٦٥ قدماً و ٨ بوصات وكانت كل مساميره من الذهب والفضة وخشبه من خشب شجرة الساج.

وكان في داخل بيت القليس قصر عجيب في اتساع أربعين ذراعاً مربعاً أي ٥٦ قدماً و ٨ بوصات وكان على يمين ويسار هذا القصر شجرة عظيمة مصنوعة من الذهب حاملة الكرة الأرضية وصور الكواكب وكان في داخل هذا القصر قبة كقبة السماء مبنية فوق أربعة أعمدة متساوية متوازية وكان في مركز استقامة هذه القبة قصر آخر قد زين داخله وخارجه بالذهب والفضة وهو قصر مشع يثير العجب والدهشة وكان في وسط هذا القصر عمود شفاف مجلوه وكان يلمع ويتلألأ كلما انعكس عليه ضوء الشمس والقمر.

وكان العمود المذكور في ارتفاع عشرة أذرع أي ١٤ قدماً، وبوصتان وقد علق على جوانبه كثير من السلاسل الفضية وقد اتصل به كرسى مصنوع من العاج والأبنوس وغطيت أدراج هذا الكرسى بعضها بالذهب وبعضها بالفضة قد مرت على جانبيه قطعتان من الخشب المنقوش المسميتان بـ «كعيب». إمرة كعيب»

وكانت القبائل الحميرية قد اتخذت كعب وإمرة كعيب إلها ويؤمنون بأنه يخبر عن الخير والشر ولذا يتعبدون له ويزورون ويطوفون حول بيت القليس من داخل السور.

وقد بلغ قوة معتقد الحميريين بكعيب أو إمرة كعيب حدا يفوق معه أن كل من يقصر في تعظيمهما أو إجلالهما سوف يتعرض حتما لغضبهما، لذا كانوا يفرون منه خوفا من أن يصيبهم شر غضبهما.

قد دام هذا المعتقد مدة طويلة لدرجة أنه لما تهدم بيت القليس وخرّب، وبينما تباع أنقاضه مرض أحد الذين اشترى الشجرة التي كان يطلق عليها أبرهة كعيبا صدفة فقيل إن كعيبا قد أصابه بسوء، ولما عرفوا أن الرجل قد شفى واعتدل مزاجه استعجبوا من ذلك.

قصة بيت الأصنام بنى بغيض:

قد بنى بنو بغيض بن ريث بن غطفان في فترة ما رغم وجود الكعبة المعظمة، بيت كفر وأسندوا سدائته إلى بنى مرة بن عوف الغطفاني، إلا أن زهير بن جناب بن خليل^(١) بن كنانة بن بكر بن عذرة الكلبي، وهو من الكهنة المشهورين، جمع قوة عسكرية وأحرق معبد الأصنام المذكور وهدم جدرانته ومحاه من الوجود.

كان زهير بن جناب من رؤساء قبائل قضاة، عرف بسداد الرأي وعاش (٢٥٠) عام أو على قول آخر (٤٥٠) عام وخاض في أثناء حياته هذه مائتين من الوقائع.

وقد تغلب زهير على العربان الذين أرادوا أن يدافعوا عن معبد الأصنام الذي خربوه وأسر أولادهم ونساءهم ونهب أموالهم وبناء على توسلات بنى غطفان أعاد لهم أسراهم كلهم.

(١) يروى بناء على قول آخر أن أبا جناب هو هبل بن عبد الله بن كنانة.

هجوم ملك الروم.. بقصد تخريب كعبة الله القيوم:

إن ملك الروم الذى عاصر ألب أرسلان من ملوك آل سلجوق، تحرك ضد الإسلام وبناء على ما جاء فى تاريخ رضوان باشا قد نوى وقصد هدم البيت المعظم بسوق مليونين من الجنود، وحينما عرف ألب أرسلان بهذا الخبر أسرع بإعداد قليل من الأبطال فى شجاعة الأسود، وخرج من أصفهان وقابل المعاندين الروم فى مكان قريب من ديار بكر وابتدر بحربهم واستطاع أن يأسر رومانوس ملك الروم بينما كان مشغولا بالصيد كما أسر من كان معه من الصيادين وكنبلهم بالسلاسل وأعمل السيف فى جنده الذين أعدهم لسوقهم إلى مكة ودمرهم بينما هرب من نجا من السيف^(١).

وإن كانت هذه الواقعة منقولة من تاريخ رضوان باشا إلا أن أبا بكر الطرطوشى^(٢) مؤلف «سراج الملوك» يكتب عن انتصار ألب أرسلان على رومانوس بهذه الصورة.

إن القيصر رومانوس^(٣) حشد جيوشه للاستيلاء على البلاد الإسلامية والقضاء على الأمة الإسلامية من على سطح الأرض.

وكان لهذا الخبر وقعه السيئ فى المدن الإسلامية، فاضطرب ملوك المسلمين واضطروا إلى أن يتخذ كل واحد منهم وسائل الدفاع ويعد جنودا - قدر استطاعته - وبقي منتظرا قدوم الأعداء.

وكان ألب أرسلان^(٤) فى ذلك الوقت فى أصفهان فأعد قوة عسكرية صغيرة

(١) إن إعداده مليونين من الجنود فى ذلك الوقت بعيد الاحتمال إنما أراد المرحوم رضوان باشا أن يبنى عن كثرة عدد جند الروم لأن تجهيز مليونين من جند مستحيل من الناحية العسكرية والفن العسكرى.

(٢) إن كنية المؤلف المشار إليه أبو بكر، واسمه محمد بن أبى الوليد بن محمد القرشى، ولد سنة ١٠٥٩ الميلادية وسنة ٤٥١ الهجرية فى مدينة طرطوش بالاندلس، وتوفى فى مدينة الإسكندرية سنة ١١٢٦م و (٥٢٠) الهجرية من شهر جمادى الأولى، وكان من زهاد عصره وعبادهم.

(٣) رومانوس هو القيصر الخامس والستون وقد تولى الملك ١٠٩٩م والموافق ٤٩٢هـ، وفى عام (١١١٣م الموافق ٥٠٦هـ سملت عيناه وانصرف عن الملك.

(٤) المشار إليه من الشعبة الثانية من السلاجقة الذين حكموا خراسان والعراق وما وراء النهر، وكان اسمه محمد واشتهر باسم الملك العادل ألب أرسلان، وقد انتصر على الإمبراطور رومانوس فى هذه الواقعة وارتحل عن الدنيا عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٣م.

وخرج من المدينة ليدافع عن دينه ضد أعدائه وعقب ذلك ظهرت طلائع جيش رومانوس و نصبوا خيامهم أمام معسكر جيش أصفهان.

ولما كانت الليلة ليلة الجمعة كان الأعداء فى حالة إعياء أجلوا القتال للصباح بالانفاق وعينوا حراسا وباتوا يتكاثرون إذ أخذوا يفدون طول الوقت.

وفى الصباح أرسل المسلمون الجواسيس ليطلعوا على أحوال جيش العدو وقد رأى هؤلاء أن جند العدو أكثر من رمال الصحراء وقد ملئوا الجبال والصحارى وكان معسكر رومانوس بحراً زاخراً وعدة الجيش وعتاده مما يخرج عن الحصر والتخمين.

ولما رأى ألب أرسلان أن قوته بالنسبة للأعداء كخال أسود على جسم ثور أبيض عرف أن مقاومة عدو فى هذه الضخامة غير مجدية، وأمر بعقد مجلس شورى مع كل الذين يهمهم هذا الأمر.

وكانت نتيجة المناقشات والمشاورات أنه يجب أن يعد جميع أسباب الحرب والمقاومة حفظاً لكرامة الأمة الإسلامية، وعرضت نتيجة المشاورة على ألب أرسلان وقد ساند المسلمون بعضهم بعضاً، وقد تهيئوا للقتال.

وقد سر ألب أرسلان من هذا القرار وقال اليوم الجمعة وهو يوم مبارك، مادمننا سنحارب فلنصبر إلى أن نصلى صلاة الجمعة لأن الخطباء سيدعون فى هذا اليوم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بانتصار جيش الموحدين، ثم نخوض المعركة لإعلاء كلمة الله ثم بعث بعيونه إلى معسكر العدو، وطلب منهم أن يعرفوا مكان خيمة رومانوس وشكله وهيئته، وبعدهما اطلع على ما يريد جمع رجاله الأبطال، وقال لهم: أهاجموا حيث أهاجم ووجهوا سيوفكم وسهامكم ورماحكم حيث أوجه، ثم هجم على خيمة رومانوس ساحبا جنده خلفه - وقتل القيصر وبث هذا العمل الرعب والفوضى فى معسكر الأعداء فاضطربوا باكين مولولين.

حينما رأى العدو أن جنود المسلمين يهاجمون جيوشهم كالأسود الشجعان غير

مباين بمن يقع منهم اضطربوا أيما اضطراب وقرروا الفرار^(١).

وبناء على هذا النصر اغتتم المسلمون أموال أعداء الدين والوطن؛ وأسروا الذين لم يستطيعوا الهروب.

وقد قبض على القيصر رومانوس أيضا وسيق إلى حضرة ألب أرسلان، الذي قال له وقد مثل أمامه: أيها القيصر! كيف كنت تعاملني لو كنت أسرنتي؟ فتلقي منه رداً: حتما كنت قتلتك، فقال له: إنك أحقر في نظري من أن أمد يدي عليك بالقتل.

وعرضه للبيع في المزاد العلني في معسكره، وأعلن عنه بضعة أيام ولم يظهر أحد يرغب في شرائه، وأخيراً ظهر شخص يريد أن يبادل بقلبه، وبلغ الخبر ألب أرسلان وأحضر الكلب وصاحبه والقيصر رومانوس عندئذ قال الملك منصفاً صاحب الكلب إنني أرى أن كلبك خير منه، وأطلق سراح رومانوس وأعادته إلى بلاده.

وكان ألب أرسلان عندما قال لصاحب الكلب: إن كلبك خير من رومانوس، يريد أن يشير إلى أن القادة الذين لا يستطيعون حماية جنودهم من الهزيمة لا يستحقون أن يكونوا قادة، كما أن رومانوس قد تسبب في هزيمة جيشه وأسره لأنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة.

كتب كاتب جلبي في موجزه الذي كتبه باللغة العربية قد تملك ألب أرسلان في ٤٥٥ هـ الموافق ١١٦٤ مدينة حلب وسرح جنده مبقياً معه ١٤٠٠٠ ألف مقاتل.

وقد انتهز رومانوس هذه الفرصة واستولى على ملك المشار إليه وهو غافل، وقرر ألب أرسلان مقاتلة الروم بجنده الذين معه إذ لم يعبأ جنده كلهم عقب محاولة رومانوس الاستيلاء على ملكه، ولكنه رأى بلاده قد احتلت بجنود أكثر من جراد الصحراء فاضطر لطلب المصالحة.

(١) يقول المؤرخون إن عدد الجنود الذين ساقهم ألب أرسلان لمحاربة العدو كان ١٢٠٠٠ ألفاً أو ١٤٠٠٠ ألفاً.

ولما كان هدف رومانوس هو القضاء على الأمة الإسلامية لم يرغب في الصلح وأعلن أنه لن يتنازل عن القتال، حينئذ توكل ألب أرسلان على الله وخاض الحرب وأحرز النصر الذي ذكر من قبل، وهكذا ترك في صفحات التاريخ ما سيخلد اسمه على مدى الأيام.

فليزد الله - سبحانه وتعالى - من عمر خليفة وجه الأرض والسلطان العادل السلطان عبد الحميد الثاني، ولينصر جيوش الموحدين في كل زمان ومكان، وليقهر ويدمر أعداء الوطن والدين بجاه سيد المرسلين. آمين.

وإن كان هناك خلاف بين رواية رضوان باشا في تاريخه ورواية صاحب «سراج الملوك» ومؤلفه، فبما أن حرب رومانوس كانت ضد جميع المسلمين فليس بمستبعد أن يكون أمله تخريب كعبة الله.

كتب مؤرخو الروم أن جيوش قيصر الروم قد انهزمت في حروبها ضد السلطان علاء الدين في الأناضول، وأسر رومانوس ثم أطلق سراحه بعد أن نال العفو ورجع إلى عاصمة ملكه حيث سملت عيناه.

من بين فروع السلاجقة التي حكمت في قونيه ملكان حملتا اسم علاء الدين وقد مات أحدهما في سنة ٦٣٤هـ الموافق السنة ١٢٣٧ الميلادية، والآخر توفي في السنة ٧٠٠هـ الموافق للسنة ١٣٠١ الميلادية.

وبناء على هذا من قول المؤرخين المشار إليهما فإن رومانوس قد أسر في حربه ضد السلطان علاء الدين يقتضى أن يكون خطأ؛ لأن رومانوس قد اعتلى كرسى الحكم سنة ١٠٩٩ الميلادية، وبعد أربعة عشر عاما من الحكم غادر دنيانا وهذا ثابت باعترافهما.

وعلى هذا التقدير فإن حكم رومانوس كان قبل وفاة السلطان علاء الدين بمائة وثمان وثلاثين سنة، ويتحقق أنه كان معاصرا لألب أرسلان.

فى تجديد مبانى الكعبة المقدسة للمرة التاسعة

قد جددت أبنية كعبة الله للمرة التاسعة من قبل «عبد الله بن الزبير بن العوام - رضى الله عنه -، وسبب هذا التجديد ضرب «حصين بن نمير» كعبة الله المقدسة وتخريبها بعد حرقها مستخدماً المنجنيق.

وبعدما بلغ خبر استشهاد قائد شهداء كربلاء إلى الأقطار الحجازية غمر الحزن الأسى فى قلوب السكان بموت حفيد النبى (الحسين بن على المرتضى) رضى الله عنهما. و رانت على القلوب علامات الدهشة، أراد عبد الله بن الزبير أن يعزى أهل مكة واستدعى أكابرها وأعاضمها ثم صعد المنبر وحمد الله - سبحانه وتعالى - وأثنى على نبيه - ﷺ - وفق طريقة خطباء العرب - ثم ألقى خطبة بليغة ذات أثر شديد، وأخذ يعدد معائب يزيد البليد ومظالمه وجذب إليه قلوب الناس.

خطبة ابن الزبير:

(يا صنديد الحرم إن معظم سكان بلاد العراق وأقطاره بلاد الآفاق أهل غدر وفتنة. إنهم قد استدعوا قرة عين الرسول ونور بصر البتول الإمام الهمام «الحسين بن على بن أبى طالب» - رضى الله تعالى عنهم - بوسائل مختلفة ورسائل عديدة وإن دناءة سكان الكوفة تفوق دناءة سكان الولايات الأخرى الذين تجرأوا على استقبال الإمام بسيوف الغدر المسلولة. إنهم أهانوا وردة الروضة النبوية مع أكثر أهله إذ أوردوهم مورد الشهادة بسيوفهم الغادرة.

إن هذه الطائفة الباغية قد قتلت واحداً من أهل الصلاح والسعادة الذى كان يقضى ليله عادباً و نهاره صائماً، بينما كان الناس يقضون أوقاتهم متمتعين بفرط غناهم ويستمتعون بملذات دنياهم فى سفاهة، كان هذا الملك الربانى يقضى أوقاته فى البكاء من خشية الله، بينما كان الآخرون منتشين من ملذات الحياة

وسكارى من جاههم، كان الإمام الشهيد فى مجلس ذكر الله ومقامه وكان صائما دائما حذر الحرام». انتهى.

قد عرف يزيد العنيد أن عبد الله بن الزبير يمتنع عن البيعة له معتمدا على كعبة الله وأهل الحرمين، ولذا بعث إليه الرسل يطلب منهم أن يأخذوا بيعة عبد الله بن الزبير، وإلا يسوقه مصفداً بالسلاسل إلى الشام، إلا أن عبد الله بن الزبير رد على رسل يزيد قائلا: لا أبايع يزيد ولا أسافر معكم إلى الشام، وبناء على هذا عاد رسل يزيد خائبين ونقلوا ما حدث إلى يزيد.

ولم يقنع يزيد بمن بعثه من الرسل بل اختار سبعة من صناديد الشام ومعهم «نعمان بن بشير الأنصارى وعبد الله بن عضاه^(١) الأشعرى» و«مسلم بن عقبة المزنى»، وبعثهم جميعا إلى عبد الله بن الزبير.

لقى رسل الشام عبد الله بن الزبير وبذلوا كل جهدهم ليأخذوا منه البيعة ليزيد، وعندما كانوا يلحون على أخذ البيعة منه، قال عبد الله بن الزبير مخاطبا نعمان بن بشير: من فينا أعلى مكانة بين قومه؟ أنا أم يزيد؟ والدى وعماتى وخالاتى أم والد يزيد وعماته وخالاته؟ وكان رد نعمان بن بشير: يا ابن الزبير إن والدك حضرة الزبير، ووالدتك ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر، وخالتك عائشة بنت الصديق، وعمة أهلك خديجة الكبرى، ومن هنا فمن جهة أقاربك وقبيلتك فأنت أعلى منزلة من يزيد، فقال له عبد الله: هل تستصوب بيعتى ليزيد وأنت تعرف كل هذا؟ فهل ترى أنه من المناسب أن أبايع يزيد؟ قال: لا أراه مناسبا وبهذا تمسك عبد الله بن الزبير برأيه ورفض البيعة ليزيد رفضا باتا، وعاد رجال الشام خائبين. بينما كان رسل الشام فى طريقهم إلى بلادهم أخذ عبد الله بن الزبير بيعة أهل الحجاز وتهامة وضمهم فى صفه ما عدا «عبد الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر» وطردهم ولاة يزيد وموظفيه من حدود أرض الحرمين الميمونة.

(١) الطبرى ٤٧٦/٥، ٤٩٠.

اطلع يزيد على ما حدث وأراد أن يؤدب أهالي المدينة المنورة ومكة المكرمة، وأرسل جيشا تحت قيادة الخائن «مسلم بن عقبة المزني» وزوده بتعليمات غير لائقة، إذ أمره أن يجرى مذبحه في المدينة المنورة وينهب أموالهم، وبعد ذلك يتجه إلى مكة المكرمة حتى يقبض على ابن الزبير ولما كان مسلم عازما على تنفيذ أوامر سيده حرفيا تعلم من «عبد الملك» فن الدسائس والحيل وطبقه على أهل المدينة، وقتل منهم ستة آلاف أو أربعة آلاف بناء على قول آخر، ثم اتجه إلى مكة المكرمة وبعد مرور ثلاثة أيام من خروجه من المدينة ساء مزاجه ويش من حياته.

استدعى بناء على الأمر الذي كان تلقاه من يزيد في الشام «حصين بن نمير الكندي» وقال له: قد عيتك قائدا لهذا الجيش. يجب أن تصل إلى مكة وتعلن الحرب وتشعل نار القتال حتى تقبض على ابن الزبير. ولا تقل إن مكة بلد الله، كيف نحارب جيران بيت الله؟ بل من واجبنا أن نحترمهم ونرعاهم؟! بل بادر بنصب المجانيق على رؤوس الجبال، وألق الحجارة على كعبة الله ناوياً تخريبها حتى تثير الفزع في نفوس الناس وحاصرهم، وضيق عليهم سبل العيش، قال هذا وانحدرت روحه إلى جهنم وهلك عندما وصل إلى جبل مشلل.

حدثت وقعة المدينة المنورة المذكورة الأليمة سنة ٦٢ هجرية^(١) الموافق ٢٨ من ذو الحجة وفي يوم الأربعاء، وكان عدد الذين نالوا ثواب الشهادة من أهل المدينة المهاجرين والأنصار ٧٠٠ شهيد وكان الباقي من التابعين والموالي.

قد تعرضت المدينة المنورة في تلك الوقعة للنهب والسلب مدة ثلاثة أيام، وأكثر من ألف امرأة للاغتصاب على ما ينقله الرواة.

قد ذكرت بالتفصيل كيفية وقوع حادثة المدينة في بحث وقعة الحرة وفي الصورة التاسعة من الواجهة الثالثة من مرآة المدينة فمن يرغب الاطلاع عليه الرجوع لهذا الكتاب.

(١) ويقول بعض المؤرخين أنها حدثت في سنة ٦٤ هجرى.

قد نصب «حصين بن نمير» وفق الأوامر التي تلقاها من مسلم - الذي يناقض حقيقته اسمه - فى شهر المحرم من السنة المذكورة مجانيق فوق جبل أبى قبيس وجبل أحمر، وحاصر مكة أربعين يوماً وقتل كثيراً من المسلمين وعذب أهل مكة، وضيق عليهم الخناق.

وفى هذه الفترة وصل خبر هلاك يزيد - الظاهر الشناعة - فاضطر حصين للعودة. دامت هذه الحرب والمحاصرة من اليوم الثالث والعشرين من شهر محرم إلى قرب غرة ربيع الآخر، واحترقت أستار الكعبة وسقفها وانشقت جدرانها وتحطمت من جراء النار التى سرت من الحجارة المحرقة التى انهالت عليها، كما احترق قرنا الكعبش الذى أنزله الله من السماء لفداء إسماعيل، واللذان كانا معلقين على سطح الكعبة.

وقعت فاجعة احتراق الكعبة فى يوم السبت الثالث من ربيع الأول، إلا أن حصين بن نمير قد استمر فى الحرب إلى أن بلغه خبر وفاة يزيد. وقد عرف خبر وفاته بعد احتراق الكعبة بسبعة وعشرين يوماً. فترك مكة المكرمة فى ليلة الأحد اليوم الخامس من ربيع الآخر وقفل راجعاً.

يروى أن هذا الحريق الهائل بدأ من احتراق خيمة، والمؤرخون الذين قبلوا هذه الرواية وضحوا الحادث بهذه الصورة: إن الشجعان الذين انضموا إلى عبد الله بن الزبير لجأوا إلى المسجد الحرام مأمّن الإسلام، واحتموا بساحته ونصبوا خيامهم على جوانبه الأربعة، وكانت غايتهم من ذلك أن يحتموا بها كلما زادت حرارة الشمس وكلما ألقىت الحجارة من المجانيق.

وقد نصب حصين بن نمير المجانيق فوق جبل أبى قبيس وكذلك الجبل الأحمر، وكانت الحجارة الملقوفة بخرق مبللة بالزيت والملقاه على الكعبة لا تنقطع عن الانهمار.

قد داوم الشوام على إلقاء الأحجار إلى حد أن الأحجار التى أصابت البيت

الشريف مزقت كسوته إربا إربا، كما أن الأبنية المباركة تداعت وتهافت وبدأت أحجارها تتساقط .

وفى يوم اشتدت برودته وعصفت رياحه تطايرت شرارة من نار إحدى الخيام فأحرقتها، وكانت الخيمة منصوبة بين باب الصفا والركن اليماني، وانتقلت الشرارة إلى ستارة الكعبة الممزقة فأحرقتها، وانتقلت النار من الستارة إلى الأحزمة الخشبية التي تحيط بالكعبة فاحترقت، ومنها إلى حيطان الكعبة وتحول البيت إلى قطعة نار .

وبما أن البيت المعظم كان من المباني المقدسة التي أقامتها قريش فكان قابلا للاحتراق؛ لأن القرشيين كانوا قد بنوا البيت من أساسه إلى سقفه جاعلين جدرانه طبقة من الحجارة وطبقة من حزام خشبي . وبينما كانت الأحزمة الخشبية لجدران الكعبة تحترق تحرك الحجر الأسود من مكانه فأراد عبد الله بن الزبير أن يثبته بإذابة فضة وصبها على جوانبه؛ إلا أن أركانه الأربعة كانت قد تكلست بشدة النار كما أن الركن الكائن فيه أصابه الوهن فلم يمكن عمل شيء .

وكانت جدران بيت الله حيشما يحط عليها الحمام تفتت تحت تأثير سيقانه، مما حمل من يشاهده من المؤمنين على البكاء دما بدلا من الدموع، وفى النهاية مضت جماعة من القرشيين^(١) . وبنى أمية إلى حصين بن نمير وأخبروه أن الحجارة التي رماها قد خربت الكعبة المعظمة؛ إلا أنه أنكر أن يكون قد خرب الكعبة، وفى هذا الوقت بلغه نعى يزيد فكف عن الحرب والحصار وسحب جنده وعاد إلى الشام .

(١) كان عبد الله بن خالد بن أسد القرشى منهم .

جمع عبد الله بن الزبير الأعيان وعظماء الناس من مكة عقب الحرب، وذكرهم بأنه يأمل أن يعالج ما تهدم من أبنية الكعبة ويجدها - كما ذكرهم بحديث بانى أركان الشريعة الرصينة عليه أكمل التحية إذ قال لعائشة - رضى الله عنها - «يا عائشة لو لم يكن قومك قريبي العهد بالجاهلية لهدمت أبنية بيت الله وجعلت للبيت بابين يفتح أحدهما على الشرق والآخر على الغرب، وأدخلت إلى بيت الله من الحجر مقداراً ما طوله ستة أذرع أى ثمانية أقدام» (حديث شريف) وبما أن مال قريش الحلال لم يكف لإدخال الحجر فى البناء عند ذلك الوقت تركوه خارج البيت، ثم قال لها تعال أريك الجزء الذى أبقوه خارج البيت ثم أخذها إلى تحت الميزاب وقال: هذا هو المكان وأشار إلى مكان حجر إسماعيل ما مقداره سبعة أذرع أى ٩ أقدام و١١ بوصة، ثم قال عبد الله للمجتمعين إنما أردت أن أبين لكم أن النبى - ﷺ - أجاز تجديد الكعبة، وفى نفس الوقت أردت أن أبحث الموضوع معكم و أستشيركم. وكلكم تعرفون أن الحجر الأسود^(١) قد تحطم من أثر ضربة بحجارة حصين النارية وألصق بالفضة المذابة، كما أخذت حجارة جدران كعبة الله تتساقط من جميع الجهات.

وبهذه الكلمات البليغة ابتداء عبد الله باستفسار رأى عظماء الحاضرين ثم أخرج الحجر الأسود من مكانه ووضع فى صندوق بعد أن لفه فى قطعة من الديباج، وأغلق الصندوق بقفل وحفظه فى دار الندوة، كما أمر أن تحفظ الهدايا الموجودة فى خزانة الكعبة فى دار شيبة بن عثمان.

(١) تحطم الحجر الأسود ثلاث قطع، أخذ بنو شيبان قطعة ليحفظوها عندهم ثم استردها عبد الله منهم، وألصقها بالقطعتين الأخرين ثم عالج أطراف الحجارة بمادة تشبه الجبس ليحافظ على تماسكها هى والقطعة الثالثة التى ألصقت فى الجهة العليا من الحجر الأسود الآن.

اجتمع أعيان الأشراف و وجهاءهم عند ابن الزبير ووافق بعضهم^(١) رأيه وخالفه البعض الآخر^(٢)، غير أن ابن الزبير لم يلق بالآ إلى رأى المخالفين، واستقر رأيه على تنفيذ ما فى ضميره.

وخاف أهالى مكة من هدم كعبة الله وهربوا إلى قمم الجبال، وأظهر عمال البناء استياءهم من هدم الكعبة بالتراخى فى العمل. ولما رأى عبد الله بن الزبير ذلك جعل بعض عبيده الحبشيين ذوى السيقان الرفيعة يصعدون فوق الكعبة مبطلا الحكم الحديث الذى يحفظه عن النبى - ﷺ - «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة».

وبدا فى هدم البناء يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخر من السنة المذكورة، وأراد أن يحضر من اليمن نوعا من المادة المستخرجة من الزعفران ليخلطها بالمونة اللازمة لبناء البيت، ولكن بناء على اعتراض بعض أهل التخصص بأن هذه المادة تحول دون تحجر المونة انصرف عنها، واستحضر من صنعاء اليمن كلس بأربعمائة دينار. وحتى لا يمنع الطائفين من الطواف فى أثناء عمليات البناء. وبناء على إخطار عبد الله بن عباس أحاط البيت بسور خشبى، وغطى السور بستارة من القماش وهدم أبنية البيت حتى وصل إلى أساس إبراهيم القديم، وكان قد حفظ الحجر الأسود بعد أن وضعه فى صندوق فى دار الندوة.

وشرع فى بناء جدران الكعبة وفق ما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر أعلاه على أسس بناء إبراهيم - عليه السلام -، الذى عثر عليه وأدخل حجر إسماعيل داخل كعبة الله دون أن يراعى قواعد قريش فى البناء، وفتح بابا عرضه ثلاثة أذرع أى ٤ أقدام و ١١ بوصة فى الجهة الغربية أيضا بلغ ارتفاع الجدران إلى ثمانية وعشرين ذراعا أى ٣٨ قدم و ٣ بوصات، وجعل سمك الجدران ذراعين

(١) من الأصحاب الكرام الذين وافقوا على تجديد البيت جابر بن عبد الله بن عمير وعبد الله بن صفوان.

(٢) وكان عبد الله بن عباس موافقا على فكرة تجديد البناء؛ إلا أنه خالف عبد الله بن الزبير فى رأى حتى لا يتخذ الملوك هدم البيت وبنائه عادة لهم.

أى قدمين وعشر بوصات. إن ارتفاع الكعبة التى بناها إبراهيم - عليه السلام - يصل لستة أذرع وارتفاع كعبة قريش (١٨) ذراعاً، حتى قال ابن الزبير إن قريش أضافت (٩) أذرع على ارتفاع كعبة إبراهيم - عليه السلام -، وإن أضفت (٩) أذرع على بنائهم فأصبح ارتفاع الكعبة (٢٧) ذراعاً.

قد فرش ابن الزبير عشرة أذرع من الساحة التى حول المطاف بالحجارة التى بقيت من بناء الكعبة، وزين الكعبة الشريفة بتعليق كسوة مزينة، وطيب خارج الكعبة وداخلها بالعود والعنبر والمسك وبخرها كما غطى العمودين المسميان بالحنان والمنان بصفائح من الذهب، كما صنع مفتاحاً من الذهب لباب كعبة الله المسمى بالمعلا سنة ٦٤هـ.

عندما حفر الأسس التى لم تدرس إلى عهد سيدنا إبراهيم، وعمق ظهر فى الحفر حجارة لامعة وأراد أن يستخرج هذه الحجارة وضرب ضربة شديدة بفأس، وعند ذلك اهتزت أركان الكعبة الأربعة من أثر الضربة واستولى قلق على أهل مكة وندم الذين وافقوا عبد الله بن الزبير فى تجديد الكعبة.

ولم يتأثر عبد الله بن الزبير من قلق الناس قيد أنملة، واستدعى عبد الله^(١) الصحابة الأجلاء وأراهم قواعد إبراهيم ثم أمر بطرح الأساس، وأنزل عتبة الباب الشرقى حتى أرض المطاف كما أنزل عتبة باب المعلا الجديد فى الناحية الغربية حتى الحجر الأخضر المتصل بالفسقية الكائنة فى الجهة الغربية.

وكان الحجر الأسود قد ظل فى الحريق الذى حدث فى عهد قريش، وتجزأ وظل أحد أجزائه محفوظاً عند أحد الأشخاص من بنى شيبه، وعندما أراد عبد الله بن الزبير أن يضع الحجر الأسود فى الصندوق أخذ الجزء الذى عند ذلك الشخص وألصقه بالحجر الأسود مستخدماً الفضة^(٢) ثم حفظه، وعندما أراد أن

(١) كان عبد الله بالطبع من بين الموجودين وحينما أخذ فأساً وضرب الحجارة اللامعة اهتزت أركان الكعبة الأربعة كما اهتزت أسس محلات مكة المكرمة ومنازلها.

(٢) حينما حج هارون الرشيد رأى أن الفضة المذكورة قد وهت؛ لذلك أمر أن يتقب الحجر من فوقه وتحت، وصب فى الثقب فضة مذابة وهكذا قوى الحجر.

يضعه فى مكانه الذى فى بيت العزة استدعى ابنه عباد وجبير بن شيبه بن عثمان، وقال لهما بينما أنا أصلى صلاة الظهر اذهبا إلى دار الندوة وخذا الحجر الأسود منها وضعاه فى مكانه، وكبرا بعد أن تستراه قال هذا وأم الناس ليصلى صلاة الظهر.

قد تشاور عباد وجبير بن شيبه بن عثمان ثم وضعوا الحجر الأسود على طرفى الستارة الخشبية الكائنة بين كعبة الله ودار الندوة، وأحاط بهم الناس من الطرفين ثم وضع الحجر الأسود على ثوب طاهر فى شكل ظاهر، ومرا من بين الناس ووضعوا الحجر الأسود فى مكانه وغطاه، ثم كبرا مبشرين باستقرار الحجر فى مكانه. وقد وضع الحجر الشريف فى مكانه حضرة عباد، وساعده فى ذلك جبير بن شيبه.

وقال عظماء قريش بعد أن فرغوا من أداء الصلاة، وقد عرفوا أن الحجر الأسود قد وضع مكانه إن قريشا عندما أرادت أن تضع الحجر الأسود فى مكانه تنازعت عدة أيام، وكادت تدخل مع بعضها البعض فى الحرب والقتال بعدما استمر القيل و القال فيما بينها عدة أيام فأتى الرسول - ﷺ -، وحسم النزاع بعون رؤساء القبائل الأربعة؛ وهل من اللائق ألا يتبع عبد الله بن الزبير هذه الطريقة ويرعاها؟! وقد أرادوا بهذا أن يثيروا الفتنة بين سكان مكة إلا أنهم لم يجدوا من يقف بجانبهم فاضطرو للسكوت.

وقد تم تجديد البيت فى يوم الثلاثاء فى الثالث من شهر رجب أو السابع والعشرين منه من العام الرابع والستين من الهجرة، وعندما انتهى العمل تماما فى البيت ذهب عبد الله بن الزبير مع جميع أهل مكة إلى التنعيم لأداء العمرة، ونحر مائة رأس من الجمال كذلك ذبح كل واحد منهم ما معه من قرابين كل على حسب قدرته وهكذا جعل اليوم مبهيجا كالعيد.

وتعرف هذه العمرة بعمرة الأكمة أو العمرة الرجبية بين أهالى مكة، وكان

المكيون إلى وقت قريب يذهبون إلى التنعيم بنية العمرة ويذبحون القرابين، ويظلون في المشهد^(١) عدة ليال يفرحون ويبتهجون. وفي وقتنا هذا أيضا يذهب الناس إلى تلك الجهات للاحتفال إلا أنهم لا يسمونه العمرة الرجبية. وليس الآن من العادة أن يخرج للعمرة وتذبح القرابين في اليوم السابع والعشرين من رجب.

وفي الواقع يخرج الناس إلى ذلك المكان في كل عام للتمشية والاحتفال إلا أنه يحدث في الأيام الأخيرة من شهر صفر الخير، وإن هذه الاحتفالات ذات شهرة وبهجة إلا أن الأهالي يذهبون إلى مكان يسمى سرف حيث دفنت زوجة النبي - ﷺ - ميمونة - رضى الله عنها -، ويقومون بأداء مراسم الزيارة لقبرها ويقضون هناك ما يقرب من ليلتين ثم يعودون إلى أرض الصحراء الزاهرة^(٢)، ويمضون فيها فترة من الزمن وأن هذا الاحتفال بمثابة عمرة الأكمة.

* * *

(١) هذا المكان هو المقبرة التي دفن فيها عبد الله بن عمر وهو في طريق العمرة.

(٢) بناء على رواية أن عبد الله بن عمر مدفون في هذا المكان، وقبره مزار للناس.

في تجديد مباني الكعبة المقدسة للمرة العاشرة

جدد الحجاج الظالم البيت الشريف للمرة العاشرة أيضاً. أنه لم يلمس الجدران الأربعة كلها، ولكنه جدد الجدار الكائن في جهة الميزاب تاركا حجر إسماعيل خارج الكعبة، وملاً الكعبة بالتراب المتبقي من البناء وأعلى باب الكعبة عن الأرض، وأغلق الباب الذي فتحه عبد الله بن الزبير في الجهة الغربية بناء على ما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره. وكان سبب ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يريد أن يحمل عبد الله بن الزبير على بيعته.

وقد وقعت هذه الحادثة بعد واقعة حصين بن نمير بعشر سنوات؛ لأن عبد الملك الذي كان يحكم في بلاد الشام ويريد أن يجدد وسيلة للحصول على بيعة عبد الله بن الزبير، لذا بعث حجاج بن يوسف الثقفي إلى أراضي الحجاز الطاهرة ومعه ثلاثة آلاف من جنود الشام، وأمره ألا يؤذي المذكور وأتباعه إذا ما بايعه بالخلافة.

وقد حاصر الحجاج بمن تحت قيادته السوداء من جنود الحقد كعبة الله ما يقرب من سبعة أشهر، وأخذ يتبع مع ابن الزبير الأعباء الحرب والقتال وقد أضر في أثناء هذه المدة الطويلة بيت الله الحرام وأصابه، وفي النهاية قتل ابن الزبير وترك جسده الأسعد مصلوباً منتظراً الأوامر من الشام.

وكان من المستحيل أن يتنصر الحجاج على عبد الله بن الزبير إذا لم يصله مدد من الشام؛ لأن الشهيد كان قد عرف أن الحجاج الظالم قد خرج من الشام، وأنه قد نصب له الخيام في الطائف لإيواء جنوده لذلك ساق إليهم مقداراً كافياً من الجنود من الشجعان وحاربيهم؛ ولكنه عاد منهزماً وقد عجز عن المقاومة.

وإن كانت الهزيمة في الظاهر في ناحية عبد الله بن الزبير؛ إلا أن جنود الشام

أيضا قد تضرروا ضررا شديدا، وفهم جيدا أن عودة عبد الله بن الزبير بمدد قليل من الجنود سيؤدي إلى انتصارهم لذا كتب الحجاج إلى عبد الملك ينبئه بأنه قد انتصر على عبد الله بن الزبير، إلا أن عساكره أيضا قد ضعفوا أشد الضعف وطلب منه أن يبعث له بمدد حتى ينتصر على عبد الله، فما كان من عبد الملك إلا ابتداء بإرسال المدد.

واستصحب الحجاج القوة الاحتياطي التي أرسلت له من الشام، وعجل بحصار مكة المكرمة قبل أن يجمع ابن الزبير القوة اللازمة.

وانتوى ألا يقارب النساء وألا يتعطر وألا يترك السلاح قبل أن يقتل عبد الله ابن الزبير، وبناء على هذه النية نصب المنجنيق فوق قمم جبل أبي قبيس في السنة الثانية والسبعين من الهجرة، وضيق على أهل مكة الخناق حتى أصبح من المستحيل الدخول إلى أرض المطاف من جراء تساقط الأحجار.

وقد وجد في هذه الفترة عبد الله بن عمر - رضي الله عنه - في مكة المكرمة بنية الحج وقد تأثر من هذه الحرب أشد التأثر، وأرسل إلى الحجاج الظالم يقول له: «يا حجاج إذا كنت تخاف من الله، فلا تلق الحجارة على المسجد الحرام. إن موسم الحج من الشهور المحرمة، قد اندهش الصلحاء من الأمة الذين أتوا لأداء فريضة الحج من هذه الوقعة، وقد أصبح من المستحيل الدخول إلى ساحة المطاف من جراء الحجارة التي تلقيها، على الأقل اترك الحرب والقتال إلى ما بعد العيد حتى يسقط عن الناس فريضة الحج»، وبناء على هذا الطلب كف الحجاج عن الحرب والقتال، وأرجأهما إلى ما بعد انتهاء الحجاج من أداء نسكهم، وطلب من الحجاج أن يعودوا إلى بلادهم في الوقت الذي حدده، ثم شرع في الحرب مرة أخرى. وأهان كعبة الله بما أمطر عليها من الحجارة.

حادثة غريبة:

بينما ابتدر الحجاج الغادر في إلقاء الحجارة على الساحة السعيدة الحرام ظهرت على وجه السماء سحابة سوداء مظلمة، وقد غطى الأقطار الحجازية ظلام دامس

وسمعت أصوات الرعد والبرق، واستولى على قلوب المخالفين الخوف والخشية.

وحينما رأى حشرات الأعداء هذه العلامات المخيفة تركوا ميدان القتال وأخذوا يبحثون عن مكان يختبئون فيه. ولكن الحجاج المهين للدين خاطب جنوده قائلاً: ما الدافع لخوفكم وقلقكم؟ حتى هرب كل واحد منكم إلى جهة إذا كنتم خفتم من أصوات الرعد والبرق فإن هذه ليست أشياء تدعو للقلق والخوف، إنني نَمَوْتُ في هذه البلاد ولا تنقطع الصواعق والبرق منها، قال هذا ثم ذهب بنفسه إلى المنجنيق وتجراً على أن يلقي الحجارة صوب كعبة الله من البقعة المقدسة.

وينقل من المصادر الموثوقة أنه حينما أخذت أستار كعبة الله تحترق متوهجة من جراء الأحجار المحترقة التي أمر الحجاج بإلقائها على الكعبة الشريفة، ظهرت سحابة من ناحية جدة ذات صواعق، وبروق أخافت جند الشام، وتقدمت هذه السحابة حتى وقفت فوق سقف بيت الله وأخذت تمطر بشدة حتى أطفأت أماكن كعبة الله المحترقة. إن السحابة المذكورة كانت فوق سقف بيت الله فقط، ولم تقع قطرة من المطر خارج المسجد الحرام وخارج المطاف، ومع هذا سالت سيول شديدة من الميزاب الذهبي ساعات وساعات، سيول قد تجرف الإنسان.

وفي أثناء ذلك أصابت الصاعقة المنجنيق الذي نصبه الحجاج الظالم فوق جبل أبي قبيس وأحرقته مع أربعة من جنود الشام، فأعد الحجاج منجنيقا آخر وكلف أربعين نفرا من الجنود بإلقاء الحجر وكان جزاؤهم أن أحرقتهم الصاعقة الثانية فهبطت أرواحهم إلى جهنم وبئس القرار.

وهذا الحال لم يجعل الحجاج ينتبه ويندم على كل ما حدث بل ثار وغضب وهدد جنوده وبهذا اشتد القتال ونسى جنود الشام ما حدث.

وبعد هذه الحادثة الغريبة أصيب اثنا عشر نفرا من جنود الشام وهلكوا. وسفاكو الدماء الذين رأوا هذا انزعجوا بشدة، وأخذ جنود الشام يهربون من

جانب المنجنيق وقد أصابهم الفزع، إلا أن موت بعض أهل مكة بالصواعق أيضا أعطى فرصة للحجاج الظالم أن يخاطب جنوده. قائلا: الحق معكم وليس مع أهل مكة إن العلامات المهيبه الخاصة بأراضي الحجاز زالت فاصبروا قليلا.

وقد أدى خطاب الحجاج هذا إلى اشتداد القتال، ومد الصراع وزاد القحط والغلاء في مكة مما جعل المكيين يسأمون من أرواحهم، فالتجأ أغلبهم إلى الحجاج طالين الأمان وترك بعضهم عبد الله بن الزبير متجهين إلى المدينة المنورة. ولم يكن أهل مكة فقط ممن تخلوا عن عبد الله بن الزبير في محنته، ولكن ابنه حمزة وحبیب وهما من صلبه تخليا عنه، ولجأ كلاهما إلى السفاح الحجاج مبايعين وتركا والدهما بمفرده؛ ولكن ابنه المسمى بالزبير ظل في عون أبيه ولم يفترق عنه.

وذهب عبد الله بن الزبير إلى أمه إذ رأى أصحابه قد افترقوا من حوله كفرخ الحجل، وقابل والدته ذات النطاقين وقال لها: يا أماه إن أتباعي الذين كانوا معي خانوني كما خان أهالي الكوفة أتباع الحسين بن علي - رضي الله عنه - سيدهم. ومع هذا ظل أولاده بجانبه، ولكن أولادي قد خانوني إذ انضموا إلى الحجاج مبايعين وتركوني بمفردي، إن ذلك الظالم الذي لا يستحيي يبعث لي رسائل واحدة تلو أخرى قائلا: إذا تركت مخالفتي أقبل جميع مطالبك.

فما رأيك في هذا الخصوص فقالت له: يا بني لا يليق بك بعد كل هذه الحروب أن تسلم نفسك إلى يدي بني أمية. إنك رجل مسن، كم سيطول عمرك؟ وخير لك أن تستشهد ببطولة من أن تعيش في صحراء المدلة والاحتقار، فلما سمع منها هذا الرد ودعها، وقضى ليله حتى الصباح في داخل الكعبة متعبدا متضرعا وبعدهما أدى صلاة الفجر أخذ معه بعض الفتيان الذين قرب أجلهم، وأخذ يقاتل ويهلك في كل هجمة عدو الله وهكذا أخرج جند الشام الموجودين في داخل المسجد الحرام ثم خرج من باب الصفا واتجه صوب جبل أبي قبيس.

وبينما كان عبد الله متجها إلى جبل أبي قبيس تبعه أحد أنجاس الشام، ورماه بيده الحقيرة بحجارة وأوقع ذلك البطل أسد الرغى على الأرض، كما تقدم أحد الأنجاس المنكرين وقطع تاج الرءوس ومضى به إلى الحجاج الظالم.

قد سر الحجاج قليل الأدب أيما سرور وسجد شاكرا حامدا وكله فخر وسرور ثم أرسل رأسه الشريف مع رءوس الرؤساء الآخرين من أهل مكة، وصلب جثته الموعودة بالغفران، وأمر ألا تنزل حتى ترجو ذلك أمه أسماء ذات النطاقين.

حينما سمعت ذات النطاقين ذلك الأمر قررت ألا تذلل نفسها برجاء الحجاج، ولكنها مرت بالصدفة من جانب المكان الذي كان مصلوبا فيه، وقالت أما أن لهذا الفارس أن يترجل؟! وعند ما سمع الحجاج السفاح هذا القول أوله بالرجاء، وأمر أن تنزل جثة الشهيد المظلوم من مصلبها. ودفنت في مقبرة الحجون صنوان اللجنة في جمال منظرها.

ويقول بعض المؤرخين إذ يروون هذا الخبر بشكل آخر. إن أم الزبير ذات النطاقين لم تتذلل إلى الحجاج طالبة منه إنزال ابنها من مصلبه، وكذلك لم تقل أما أن لهذا الفارس أن يترجل. وقد أنزلت جثة عبد الله من مصلبه بأمر وارد من عبد الملك. وكان عبد الملك يعرف مدى عداوة الحجاج لابن الزبير وقد بلغه أن الحجاج يصر على إبقاء جثة عبد الله على المصلب؛ لذا بعث برسول إلى الحجاج يأمره أمراً قاطعاً بإنزال جثة الشهيد، وقد أنزلت جثته بعد أربعين يوماً من تاريخ صلبها، وسلمت إلى أمه ذات النطاقين التي ابتدرت بتجهيزها وتكفينها ودفنت في مقبرة المعلا. وبناء على هذا قد مضى أربعون يوماً بين استشهاد ابن الزبير ودفنه، وظلت جثته مصلوبة أربعين يوماً.

قد كبر جموع جند الشام حينما بلغهم استشهاد عبد الله بن الزبير من فم واحد، مظهرين فرحهم وسرورهم، وحينما بلغ الخبر إلى أسماء ذات النطاقين التي كانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها، قالت بعد ما استرجعت الآية الجليلة: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦) ما هذه الحال؟! وما أعجبه؟! إذا كان

الصحابة الكرام قد كبروا عند ولادة عبد الله، وفي يوم وفاته أظهر أعداؤه ذوي الخاتمة السوداء فرحهم وسرورهم مكبرين.

وقد أظهر عبد الله بن عمر عجبه وقال مشيرا إلى جند الشام: إنني أتعجب من هؤلاء الناس. إذ يكبرون فرحين مسرورين من فم واحد بمقتل عبد الله بن الزبير، بينما كان الصحابة الكرام قد كبروا وهللوا فرحين بولادته.

إن تعجب عبد الله بن عمر في مكانه، لأن عبد الله بن الزبير كان قد ولد بعد الهجرة النبوية بعشرين شهرا، وكان اليهود يقولون: إننا قد سحرنا المسلمين فإنهم لن ينجبوا ذكورا بعد الآن، وكان هدفهم من هذا تصديق صف المسلمين وإيذاءهم، فلما ولد عبد الله بن الزبير فرح المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم - واحتفلوا بولادته أيما احتفال وهكذا خاب اليهود وانزعجوا.

استدعى الحجاج عقب استشهاد عبد الله بن الزبير أمه ذات النطاقين، ولما لم تذهب إليه زارها في بيتها وقال لها: كيف وجدتي وقد قتلت ابنك عبد الله؟! قالت له: «إنك قد أفسدت لابني دنياه وأفسدت لنفسك آخرتك. وكان الرسول الأكرم - ﷺ - قد أخبرنا بظهور كذاب ومهلك في بني ثقيف، وقد عرفنا الكذاب وهو المختار الثقيفي أما المهلك فهو أنت».

ترجمة حال ابن الزبير:

عبد الله بن الزبير^(١) هو حفيد العوام أخو السيدة «خديجة بنت خويلد» - رضي الله عنها - زوج النبي - ﷺ - أم المسلمين، وابن «أسماء بنت أبي بكر» الصديق - رضي الله عنه - هو وأبوه من زمرة صحابة الرسول - ﷺ - السعداء وعندما ولد افتتح حياته بريق النبي - ﷺ - الذي يبعث الحياة وسمي باسم عبد الله المبارك الذي يشرف الناس.

وكان طيلة عمره حريصا على إحياء ليليه بالعبادة، وكان متصفا بالزهد والتقوى والعفة والشجاعة وعزة النفس والشهامة، وكان قد قسم ليلالي عمره إلى ثلاثة أقسام: إذ حصر ليلة من ليلالي للقيام والأخرى للركوع والثالثة للسجود.

(١) انظر ترجمته في الإصابة ٤ / ٦٩ - ٧١، المعارف (٢٢٤ - ٢٢٦)، تاريخ الطبري ٥ / ٦٢٢، ٦ / ١٧٤ - ١٧٥، ١٨٧ - ١٩٣، وغيرها..

وقال ابن أبي مليكة يصف صلابة عبد الله بن الزبير في دينه :- بينما كان عبد الله بن الزبير يؤدي الصلاة - في يوم من أيام المحاصرة إذ مر حجر من بين لحيته المباركة وصدده إلا أنه لم يستمر فقط في صلاته ولكنه لم يتأثر أدنى تأثر في مراعاة التعديل في ركوعه وسجوده في خشوع وخضوع، وأدى صلاته دون أن يستعجل كما كان يؤديها في الأوقات العادية. ثم استمر في قوله قائلاً: إنني أقسم بما أن جلد ابن الزبير اختلط بلحمه، كما أن لحمه امتزج بأعصابه، وأن أعصابه قد تألفت بعظامه كان قوي البنية، كما أن نفسه وروحه بين جنبيه اختلطتا بأعضاء جسمه فكان قوي القلب، وخلاصة القول إنه كان شخصاً نادر المثال في الشجاعة وقد روى عن النبي - ﷺ - اثنين وثلاثين حديثاً ونال شرف أن يكون رديف النبي - ﷺ - في مطيته.

قد طهر الحجاج القدر ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الإلهية - بعدما قتل عبد الله بن الزبير - من الحجارة التي ألقتها ومن الدماء التي أسالها، وكتب إلى عبد الملك يخبره أن عبد الله بن الزبير قد بنى الكعبة مغايراً لبناء قريش، وفضلاً عن ذلك فتح باباً زائداً في الجهة الغربية من الكعبة.

ومن هنا وجب علينا أن نغير أساس البقعة المقدسة. وقد تلقى رداً من عبد الملك^(١) وبناء على تعليماته قد هدم الجدار الموجود في الناحية الشامية، وترك في ناحية حجر إسماعيل ما مقداره ستة أذرع إلى تسعة أقدام وإحدى عشرة بوصة خارج البيت، وسد الباب الموجود في الجهة الغربية وجدد الجدار الذي هدمه في الجهة الشامية وفق ما بنته قريش. إن المكان الذي تركه الحجاج خارج البيت هو ما يطلق عليه اليوم حجر إسماعيل، وكانت قريش تترك حجر إسماعيل خارج البيت لأنهم كانوا يعانون من أزمة مالية في ذلك الوقت إلا أنهم كانوا قد بنوا حوله جداراً مستديراً^(٢) في ارتفاع ذراعين أي قدمان وعشر بوصات.

وقد أراد عبد الله بن الزبير أن يبني الكعبة عند تجديدها وفق الحديث الذي

(١) الطبري ٦ / ١٩٥

(٢) يطلق على هذا الحائط الآن الخطيم.

ذكرناه فيما قبل، وأعادها على أسس إبراهيم - عليه السلام - ولقد بذل في سبيل ذلك نقوداً كثيرة.

ولكن الحجاج بإعادته الكعبة على حالتها القديمة كما بنتها قريش بسد بابها الغربى أسرع بإعلان ما كان يكن لعبد الله بن الزبير من عداء.

مطالعة:

قد نتج عن تغيير عبد الملك لأسس كعبة الله بدون أن تكون هناك ضرورة لذلك بإشعار من الحجاج الظالم وأعوانه زوال سلطنة أمراء بني أمية، وظهور قوة بني عباس بن عبد المطلب وإشراق شمس دولتهم، وهكذا تبدلت أصول الخلافة من الإمارة المعصومة وأفل وانخسف بدر الحكومة الأموية، وانتقلت مقاليد أمور المسلمين إلى آل عباس فيما بعد. إن أول خلفاء بغداد أبو العباس السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وآخرهم المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله منصور بن الظاهر وهم من سلالة العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنه -.

قد اعتلى عبد الله السفاح كرسي الخلافة في سنة اثنين ومائة الهجرية وفي شهر ربيع الأول وبعد ٥٢٤ سنة استولى هولاء على بغداد وقتل المستعصم وبهذا بلغت الخلافة العباسية منتهاها في سنة ٦٥٦ الهجرية.

ونقلت الخلافة العباسية بعد قتل المستعصم وفي عهده إلى القاهرة بمصر فقد بايع المصريون في عهد صلاح الدين الأيوبي بموافقة العلماء الناصر لدين الله العباسي خليفة.

وقد حكم في بغداد مع عبد الله سبعة وثلاثون خليفة ومع الذين حكموا في مصر بلغ عددهم ثمانية وأربعين خليفة إلى انقراضهم. وبعد بلوغ خلافة العباسيين في مصر إلى ٢٦٤ سنة، وفي سنة ٩٢١ الهجرية سلم الخليفة العباسي عبد الرحيم الأمانات النبوية السنية التي كانت شعار الخليفة ومنصب

الخلافة الخطير إلى السلطان سليم خان، وابتداء من هذا التاريخ أطلق على سلاطين آل عثمان العدول لقب الخليفة.

تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والمملكة بالإجمال

الخلافة فريضة دينية خطيرة وأمر شرعى واجب، تقوم برعاية أعمال المسلمين الدينية والدنيوية وتسوية احتياجاتهم المادية والمعنوية. والخلافة منحصرة في الأشخاص الذين بوعوا بإجماع الأمة بعد الأنبياء العظام - على رسولنا وعليهم الصلاة والسلام -. وبما أن الخلافة رئاسة عليا وجامعة لأمر الدين والدنيا فهي أعلى المناصب وأعظمها التي يختص بها الملوك والسلاطين.

قد أطلق على الصديق الأكبر - رضى الله عنه - خليفة رسول الله، كما أطلق على الفاروق الأعظم - رضى الله عنه - خليفة خليفة رسول الله، ثم أطلق عليه أمير المؤمنين^(١) تخلصا من تتابع الإضافات الثقيلة.

إن الصحابى الجليل أبو موسى الأشعر هو أول من خاطب الفاروق عمر بلقب أمير المؤمنين: أو مغيرة بن شعبة أو عمرو بن العاص^(٢).

إن الخلفاء العباسيين الذين تولوا عرش الخلافة فى بغداد جنة الخلد قد اتخذوا ألقابا مثل المنصور والمهدى والرشيد والأمين والمأمون والمعتمد والمعتز و المعتضد والمتقدر، وكان غرضهم من ذلك تقليد الصحابة الكرام الذين لقبوا بالصديق والفاروق والمرضى، كما أريد به ألا يذكروا بين الناس بأسمائهم كثيرا.

(١) كان أحد الرسل المبشرين بالنصر سبيا فى إطلاق لقب أمير المؤمنين على عمر بن الخطاب؛ إذ بعث إليه أحد قواده بعد انتصاره فى إحدى المعارك رسولا يبشره بالنصر، ويعرض عليه الأمور فلما جاء الرسول أخذ يسأل الناس قائلا: أين أمير المؤمنين فاستحسن الصحابة الكرام هذا اللقب وأخذوا يخاطبون به الخليفة.

(٢) يروى أن هذا اللقب قد أعطى لعبد الله بن جحش المجذع بالله من قبل رسول الله - ﷺ - حينما بعثه إلى مكان معين فى مهمة خاصة.

كما اتخذ العبيديون والموحدون وخلفاء بنى أمية الذين حكموا فى الأندلس ألقابا خاصة مقلدين خلفاء بنى عباس، إلا أن هذه الألقاب قد دعت الناس للنفرة منهم كما تبين ذلك هذه الأبيات التى أنشدها ابن رشيق القيروانى:

ومما يزهدينى فى أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالمهر يحكى انتفاضاً صولة الأسد

بما أن الخلفاء العباسيين من السلالة الطاهرة القرشية فصحة خلافتهم محققة، كما أن الخلفاء العثمانيين - أيدهم الله تعالى - بالتأييدات الربانية يسيرون وفق سيرة الخلفاء الراشدين الحسنة، وبما أن كل همهم المحافظة على الأحكام الشرعية وينتمون إلى أهل السنة فهم أحق من جميع الملوك الآخرين بالاتصاف بلقب الخليفة.

السلطان - لقب أقل رتبة من الخلافة الجليلة وله معنيان: لغوى، واصطلاحى.

فمعناه اللغوى: تسوية الأمور المتعلقة بالخلافة والحكم بصورة الاستبداد.

وأما معناه الاصطلاحى، فإن يصبح الإنسان صاحب ملك أو إدارة أمور الدولة بقطع النظر عن الخلافة.

وعلى هذا التقدير يصح أن يطلق على الخليفة سلطانا ولكن ليس كل سلطان خليفة.

قد أطلق لقب السلطان على جعفر بن يحيى البرمكى وإشنان التركى وكان خلفاء الدولة العباسية وملوك الفرنجة والأيوبيون يطلقون على الأمراء والملوك الذين يعينونهم لقب السلطان. كما كانوا يطلقون عليهم ألقابا خاصة مثل: أمين الدولة، أمير المسلمين، أمين الملة.

يجب على من يريد أن يكون سلطانا أن يكون تحت تصرفه وإدارته إقليمٌ كبيرٌ، وملك - لقب أقل درجة وأدنى من السلطان،

الأمير. يطلق هذا الاسم فى اللغة التركية باللهجة الجغتائية على خاقان وفى الفارسية على شاهنشاه أى ملك الملوك.

الخان، الشاه، الميرزا ألقاب خاصة بالملوك والسلاطين العثمانيين يحملون جميع هذه الألقاب.

وقد أخذ سلاطين العثمانيين لقبى خان وخاقان عند ظهور دولتهم من الملوك الأتراك الذين أخذت دولتهم تنقرض وأخذوا لقب السلطان من سلاطين الدول الإسلامية السابقة لعهدهم حتى أن السلطان بايزيد خان قد جعل الخليفة العباسى بمصر المتوكل بالله العباسى يعترف بسلطنته.

شاهنشاه. لقب خاص بملوك الدولة الصفوية والأذربيجانية إلا أنه انتقل إلى السلاطين العثمانيين بعد انتصار السلطان سليم على الصفويين فى سنة ٩٢١هـ وبما أن السلاطين العثمانيين قد حملوا لقب الخليفة أيضاً كان نصيب ملوك خوارزم ويخارى ويهوبال وعزلهم يتم بأمر السلاطين العثمانيين وإدارتهم.

حكام أوروبا:

يستعمل الأوروبيون لقب إمبراطور بدلا من لقب السلطان ولقب الملك مكان خان وشاه، لقب دوق بدلا من بك، ميرزا تعنى أمير.

وبما أن لقب إمبراطور لم يكن مستعملا فى الأول كان يطلق على حكام أوروبا لقب الملك.

وقد استبدَّ الملوك برعاياهم وزاد ظلمهم لهم شيئا فشيئا حتى تجاوز حد الصبر والتحمل فثار الناس وبدلوا الحكم الاستبدادى المطلق إلى الجمهورية واختاروا شخصا يطلق عليه قيصر واتخذوه رئيسا لهم.

وتعهد قيصر برضا الأهالى ورأيهم أن يقوم بإدارة الأمور العسكرية والمدنية

وكشف قيصر ما فى ضميره إذ طلب بعض الامتيازات إلا أنه لم ينل غرضه بهذه الطريقة فاتفق مع فرقة عسكرية واستولى عنوة على بلدة روما الكبيرة فى سنة ٤٩ قبل الميلاد واتخذ لنفسه لقب إمبراطور الذى يعنى القائد وانتصر على جميع معارضيه من أصحاب المناصب العالية، وهكذا استقل وحصل على الامتيازات التى كان يطالب بها وسك عملة خاصة به ومنذ ذلك العهد يطلق إمبراطور على جميع الملوك والحكام الذين يوسعون ملكهم ويزيدون قوتهم.

في ذكر كيفية تعمير أركان بيت الله وتشبيده

بعد تجديد الحجاج للكعبة المقدسة لم يُسَمَّح شرعاً إلى سنة ١٠٢٠هـ بتجديد الكعبة حتى لا تكون العوبة في يد الملوك، إلا أن سقف البيت الشريف العالى وأركانه مالت إلى السقوط بعد هذه الفترة الطويلة وظهر ما يدل على أنها قد أوشكت على الانهيار إذا لم تتخذ وسائل لمعالجتها.

وبناء على ذلك أخذ أهالى مكة يبحثون عن وسيلة لمعالجة الأمر فقرروا بالاتفاق مع أمير مكة الشريف إدريس والأعيان والوجهاء أن يعرضوا الموضوع على العتبة السلطانية راجين منه أن ينظر لهذا الموضوع سريعاً.

وقد أهم وأقلق الطلب الذى أرسله أهل مكة أولياء الأمور إلا أن الحكم الشرعى بخصوص تجديد البيت المعظم بعد هدمه ونقضه كان مشروطاً بأن يقع ركن من أركانه لذا شكلت لجنة من العلماء الأعلام والرجال الكرام ذوى الاحترام حتى يجدوا حلاً شرعياً لهذا الموضوع.

واجتمعت تلك اللجنة تحت المجبورية الشرعية وبعد مشاورات كثيرة قررت أن يحزم البيت من مكانين بأحزمة حديدية كما رأى فريق ربط الأماكن المشققة بتلك الأحزمة وبهذا يهدم البيت الشريف ويعالج الموضوع كما ذكروا أن هذا سيوافق أحكام الشريعة وعرض الأمر على حامى الخلافة.

وحينئذ صدر الأمر السلطانى المطاع بإعداد الأحزمة المذكورة على أن تغطى بطبقة من فضة خام وطبقة أخرى من الذهب الخالص وفى نفس الوقت يتغير الميزاب الفضى الذى أرسل فى زمن السلطان (سليمان عليه الرحمة والغفران) بميزاب مذهب كما هيئوا الصناعات من الصياغ والحدادين بمهامهم.

وأرسلوهم إلى حديقة استاوروز فى اسكدار وفى يوم الشروع فى العمل أقيم حفل كبير حضره السلطان وعظماء الدولة وأركانها، وقد هبث المهمات اللازمة للترميم فى وقت قصير وأعلم بذلك سلطان الزمان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث - عليهما رحمة الله -، وكان السلطان فى ذلك الوقت مقيماً فى حديقة داود باشا وبما أنه يريد أن يرى بنفسه ما تم صنعه من المهمات الغالية وطريقة صنعها أصدر أمره بأن تنقل هذه الأشياء إلى مقر إقامته وبناء على ذلك أمر بصنع نموذج من الخشب لبيت الله يطابقه فى أبعاده ثم أمر بأن تنقل جميع المهمات إلى مكان فسيح فى حديقة داود باشا ثم وضعت الأشياء المعدة لترميم البيت فى أماكنها التى فى النموذج وهكذا عرض كيفية وضع هذه الأشياء وجمال صنعها ودقته على الحاضرين الكرام.

الشكل الثاني عشر

وأخيراً بحث عن الحدادين المهرة والصياغ المتخصصين فى مهمتهم والمتدينين وأرسلوا مع المهمات إلى مكة المكرمة برفقة حسن باشا الذى عزل من وظيفة الدفتردارية فى حلب وعهد إليه الحبشة، وفى سنة ١٠٢٠ الهجرية وفى وسط شهر رجب الفرد، وصى والى مصر محمد على باشا بالعمل على توصيل هذه البعثة عن طريق السويس بأقصى سرعة ممكنة إلى الجانب الحجازى.

وقد قام المشار إليه بهذه الخدمة المباركة على أكمل وجه وأمن وصول البعثة السلطانية إلى مكة بعد أن أمدها بكل ما تحتاج إليه.

وكانت الأشياء الغالية المرسله عبارة عن: ستة عشر عددا من أحزمة حديدية باعتبار أن كل جدار متكون من أربع مناطق وستة عشر عددا من أعمدة حديدية لتوضع على كل ركن أربعة منها لتثبيت الأحزمة وإمساكها وكمر مقوس فوق باب الكعبة المقدس حيث تلتقى الأحزمة الحديدية وثبتوا لوحة فوق العتبة العليا لباب الكعبة تجديدا للكتابة التى هناك كما أحضروا الأخشاب الجيدة الكافية لتعمير وإصلاح سطح الكعبة وكانت اللوحة التى كتبت عليها ألقاب الكعبة فى باب الملا وكذلك الزاوية التى تلتقى فيها الأعمدة مع الأحزمة كانت مصنوعة من الذهب الخالص وكذلك الكمر المقوس الأحزمة قد غطيت بصفائح من الفضة الخالصة ونقشت عليها أحسن ما أبدعته أقلام الفنانين وزينت بنقوش بديعة.

وقد تحرك حسن باشا المشار إليه فى أواسط شهر رجب من دار السعادة إستانبول وبعد مدة وصل إلى مكة المكرمة وفى يوم الأحد فى غرة محرم الحرام من سنة (١٠٢١ هـ) أجمعت هيئة من أعظم سكان مكة المكرمة فى داخل أرض المطاف والمهندسون وبعد الدعاء والتضرع إلى الله صعد المختصون فوق سطح البيت بواسطة إسقالة وضعت تحت ميزاب الرحمة وابتدروا بالكشف والمعينة حيث اتضح لهم أن سبعاً وعشرين من العروق الخشب فى حاجة إلى التغيير، وبعد ما أصلحوا ثلاث قطع منها وضعوها فى مكانها ورفعوا الرخام إلى

السطح واحدة تلو الأخرى وبعدها أصلحوا على قدر الإمكان ووضعوا كل واحد منها فى مكانها القديم ووضعوا الميزاب الذهبى مكان الميزاب العتيق وأتموا تعمير السطح فى نفس هذا اليوم وبعد أيام من ذلك وفى ليلة وبعد أداء صلاة العشاء أمر الباشا المذكور الصناع المهرة بأن يسرعوا فى العمل فاستطاع العمال أن يضعوا الأحزمة الحديدية فى أماكنها فى تلك الليلة وفى الليلة التالية ركبوا النصف الثانى من الأحزمة ووضعوا اللوحة التى فى باب المعلا فى مكانها.

ثم أصلحوا الركن الذى كان فى حاجة إلى الإصلاح دون أن يخرجوا فى أثناء تعميرهم عن تعليمات الشريعة. وهكذا استطاع أن يشيد وأن يقوى ويصلح الأركان الأربعة للكعبة الشريفة وسطحها.

وقد ثبت أن رصانة بيت الله ومئاته قد وصلت إلى الدرجة المطلوبة وذلك بشهادة المتخصصين فى فن البناء.

وفى الواقع أن الأشياء اللازمة لترميم البيت والتى أعدت فى دار السعادة قد ركبت فى مكانها فى الكعبة الشريفة كأنها صبت فى قالب بعد المسح والوزن ومع ذلك فإن هذه المستلزمات كانت قد عينت وجربت عدة مرات فى مكة المكرمة.

إن هذا العمل قد أثار فرح الأهالى وابتهاجهم؛ ولأجل ذلك اجتمعوا حول كعبة الله فى السادس عشر من الشهر المذكور تحت رئاسة أمير مكة الشريف إدريس وأحيوا يومهم بختم القرآن الكريم والتضرع إلى الله والدعاء للسلطان بدوام قوة دولته وعظمتها.

حكاية غريبة:

عند قلع الميزاب القديم، ورفع رخام سطح البيت الشريف ظهرت فى الجو علامات نزول المطر وسمعت أصوات الرعد والبرق فى الأطراف والأكناف، مما جعل الناس يقولون: إذا ما أمطرت السماء سيمتلئ داخل كعبة الله بالسيل واستولى عليهم القلق وأخذت قطرات المطر تتساقط متتابعة كأنها در فى سلكه. إلا أنه لم تسقط قطرة مطر على الأرض إلى ميزاب الرحمة فى مكانه إلى أن غطى سطح بيت الله.

وقد انتظم المطر إلى أن غطى السطح الشريف فى ارتفاع أربعين ذراعاً من الأرض وعند الانتهاء من تغطية السطح ووضع الميزاب فى مكانه أخذ المطر ينهمر بشدة لم تر فى ذلك العصر مثلها حتى أغرقت السيول الأسواق والمحلات.

تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة

البنى الحادى عشر لبيت الله هو السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان عليهما الرحمة والغفران .

ولما كان تجديد الكعبة غير جائز شرعا إلا أن يسقط أحد أطرافها ويتهاوى؛ لذلك لم يتجرأ أحد منذ عهد الحجاج الظالم إلى زمن السلطان المشار إليه على تجديد تلك البقعة المفخمة الجليلة .

وأخذت أركانه الأربعة تميل للسقوط - بسبب قدمها - حتى إن تجديده قد تجاوز درجة الوجوب وبما أنه لم يجدد فى عهود السلاطين السابقين بتلك الحجة الشرعية فقد أوشك البيت الحرام على السقوط فى عهد السلطان أحمد خان الثالث .

ورغب السلطان أحمد خان فى تجديد أبنية ذلك البيت اللطيف السعيد إلا أن الشرع لم يسمح بذلك . كما سبق ذكره فى المقال السابق فَقَوَّى بالأحزمة الحديدية وأعمدة الزوايا كما رُمِّمَ وأصلح ركنان من أركانه على قدر الإمكان، وقد حفظ هذا الترميم البيت المعظم من السقوط والانهدام ما يقرب من ثمانية عشر عاما .

إلا أن البلاد الحجازية قد تعرضت فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان المعظم من سنة ١٠٣٩ الهجرية إلى رعود وصواعق وبروق وأمطار لم ير لها مثيل، إذ أن المياه التى نزلت من السماء تجمعت وكونت سيولا كسيل العرم وهجمت بشدة إلى داخل المسجد الحرام وزادت ساعة بعد ساعة وارتفعت مقدار ذراعين من فتحة مفتاح باب المعلا .

إن الحوانيت والمدارس والمنازل التى تصادف وجودها فى طريق السيل الشديد

انهارت كلها وعجزت أتربة البيوت ومبانيها عن الوقوف أمام السيل الجارف فانحرفت أمامه كأنها دليل يقود السيل إلى ساحة الحرم الشريف .

ولا يخمن^(١) عدد الذين ماتوا تحت أنقاض الحوانيت والمدارس التي تعرضت للسيل الشديد .

وكانت جدران البيت المعظم قد أوشكت على السقوط بعد وقت قليل من أداء صلاة العصر من يوم الجمعة من الحادى والعشرين من شعبان المعظم وفى اليوم الثانى من دخول السيول داخل الحرم الشريف انهارت جدران^(٢) الركن الشامى والركن العراقى فجأة . واختلط صخب الانهيار بأصوات الرعود والصواعق . فاستولى على أهل مكة خوف شديد حتى إن بعضهم ماتوا من شدة الفزع . قد حير انهيار جدران بيت الله أهل مكة وملكتهم الدهشة حتى ظنوا أن ما حدث فى ذلك اليوم علامة من علامات يوم القيامة . وهاموا على وجوههم مشتتين ولم يعرفوا ماذا حدث لهم ، حتى تاه الأبناء عن الآباء والأمهات وشغل الآباء والأمهات عن أولادهم فلم يسأل أحدهم عن الآخر .

وظلت المياه داخل الحرم ثلاثة أيام بعد انقطاع السيل وفى اليوم الرابع فتحت ممرات السيول وأخذت المياه تنسحب من داخل الحرم قليلا قليلا تاركة خلفها ما جرفته السيول من الحجارة والأوحال التى كونت هنا وهناك مرتفعات تبلغ قامة رجل .

قد عقد - فى ذلك التاريخ - أمير مكة المعظمة الشريف (مسعود بن إدريس) اجتماعا فى داخل الحرم مع الطبقة المختارة من الأشراف وسكان مكة وبعد التشاور أسرعوا بإنزال القناديل الذهبية والفضية المعلقة فى داخل بيت الله وبعد ذلك أخبروا الركاب السلطانية ما حدث فى أثناء السيل أوصلوا خبر انهيار بيت الله بواسطة محمد على باشا والى مصر .

(١) قد روى بعض المؤرخين أن عدد القتلى الذين أخرجوا من تحت الأنقاض فيما بعد بلغ ألفا .

(٢) قد انهارت جميع جهات البيت باستثناء الركن اليمانى .

وإن كان محمد على باشا قد عرض الخبر على السدة السلطانية حتى يتخذ القرار إلا أنه قرر أن يعد الآلات والأدوات اللازمة لتعمير بيت الله لأنه رأى أنه ليس من الجائز ترك الكعبة فى هذه الحالة والخبر المرسل إلى السلطان سيتأخر لبعده المسافة بين البلدين.

وكتب رسالة إلى مصطفى أغا أمير جدة يأمره بأن ينصاع لكل ما يطلبه منه الشريف مسعود كما أبلغ الشريف أنه يجب تخلية الحرم الشريف مما جرفه السيل وتطهيره وأن يطلب من مصطفى أغا كل ما يلزمه فى سبيل ذلك إلى أن تصل الإدارة السنوية من دار السعادة.

واستحضر الشريف «مسعود» بعون أمير جدة «مصطفى أغا» ومهندس مكة المشرفة على «بن شمس الدين أفندى» المقدار الكافى من الأخشاب وأحاط جدران البيت التى نجت من السقوط بأحزمة من ثلاثة أماكن حتى يقويها ثم أقام دعائم كبيرة حول أركان البيت الأربعة بقصد حفظ السقف الشريف للبيت من السقوط ثم ربط هذه الدعائم بعضها ببعض وأحاط بيت العزة حتى سقفه بألواح خشبية.

قد شرع فى هذه العملية يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وانتهى العمل فى ترميم البيت فى ظرف ثلاثة عشر يوماً أى فى يوم الأحد الثالث عشر من شهر شوال وفى هذه الفترة صنعت كسوة من قماش عادى باللون الأخضر وكسيت بها الكعبة العليا يوم الخميس السابع عشر من شهر شوال.

من البديهي أن انهيار كعبة الله قد أزعج المسلمين فى جميع أنحاء العالم إلا أن انزعاج المصريين^(١) كان أشد لقرب المسافة بينهم وبين مكة المكرمة.

وأخذوا يبرزون شدة تأثرهم بأقوال مثل: أن موسم الحج قد اقترب ولم يرد

(١) لأن المصريين أول الناس الذين أخذوا خبر انهيار البيت.

من إستانبول الأمر السنى المنتظر؛ لذا قرر محمد على باشا والى مصر إرسال مندوب خاص من قبله إلى الأستانة.

استدعى رضوان أغا الذى تربى فى كنف السلطان وكان من رؤساء الشراكية وألبسه الخلعة ثم قال له: إننى قد عينتك مسئولاً عن أبنية كعبة الله إلى أن يرد الأمر السلطانى من الباب العالى، قد اقترب موسم الحج اقتراباً شديداً قم الآن واركب الهجين وتوجه ناحية مكة المكرمة واحرص على إعداد الأشياء اللازمة وبمجرد وصولك هناك ابعث لنا على جناح السرعة كَشْفًا بكل ما تحتاجه من عندنا، ثم أعطاه خلعة ليقدمها إلى الشريف مسعود كما زوده برسالة توجيه للشريف المذكور وأخرجه إلى الطريق، ثم واصل رضوان باشا السير حتى وصل إلى مكان قريب من مكة المكرمة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شوال و أرسل إل الشريف مسعود من يخبره بأنه أتى حاملاً له خلعة من قبل والى مصر، فأرسل الشريف وفداً من عظماء مكة المكرمة وموظفى الدولة ليكونوا فى استقبال رضوان باشا.

وبعدما تقابل رضوان باشا مع أفراد وفد الاستقبال تحرك نحو مكة ووصل إليها بعد رسوله الذى كان بعثه من قبل بأربعة أيام يوم السبت السادس والعشرين من شوال ونزل فى المنزل الذى كان قد أعدده له شريف مكة وفى اليوم التالى يوم الأحد السابع والعشرين من شوال اجتمع الناس داخل ساحة الحرم إذ أقيم فيه احتفال لتقديم الخلعة.

قد حضر مع الشريف مسعود ورضوان أغا - عملاً بأصول التشريف - أشرف مكة وعظماؤها وأعيانها وكبار موظفى الدولة والعلماء الأجلاء ووقفوا كلهم بين باب المعلا لكعبة الله ومقام إبراهيم قرئت الرسالة التى تحتوى على الأوامر السامية كما قرئت الرسالة التى كانت تنص على إبقاء موظفى الحجاز فى مناصبهم ثم ألبست الخلعة الفاخرة التى بعثها والى مصر - بكل تعظيم وتوقير - للشريف مسعود الذى ألبس أيضاً خلعة لرضوان ومرافقيه وعقب ذلك رفع المجتمعون

أيديهم داعين الله ليزيد الدولة قوة وشوكة، والسلطان جلالاتهم انصرفوا عائدين.

وكان داخل الحرم الشريف والطرق المؤدية إليه قد امتلأت بالحجارة والتراب والقمامة مما جرفه السيل. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال واليوم الثالث من وصول رضوان أغا اجتمع بالشريف مسعود والأشرف والعلماء الأجلاء في الحرم الشريف وتشاور معهم في تنظيف ساحة المسجد الحرام وتطهيره مما حل به.

وعرض كل واحد رأيه وكانت خلاصة رأيهم أن تنظيف ساحة الحرم في مدة قصيرة غير ممكن لأن موسم الحج قد حل بل أخذ الحجاج يفدون إلى مكة المكرمة.

إلا أن رضوان أغا فند رأيهم وتصرف بالشهامة والرجولة وحرص على أن يبعث رجاله إلى المدن والقرى الواقعة بين جدة والمدينة المنورة يستدعون كل من يملك حماراً أو حصاناً أو جملاً وكل من يريد أن يعمل يغرونهم بالأجر الكبير وهكذا جلب كل هؤلاء إلى مكة المكرمة وشرع في العمل بهمة عظيمة ووفق في تنظيف الحرم الشريف وتطهيره في ظرف عشرين يوماً في يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر ذي القعدة.

إن ما جرفه السيل في داخل الحرم من الطين الممزوج بالحجارة كان قد تحجر عقب انسحاب السيول بفعل الحرارة الشديدة وكون جبلاً في ارتفاع سبعة أذرع أو ثمانية، واكتسب صلابة بحيث لا ينفذ فيه الفأس أو الإزميل أو المثقاب وحينئذ قد بلل الجبل الترابي بالماء ليلاً وفقد صلابته وأخذ العمال يحرثون ذلك الجبل العارض بالفئوس والأزاميل كما تحرث الحقول اللينة.

وكانوا ينخلون التراب المحفور بالغرابيل، وينقلون رمله على حدة إلى موضع وترا به على حدة إلى موضع آخر وجاء في سجل سهيلي أفندي - رحمه الله - أنهم كانوا يخرجون ثلاثين أو أربعين ألف حمل تراب يومياً.

عين زبيدة:

بما أن مجرى تلك العين كان قد غطى بالطين والأحجار وبدأ أهل مكة يعانون شح الماء، قام رضوان أغا بترميم وإصلاح المواضع الخربة فى مجرى العين المذكور، وظهر الجزء الممتد من جمرة العقبة إلى مكة، وقد أنجز هذه المهمة على الوجه الأكمل.

إحدى كرامات بيت الله الحرام:

عندما سقط جزء من بناء الكعبة الشريفة أصبح ماء زمزم الشريف ملحا أجاجا إلى درجة أنه تعذر شربه.

وعلى الرغم من أن أعلام العلماء والفقهاء ذوى المنزلة تشاوروا فيما بينهم و بسطوا رجاءهم مطالبين بتطهير بئر زمزم لشدة حاجة أهل الإيمان إلى مائه المبارك و رغبتهم فيه، وأن تتولى جهة ما مهمة تنظيف هذه البئر إلى أن ينقى ماؤها، إلا أن تطهير هذه البئر كان يتكلف ثلاثين ألف قرش وبما أن إنفاق أكثر من خمسة أو ستة آلاف قرش ولو بارة واحدة يتوقف على الاستئذان من أولى الأمر فقد تغاضى رضوان أغا عن فكرة تطهير بئر زمزم قائلا: لا أستطيع أن أنفق هذا القدر من المال من تلقاء نفسى، وينبغى على الاستئذان من والى مصر، ولكن حتى يصلنى رده يتطلب الأمر منى أن أشتغل بأمر أخرى لعدم إضاعة وقتى.

واقترضت حكمة الله أن الملوحة الظاهرة فى بئر زمزم بدأت فى الزوال - تدريجيا مع أول يوم من إلقاء أساس بيت رب العزة، وعندما أوشكت عمليات الأبنية المسعودة على الانتهاء أصبح ماء بئر زمزم عذبا فراتا، ولم تعد هناك حاجة إلى تطهيرها. انتهى.

وفى أوائل شهر ذى القعدة أرسل رضوان أغا إلى والى مصر بيانا يتضمن ما تحتاج إليه الأبنية المسعودة من الآلات وأدوات ومواد بناء مبينا مقدارها وأنواعها، ورجاه الإسراع فى إرسال هذه الأشياء المدرجة فى هذا البيان. وقام والى مصر منحمد على باشا بإعداد الأشياء التى أرسل رضوان أغا فى طلبها وعلاوة على

هذا استدعى كثيراً من النجارين وسائر الحرفيين ووجه بهم موظفًا خاصًا وخرج في وداعه. ولدى وصول الموظف المذكور إلى ميناء جدة في أواخر شهر ذى القعدة سلم ما أحضره من مواد - بموجب دفتر - إلى أحمد قباني أفندى كاتب المال على ميناء جدة المعمورة.

وبناء على الأمر الذى أرسله رضوان أغا مع سيد على بن هيزع أرسل أحمد قباني المهمات الواردة من مصر إلى مكة المكرمة على دفعتين، وقد حفظت المهمات التى أرسلت فى القافلة الأولى فى الخانات المعروفة بمخازن «عبد الرحمن بن عتيق» ١٣ محرم.

وقبيل وصول هذه القافلة اتجه رضوان أغا نحو خليص لتمهيد وإصلاح الطرق التى دمرها ماء السيول الجارى من جهة وادى خليص، وكانت طرق العين المذكورة قد خربت بأكملها من جراء طغيان السيل، ولذا انقطعت مياه البئر، ومكث رضوان أغا أياما فى الوادى المذكور لإعادة مجرى البئر إلى سالف عهدها، واطلع على بن شمس الدين أفندى مهندس مكة المكرمة على الأماكن المتهدمة.

وفى التاسع من ربيع الثانى أجروا الماء الذى انقطع - إلى مكة المكرمة بعد إصلاح العين وجعلها على أحسن وضع لها، كما أجريت مياه الأحواض.

ثم قفل رضوان أغا راجعا إلى مكة المكرمة ونظف مجارى المياه الواقعة على مقربة من البركة الشامية.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الثانى عين من مست إليهم الحاجة من موظفين للقيام بتجهيز كافة متطلبات ومستلزمات الأبنية المسعودة من حطب وفحم وجص، وبعد أن طيب نفس كل منهم بتحديد مرتباتهم كاملة غير منقوصة أمرهم بجمع الأحجار التى هوت من الأبنية المباركة للكعبة المعظمة، وأصدر تعليماته وتوجيهاته إلى النجارين بخصوص عمليات الترميم والإصلاح لإعادة جدران الكعبة المشرفة إلى ما كانت عليه.

ولما شاع بين الأهالي أن الأحجار الساقطة سوف تعاد إلى مواضعها فى الأبنية المسعودة كثر القيل والقال، ولأن كل أحد قال كل ما خطر له من كلام ذهب بعض العلماء إلى عدم جواز ذلك العمل واعترضوا عليه لدى رضوان أغا.

وكان ضمن هؤلاء من طائفة العلماء المعترضين من يسمى «محمد على بن علان» مفتى الشافعية، وأصدر هذا الرجل فتوى فحواها أنه: (لا يجوز لكائن من كان أن يتدخل فى شئون البيت الشريف ما لم يكن نائبا أعظم عن سلطان العالم وملك ملوكه المعظم، وينبغى الانتظار لحين وصول التعليمات من الأستانة فى هذا الشأن).

وبناء عليه استدعى رضوان أغا شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة إلى الحرم الشريف وقال لهم: هناك من أفتى معترضا على ترميم بيت الله، فهل يجوز أن يبدأ فلان من الناس الذى عين من قبل السلطنة السنية ومنح الإذن فى البناء، أم أن ذلك غير جائز؟.

وأجاب على سؤاله من أعظم شيوخ الفتيا الشيخ «خالد بن أحمد المالكي»، و«عبد العزيز الزمزمي» من شيوخ إفتاء الشافعية، و«أحمد بن محمد آق شمس الدين المفتى الحنفى» و«عبد الله بن أبى بكر القرشى» مفتى الحنابلة بأن هذا الأمر (فرض كفاية)، والقائم به مثاب مأجور عند الله، بيد أن الشيخ محمد على بن علان وهو من مشاهير المعترضين أبدى اعتراضه ثانية، وجمع كثرة كاتبة من الأهالي وتجروا على منع الحجّارين وكافة عمليات البناء، وعلى أثر ذلك لم يجد رضوان أغا بداً من استدعاء شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة للمرة الثانية واستفتاهم فى شرح المسألة على التفصيل.

وبفضل فتاوى هؤلاء الشيوخ المفصلة والتي أجمعوا فيها على جواز العمل قائلين: «يجوز كل فعل ما دعت إليه ضرورة أو حاجة» اقتنع الناس بمشروع رضوان أغا فى عمليات الأبنية المسعودة قبل وصول التعليمات السلطانية.

ولم يكن سبب الاعتراض هو الرغبة فى إعادة الأحجار المنهارة إلى مواضعها

وإصلاحها، بل الأسباب القهرية التي بينها المهندسون في تقارير المعاينة والتي نذكرها فيما يلي مع المعارضين:

الأسباب القهرية التي بينها المهندسون في تقارير المعاينة:

- ١ - أن الأحجار الساقطة من الأبنية المسعودة للبيت الشريف غير صالحة للاستعمال، ولأن قسماً منها تهشم فإنه لا سبيل إلى إكمال بناء بيت الله بهذه الأحجار، ولذا يتحتم إحضار قدرًا كافيًا من الأحجار من خارج الكعبة.
- ٢ - وإن كان من الممكن إلصاق الجدران المقامة حديثاً مع الجدران المتهدمة فإنه في خلال فترة وجيزة سوف تنهار ما في ذلك من شك، علاوة على أن بعض المواضع في الجدران القديمة قد آل للسقوط، وهدم الجدران الآيلة للسقوط أصل مرعى من أصول فن العمارة.

ردود المعارضين:

- ١ - لا يجوز جلب أحجار من خارج الكعبة، كما لا يجوز كذلك إصلاح الأحجار المتهدمة، وينبغي استعمال الموجودة على حالتها، أى أنه يتعين ترميم جدران الأبنية المسعودة بالأحجار القديمة.
- ٢ - لا يجوز اقتلاع حجر واحد من أبنية الكعبة، فمن باب أولى لا يجوز هدم الجدران المنهارة.

ولا نحسب أن دعاوى المعارضين كانت لهذين السببين ليس إلا، فقد قالت هذه الطائفة بعد أن اجتمعت كلمتهم: أن صورة سقوط بيت الله عرضت على الباب العالي، ولا ينبغي الشروع في البناء قبل ورود تعليمات الإرادة السنية في هذا الصدد. كما عرجوا على إقامة ستار حول الأبنية المسعودة مع مهمة تنظيف الحرم الشريف، ولم يجيزوا - على أية حال - هدم الجدار الواجب هدمه وهو الذى بين الحجر الأسود والركن اليمانى، وقرروا جواز دخول بيت الله الحرام والجلوس فيه وتدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة.

وواقع الأمر أن هذه الدعاوى كانت واهية فإن لم يؤت بأحجار من خارج الكعبة لا يتأتى لجدران الكعبة أن تبلغ ارتفاعها القديم، وما لم تسو الأحجار المتهشمة وتصلح لا يمكن إعادتها إلى مواضعها القديمة وذلك أخذا بأصول فن العمارة، أما إلصاق جدار آيل للسقوط بآخر بنى حديثا فغير جائز لأن مصيره الانهيار.

رغبتهم في عدم تنظيف الحرم الشريف:

وإن كانوا قد أشاروا إلى أن إدخال الجمال والحمر وسائر حيوانات الحمل إلى المسجد الحرام سوف يخل بما ينبغى من نظام، فإن الاعتماد على الإنسان فقط في نقل حصى موضع ثبت أنه يخرج منه أكثر من أربعين ألف حمل حصى يوميا قرابة شهر على نحو ما سلف شرحه يستلزم نفقات باهظة، فضلا عن أن هذا سوف ينفذ في مدى خمس أو ست سنوات وفي تلك المدة سوف يحرم الحجاج القادمون من الطواف والزيارة في مواسم الحج وهل صح في الفهم أن يجيز ذلك جاهل فكيف يجيزه عالم، وإن جاز إقامة ساتر من الخشب حول الكعبة الشريفة وتنظيف ما يجب تنظيفه من مواضعها، والوفاء بتعليماتها طبق ما تفيده الفتاوى الشريفة المدرجة في خاتمة المقال، فإن رضوان أغا حصل على فتوى بعدم تدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة، وشرع في تنفيذ ما تستوجبه مهمته. رضى الله عنه وعن أصدروا له الفتاوى أجمعين.

تكليف رضوان باشا بإعادة بناء بيت الله:

أرسل محمد على باشا والى مصر رسالة إلى الباب العالى يخطره فيها بسقوط بيت الله على نحو ما سلف ذكره، وأرفق هذه الرسالة بالتقرير الذى ورد من الشريف مسعود بشأن هذه الحادثة الهامة، وتلافيا لوقوع أى بلبلة عرض الأمر على حضرة السلطان دون أى تأخير وصدرت أوامر ملجأ الخلافة العظمى ببناء وترميم تلك البقعة المباركة وإعادتها إلى حالتها الأولى.

وفى تلك الاثناء أرسل الصك إلى سيد أفندى الأنقروى نقيب الأشراف الذى أسند إليه قضاء المدينة المنورة، وأن تكون الأموال اللازمة لترميم الأبنية المقدسة من جزية أقباط القاهرة وقد عين الأنقروى أفندى هذا أميناً للبناء لأمانته ونزاهته وأخطر محمد على باشا والى مصر بذلك وبإسناد نظارة الأبنية المقدسة إلى سيد أفندى الأنقروى، كما أخطر الشريف مسعود بفرمان خاص من السلطان.

وشكل محمد باشا مجلساً من أعيان الدولة وموظفى الحكومة لبحث انتخاب وتعيين أميناً للبناء بموجب الفرمان السلطانى الرفيع والذى وصل يحمل التوقيع المشرف وقال محمد على باشا: لقد أخطرنا الباب العالى بسقوط بيت الله، وأرسلنا كذلك تقرير الشريف مسعود إلى مقر الخلافة الجليلة. وصدرت الأوامر السلطانية لنا بإسناد نظام ترميم البيت الشريف إلى سيد محمد أفندى الأنقروى قاضى المدينة المنورة، وانتخاب أمير من أهل التقوى والورع أميناً للبناء، وإرسال المال اللازم من الخزانة لإنفاقه على ذلك، وأرسل فرمان عال لإبلاغ الشريف مسعود بذلك مع خلعة فاخرة وأرسل اللواء السلطانى إلى من ستسند إليه أمانة البناء. ومن قبل أرسلنا إلى الباب العالى نخطره بإسناد هذه الخدمة إلى رضوان أغا، والآن قدم علينا موظف يسمى «محمود شاووش» لتسلم وحمل المهمات اللازمة للأبنية المسعودة وأحضر معه بياناً بها، وإذا ما استطاع رضوان أغا النهوض بهذه المهمة على خير وجه فسوف أثبتته فى مهمته، ويتعين على أن أسلم محمود شاووش ما طلبه من مهمات، وإن وجد من هو أصلح من رضوان أغا أرسلناه واستدعينا رضوان أغا.

وبعد تبادل الآراء طويلاً فى المجلس قال محمد على باشا:

إن رضوان أغا أهل تقوى وعفة واستقامة وكفاءة وهو على علم تام بالأبنية المسعودة، كما أنه موضع ثقة لدينا جميعاً، وانتخب وأرسل من قبل لهذه المهمة، وبدلاً من تضييع الوقت فى البحث عن من هو أهل اقتدار وكفاءة ينبغى أن نثبت رضوان أغا فى مهمته، ونحن إذا ما طيبتنا خاطرته بإرسال الهدايا الواردة من

السلطان الأشرف، وأرسلنا إليه ما طلبه من مهمات نكون قد أدينا خدمة للكعبة الشريفة من ناحية العمليات والخزانة الجليلة من جهة النفقات.

وقدم هذا الرد الشافى على النحو السالف، وبناء عليه أرسل محمد باشا رسالة مفصلة فى هذا الخصوص متضمنة التصديق على أمانة رضوان أغا للأبنية المقدسة، وأرسل موظفا مخصوصا بالفرمان السلطانى الوارد من الأستانة مصحوبا بخلعة فاخرة وخرج محمد باشا لوداع هذا الموظف.

وفى هذه الأثناء أرسل سيد محمد أفندى - الذى كان موجودا فى مصر - مع الموظف المشار إليه.

وأعدت المهمات المطلوبة لرضوان أغا كما وردت فى البيان، وبدءوا فى إرسالها تباعا إلى ميناء السويس، ولما نقلت إلى هناك بتمامها حملت فى سفن السويس مع سويدان زاده محمد بك وسلمت إلى محمود شاووش رجل رضوان أغا وأرسلت إلى جدة.

وفى يوم الأحد التاسع عشر من ربيع الثانى لى وصول محمود شاووش خرج من السفينة وركب وجنأ^(١)، واتجه إلى مكة المكرمة، ولما وصلها أخبر رضوان بتبشيره فى مهمته، وإسناد قضاء المدينة المنورة إلى من يدعى سيد «محمد أفندى الأنقروى» وتعيينه ناظرا على الأبنية المسعودة من قبل السلطان.

وقد جعل كل ما يختص بمبانى البيت المعظم إلى والى مصر الوزير محمد على باشا وفوض فيه، و أرسلت الأوامر السلطانية ببذل كل ما فى وسعه فى هذا الخصوص.

مع أن محمد باشا كان قد وكل من قبله رضوان أغا وعينه للقيام بهذه الخدمات السعيدة، وبعده بفترة قصيرة وصل سيد محمد أفندى إلى مكة المفخرة وتحدث مع رضوان أغا طويلا.

بينما توجه الشاووش محمود من ميناء ينبع إلى مكة برا كان محمد بك ابن

(١) الوجنأ: الناقة التامة الخلق غليظة لحم الوجنة، الصلبة الشديدة.

(اللسان مادة: دوجن) ص ٤٧٧٤. ط. دار المعارف.

سويدان قد توجه بحرا إلى بندر جدة المعمورة وقد وصل إلى جدة يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثانى وسلم ما حمله معه من الأخشاب والآلات والأدوات والمهمات الأخرى الخاصة ببيت الله مع دفاتها إلى أحمد القبانى المسئول المالى لمدينة جدة، ولما كان أحمد أفندى يعرف مدى حاجة الأبنية المسعودة لهذه الأشياء أعد قافلة وحملها بالأخشاب فى نفس الليلة وبعثها إلى مكة المعظمة وأدركت القافلة المذكورة المدينة الجلييلة فى الصباح.

وبمجرد أن وصلت الأخشاب أسرع رضوان أغا بإحاطة الكعبة العليا بستر خشبى وبعده بيوم استحضر اللوازم الباقية من مدينة جدة بواسطة سيد على وخزنها.

وقد شرع فى أعمال إحاطة كعبة الله بستر خشبى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ربيع الثانى وكان هدف رضوان أغا من هذا العمل إخفاء تعمير بيت الله - تعظيما له وتوقيرا - من أعين الناس، وعندما أوشكت عمليات ستر الكعبة بالخشب على الانتهاء وصل إلى مكة ناظر الأبنية السعيدة وتلاقى مع رضوان أغا واتفقا على إجراء مراسم الأمر السلطانى الذى حمله من مقام الخلافة الجليل وكتبت تذاكر الدعوة إلى سيد عبد الكريم^(١) أخى مسعود شريف مكة وعظماء مكة وقاضى مكة وشيخ الحرم رجا أن يكونوا فى الساعة المعينة داخل الحطيم الشريف فى يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ربيع الثانى وتجمعوا فى الميعاد المحدد وقرأوا^(٢) الصحيفة التى تحتوى الأمر السلطانى الموجه إلى الشريف مسعود.

وبما أن الشريف مسعود كان مريضا لم يحضر مراسم قراءة الأمر السلطانى فأرسلت الخلعة السنية الخاصة به إلى منزله العامر وألبست الخلعة الخاصة برضوان أغا أمام الحاضرين كما ألبس سيد على بن هبزع والآخرين خلع لائقة

(١) قد دعى سيد عبد الكريم نيابة عن أخيه الشريف مسعود.

(٢) قد أشير للصورة المثيقة لهذا الأمر السلطانى فى خاتمة المقال.

بهم ثم رفع الحضور أياديهم داعين مبتهلين إلى الله بدوام دولة سلطان الأمم وانتصار جنوده وهكذا ختم المجلس .

وقد قدم لرضوان أغا مقابل خدمته الجليلة راية سلطانية أيضاً . ولم يرغب رضوان أغا بعد هذه الوظيفة فى وظيفة أخرى ورجا أن تبدل وظيفته بمشيخة الحرم الكائنة فى المدينة المنورة وقبل رجاؤه وأسندت إليه إدارة محافظة المدينة المنورة مشيخة الحرم المدنى فى دار الهجرة .

وبعد ما أتم رضوان أغا خدمته قدم إلى إستانبول ونال شرف المشول بين يدى السلطان الذى عرض عليه وظيفة (بكلربكى) ولكنه لم يقبل هذه الوظيفة أيضا فأحيل إلى المعاش بستمائة ألف أقجة^(١) وأنعم عليه ببراءة سنية^(٢) .

وكانت الرسالة التى كتبها والى مصر الوزير «محمد باشا إلى الشريف مسعود» تحوى فقرة (يرجى أن تبدلوا جميع جهدكم لتعمير البلد الشريف وتجديده متفقا ومتعاوننا مع المخلص رضوان أغا على أرض الواقع) .

وقد سر الشريف من هذه السطور وابتهج وأخذ يثنى على محمد على باشا ويشكره ثم ألبس الخلع لرضوان أغا ومرافقيه وبعد يومين من ذلك ارتحل مودعا الدنيا إلى دار إمارة الفردوس فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى .

وقد أثار موت الشريف مسعود بين أهل مكة القيل والقال مما أقلق الكرام من أهالى مكة والمجاورين ذوى الاحترام وأزعجهم . إلا أن رضوان أغا بما هو مفطور عليه من سجية عالية وروية فى التفكير بذل كل جهده ليحافظ على أمن البلد وضبطه فأصدر الأمر الآتى :-

«كل من يسعى للفساد ويثير الخلل فى البلاد يهدر دمه» وأعلن هذا الأمر بواسطة المنادين فى الأسواق والخوانيت حتى يصل إلى مسامع الناس، ثم كفن وجهز الشريف مسعود وصلى عليه فى الحرم الشريف ودفنه فى مقبرة المعلا، ثم

(١) أقجة عملة فضية فى الدولة العثمانية .

(٢) قد أشير إلى هذه البراءة الشريفة برقم (٢) فى خاتمة المقال .

استدعى الأعيان والأشراف وقاضى مكة المعظمة وشيخ الحرم وذوى النفوذ من الأهالى إلى الحرم الشريف وخاطب السيد الشريف عبد الله بن حسن الذى كان فخر أسرة آل عبد مناف ودرة السادات والأشراف .

يا سيدنا إن منصب الإدارة الجليل والرتبة العلية لرياسة الأشراف من حقكم الصريح وذلك بشهادة المجتمعين والأشخاص الموجودين فى الأماكن الأخرى، فتولوا من الآن الإمارة والبسوا خلعتها المزينة وأسرعوا إلى حكم البلاد حسب الأصول واعملوا على ضبط الأمور وربطها . . هذا هو المرجو منكم وبناء على هذا الخطاب لم يستطع أهل الفساد أن يوقدوا نار الفتنة والفساد .

وإن تردد السيد عبد الله فى قبول هذا التكليف الذى عرض عليه من قبل رضوان أغا إلا أن انضمام الأعيان والأشراف والعلماء الأعلام إلى رضوان أغا بالرجاء إليه . قائلين:- إن هذا الأمر المفروض عليك من قبل رضوان أغا نافع للدين والدولة فرجاؤنا أن تفضلوا بقبوله . وبناء على هذا لبس الخلعة الخضراء لرياسة أشرف الإمارة، ودعا لسلطان الأنام من صميم قلبه، وتقيد بإدارة أمور البلد ضبطها وربطها .

وقد أنقذ حسن تدبير رضوان أغا البلد من فتنة عظيمة ونجى الأهالى من الحزن والألم والقلق، لذا دعوا له وللسلطان وعدوا هذا التدبير المقبول والمستحسن خدمة أخرى قدمها المذكور لمكة الله وقالوا: «قد نجونا من جميع السوء كانت الحجارة المتساقطة من جدران البيت الشريف تناثرت فى جميع أطراف المسجد الحرام وظل كل جزء منها فى ناحية، وفى يوم الجمعة من أول شهر جمادى الأولى اجتمع الأشراف وأعيان مكة وخدمة بيت الله وموظفى الدولة فى المسجد الحرام توأم جنة الخلد وأخذوا يجمعون الحجارة ثم وضعوها فى صفة قريبة من المقام الحنفى فى الركن العراقى وأقاموا فوقها خيمة ثم كلفوا بجمع البقايا من الحجارة عمالا قاموا بحملها ووضعها فى مكان قريب من المدرسة

السليمانية، وشرع الصنّاع المهرة فى نحت الحجارة وتسويتها بعد أن جلبوها من الخارج».

كان المرحوم الشريف مسعود قد وضع القناديل الذهبية والفضية الخاصة ببيت الله فى محل قريب من المدرسة الباسطية وحفظها هناك. وكان عدد القناديل خمسين قطعة ثمانية عشر منها ذهباً وثلاثة وثلاثين منها فضة.

وقد اجتمعت الهيئة المذكورة يوم السبت الثانى من شهر جمادى الأولى ونقلت الأحجار المتروكة فى الركن^(١) العراق إلى صفة المقام الخنفى وأمروا بانتزاع الحجارة الرخامية التى كانت تغطى ساحة المطاف ووضعوها فى مكان قريب من باب السدة.

وأخذ الحجارون منذ ذلك اليوم ينحتون ويسوون الحجارة التى تضررت وتجرحت عند سقوطها من جدران بيت الله وكذلك أخذ النجارون يقطعون وينشرون الأخشاب التى وتوفرت.

وفى يوم الأحد الثالث من شهر جمادى الأول انتزع باب خزينة الشموع الذى كان تابعا للسقاية التى يتولى أمرها عباس بن عبد المطلب وأخرجوا الحزام^(٢) الحديدى الذى كان قد أرسله المرحوم السلطان أحمد خان.

واستدعى الصياغ ليّفصلوا بين ذهب ذلك الحزام وفضته وذلك أمام قاضى مكة وشيخ الحرم والآخرين من أعيان المدينة وعظمائهم. وخرج من حديد هذا الحزام عشرة آلاف درهم من الذهب ومائة وعشرون ألف درهم من الفضة.

وهذا فضلا عن الذهب والفضة المستخرجان من الحزام الكائن بين الحجر

(١) المدرسة السليمانية التى تحاذى الركن العراقى أصبحت - الآن - محكمة، كل الحجارة المنقولة والمحفوظة كانت قد وقعت من الركن الشامى.

(٢) إن هذا الحزام كان قد أرسل من السلطان المشار إليه فى سنة ١٠٢٠ هـ لتشييد وترميم بيت الله ولما انهار بيت الله رفع الحزام المذكور بأمر الشريف مسعود ووضع فى المخزن المذكور.

الأسود والركن اليماني، وإذا ما ضمنا إلى المجموع ما استخرج من الذهب والفضة من الحزام يجب أن نضم إلى المجموع الكلى ثلث المقدار المذكور.

كان محمد على باشا والى مصر قد جهز مقدارا لازما من الرخام والآلات والأدوات ومقدارا من الخشب والمستلزمات الأخرى وحمل بها سفينة فى السويس لتوصلها إلى جدة، وقد تعرضت هذه السفينة لعاصفة شديدة وغرقت ولما وصل الخبر المشؤوم فى يوم الجمعة الخامس عشر من شهر جمادى الأولى إلى سمع الناس فى مكة المكرمة أصابهم هم شديد.

وفى يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور شرع بعد التسمية باسم الله فى هدم جدران البيت بعد أن أحيط المطاف الشريف بستار خشبى.

وكان الهدف من هذا إخفاء التجارين الذين سيعملون فى البيت الحرام مقتدين فى ذلك بعبء الله بن الزبير لأنه كان قد أحاط البيت قبل هدمه بستارة خشبية.

بينما كان النجارون مشغولين بصنع الستارة الخشبية اتصل رئيسهم برضوان أغا وأخذا يتذكراَن القرار الذى سيتخذ للبدء فى هدم البيت، وبعد المحادثات الطويلة بين الطرفين قرر أن يشرع فى الهدم يوم الأحد من الشهر المذكور وفى الموعد المقرر بدأت العمليات أمام الأشراف الكرام والعلماء العظام وأهل مكة المحترمين كما أحيط البيت من خارجه بستارة خشبية فى ارتفاع ستة أذرع، وتركوا فراغا فى الستارة الخشبية حتى يتمكن الطائفون من استلام الحجر أو تقبيله، وكان عبد الله بن الزبير قد فعل نفس الشئ، وكان الطائفون يطوفون خارج الستارتين، ولما شرع فى صنع الستارة الثانية فى ٢٤ جمادى الأولى شرع فى صنع إسقالة قوية متينة على أطراف الستارة الأربعة.

وكان قصد رضوان أغا من صنع هذه الإسقالة هو تسهيل عمل البنائين فى صعودهم ونزولهم وتأمين طريق العمال الذين يحملون الحجارة والطين فى أثناء البناء.

وقد استمرت هذه الأعمال ستة أيام أو سبعة وفى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة انتزعت بقية الأحزمة التى كانت فوق الجدار الذى فيه الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين الثانى من شهر جمادى الآخرة اجتمع الشريف على بن بركات وسادات البلد صباحا فى دائرة الحطيم وتفقدوا الجدران التى لم تسقط وخاصة السقف الشريف لبيت الله ومعهم رضوان أغا والمختصون فى فن العمارة والمهندسون.

وأخذ المتخصصون فى فن العمارة والمهندسون يكشفون بعناية تامة ورأوا مدى ضعف الجدران التى لم تتهدم بعد، والسقف الشريف وشدة وهته ثم قالوا مخاطبين الجمع: إن مبانى هذه البقعة الشريفة قد اهتزت ووهنت من أسسها وهانحن أولاء نعرض لكم الحقيقة فلا مجال بعد ذلك لتقولوا لماذا لم نخبرونا بالحقيقة فى وقتها؟ وقد صرحنا بحقيقة الأمر أمام المفتين الأربعة والسيد القاضى وأمام عظماء البلد ووجهائهم.

ونكرر القول مرة أخرى: إن إبقاء بيت الله دون تجديد أمر غير جائز، وقد اهتزت وضعفت جميع نواحيه وأصابها الوهن ومن هنا يجب أن يجدد البيت تجديدا كاملا وأيدوا قول رضوان أغا بشهادة كثير من المسلمين.

إن تصديق المجتمعين كلهم ما ادعاه المهندسون ورجال العمال بلا تردد كان لإسكات محمد بن علان وهو من العلماء المعترضين.

وقد ادعى ابن علان أن الأجزاء الباقية من جدران الكعبة غير جائز هدمها وهكذا خدع بعض العوام من الناس وأثارهم حتى يحولوا دون هدم الأجزاء الباقية التى نجت من السيول، وتردد رضوان أغا أمام موقف هؤلاء واستفتى المفتين المعروفين بعلمهم فى أرجاء العالم وفقهاءهم وحصل منهم على الفتوى التى ستذكر فى آخر هذا المقال وكانت خلاصة الفتوى: «يجب العمل بما تملى به الضرورة وبشهادة أهل الخبرة ورأيهم، ومن هنا يجب البدء فى تجديد بناء الكعبة ويلزم من أجل تجديدها المال الحلال».

وبناء على التقرير الذى وضعه المهندسون والمتخصصون فى فن العمارة وبشهادة المسلمين قد رفعت الستائر الخشبية التى وضعت بدلا من الجدران المنهارة وانتزعت الحجارة الباقية ووضعت بكل احترام وتوقير فى مكان قريب من المدرسة الباسطية وذلك فى يوم الثلاثاء الثالث من شهر جمادى الآخرة.

وبما أنه قد شرع فى يوم الأربعاء الرابع من جمادى الآخرة فى إنزال سقف بيت الله لم يفارق رضوان أغا المهندسين والمعماريين وأمر بإنزال الرصاص الذى كان فوق السقف والأخشاب التى تثبت كسوة الكعبة، ثم وضعت هذه الأشياء بعد إنزالها فى خزانة الشموع، كما أمر بوضع التراب الذى تخلف من إنزال سقف البيت فى المطاف.

وفى يوم الجمعة السادس من جمادى الآخر اجتمع الشريف على بن بركات والأعيان والعلماء من مفتى المذاهب الأربعة فى داخل الحطيم الكريم وشاهدوا وتفقدوا وكان معهم الشيخ محمد على بن علان أحد المعارضين على تجديد الأبنية.

وقام رضوان أغا وعرض على المجتمعين أن ابن علان لا يوافق على هدم ما تبقى من الجدران بعد السيل وأنه يتلفظ بكلمات تؤدى إلى إثارة الفتنة بين عوام الناس ثم قال: ما رأيكم فى هذا؟ فقال الجميع: إن تجديد الكعبة قد أصبح واجبا بناء على أقوال المهندسين والمعماريين وبناء على ما رأيتموه من الجدران المتهدمة وبهذا قد أفتوا مرة أخرى. وفى يوم السبت السابع من جمادى الآخرة أمر بإنزال البقية من السقف اللطيف ووضع جزء من البقايا بجانب المدرسة السليمانية ووضع الجزء الآخر فوق أحجار كعبة الله التى حول الكعبة المعظمة.

وكانت الغاية من وضع الأخشاب فى الأماكن المتفرقة لحفظها من الأذى الذى قد يصيبها فى أثناء هدم جدران الكعبة.

وفى وقت الضحى المذكور شرع فى هدم بقايا الجدران الكائنة فى جهة بئر زمزم وفى الغد ومن يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة شرع فى هدم بقايا الجدار الغربى المقابل لباب إبراهيم وأنزلت الأخشاب التى كانت فوق هذا الجدار

ثم شرع فى هدم بقايا الجدار المقابل لباب الصفا، وقد تمت إجراءات الهدم للجدار اليمانى يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة وفى يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة شرع فى هدم البقية الباقية من جدران بيت الله .

وفى يوم السبت الرابع عشر من جمادى الآخرة هدموا إلى قرب عتبة باب الملا من كعبة الله، وفى يوم الأحد الخامس عشر من جمادى الآخرة حملت عتبة باب بيت الله إلى المكان الذى ينحت فيه الحجارون الحجارة فقاموا بتسويتها، ثم قلع الباب السعيد من مكانه وحمل فوق الرؤوس ووضعوه فى المكان الخالى تحت بيت المرحوم ميرزا ثم نقلوا حجارة الشادروان والركن اليمانى إلى جهات مختلفة بعد أن نزعوها من مكانها وكان فى حجارة الشادروان حلقات مغطاة بالذهب .

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة لم يكن قد بقى أى حجر فى جدران كعبة الله إلا الحجارة التى فوق الحجر الأسود وتحته لذا طلب البناءون والنجارون إحضار جميع أدواتهم ووضعوها فى المخزن الذى يطلق عليه خزينة المال، وفى الغد الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة شرع فى تنظيف وحفر الأسس لجدران بيت الله الأربعة وإحضار الحجارة الكبيرة التى ستوضع فى أساس البيت واستمروا فى الحفر حتى وصلوا إلى الحجارة الخضراء وعلامات وإشارات أساس البيت القديمة من حيث بدءوا فى التجديد ورسوا طبقة من الحجارة ابتداء من الركن الشامى .

وكان الشروع فى وضع أسس بيت الله فى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة .

ومن الأحجار الأساسية لكعبة الله إلى سقفها اللطيف يوجد خمس وعشرون طبقة من الحجارة وفق ما رتبته عبد الله بن الزبير وبما أن الأحجار الموضوعة فى الطبقة الأولى فوق الأحجار الخضراء بقيت تحت أحجار الشادروان فهى لا تدخل ضمن الخمس والعشرين طبقة .

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة جهزت أحواض الكلس وأدخلوا الحجارة التى كانت فى الخارج إلى المطاف الشريف وفى الغد الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة أرسلوا الحجارة التى قطعت من جبل الشبكة ونحتت وسويت بجانب مقبرة العارف بالله الشيخ محمود بن إبراهيم أدهم إلى حرم المسجد الحرام وبعد ما غسلت هذه الحجارة بجانب المقام المالكي حملت إلى جانب جدران كعبة الله .

وفى يوم الأربعاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة أخذوا يبنون فوق الطبقة الأولى من الحجارة التى وضعت فوق الحجارة الخضراء ورفعوا البناء من الجهات الأربعة إلى أرض المطاف . وقد وجد فى ذلك اليوم فى الحرم الشريف بجانب الكعبة الشريفة قضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة وشيخ الحرم والفقهاء والعلماء حتى ينالوا شرف تقديم الخدمة فى أثناء وضع أسس البيت الحرام ، ودعوا لسلطان العصر وأثنوا عليه وحملوا الحجارة بأيديهم وبعد فترة تعبوا وجلسوا فى الحطيم .

وقام رضوان أغا الذى كان معهم وأخرج من جيبه دفترًا وقرأ أسماء الشريف عبد الله وقاضى مكة المكرمة وشيخ الحرم ونائبه ووالى مكة ومفتى المذاهب الأربعة والآخرين ممن قاموا ببناء البيت وتجاوز عددهم العشرين ثم ألبس كل واحد منهم خلعة فاخرة وختم المجلس بالدعاء للسلطان مرة أخرى .

وقد ارتجل أحد الأشخاص من فضلاء مكة هذا المصراع من البيت يسجل فيه تاريخ اليوم .

(. . . تاريخ رفع الله قواعد البيت^(١))

عاد المدعوون المشار إليهم بعد زيارة بيت الله ذو الأسس الذى لن يتدرس بعد ما لبسوا الخلع فى داخل الحطيم وبعد ما تلوا آيات القرآن الكريم ودعوا باليمن

(١) كان يلزم أن تكون إشارة التعمير فى المصراع الأول من هذا البيت إلا أننا لم نقدر على الحصول على هذا المصراع .

والبركات للسلطان رافعين أكفهم إلى قاضى الحاجات وقد رتب بعد ذلك رضوان أغا حفاظا يجتمعون داخل المقامات الأربعة ويختمون القرآن الكريم كل يوم ثم يقرأون دعاء ختم القرآن فوق الساحة المباركة للبيت الحرام.

كما عين ثلاثة من الحفاظ الفقهاء ليشروعوا فى قراءة سورة الفتح مع بدء العمل فى البناء فى كل يوم، كما فتح بابا فى السور الخشبي الذى حول الكعبة. وعهد رضوان أغا بمفتاح هذا الباب إلى بواب معين وكان المذكور حينما يفتح الباب كل صباح يبدأ الحفاظ الذين فى داخل المقامات الأربعة فى ختم القرآن الكريم ويشرع البناءون فى العمل كما يبدأ الحفاظ الذين داخل المقام الحنفى فى قراءة سورة الفتح.

وقد استمر هذا النظام إلى أن انتهى بناء بيت الله المفخم وقد ختم القرآن كل يوم فى المقامات الأربعة كما تليت سورة الفتح ثلاث مرات.

واشغل البناءون فى يومى الخميس والجمعة والسبت السابع والثامن والعشرين من جمادى الآخرة بإعداد ما يلزم من مؤن لتثبيت ووضع الطبقة الثانية من الحجارة وفى يوم الأحد التاسع والعشرين من الشهر المذكور أخذوا يركبون حجارة الطبقة الثانية وفى اليوم الثلاثين من جمادى الآخرة يوم الاثنين وضعوا فى الركن اليمانى حجر استلام المطوفين المبارك.

وكان الجزء العلوى من هذا الحجر قد انكسر لذا صب البناءون فى هذا الكسر مقداراً كافياً من الرصاص بعدما سووه جيداً مع الأجزاء الأخرى حتى يتماسك مع الحجارة الأخرى.

وفى أثناء وضع الحجر المسعود فى مكانه من الركن اليمانى جاء الشخص الكريم الذى يحمل مفتاح البيت ومسح الحجر الأسعد وما يتصل به من الحجارة بنوع من الأعشاب والعطور الأخرى.

وبعد ما رص البناءون حجارة الركن اليمانى ورصوها جيداً رصوا حجارة

الطبقة الثانية من جدران الركن الغربى والركن الشامى وفى اليوم الثانى الثلاثاء
غرة رجب أنهوا رص حجارة الطبقة الثانية لجميع أركان البيت وسوها جيدا .

وفى اليوم الثانى الأربعاء قضى البناءون وقتهم فى إعداد المون ونقل الأشياء
اللازمة وتجهيزها وفى اليوم الثالث الخميس ركبوا عتبة باب كعبة الله ذات
الفيوضات الإلهية فى المكان المعد لها . كما علق الصياغ الطرف النحاسى الذى
صنع للحجر الأسود بالفضة ونقلوا بواسطة البنائين والحمالين الثلاثة أعمدة التى
ستنصب داخل بيت الله ومصراعى باب كعبة الله فى داخل ساحة بيت الله .

وفى يوم الجمعة الرابع من رجب الفرد انشغلوا بتخمير وتصفية المونة وإعداد
اللوازم الأخرى ثم نقلوها من باب الصفا إلى مكان قريب من الأبنية السعيدة
وفى يوم السبت الخامس من رجب أخذوا فى رص الطبقة الثالثة وشغلوا إلى
مساء يوم الأحد السادس منه برص حجارة الطبقة الثالثة إلى الحجر الأسود
وسوها وفى نفس الوقت أخذوا يسوون أطراف الألواح الخشبية التى حزمت بها
جدران البيت المنير ومن ناحية أخرى غطوا غلاف الحجر الأسود الجديد بالفضة
وزينوه بنقوش ذهبية، ولكن الحجارة التى كانت بجانب الحجر الأسود ظلت
منخفضة قليلا .

وفى يوم الاثنين السابع من رجب وبعد الشروق اصطحب رضوان أغا سيد
محمد أفندى والمعماريين والمهندسين وأحضر معه العشرة ألواح التى كانت أعدت
لأجل الحجر الأسود والتى كانت مغلقة بالفضة ومنقوشة بالذهب وثبت بها الجهة
التي ظلت مكشوفة من الحجر الأسود وأمر البنائين بالشروع فى رص الطبقة
الرابعة من الحجارة، وفى يوم الثلاثاء الثامن من رجب رفعوا الحجر الكبير الذى
فوق الحجر الأسود وثبتوه فى مكانه وذلك فى حضور الأشراف والأعيان
والعلماء والوجهاء واشترك فى رفع الحجر الكبير الذى كان فوق الحجر الأسود

(١) إن الباب الغربى المسدود كان مقابل الباب الشرقى وفوق أحجار الطبقة الثالثة . حتى إن المهندسين حينما
كانوا يرصون الحجارة فى مكان الباب الغربى المسدود تركوا علامة تدل على أن فى الموقع كان باب، ومن
يعمن النظر فى هذا المكان يمكنه رؤية تلك العلامة .

ووضعه فى مكانه جميع الأشراف والأعيان إلا أن رئيس المهندسين «آق شمس الدين أفندى» و «عبد الرحمن بن زيد أفندى» من معمارى الأبنية المسعودة قد اضطلعوا بنفسهما بإصلاح أطراف الحجر الأسود وتسويته وقضيا يومى الأربعاء والخميس فى هذا العمل فقط وهكذا أنهى كل ما يتعلق بأمور الحجر الأسود.

وفى ليلة الجمعة الحادى عشر من رجب الشريف قام قاضى مكة وشيخ الحرم وبعض من فقهاء البلاد بالكشف على كيفية وضع الحجر الأسود فى مكانه وأثنوا على رضوان أغا ورئيس المهندسين والمعماريين وشكروهم لما بذلوا من جهد عظيم وهمة كبيرة.

بينما كان الزوار الكرام يتفقدون وضع الحجر الأسود قال بعض المهرة من العمال الذين رأوا أن ظهر الحجر الأسود أكثر صقلا من وجهه: لو أذنتم بتبديل ظهر الحجر الأسود بوجهه لأن ظهره أصقل من وجهه ولكن رضوان أغا رفض رأى البنائين قائلا: لا، لا يجوز التلاعب بالحجر الأسود إن وضعه الحالى على أحسن ما يرام.

وكان رضوان أغا مصيبا فى رأيه، لأن الحجر الأسود - كما سبق فى بابه - كان متشققا من عدة أماكن، حتى أنه قد ربط فى أيام العباسيين من طرفيه بأحزمة فضية، وقد أبقاه رضوان أغا على هيئته الحالية وغطى جوانبه المكشوفة بصفائح مطلية ومغلفة بالفضة وأحكم تشييته.

وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب الفرد شرعوا فى رص حجارة الطبقة الخامسة وبعد الانتهاء من رص الجهات الأربعة استقدموا الحدادين وكلفوهم بصنع حزام معكوس الرأس من الحزام الذى كان السلطان أحمد بن محمود خان أرسله فى سنة ١٠٢٠ هـ لربط بيت الله من جهاته الأربعة.

وقد ثقت الأبحار الموجودة فى الزوايا من وسطها لتثبيت رءوس الأحزمة الحديدية جيدا وقد أدخلوا رءوس الأحزمة المعكوسة فى داخل الثقوب ثم صبوا فيها الرصاص المنصهر لتثبيتها، ثم نشروا ألواح الأخشاب اللازمة لتغطية جدران

البيت الحرام ثم ألصقوها ببعضها ببعض وسمروها على الجدران ووضعوا الأخشاب المتبقية فى مكان أمين لاستعمالها فى السقف الشريف .

وقد أوصى المسئولون بشراء بعض الخشب من جدة وقد استحضروا هذا الأخشاب فى يوم الأحد الثالث عشر من رجب إلى مكة وحفظوها فى المخازن وفى يوم الاثنين الرابع من رجب شرعوا فى رص حجارة الطبقة السادسة من الجهة الشرقية وانتهوا إلى باب المعلا من بيت الله وبدءوا فى رص حجارة الجهة الغربية وقام النجارون بصنع القواعد التى ستنصب عليها الأعمدة فى داخل كعبة الله .

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب فتحوا باباً من ناحية القصر المنسوب للملك الأشرف قنصوه الغورى للصعود على قبب المسجد الحرام وأعدوا الأخشاب التى استحضرت من جدة بمسحها للاستعمال .

وفى يوم الأربعاء السادس عشر من رجب صعد سيد محمد أفندى الأنقروى مع رضوان أغا لتفقد الأماكن التى فى حاجة للطلاء .

وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب قرروا الطلاء وقد وضع البناءون الطبقة السابعة من الحجارة وفى يوم الخميس صفوا الحوض الذى أعده من ناحية ومن جهة أخرى اصلحوا وسووا الأخشاب التى جهزت لتغطية السقف وفى يوم الجمعة أعدوا الحجارة الموجودة وفى يوم السبت قاموا بطلاء أربع قبب ناحية باب العمرة^(١) .

وفى يوم الأحد العشرون من رجب رصوا الطبقة الثانية من الحجارة وقاموا بتزيين وتحلية الأعمدة التى بجانب باب البيت المطهر والتى غلفت بالفضة بنقوش ذهبية، ثم وضعوا الخشبة التى فوق القبة العليا للباب وركبوا مصراعى البيت القديمين .

(١) سجل سهيل أفندى فى مضبطه أنه قد استخدم فى طلاء كل قبة من هذه القبب ثلاث أرباب من مونة وأنفق أربعة آلاف قطعة ذهب لمونة أبنية الحرم وسبعة آلاف قطعة ذهب للأخشاب التى استخدمت فى البناء .

وقد كتب فوق الخشبة المذكورة بنقوش ذهبية (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد نصب العمودان اللذان بطرفى الباب والمغلفان بالفضة فى عهد السلطان المرحوم سليمان خان سنة ١٩٥٠ هـ.

والمصراعان اللذان قلنا عنهما القديمين كانا قد صنعا أيام الملك الظاهر بيبرس من سلاطين مصر وقد بليا بمرور الوقت، لذا قد بدّل السلطان سليمان غلافهما الفضى وزينها بالنقوش الذهبية ووضعهما فى مكانهما.

وفى اليوم الذى نقش فيه العمودان بدئى فى رص حجارة الطبقة التاسعة من جهة الركن العراقى وأخذوا فى صنع الإسقالة الداخلية التى احتيج إليها، لأن الجدار كان قد ارتفع عن عتبة باب كعبة الله.

لما ركب باب البيت الشريف جربه رضوان أغا بأن فتحه وأغلقه عدة مرات ثم أتى بقطعة من إسفنج نظيف وغسل جميع جدرانه بماء زمزم ثم أغلقه بمفتاح.

ولما كان المفتاح يوضع فى باب البيت مع صوت أذان الظهر ارتفعت الأدعية بطول عمر السلطان وزيادة قوة دولته ورقبها. بعد أداء صلاة الظهر أسرع البناءون بإتمام الطبقة العاشرة من جدران البيت وشغلوا إلى يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب بطلاء البيت بالكلس وإعداد الأخشاب بمسحها وتسويتها وفى نفس اليوم ركبوا أحجار الطبقة الحادية عشرة.

وفى يوم السبت السادس والعشرين من رجب أعطى ابن شمس الدين بقية الأخشاب الخاصة إلى النجارين لتسويتها وبعد ما رص البناءون حجارة الطبقة الثانية عشرة بدأوا فى نحت وإصلاح أحجار البيت الشريف القديمة.

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب استحضرت الأخشاب اللازمة لسقف الكعبة المعظمة وهى ثمان وثمانون عمودا خشبياً تماثل الأعمدة الخشبية القديمة فى الطول والعرض والقطر وابتدئ فى إعداد الألواح الخشبية التى تغطى الأعمدة السابقة، وذلك بمسحها الطبقة الثالثة عشرة كما رصوا قطع الرخام اللازمة لسطح البيت على الأرض بعضها بجانب بعض لفرزها وما وجدوه معيياً

نحوه جانبا لتسويته وإصلاحه، وبعد ذلك بدءوا فى رص أحجار الطبقة الرابعة عشرة التى تعد مبدأ النصف الأعلى للكعبة المعظمة.

عندما ارتفعت جدران كعبة الله إلى نصف علوها امتلأت ساحة المسجد الحرام سواء بالحجارة القديمة أو كانت الأحجار الجديدة المنحوتة والمستلزمات الأخرى مثل الكلس والرمال والأخشاب حتى لم يبق مكان للسير فى المسجد الحرام.

وأخذ الناس فى الشوارع والأسواق والمحافل العليا والسفلى وخاصة فى المجالس غير الرسمية التى تجتمع فى داخل الحرم الشريف يتحدثون ويقولون إن رضوان أغا يهين البيت الأعظم وذلك أنه قد نوى أن يكسب أموالا كثيرة بزيادة النفقات غير اللازمة.

إن أحداً من الأسلاف لم يتجرأ بأن يمد يده للحجارة التى بنى بها خليل الله - عليه السلام - الكعبة. وما الحاجة إلى الحجارة الجديدة؟! مادامت الحجارة التى بنا بها عبد الله بن الزبير الكعبة متوفرة؟! وقد أطل الناس ألسنتهم على رضوان أغا بمثل هذه الكلمات غير اللائقة وأبلغ بعض العلماء الخبيرين رضوان أغا بهذه الأقوال؛ وبما أن رضوان أغا انزعج انزعاجاً شديداً وخاف من حدوث فتنة وبما أنه كان بريثاً من كل ما يجرى على ألسنة الناس ظل يطوف البيت سبع مرات بعد أداء الصلاة مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ويتضرع لوهاب الآمال باكياً؛ وكان يخاطب ربه فى ختام كل طواف بكل تذلل وانكسار رافعا يديه ويقول:

يا رَبُّ إنك ترى كل شىء إن الأنبياء العظام والأولياء ذوى الاحترام وكافة الملائكة نالوا المغفرة بخدمة بيتك العظيم. إن هدفى من كل عملى هو نيل رضاك وليس إهانة البيت. يا إلهى أخف واستر بجاه قدرتك وعظمتك الأشياء الزائدة عن عيون الناس وأنج عبدك هذا من اعتراضات الناس وأقاويلهم يا رب إذا زادت الأحجار والأشياء الأخرى عن حاجة البيت. فمر ملائكتك يرفعونها إلى السماء أو يدفعونها فى الأرض، وبمثل هذه الأقوال أخذ يناجى ربه باكياً متتجبا.

وقد أصاب دعاؤه هدفه فنال الاستجابة، إذ لم يزد أى شىء عن حاجة البيت سواء كانت الحجارة الجديدة أو الحجارة القديمة أو المستلزمات الأخرى وكأن كل شىء حسب حسابه بدقة شديدة لم يزد حجر ولم ينقص حجر. انتهى.

وفى يوم الأربعاء غرة شعبان رفعت الستارة الخضراء التى كانت تغطى الكعبة إلى نصفها ورأى الأهالى غرة كعبة الله ورفعوا أيديهم بالتضرع إلى الله شكرا ومسحوا وجوههم فى كعبة الله المفخمة. وفى يوم الجمعة الثالث من شهر شعبان فرشوا رخام النصف الثانى للسطح الشريف ووضعوا على كل واحد منه علامات معينة وأعدوا الأخشاب اللازمة، وفى اليوم الرابع من رجب الموافق يوم الجمعة رفعوا ستارة البيت وطووها.

رفعت ستارة كعبة الله الشريفة وظهر جمال كعبة الله بدون نقاب حينئذ امتلأت قلوب أهل مكة بالفرحة والسرور ولمرت عيونهم بالنور وأخذوا يدعون له ولسلطان العالم خير الدعاء.

وفى يوم الجمعة شرع فى رص الطبقة السابعة عشرة من الحجارة وتم معاينة أخشاب معظم السقف واختير الصالح منها لاستخدامها فى السقف أيضا ونُحِيتْ جانباً، وفى يوم الأحد الخامس من شعبان كلست ودهنت القباب الثلاثة الشمالية التى أعدت لذلك قبل ثلاثة أيام، وفى يوم الاثنين السادس من شعبان شرع فى تعمير مئذنة^(١) باب الحزورة وفى يوم الأربعاء الثامن منه قد كُرِّمَ أحمد قبانى أفندى الذى كان أرسل الأخشاب اللازمة من جدة إلى مكة وذلك بالباسه الخلعة وبهذا أعلى قدره، كما حفر أسس الأعمدة التى فى داخل الحرم وجعل لها قواعد من حجر الشمليس، وفى يوم السبت الحادى عشر من شهر شعبان المعظم رفعت أسقالة أبنية البيت السعيد وعلقت الألواح الخشبية التى أعدت لاستخدامها فى تغطية السقف الشريف فى أربعة أماكن لتكون جاهزة للاستخدام عند الطلب. وفى يوم الأحد الثانى عشر منه أصلحوا وسوا الرخام المرصوص حول

(١) تم تعمير هذه المئذنة فى خمسة أيام.

الجهات الأربعة للبيت الحرام، وفى يوم السبت الحادى والعشرين أخذوا فى تأسيس شادروان كعبة الله مبتدئين من الحجر الأسود إلى حجر إسماعيل، فنصبوا أحد الأعمدة التى فى داخل الكعبة وثبتها فوق القاعدة المصنوعة من الحجر ولزيادة المتانة صبوا حولها الرصاص المنصهر.

وفى يوم الثالث عشر نصبوا العمودين الثانى والثالث فى جهة، ومن جهة أخرى طلوا القباب الغربية وجدران الشادروان التى انتهى بناؤها بعد أن وضعوا بقية الخشب التى وصلت من جدة بالقرب من جدران بيت الله.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من شعبان رفعوا الأشياء اللازمة للسقف الشريف.

ورصوا حجارة الطبقة العشرين وفى يوم السبت الثامن عشر منه طلوا الأعمدة التى داخل الكعبة بالزعفران ثم مسحوها بالصبغ العربى والغراء وفى اليوم التاسع عشر (الأحد) انتهوا من ترميم مئذنة باب الجزيرة وفى يوم الثلاثاء صنعوا السقف العالى^(١) لبيت الله.

وفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان وضعت أعلام قبب المسجد الحرام فى أماكنها بعد تزيينها وفى يوم الخميس الثانى والعشرين رصت حجارة الطبقة الخامسة والعشرين وجمعت الباقية من مباني البيت الشريف نقلت إلى جانب المقام المالكي^(٢).

وفى يوم السبت الرابع والعشرين وضعت مداخل السقف الثانى وشرع فى صنع السلم^(٣) الذى يصعد منه إلى سطح كعبة الله وحلت جميع الإسقالات التى فى داخل الكعبة المعظمة وأخرجت خارجها.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين بعد أن فرشت قطع الرخام فوق السقف

(١) يوجد فاصل بين السقفين مقداره ما يقرب من ذراع معمارى.

(٢) كان عدد الحجارة خمسين حجراً.

(٣) كان هذا السلم حلزونياً ويتكون من اثنتى عشرة درجة. عجز النجارون عن إكماله ولكنهم استطاعوا أن يكملوه بعون مهندس مصرى يسمى عبد الرحمن.

الشريف أخرجت الكسوة الحمراء للمقام الشريف وفرشت في صحن مسجد قريب من باب أجياد وخيطة جيدا ثم أخرجت الستارة السوداء المحفوظة داخل المقام الشريف ووضعوها بجانب سبيل المؤيد. وعلقت الكسوة الحمراء في سقف كعبة الله وربطت في الحلقتان الجديدة وذلك في وقت العصر. وكانوا يربطون الستارة من قبل ذلك بمسامير يفرسونها داخل أبنية بيت الله.

رؤيا غريبة

قدم أحد الصالحين الكرام من بخارى لزيارة الحجره المعطرة النبوية في المدينة المنورة إلا أنه مرض في مكة المكرمة في أثناء تجديد الكعبة واضطر لأن يبقى هناك.

وقد رأى في منامه النبي - ﷺ - وقد لبس قميصا أبيض وقال له :

«طب نفسا... ولا تتألم ولا تحزن... إن زيارتك قد قبلت... نحن هنا منذ أن شرع في تجديد أبنية كعبة الله ولن نغادرها حتى يتم تجديد مباني كعبة الله».

حكاية أخرى

قد رأى أحد الصالحين في رؤياه كثيرا من جنود الجن فخطب واحدا منهم :
إنكم كتيبة من طائفة الجن ما سبب بقائكم في الحرم الشريف؟

فأجابه قائلا: نحن من طائفة الجن. وبما أننا مسلمون قد أمرنا بخدمة بيت الله، لأجل ذلك دخلنا الحرم الشريف لنقوم بالعمل! قائدنا في المدرسة الداودية. وكنا هنا منذ الشروع في بناء البيت ولن نترك هذا المكان حتى ينتهي العمل في أبنية بيت الله. انتهى.

وفي يوم الاثنين السادس والعشرين تمت خياطة بقية الستارة الداخلية وعلقت في مكانها. وقدم أمير يَنْبُغ سيد على ابن الدراج مع رسول والى مصر محمد على باشا حاملا الخلعة لأمر مكة المعظمة.

وكانت الأحزمة الحديدية، والميزاب الشريف الذي كان مطليا بالمينا البنفسجي

فوق الفضة والتي أرسلها السلطان أحمد سنة ألف وعشرين حفظت فى دار رضوان أغا فى أثناء تجديد المباني الكريمة، وفى يوم الأربعاء الثامن والعشرين أخرجوها حاملين إياها بالتسبيح والتهليل والتوقير والتعظيم، وركبوها فى مكانها فى البيت المعظم. وكان الأشراف والعظماء والأعيان والعلماء الكرام وأهل مكة فى أثناء ذلك قد اجتمعوا فى المقام الخفى حيث كانوا يشاهدون كيفية وضع الميزاب الشريف، ولما تمت العملية عادوا وهم يدعون لسلطان العصر.

وفى يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان نزعوا معظم الأساقيل وقد انتهوا من جميع الأعمال الخاصة بالطلاق والتبييض وحرص الحجارة والرخام، وفى الجمعة الثلاثين من شعبان هيثوا أحواض الكلس وخمروه. وفى غرة رمضان ومع طلوع الشمس نشروا ستارة كعبة الله السوداء أمام باب الصفا ونظفوها جيدا ثم رفعوها إلى سطح كعبة الله فى حضور أمير مكة والأشراف والأعيان والقضاة والعلماء والفقهاء وشيخ الحرم وقاضى مكة المكرمة وصعد رضوان أغا مع العمال فوق السطح الشريف وألبس الكعبة الشريفة الستارة وربطها من أطرافها الأربعة ربطاً جيدا، ثم أحضر ستارة باب المعلا للكعبة الشريفة من مقام إبراهيم وعلقها فوق الباب ذو الفيوضات الإلهية.

وبعد ذلك ترك خادمو البيت الستارة الشريفة من فوق السطح حتى وصلت إلى أرض المطاف. ثم أحضر عشر خلع بأمر رضوان أغا وألبس الشريف عبد الله اثنين منها كما ألبس منها الباشا الوالى وحامل مفاتيح الكعبة وناظر الأبنية السعيدة سيد محمد الأنقروى أفندى وأعطى خلعة للشخص الذى عينه ثم ألبس الباقي لرؤساء العمال من البنائين والنجارين.

وفى ليلة الأحد اليوم الثانى من رمضان أوقدت قناديل بيت الله وفى يوم الأحد فرشوا رخام السطح الشريف كما تم فى نفس اليوم جميع الأعمال الخاصة بالشادروان.

وفى يوم الاثنين الثالث من رمضان جاء من قبل والى مصر الوزير موسى

باشا، رسولاً يحمل خلعة سلطانية ورسالة إلى الشريف عبد الله وجمع الشريف عبد الله الأشراف والعلماء والفقهاء في ساحة الحطيم الكريم ليلبسه الخلعة السلطانية أمام الناس ثم قرأت الرسالة السلطانية وأمر بفتح بيت الله. ودخل الناس داخل كعبة الله حيث صلوا صلاة الشكر ودعوا للسلطان بطول العمر ثم تفرقوا.

وزار الرسول الذي حمل الخلعة من مصر، رئيس المعمارين يوسف أغا والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى والشريف عبد الله بناء على دعوته وكان معهم حامل مفاتيح بيت الله قارئ الأدعية أبو السرور ورئيس المؤذنين. وقد لبس كل واحد منهم خلعة من قبل الإمارة الجليلة.

وفى يوم الثلاثاء الرابع من رمضان صعد البناءون فوق سطح البيت وحلوا الأساقيل ووضعوا أنقاضها منها في مكان قريب من رباط الغورى كما انتهوا من ملء شقوق الحجارة وطلاء الجدران وشرعوا في تجديد محراب المقام الحنبلى. ثم أخذوا في فرش وتركيب قطع الرخام التى تتصل بأرض المطاف مبتدئين من الركن اليمانى ومتجهين نحو الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين العاشر من رمضان هدم المهندس المصرى عبد الرحمن أفندى جدار المقام الحنبلى وبناء من جديد.

وفى يوم السبت الخامس عشر من رمضان تفقد رئيس المهندسين آق شمس الدين أفندى والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى مع رضوان أغا دار السيدة خديجة - رضى الله عنها - لإصلاح ما يحتاج للترميم منها وهدموا المقام المالكى وجددوا بناءه بالحجر الشيبكى.

وفى يوم الأحد السادس عشر من رمضان رفعت الآلات والأدوات التى كانت فوق حجر إسماعيل وحفرت الأرض بدءاً من جهة مقام إبراهيم من الباب إلى الباب الآخر من الحطيم الكريم وذلك لتجديد وإصلاح جدران الحجر^(١) وفى أثناء

(١) فكلمة الحجر التى جاءت مضافة إلى إسماعيل تقرأ بكسر الحاء وسكون الجيم.

الحفر أخرجوا كثيرا من الحجارة. ويحتمل أن تكون هذه الحجارة من بقايا الجدران التي بناها عبد الله بن الزبير. وقد كتب الإمام الأزرقى فى تاريخه إن الحجاج الظالم قد دفن الحجارة المتبقية فى جوف الكعبة.

وبعد ما تم إصلاح وترميم حجر إسماعيل رفعت الأساقيل وجمع كل ما على الأرض من لوازم البناء وكومت تحت القباب التى فى باب إبراهيم ثم كنست الجهات الأربعة للبيت الحرام ومسحت بالماء. وقد هدمت جدران الحطيم وشرع فى بنائها فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان وانتهى البناءون من بنائها يوم الخميس العشرين من رمضان كما غطوا الجهة التى فى مقام إبراهيم بالرخام.

وقد كتبت على قطعة رخام منها أسماء الخلفاء العظام، والسلاطين الذين جددوا ورمموا الحطيم الكريم، وكان جدار الحطيم الذى تهدم بناء سلطان مصر الغورى فى القرن العاشر.

وفى يوم الأحد الثالث والعشرين غطى البناءون جدران الحطيم الداخلى المقابل للكعبة الشريفة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رمضان نقلت قطع الأخشاب التى بقيت أمام باب إبراهيم. إلى جهات باب الزيارة، وبعد ذلك رمم الرصيف الذى بين المطاف الشريف والحرم اللطيف.

وفى يومى الثلاثاء والأربعاء الرابع والعشرين والخامس والعشرين من رمضان ركبوا الباب الحديدى الذى يؤدى إلى سلالم سطح الكعبة الشريفة.

وفى يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أسدل المهندس محمود أفندى أمام الحجر الأسود ستارة وأخذ يملأ الشقوق التى حول الحجر الأسود ويثبتها وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان تمت الأعمال التى فى داخل الكعبة.

وقد تفقد سادة البلاد وموظفو الحكومة الأماكن التى بنيت والأشياء التى

صنعت وشاهدوا جمالها الظاهري ورصانة المبانى وقدروها حق قدرها. وسدوا الباب الغربى الذى ظل مفتوحا لذلك اليوم بالحجر الشيبكى وكتبوا محضرا يبينون فيه أن الأبنية السعيدة قد تم العمل فيها على أحسن وجه من الرصانة والجمال. وأبلغوا ذلك إلى والى مصر العام.

وخلع السلم الموقت الذى كان قد صنع لتزول النجارين والبنائين وصعودهم أثناء البناء. وأخذوا بعد ذلك يصيغون داخل القبة الكبير - هذا المكان الآن ساحة دار الكتب التى نقلت إلى داخل المدرسة السلیمانية - وانتهوا منه فى ذلك اليوم. ونزعوا العمود الذى يحمل قبة سقاية العباس - هذا المكان الآن ساحة الدار المؤقتة الذى أدخل ناحية باب السلام - وبما أن أسفل ذلك العمود كان قد بلى غيروه بالحديد وصنع البناءون القبة الشمالية من المسجد الحرام ثم غيروا كسوة الكعبة القديمة والستارة التى على الباب وألبسوها الستارة الجديدة كما علقوا الصفحة^(١) فوق باب الكعبة وقد تمت هذه العمليات إلى آخر رمضان الشريف. قد كتبت على الصفحة البنفسجية المذهبة المعلقة فوق باب كعبة الله الآية الآتية: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

كما كتب تحتها التاريخ الآتى:

تاريخ اللوح

اللوحة لما استرم مجددا

قد بدل السلطان أحمد عسجدا

قيدا له من حديد ذو جدا

الله أنعم بالمجدد أيدا

الهمت في تاريخه لما بدا
للولح ذا السلطان أحمد جددا

١٠٢٠

قد سطر هذا التاريخ فوق الأحزمة الحديدية التي أرسلها السلطان أحمد في
سنة ١٠٢٠ في ثلاثة أسطر.

بعد ما علقت الستارة المذكورة نزلت الكسوة القديمة وعلقت الستائر الجديدة
البديعة. وكان من عادة الملوك كلما بدلت ستائر الكعبة القديمة أن تقسم هذه
الستارة بين خادمي بيت الله كما فصل في الصورة الخاصة بهذا الموضوع.

مكافأة رضوان أغا على جهده وإخلاقه

قد قدر ما بذله رضوان أغا من جهد جهيد وسعى عظيم وما أظهره من
إخلاص وحرص شديد في أثناء بناء الكعبة وقبول بإعجاب شديد؛ لذا قرر
الشريف عبد الله حامل مفاتيح الكعبة والآخرين ممن يقومون بخدمة البيت
الحرام أن يتنازلوا عن حصصهم في الكسوة القديمة وأن يجعلوها هدية وهبة
التقدير والتهنئة لرضوان أغا وعرضوا الموضوع عليه قائلين: إن ما بذلتم من
الجهود وما أظهرتم من همة وما قدمتم من سعي لمُقدَّر عند الله - سبحانه وتعالى
- ولا شك أنكم ستنالون ثوابه، إلا أننا نتمنى أن ينال رجاؤنا هذا القبول عندك.

قد قبل رضوان أغا ما عرضوه عليه ولكنه قال: وليس من المعقول أن
أحرمكم من فوائد هذه العادة الطيبة، قد تلقيت هديتكم بحسن قبول، وإذا ما
تفضلتم بقبول هديتي هذه مقابل هديتكم على أن توزع بين خدام بيت الله
لزدقوني فرحا وسرورا ثم أعطى أربعين ألف قطعة ذهب هدية لخدام البيت.

وقد فتح باب البيت الشريف في يوم الخميس الخامس من شوال ودخله
الرجال والنساء وتضرعوا إلى الله منتحيين باكين ودعوا للسلطان بدوام دولته
وشوخته.

وفى يوم السبت السابع من شوال غيروا قطع الرخام التى تكسرت ثم حفروا حفرة بين المدرسة السليمانية وبين دار ميرزا وملئوها بالأدوات والآلات الخاصة بأبنية كعبة الله وهالوا عليها التراب وغطوها بالحصى .

ثم رفعوا مخلفات الهدم المتراكمة بين باب الزيارة وبين المدرسة السليمانية وغيروا الدعائم الخشبية البالية لمقام إبراهيم .

وفى يوم الأحد الثامن من شوال قلعوا باب مقام إبراهيم ووضعوا مكانه ستارة ودهنوا الباب فى داخل هذه الستارة وطلوه وزينوه بالذهب وأصلحوا الطرق التى بين صفة المطاف وباب السلام وباب الزيارة وباب العمرة وباب الحزورة وباب الصفا وسووها وغيروا حجارتها .

وفى يوم الاثنين التاسع من شوال جددوا الأحزمة الحديدية التى حول الدعائم التى تحمل القبة ورموا قبة سقاية العباس بعد أن نصبوا الإسقالة وجددوا الأماكن التى كان قد رمها شيخ الحرم حسن باشا .

وفى سنة ١٠٢٠ وفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال دهنوا الشباك الذى بين شبايك مقام إبراهيم بالدهان الأخضر ثم زينوها بنقوش ذهبية وكتبوا اسم السلطان مراد خان الرابع فى جهة من جهاته .

وفى يوم الأحد الخامس عشر من شوال طهروا مجرى باب إبراهيم بعدما سحبوا المياه التى كانت قد تراكت تحت أحجار كعبة الله .

وبعد يوم فى السادس عشر من شوال طهروا باب الزيارة وباب السلام وأرض المسجد ونقوا البئر التى فى ساحة باب الندوة وكان ماء هذه البئر مشابها لماء زمزم، وكان حسن باشا قد نقى هذه البئر من قبل إلا أنه كان قد سدها مؤخرا وأما فى هذه المرة فقد طهرت ثم غطوها .

وفى يوم الثلاثاء السابع عشر من شوال غسلوا الرمل المفروش فى الحرم الشريف ثم فرشوه مرة أخرى وأصلحوا سلم السطح الشريف .

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شوال صبغوا مئذنة باب العمرة .

وفى يوم الخميس التاسع عشر من شوال حفروا حفرة عميقة وبنوا سدا متينا ليمنعوا دخول السيول التى قد تأتى من ناحية جبال أجياد .

وفى يوم الجمعة العشرين من شوال جلوا رخام كعبة الله الذى فى جدرانها الداخلية، ووضعوا الكرسي الخاص لجلوس حامل مفتاح الكعبة فى مكانه بعدما زينوه، وكان هذا الكرسي مرصعا مزينا وقد أهدى فى عصر سلطان مصر الغورى وقد صنع بمصر .

وقد طلى كمر باب بيت الله فى ذلك اليوم وكتبت فوقه الآية المنيفة: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل : ٣٠) كما كتب آية واحدة من أول سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ وكتب تحت هذه الآية المنيفة اسم السلطان مراد الرابع وتاريخ الأبنية المقدسة - الذى سيحرر فيما بعد - بحكمة على أرضية لازوردية وطلبت الكتابة بالذهب .
